

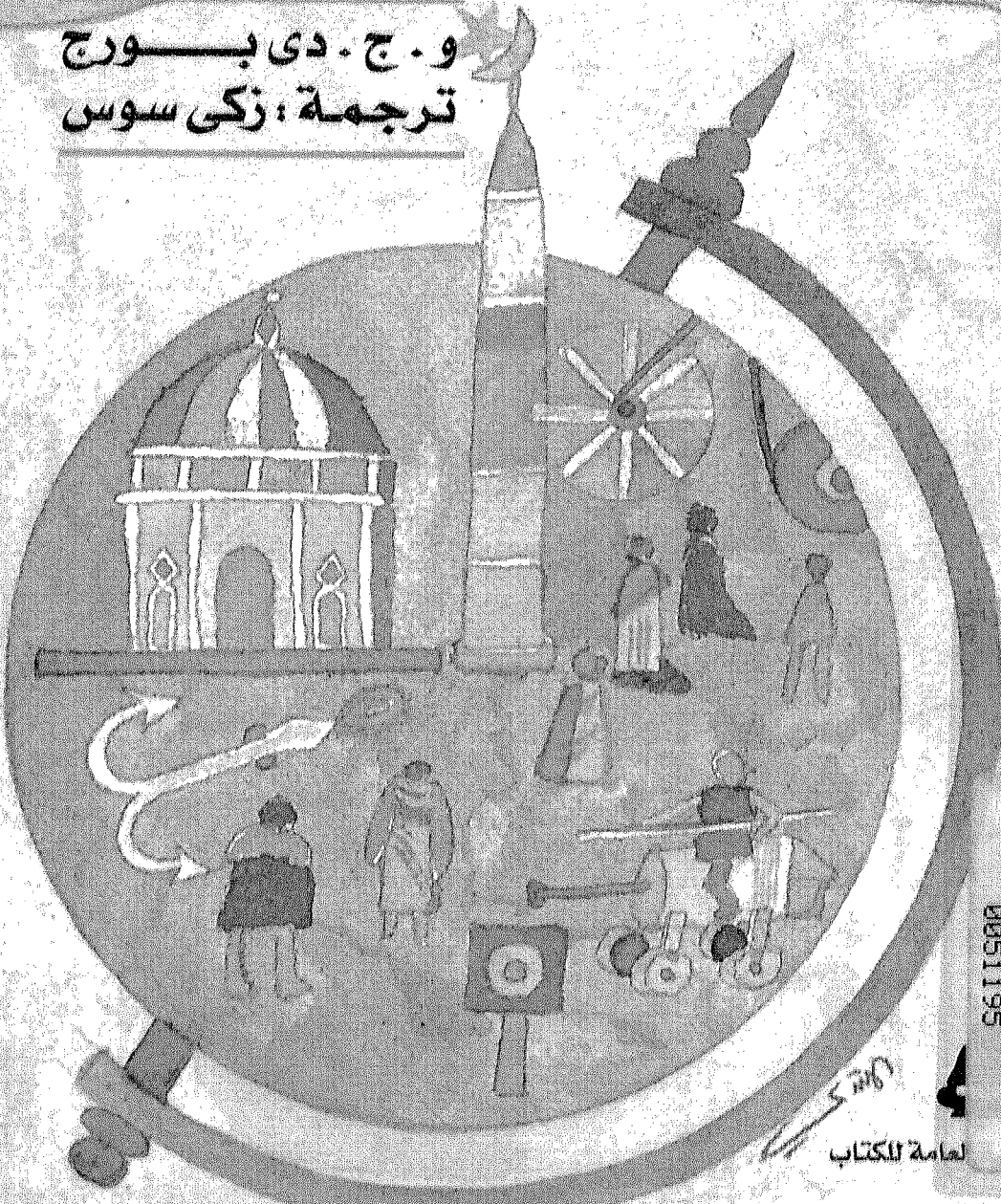
مهرجان القراءة للجميع

العمل الفكرية

مكتبة
الاسكندرية
1999

تراث العالم القديم

و.ج. دي بروج
ترجمة: زكي سوس



لوحدة المكتبة: 0000



Bibliotheca Alexandrina



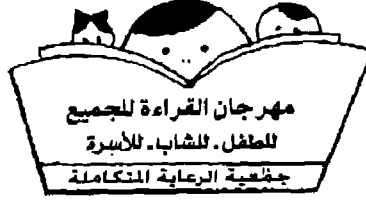
0951 195

لغاية الكتاب

تراث العالم القديم

تراث العالم القديم

تأليف: و. ج. دي بورج
ترجمة: زكى سوس



مهرجان القراءة للجميع ٩٩'

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الفكرية)

تراث العالم القديم

تأليف: و. ج. دي بورج

ترجمة: زكى سوس

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان: محمود الهندى

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هي تصدر لعامها السادس على التوالي برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلونها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

هذه ترجمة الجزء الأول من كتاب :

THE LEGACY OF THE ANCIENT WORLD

تأليف

W. G. DE BURGH

مقدمة

ان الغرض من هذا الكتاب هو أن يكون نهيدا لدراسة المدينة القديمة لأولئك الذين لا يلمون بتاريخها . وتوجد نم رغبة متزايدة بين الرجال والنساء من جميع الطبقات والوظائف ، في الحياة - ممن لا يعرفون الا القليل عن العبريين واليونان وروما - في أن يحيطوا بشئ من جلائل أعمالهم ، ولا يمكن نلية هذا الطلب بكتيبات أولية . وأولئك الذين لهم عقول ويريدون استخدامها ، ليسوا في حاجة الى مجرد موجز عن الوقائع ، ولكن الى مرشد لأحسن أفكار الأزمنة الغابرة عن الانسان والأسباب التي تربطه بالعالم وبالله . ومن الخط الظن أن الجمهور لا يأبه أو لا يقدر على فهم مشاكل الدين والفلسفة . فثمة كثيرون ، لا في الجامعات والمدارس فحسب ، ولكن في العالم الفسيح في الحارج وخاصة بين العمال في المدن الصناعية ، يميلون الى اجتلاء هذه المعارف ويتوقون برغبة أكيدة الى الاحاطة بها وتقصى أخبارها . انهم يتحولون صوب تراث الماضي اعتقادا منهم بأنهم سيفيدون منه ضياء في حل صعابهم الخاصة . انه لمثل هؤلاء - في الاعتبار الأول - وضع هذا الكتاب .

والى جوار هؤلاء كثيرون ، أصابوا تعليما كلاسيكيا الا أنهم لم يكونوا رأيا متماسكا عن المدينة القديمة ككل . لقد درسوا أجزاء من العهد القديم وكتبا مختارة لطائفة من المؤلفين الاغريق واللاتين ومجلا من التاريخ اليوناني حتى الاسكندر ، والتاريخ الروماني حتى أوغسطس . ولكنهم مع ماتعلموه لا يحيطون الا بأفكار غامضة عن الروابط والعلاقات التي تكون منها بناء حياة الأزمنة العتيقة أو عن الطريقة التي تألفت بها مدنياتها العديدة لتؤثر في عالم العصور الوسطى والحديثة . يا لهم من قلة أولئك ، حتى بين من تخرجوا في الآداب في جامعاتنا ، الذين يمكنهم أن يذكروا ، في حدود قرن ، تواريخ قسطنطين وأوغسطين وجوستنيان . ومحمد(صلى الله عليه وسلم) وشارل الأعظم ، أو يدلوا ببيان فطن عن أهميتهم التاريخية! ويا لهم من قلة أولئك الذين لديهم حتى مجرد فكرة مبهمّة عن أثر امبراطورية الاسكندر في حياة المسيحية الباكرة أو عن مكانة القسطنطينية في تاريخ العالم ! ومرة أخرى يا لهم من قلة أولئك الذين واتاهم العلم بأن عاموس وهو شع قاما بدور ، خالد في الأذهان ، في تقدم البشرية الديني كالدور الذي قام به كبرنيكس (Copernicus) وجليليو (Galilio) في حياة العلم الحديث ! ان دراسة الأزمنة القديمة لانزال محدودة لدرجة كبيرة ، في غرف محكمة الغلق .

ان دراسات فى التاريخ العام يجب ، بكل تأكيد ، أن تكون جزءا من المنهج العادى فى كلياتنا ومدارسنا (١) .

وما هو حقيقة واقعة من أن العصر الحاضر هو عصر تخصص تاريخى ، هو سبب آخر فى أن كتابا من هذا النوع يجب أن يؤدى خدمة . ان تقدم المعرفة التاريخية يجب ، فى الاصل ، بالعمل فى اتجاهين : عن طريق البحوث الدقيقة فى مناطق التخصص العالى ، التى تشتمل عليها المجلات الدورية التى يكتبها العلماء ، والمطبوعات التى تعتمد اعتمادا مباشرا على هذه البحوث والتى يكون لها مجال أوسع وتعالج حقا عديدة من التاريخ ومظاهره . وتقع هذه المهام على عواتق المهرة المتمرنين الذين تكون كتاباتهم موجهة الى الباحثين المعترف بهم وليس للقارئ العام . ولكن يوجد خطر حقيقى فى الوقت الحاضر ، ليس فى التاريخ وحسب ولكن فى جميع فروع المعرفة ، فى الانفصال بين علم الاخصائى وعقل الجمهور الذى لا يسير على النهج العلمى . والتاريخ نفسه يستطيع أن يعلمنا أنه اذا بقى هذا الانفصام دون الثمام ، فان النتيجة ستكون وخيمة . وكان الأمر كذلك - على سبيل المثال - فيما نجم عن احتكار رجال الدين للعلوم اللاهوتية فى العصر الذى سبق عصر الاصلاح . وفى هذه البلاد ، على أية حال ، جهد التفكير العلمى والفلسفى على الدوام فى أن يكون على اتصال بتفكير العالم الأوسع . وكلما سارت المعرفة الى تخصص أعظم والجمهور القارئ الى ديموقراطية أعظم ، يجب ألا يسمح لهذا التقليد الكريم بالتوقف .

وقد حاولت ، وهذه المطالب لا تغيب عن بالى ، بأن أورد الى الألفهام التواصل الحى للتاريخ القديم . وأحسست أنه يكون من المجدى عرض سلسلة التقدم بأجمعها ، مع قصور هذا عن الكمال ، فى نظرة واحدة . ان تاريخ الأزمنة القديمة ليس مجرد حاصل مجموع حقب وشعوب ولكنه كل يشتمل على أجزاء توثقت عراها فى تلاحم داخلى ، وعندما تدرس الأجزاء منعزلة ، يكون من شأن الوحدة أن تتوارى عن الادراك .

Dann hat er die Teil in seiner hans.

Fehlt leider nur das geistige Band.

عندما يكون الجزء فى يده

ينقص السفر الروحى وحسب

ولقد اعتبرت لفظة (تاريخ) فى شىء من معناه الواسع الذى كان يحمله

(١) ستأتى مثل هذه الدراسات بأعظم نفع على طلاب الجامعات فى العلوم وعلى الكليات بخلاف كلية الآداب .

لأول واضعيه ، الاغريق ، أى كامل سجل حياة الانسان بالنسبة الى العالم الذى يحيط به وأنه يشمل التفسير وكذلك الوصف القصصى (١) واستندعت محاولة الامام بمثل هذا النطاق الواسع التكثيف والاستبعاد جميعا ، ويغلب أن تذكر الآراء العامة دون الدلائل التى تدعمها . اذ أن وفرة التفاصيل يكون من شأنها أن تربك عقل القارىء . واذا كانت الأمثلة قد استمدت من قادة الشخصيات وليس من مستويات الأعمال الوسيطة فان الهدف لم يكن وضع مجمل حياة الشعوب القديمة فى مدارها كله ولكن لتبيان تراثهم للعالم الحديث . ولا يوجد فى أى جزء من الكتاب معرفة سابقة بالوقائع ، سبق افتراضها . لقد وضع بحيث يترك القارىء غير راض وبحيث يوحى اليه بالرغبة فى دراسة مدنيتا العبريين واليونان وروما ، دراسة أكثر استيفاء بمعاونة المصادر الاصلية .

أمران أهملتا يحتاجان لشرح موجز :

١ - فى معالجة التراث الهليني ، لم أشر الى الفن والفخار الامما ولو أنهما مظهرتا الهلينية اللذان لهما أحسن وقع مباشر لدى جمهور القراء ، ولكنى أشرت بعدم ثقة عميقة فى حديث عن الفن والفخار يوجه الى أولئك الذين ليس لهم علم بأصولهما . ان نماذج الأدب الاغريقى العليا ، فى متناول الجميع ، فى الترجمات الانجليزية . فليبدأ القارىء بها . أما فيما يتعلق بالفن الاغريقى فعليه أن يزور غرفة الجن (Elgin) وأبهاء العرض فى متحفنا القومى . وعلى هذا ، فقد اقتصر على تقديم الكثير من الشرح التمهيدى الذى يمكن أن يبين الأوضاع التاريخية والعقلية التى أنتج الشعراء والفنانون الاغريق فى عمرتها ، عملهم .

٢ - فى الفصل التاسع ، عن المسيحية ، قد يظهر أن تركيزا فى غير موضعه ، أضيف الى تاريخ الكنيسة التأسيسى والى تطور العقيدة اللاهوتية . ولقد ذكرت فى صراحة أن هذين الأمرين لم يكونا الا المظاهر الخارجية للحياة الروحية الداخلية ، وهما اللذان أوحيا بالمجتمع المسيحى . ولكنى لم أقل الا القليل أو لم أقل شيئا عن طبيعة ذلك المبدأ الداخلى أو مصدره فى شخصية وتعليم يسوع الناصرى . ان المهمة تتطلب مؤهلات ، ليس فقط فى سعة التفقه ولكن فى البصر الدينى ، ولست أستطيع أن ادعى أنى أملكها . وبينما أؤكد اعتقادى بأن تاريخ المسيحية يمكن فقط الرجوع بسببه الى

(١) راجع قول يوربيدس الرائع (fr 902, Dindorf) « سعيد ذاك الذى تمكن من تعليم التاريخ (historia) . . . ساعيا الى مشاهدة النظام الذى لا عمر له (Kosmos) والطبيعة التى لا تموت (physis) وطريقة تكوينها ومن أى مكان نشأت وكيف نهضت » . عن معنى (physis) للاغريق ، راجع ما سيجىء فى الفصل الرابع القسم الخامس .

شخصية مؤسسها الفريدة فقد حصرت الانتباه في أصولها في اليهودية
واتصالاتها بروما والهلينية .

ان الغرض من التذكرات يعود بعضه الى الرغبة في ذكر المراجع لمثل هذه
المصادر التي توجد في يسر في الترجمات ، ومثال ذلك ، العهدان القديم
والجديد ، وأشهر ما عرف لدينا من المؤلفين الاغريق واللاتين ، وبعضها
لتحديد العبارات التي تتطلب الحال استيعابها في تحفظ والبعض لاقتراح
نظائر ، أقرب الى الاستدلال ، للتطورات والمشاكل الحديثة . وليست قائمة
الكتب الملحقه شاملة ، انها مجرد مختارات ، لهذه المناسبة ، لتوليف
انجليزية جيدة للهداية الى مزيد من الدراسة .

وانى أرغب في التعبير عن شكرى لجميع من عاونونى في اعداد هذا
الكتاب . وانى مدين بصفة خاصة الى زميلى الاستاذ ف.ن. يور (P.N. Ure)
الذى قرأ وعلق على مسودة الكتاب، والسيد فرنون رندال (Vernon Rendall)
الذى لم يقدم الى فقط خدمة مشابهة ولكن وضع في سخاء ، تحت تصرفى
علمه الواسع بالاديين الكلاسيكى والحديث ، والى زوجتى التى كان فى
مساعدها ونقدها من البداية الى النهاية أعظم تشجيع لى .

اشمور ، أغسطس ، ١٩٢٣

و ج . دى ب .

تذكرة

لقد أكمل زوجى اعداد هذه الطبعة الجديدة من (تراث العالم القديم) قبل وفاته فى أغسطس عام ١٩٤٣ ، بزمن وجيز . وقد سجل أنه يرغب تقديم الشكر الى محرر (أعمال الجمعية الارستطالية) (Aristotelian Society's Proceedings) ومحرر صحيفة هبرت (Hibbert Journal) للاذن بطبع مواد ظهرت فى مطبوعاتهما . وكذلك كان يريد أن يقول انه عند مراجعة الفصول الأولى ، تلقى مساعدة عظيمة من سر جون ميرز (Sir John Myres) وفى الفصل الثالث لقى عوناً من دكتور هويلر روبنسن (Dr. Wheeler Robinson) . وبينما هو المسئول دون سواء عما طبع ، فانه كان يشعر أنه مدين دينا عظيما جدا لاهتمامهما الرفيق ومعاونتهما . وكان أيضا يرغب فى الاعتراف بتقدير اقتراحات سر ريتشارد لفنجستون (Sir Richard Livingstone) ، رئيس المجموعة ، والاستاذ فوردايس (Prof. Fordyce) من جلاسجو والاستاذ نوكس (prof. Knox) من سانت اندروز ، وأن يعبر عن دينه الى مراجعى الطبعة الأولى والى مراسليه عنها وعلى الأخص المغفور لهما الاستاذ اى . تيلور (A.E. Taylor) والراعى ف . هـ . وكستيد (Rev. P.H. Wicksted) . وقد شعر بالتشجيع عند القيام باعداد اعادة طبع هذا الكتاب لعلمه أنه لقى تقديرا وتقريظا من رجال لا يمكن انكار ما لحكمهم من شأن وخاصة جون بورنت (John Burnct) وصموئيل الكسندر (Samuel Alexander) والاستاذ تيلور (Prof. Taylor)

ويلاحظ أنه علاوة على تغييرات صغيرة متنوعة فى النص وادخال مواد جديدة فى شتى المواضع ، فانه يوجد ثلاثة ملاحق فى خاتمة هذه الطعة الجديدة الغرض منها تعزيز أدلة ونتائج الكتاب .

ريدينج ، يناير ، ١٩٤٧

ى . دى ب .

تراث العالم القديم

الفصل الأول

مقدمة :

١ - بين شعوب العالم القديم ، ثلاثة خلفوا تراثا هو قوة حية فى الزمن الحاضر . أولئك هم العبرانيون والاغريق والرومان ومبتكرات عبقريتهم : نبوة العبريين ، وفلسفة اليونان وشعرهم ونحتهم ، والقانون والتنظيم السياسى لروما ، وكلها تكون تراثا فيه وحى دائم للانسانية . ولقد اضطلعوا بسهم لا يعزب عن البال فى تكييف مدينة ما ترادف من زمن . ولفظ « مدينة » كألفاظ كثيرة تدور على الألسن من العسير تحديده ، ويوحى آنا بمعنى أوسع وآنا آخر بمعنى أكثر حصرا . وتعريف رسمى كالذى يتلاءم فى مستهل عجلة حسابية علمية ، اذا كان ليؤدى خدمة فى كتاب كهذا ، يجب ألا يعجز فى البداية ولكن فى الحتام ، عندما يكون القارى قد ألم بمختلف أنواع المدينة فى مدارجها المتباينة ، فى النمو والازدهار والنضوج والانحلال ويكون قد عرفه أن عملا ثقافيا جليلا لن يفنى أبدا ، ولكنه يحمل ، حتى فى تفككه الظاهرى ، ما يكون فى الغالب أطيّب ثماره فى بعث الحياة فيما يعقبه « ان ما تبذره لا ينشط الا اذا مات » ، وهذه الكلمات تصدق على الشعوب وعصور الثقافة كما تصدق على الأفراد ، وهكذا انحطت الامبراطورية الرومانية ولكن لم تسقط كما سقطت الهلينية ومسيحية القرون الوسطى ، وانها لباقية فى حيوية تتجدد أبدا فى مدينة العالم الحديث .

وفى هذه الصفحات نعى بلفظ مدينة نوع الحياة الذى أبرزته السلالات العليا فى مختلف حقب تاريخها . انها تحيط بعالم من المثل العليا وعالم من الحقائق المنجزة . انها تشمل مجموعة باتمها من العادات الاجتماعية والقانون الموضوع والنظم الدينية والخلقية والسياسية ، والصناعة والتجارة والفنون والعلوم والآداب والفلسفة التى تمثل ما تجمع من جهود شعب . ولكنها تشمل على أكثر من هذا . ان الانسان حيوان يصور المثل العليا ويحفره فى كل مرحلة من مراحل تدرجه نحو الرقى مطامح تسمو على المستوى الذى وصل اليه فعلا . ومدنية فى أية حقة بعينها تشمل أيضا عالم قيمه الدينية والخلقية والاقتصادية ونظرته العقلية للحياة ومعتقداته الشخصية فيما يتعلق بوظيفته ومصيره ومعايره فى الصلاح الخلقى وفى خير المجتمع .

واننا في ضوء مثل هذه المثل العليا التي تجدد تصورنا للتقدم الانساني . نفرق بين المدنية والهمجية (١) . واذا طبقنا هذا التفريق على تاريخ الأزمنة القديمة ، نجد أنه قبل أن ينهض أسلافنا الكلتيون والالمانيون والاسكندناويون من غمرات الهمجية بأمد طويل ، كانت هذه السلالات الثلاث التي سلف ذكرها قد ظفرت بمستوى رفيع من المدنية . ولقد تاح لها ، عندما حانت ساعة الاتصال ، ان تؤثر تأثيرا عميقا في الشعوب الاقل ثقافة التي أصبحت في مكان القيادة من أمم عصرنا الحاضر . وعلى سبيل المثال ، عندما قبل أجلاف الهمج ، المسيحية ، فانهم تقبلوا أيضا معها تراث تقاليد العبريين الدينية والحلقية والفلسفة الاغريقية والمذهب الروماني التشريعي والسياسي . وهدف هذا الكتاب هو تتبع قصة هذا الارث ، وسنبدأ بإشارة موجزة الى الخدمة الخاصة التي قدمها كل من هؤلاء الشعوب الثلاثة لمدنية العالم الحديث .

٢ - العبرانيون : ان الدين الذي تحمله مدينتنا الحديثة للعبرانيين يقع بكليته تقريبا في مجال الدين . وشعرهم ، وهو أصدق مرشد الى أفكار ومشاعر شعب ، هو في جوهره شعر ديني . وقيمته ليست في أسلوبه الأدبي او البرهان النظري أكثر منها في البصر الروحي العميق الذي يعبر عنه . ولم يكن للسلالة العبرية الا شأن يسير في الحرب أو السياسة فيما عدا فترة قصيرة وجيزة في عهد الملك داود وعلى هذا فان ما حققته من عمل دنيوي جليل يمكن أن يمر دون أن يسترعى النظر تقريبا ، في تاريخ العالم . انها العبرية الروحية لانبيا مثل عاموس وهوشع في اسرائيل واشعيا في يهوذا في القرن الثامن قبل الميلاد ، هي التي كانت أول ما أحال عقيدة قبلية مقصورة الى دين ذي معنى عام للعالم . ولم يعد يظهر يهوه بعد كاله نبي غيور يقود شعبه الى النصر على آلهة أعدائهم القبليين الذين يقفون معه على قدم المساواة ولكن كحاكم الهى للكون يوقع القصاص على العبريين عن طريق أعدائهم لما يقترفون من خطيئة ، والذي كان يريد رحمة لا ذبيحة ويدعو لعبادته ليس بالهبة الشخصية ، ولكن بالمعاملة البارة بين الانسان والانسان . وهذا التحول في الدين العبرى ، عاون في الحق ، على حطم وحدة الدولة العبرية السياسية . ولكن البذرة التي بذرها الانبياء الأوائل نضجت خلال التجربة المريه من المذلة القومية والاسر ، الى دين خالص النقاوة . وهو الذي ، في الحين المناسب ، أنجب العقيدة التي غزت العالم المتمدين ، وكان العبرانيون أول شعب من الشعوب التي عرفها التاريخ ، وصل الى الاعتقاد بآله واحد خالق وحاكم الكون وأبى البشر أجمعين .

والمسيح الذي ولد من أم عبرية ، وكانت تنشئته على المحافظة الدقيقة للناموس العبرى أتى لا لينقض ذلك الناموس بل ليكمله . وأثر اليونان

(١) انظر السفر الثاني ملحق ١ .

وروما على نمو المسيحية - الذى سنتحدث عنه فيما بعد فى هذا الكتاب - حجب ، ولكن لم يمح أبدا طابع أصله العبرى . وحسبنا أن نذكر الطهرين (Puritans) فى القرن السابع عشر لنذكر العمق الذى استغرقت فيه الروح العبرية المسيحية الحديثة .

٣ - الاغريق : انه أكثر عسرا أن نعبر فى كلمات قليلة عن عمل الاغريق أو الهلينيين كما نعتوا أنفسهم فى التاريخ . لقد أثروا فى الديانة الحديثة عن طريق فلسفتهم أكثر مما أثروا فيها عن طريق دينهم . ولقد صورت آلهة الاولمب (Olympian) فى شبه الناس ولهم عواطف البشر ودصالحهم ، ولو أنهم أعظم صولة وأوفر جمالا وأكثر غيرة وأشد تدلها فى الحب ، ولو أنهم كانوا خالدين ويستمتعون بحياة أكثر خصبا من حياة الآدميين ، فانه فى جميع الامور الجوهرية كانوا يشعرون ويفعلون كما كان يشعر ويفعل الرجال والنساء من الاغريق . وسنرى كيف جهد الفلاسفة فى أن يجعلوا من العقائد النسبية عقائد روحية ، وكيف أنه نتج عن هذا الجهد انقسام بين النتائج العقلية التى وصلت اليها القلة وبين معتقدات الكثرة الدينية .

ولقد أوجد دين الاغريق فى جميع الأزمنة حقلا يانعا للفن والشعر مما لا تزال فصصه بهجة للخيال . ولكن لم يكن ليستطيع أن يرضى المطامح العقلية أو الخلقية التى تجيش فى جيل أكثر امعانا فى التفكير . هذا الى أن ما ندين به للاغريق يشمل نطاق الثقافة الدنيوية بأجمعه .

ففى الفلسفة والعلم وفى الفن والأدب حققت العبقريّة الاغريقية نتائج هى فى مداها وقدرها منقطعة النظير فى تاريخ البشر .

« ان الفترة التى وقعت بين ميلاد بركليس (Pericles) وموت أرسطو ، أى القرنين الخامس والرابع ق . م . فى تاريخ الاغريق هى دون ريب ، اذا اعتبرت لذاتها أو بالاشارة الى ما كان لها من نتائج على أقدار الانسان المتمسدين اللاحقة ، أكثر الفترات رسوخا فى الأذهان ، فى تاريخ العالم » . هكذا كتب شلى ، والمفكرون والشعراء قاطبة ، شهود على صدق قوله . والحرية والفردية موجودتان فى كل مكان فى حياة قدامى الاغريق ، وأعظم ما يؤثر فى روعنا هو نشاطهم العجيب . وتاريخهم بأجمعه سجل للتجربة الجريئة فى الفكر والمراس ، ولقد كان يحدوهم الشوق والشجاعة جميعا فى البحث العقلى وتغمرهم البهجة بالحياة والعمل . وعبقريتهم العقلية كانت أصل نبع الفلسفة والعلم ، وعبقريتهم العملية ، وجدت مخلصا لها فى النشاط السياسى وفى الحرب والتجارة ، وفيما ابتكروا من أدب وفن . وكل أنواع الشعر والتفكير تقريبا ترجع فى نشأتها الى الاغريق وقد ساروا بها فى طريق الكمال . ومثلهم الأعلى كان شخصية موهوبة منسجمة يسيطر عليها مبدأ داخلى وعقل ، ونشاط ليس جامعا ولا ضابط له ولكن تتحكم فيه المعرفة بالذات تراث العالم القديم

والحكم الجلي . ولا توجد سلالة تعدلها في التحرر من النزوع الى عالم أفضل أو جهدت في ادماج أهداف وقيم يمثل هذا الشمول في أحوال الاختبار الانساني ، الراهنة . وبمقاومة كل نزوع الى المستحيل ووطنوا أنفسهم في عزيمة ، على فهم طبيعة الانسان والعالم الذي يعيش فيه ، وبفهم واضح لحقائق الأشياء ، على استخدام العالم كحقل لتحقيق مثلهم العليا في الحياة .

وهو اهب السلالة التي اختصت بهم حملت معها لعنتها ، ان الفردية والحربة اللتين جعلتا للاغريق المكانة العليا في الفن والعلم نجم عنهما دماز استقلالهم السياسي . انه حق كما سنرى فيما بعد ، أن الثقافة الاغريقية وجدت دافعها ومجالها في جو النقاش المتحرر الذي كان سائدا في دولة - المدينة وأن العبقرية الاغريقية تجلت في نظريتهم السياسية وفي مراسيم السياسي على السواء . ولكن يوجد جانب آخر للصورة . ان الحياة السياسية في مدن الاغريق تعرض مشهدا مظلما للمطمح القلق والتحاسد الشخصي والتشيع الحزبي والعزوف عن توثيق العرى الاتحادي ، والثورة المستمرة والتشاحن المدني . ولقد كان انعدام الوحدة القومية ذاك ، هو الذي ترك اليونان فريسة سهلة لأعدائها ، أولا للملوك المقدونيين وبعد ذلك للجمهورية الرومانية .

ولكن الروح الاغريقية استوفت جزاءها ، وكما في عهد الاسكندر أثرت في ثقافة الشرق فان الغزاة الرومان ، بعد ذلك تشبعوا بها وعن طريق روما صاغت فكر العالم الحديث وثقافته .

٤ - الرومان : كانت روما حكومة الازمنة القديمة ، القيصرية ، وكان الرومان بناء الامبراطورية العظام ، في تاريخ العالم . وكان دينهم خاضعا خضوعا تاما للسلطة السياسية . ونورد مثلا يساعد على تفهم هذا .

لقد جازف قيصر - وهو المتشكك، الصريح ، ولم تكن حياته الخاصة على اليقين ، فوق مستوى الشبهة ، جازف قيصر بكل شيء ، في ظرف حاسم - بحياته العملية عند انتخابه كاهنا أعلى ، انها كانت مجرد خطوة في سلم المطمح السياسي .

ان تأثير روما على المسيحية يتجلى في أعظم وضوح في مجال التنظيم الكهنوتي . والروماني بطبعه كان لديه اليسير من التقدير للفن أو العلم ، وفي الزمان الأول كان يعتبر الشاعر متشردا والفلسفة خطرا على الاخلاق . وعلى النقيض من هذا كثيرا كانت حال الاغريق في شعر هومر (Homer) وعندهم كان الآلهة هم الذين حرّموا الشاعر الضرير من البصر ولكن بدبلا عنه منحوه القدرة على الصدح بالاعنتبة الربانية . ولقد أتى الواعز للشعر والفن الى روما من الاغريق ، ولو أنه بمجرد أن تلقن الرومان درسهم عبروا عن روحهم القومية ، دون محاكاة وضيعة ، في شعر لا يأتي عليه الفناء .

ولقد علم شعراؤهم المواطن الذي تسنقر فيه عبقرية سلالتهم الحقة وتعرفوه .
« قد يشكل غيرنا في خطوط أكثر رقة البرنز الذي يزفر بالنفس - نعم ،
ويعملون على ابراز القسامات الحية ، من الرخام وقد يكونون أكثر اجادة في
الجدل دفاعا عن قضاياهم القانونية ويتتبعون حركات السموات ومطلع
النجوم - ليكن قصارك يا ابن روما أن تحكم الامم : ستكون هذه فنونك أن
تفرض عادة السلم وأن تعفو عن المهزوم وتحطم المتعالي بالسيف » (١) ،
وكجميع بناء الامبراطورية الذين قاوم عملهم ضغط الزمن لم يكن عند
الرومان تعطش جامع للغزو . لم يكونوا سلالة محاربين أكثر مما كانوا
شارعين واداريين . ولقد كانت رسالتهم الخاصة وضع قانون السلم ، سلم
روما (Pax Romana) وكبح الفوضى وعدم النظام ، حول أملاكهم التي
تنطرد رقعتها في الازدياد . ولما كانوا بجانب الاغريق أطفالا في الثقافة
وفيهم نزعة ظاهرة من التجرد عن الانسانية وغلظة في طبيعتهم فان الرومان
كانوا أقوىاء حيث كان الاغريق ضعافا في توثيق عرى السلالة والاتحاد
السياسي وفي اخضاع الفردية لخدمة الدولة . وكانت الفضيلة التي يتجمل
بها المواطن الروماني هي أن يفعل في روما ، كما تفعل روما . ان تاريخ
الاغريق تاريخ مدن وأفراد ، وتاريخ روما هو تاريخ شعب . ولما لم تكن تتحكم
في الرومان سياسة مدبرة للغزو وانما كان الحكم لمنطق الواقع الصارم فان
أقدار الشعب الروماني أدت بهم الى أن يضموا في نطاق امبراطوريتهم العالم
المتمددين بأجمعه كما كان في زمن ميلاد المسيح .

ان جمع الرومان شعوب ومدنيات الأزمنة القليلة في منظمة واسعة موحدة،
والقيام بحراسة البحر المتوسط وفرض السلام على عالم يسوده عدم النظام
وتسليم برابرة شمال وغرب أوروبا ثقافة الماضي ، وقد هذبته عبقرتهم
الخاصة في القانون والحكومة ، ان كل أولئك كانت مهام روما ومصيرها .
وبها سار المثل « كل الطرق تؤدي الى روما » وكما كانت الطرق العسكرية
العظيمة التي أنشأها الرومان تتشعب من روما وتجتاح الامبراطورية فان
تيارات التاريخ القديم والحديث على السواء تجد نقطة تجمعها في روما وتدين
أهم العالم الحديث بجانب عظيم من شرائعها ولغاتها ونظمها الى عبقرية روما
القيصرية .

٥ - ان هذه الشعوب الثلاثة بأجمعها كان موطنها شواطئ البحر
المتوسط . ولقد كان البحر المتوسط وأراضيه الساحلية عالمهم . ولما كنا قد
تدربنا منذ الطفولة على أن يتجه تفكيرنا الى نصفى الكرة الأرضية بما فيها
من قارات ومحيطات فمن العمير أن نقدر زمنا كان يعنى فيه العالم مجرد

حلقة ضيقة من الأقطار تتجمع حول بحر داخلي ، وإلى ما يوالى هذه الأراضى الساحلية فى كل صوب ، يوجد خواء لا حد له يكتنفه الغموض وإلى الغرب يقع المحيط الاطلنطى الذى لا يمكن اجتيازه وإلى الشمال والجنوب تقع مواطن الهمج المتوحشين الذين كانوا يهبطون بسلعهم للمقايسة مع سكان سواحل البحر المتوسط . وققط صوب المشرق رفع الحجاب إلى البعد الذى يقوم فيه خط هضبة ايران (فارس) عاليا فوق سهول ما بين النهرين وبابل ، وداخل هذه الحدود كانت توجد مدينة .

وعلى هذا يظهر لشعوب الزمن القديم أن التفريق بين ثلاث قارات : أوروبا وأفريقيا وآسيا ، كان تفريقا اصطناعيا لا طائل تحته (١) . وقبل أن يبدأ العبريون والاغريق والرومان القيام بدورهم فى التاريخ ، بزمن مستطيل كان البحر المتوسط ، مكان تجمع تجارة العالم . وفى جميع العصور نمت التجارة والمدنية جنبا إلى جنب . ان الطرق التجارية وهى حلقات الاتصال الدولى ، تعاون على توزيع ، ليس مجرد المحاصيل المادية ، ولكن أفكار وعادات الحياة أيضا ، وعلى هذا كان تاريخ المدنية منذ بواكير الزمن المدون ، هو تاريخ منطقة البحر المتوسط ، وظلت الحال كذلك حتى أتت كشوف عظام الملاحين فى ختام القرن الخامس ، ثمارها فى مدينة المحيط التى نعيش اليوم بين ظهرانيها (٢) . ان رحلات دياز (Diaz) ودى جاما (da Gama) وكولمبس (Columbus) فعلت أكثر من اظهار أسواق جدد ، ومناطق للتوسع الامبراطورى فى جزر الهند والعالم الجديد . ولقد غيرت مركز الثقل فى الثقافة الانسانية . ومدنية المحيط التى قامت على أسسها لم تكد تنضج بعد لوضع تاريخها .

وإذا صدق القول ان ما تفكر فيه لنكثير اليوم تفكر فيه انجلترا غدا وإذا لم تعد جزيرتنا بعد عملا خارجيا على تخم المدنية الشمالى الغربى ، ولكنها تحتل مكانا مركزيا فى التواصل الاقتصادى والعقلى بين الأمم ، وإذا كانت حياة العالم تنبض فى أصقاع لم تكن معروفة للأقدمين - فى أمريكا وفى المستعمرات البريطانية فيما وراء البحار - فان مرجع ذلك إلى

(١) هيرودوت : ٤ - ٤٥ : « لا أستطيع أن أفهم لماذا أطلق على الأرض وهى واحدة ثلاثة أسماء مختلفة استمدت كلها من النساء . . . ولا يمكننى أن أعلم من هم الذين وضعوا الحدود أو ممن استمدوا الأسماء التى أطلقوها » .
(٢) قال دكتور جونسون (Dr. Johnson) : « ان الغرض العظيم من السفر هو مشاهدة شواطئ البحر المتوسط . وعلى تلك الشواطئ قامت أربع امبراطوريات عظيمة فى العالم : الاثورية ، والفارسية ، والاغريقية ، والرومانية . وكل ديانتنا ومعظم شرائعنا ومعظم فنوننا ، وكل ما يرفعنا فوق البرابرة ، تقريبا ، وصل إلينا من شواطئ البحر المتوسط » (بوزول (Boswell

تغيرات نشأت منذ أربعة أو خمسة قرون فقط ، ونتائجها التي يتسع نطاقها من ساعة الى ساعة أمام أعيننا تصلح بالحرى لأن تكون مادة للصحفي وليس للمؤرخ . والأزمنة التي أخضعت فيها الامبراطورية الرومانية في منطقة البحر المتوسط ، العالم المتمدن بجمعه تحت سيطرتها تظهر في الحق سحيقة في القدم .

ولكن هكذا يترابط التاريخ خلال حقب نموه المترادفة ترابطا وثيقا ، حتى أن هذه الثورة الهامة كان الوازع لها ارث الثقافة الاغريقية الرومانية . ولا توجد فجوة لا يمكن اجتيازها في التواصل بين مدينة المحيط في زمننا وتلك المدنية التي صاغها منذ أكثر من عشرين قرنا خلت ، شعوب عالم البحر المتوسط .

٦ - والعبريون والاغريق والرومان ولو أنهم كانوا يسهمون في موطن مشترك على البحر المتوسط فقد كان يفرقهم اختلاف المنشأ الذي كان الى حد بعيد السبب في قيام صفة مميزة لحضاراتهم .

كان العبريون فرعا من الجنس السامي الذي كان موطنه بلاد العرب احدى امراض الجنس البشرى العظيمة . وفي الفصل التالى سنقابل امما أخرى ، بابليين وأشوريين ، والقاطنين في فينيقيا وسوريا الذين كانوا أعضاء في الأسرة السامية عينها .

وعلى النقيض كان الاغريق والرومان ينتمون أصلا في جميع الأحوال الى الأسرة الهندية الأوروبية التي ربما كان موطنها أرض السهوب (الاستبس) الى الشمال من القوقاز .

وفي العصور السحيقة في القدم كانت هذه الأسرة قد انقسمت الى شعبتين عظيمتين . ولقد سارت احدهما صوب الغرب الى أوروبا ومنها لم ينشأ فقط الاغريق والاطاليون ، ولكن أيضا أسلافنا ، الكلتيون والالمان والاسكندناويون .

وأخذت الشعبة الأخرى سمتها الى الجنوب الشرقي واستقر جزء منها على هضبة ايران ونسلوا الميديين والفرس الذين جاء ذكرهم في التاريخ القديم بينما اجتاز جزء الجبال الى وديان السند والكنج واستعمر الهند الشمالية .

وقد حدثت كل هاتيك الهجرات في العصور البعيدة . أما الشعوب القديمة التاريخية فيندر أنهم تحرروا من تمازج الأجناس ، اذا كانوا تحرروا اطلاقا منه .

٧ - ان تباين هذه الشعوب الثلاثة في الحياة والصفات لم يكن بالقدر الذي يمتنع فيه التوحد النهائي . والحقيقة ، بالحرى ، على النقيض من هذا .

ولقد خلقت كل منها وورثت العصور التالية ، واحدا من العناصر الجوهرية في فكرة مدنية كاملة . وكان الاغريق أول من أدرك في مذهبهم العملي ، كما في مذهبهم النظري ، قدر الحرية الفردية وأنها التربة التي يمكن فيها فقط أن يزدهر خيال الانسان وعقله ويأتيان ثمارهما . وفي مجال الفن والفلسفة تكون الروح الانسانية الشرعة لنفسها ، ولكن الانسان مطلوب منسه العمل أيضا ويستدعى تحقيق اغراضه العملية ، تحقيقا فعالا ، توطينها على حقائق طبيعة الانسان الصارمة ، ودنيا الظروف .

والتسوية يمكن انجازها فقط بمعاونة السلطة الخارجية والحكومة . وهذه الوظيفة التأديبية في تاريخ المدينة نهضت بها روما . ولكن في مجال الفكر كما في مجال العمل ، فإن مصير روح الانسان الذهاب بددا في الفوضى أو العبودية الا اذا ألهمت العلم بمرماها المثالي .

« بلا رؤيا يفنى الشعب » ^(١) ، كان العبريون قد رأوا الرؤيا ونقلوها عن طريق عقيدة تأصلت جذورها في حياتهم الروحية الى شعوب الغرب الآرية . الحرية والشرعة وملكوت الله - انهن تراث العالم القديم ، تراثه الثلاثي الذي ورثه عالمنا الحديث .

٨ - ان المؤرخ الذي يرجع ببصره الى الماضي ، من مدى عشرين قرنا يجد لزاما عليه أن يجلي في صورة بارزة الأوجه الهامة المميزة لهذه المدينيات، ولكن يجب ألا يدور تفكيرنا فيها وكأنها صبت في قوالب جامدة أو أن نغالي في وضوح خطوطها ، وستبين النتيجة كيف أن حياة الشعوب ، العبرية والايغريقية والرومانية ، كحياة الأفراد الذين كانوا يكونونها ، كانت أبدا دائبة على السير وتكييف نفسها كلما نمت وتتغير من لحظة الى أخرى وفقا لمجالها الطبيعي والاجتماعي .

انه لشوط بعيد بين العبرانيين الذين تجمعوا حول ايليا على جبل كرمل والعبرانيين الذين كانوا بعد ذلك بتسعة قرون يصيرون أمام وال روماني لاطلاق سراح بارباس .

ان الفريسي في اورشليم في زمن المسيح كان يسير في عالم مغاير لذلك الذي كان يسير فيه اليهودي الذي اصطبغ بالصبغة الهلينية في الاسكندرية .

ان أوجه الخلاف بين أمراء التجارة الاغريق في القرن السادس والمستمعين للقديس بولس في كورنث أو أثينا كان مردها في اتساع الهوة التي تفصل الأولين عن جوايى البحار الجامحين الذين هجروا مقابر جدودهم وآلهة أسلافهم والتمسوا مواطن جديدة في بحر ايجاء، في نهاية السنوات الالف الثانية ق م .

١١ أمثال ٢٩ - ١٨ (النسخة الانجليزية المعدلة « يجمع الشعب ») .

ان الثقافة الهلينية كانت تعنى شيئا فى سيراكوز وشيئا آخر فى مليتوس (Miletus) وروما التى عملت على تأنيس الأسيابنى أيام كاتو (Cato) يشق على السلاف والبلغار ، الذين عرفوا فقط الامبراطورية المسيحية والبيزنطية فى بواكير العصور الوسطى ، تعرفها كروما .

ونستطيع أن نقدر هذا التغير المستمر فى المدنية ، على أفضل وجه اذا وجهنا الفكر الى العالم كما هو اليوم . ان جميع مصادر البراعة الحديثة لتسهيل الانصال السريع واذاعة الأفكار مثل آلة الطباعة والبخار والكهرباء والطائرة والمذياع لم تأت بجذوى فى تحطيم الحواجز التى تفصل بين معاصرين من جذع مشترك . ان فلاحا فى دورست (Dorset) وعاهل منجم فى نورثمبريا يعيشان فى عالمين غريبين . ونظرة عالم اكسفورد الى الحياة لا تشترك الا بقدر يسير مع نظرة مواطن له فى مانيتوبا أو نيوزيلند . وأكثر اتساعا الهوة التى تفصل واحدا من هؤلاء الانجليز الذين يعيشون فى القرن العشرين عن أحد أسلافه فى القرن الثالث عشر . واذا أعملنا الفكر فى التباين بين انجلترا التى نعرفها وانجلترا البلانتاجينيت (Plantagenets) فسيتاح لنا أن نتصور شيئا عن صعوبة جمع أوجه مدنية الأزمنة القديمة دائمة التغير ، فى منظر واحد .

وكذلك سنرى كلما سرنا قدما كيف اعترى التراث التحوير خلال انتقاله الى العالم الحديث . ان ثمار العبرية العبرية والاغريقية والرومانية انصهر بعضها مع البعض الآخر ومع عناصر استمدت من مصادر تيوتونية (Teutonic) . واسكندناوية ، ولقد تغير مغزاها بدخولها فى شكول من النماذج جدد .

ان الحاضر بتمثيله الماضى يضيف عليه معنى قد يكون أزخر أو أضحل من ذاك الذى كان يحمله مرة ، ولكنه أبدا جديد . ان أوضح شرح لهذا تقدمه اللغة .

لا حاجة للانسان أن يكون ماهرا فى فقه اللغة ليتعرف أصل الكثير من مفردات اللغة الانجليزية . ان بعضها مثل (Law, order, state, colony, responsibility, person) من الواضح أنها استمدت من اللاتينية وأخرى مثل (dogma, atom, history, biology, logic) من الاغريقية وغيرهما مثل : (friend, body, king, God) تنم عن أسلاف لهن اسكندناوى أو المانى .

ولقد تحورت أشكال هذه الكلمات فى أثناء ورودها فان لفظ (lex) أصبح (law) ولفظ (atomon) أصبح (atom) .

وفى بعض الحالات نجد التغيير أكثر أن يكون أساسيا ويتطلب الأمر شيئا من المراس ليستبين المرء اللفظ اللاتينى (metipsimum) من اللفظ الفرنسى الحديث المشتق منه (même) .

وما يصدق على الصيغ اللفظية يصدق أيضا على معانيها • وتبين أمثلتنا كيف أن الألفاظ التي تدل على أفكار قانونية أو سياسية كان توارثها في الغالب عن الرومان الذين كانوا أساتذة العالم في هذين المجالين بينما تميل المصطلحات العلمية الى الاحتفاظ بلغة المبتكرين للعلم ، اليونانيين القدماء • ومع هذا فانه على الرغم من هذا التسلسل الذي لا تشوبه شائبة فان ألفاظا مثل (law - responsibility) تحمل لنا في مضمونها معنى مستمدا ليس فقط أو أصلا من تجارب شارعي الرومان ولكن من تجارب الأجيال التي ورثت تراثهم وزادته غنى خلال الفين من السنين •

ان المؤرخ وعالم الطبيعة في القرن العشرين يختلفان اختلافا عظيما عن هيروdotus (Herodotus) ودموقريطس (Democritus) في تصور لفظي (history, atom)

وما قلناه عن اللغة ينطبق على كل مظهر من مظاهر المدنية والماضي في تحوله الى الحاضر يغير صفته كماض ويموت ، كما تموت العنقاء^(١) ليعود مولده في شكل جديد •

٩ - وهذه العملية من التواصل بين تغير لا ينقطع من العسير كشف القناع عنها • ويمكن معالجة الأمر بوسيلتين مختلفتين ، يمكننا أن نعتبر مدينة اليوم نقطة بداية ، ونفقل راجعين الى الوراء خطوة خطوة ، الى مصادرها في الماضي • أو يمكننا أن نبدأ من البداية بسلاسل العالم القديم ونقتفى المؤثرات على الأجيال اللاحقة الى أن نصل الى أكناف التاريخ الحديث • والمنهج الأخير هو الذي ننوي تتبعه ، ومعالجته مع هذا ستكون خاضعة الى شرطين • ففي المكان الأول ، يجب أن نختار من المواد الموجودة بوفرة تلك المظاهر في حياة العبريين والاعريق والرومان التي أثرت على الحقب التالية أعظم تأثير • ويوجد دائما الخطر في أن نحسب الجزء كلا ونخال أن الأشجار هي الغابة •

وعلى هذا فسنركز الانتباه على ديانة العبريين وعلى علم الاعريق وفلسفتهم وعلى رسالة روما التي كانت الوسيط في مرحلة الانتقال من المدنية القديمة الى مدينة القرون الوسطى ، بعد أن نلمس لمسا خفيفا مظاهر تاريخهم الأخرى مهما بلغ من عظم أهميتها الجوهرية • والشرط الثاني يشير الى السلاسل الأخرى التي عمرت العالم القديم • يمكننا أن نضع فارقا بينها من ثلاث شعاب ، فتوجد :

١ - سلاسل كالسكان البدائيين في جزء عظيم من أفريقيا الذين لم ينجحوا أبدا في الخروج من حالة الهمجية • وهي موضع اهتمام بالغ عند عالم الانثروبولوجيا (علم الانسان) والباحث في العادات الاجتماعية والدينية

(١) عنقاء مغرب أو فينقس • (Phoenix) (المترجم)

البديهييتين ، ولم تترك أية علامات مميزة في مدينة الأزمنة القديمة العليا ، وعلى هذا فلا تدعو الحال الى التنويه عنها في هذا الكتاب . ويصدق هذا على :

٢ - الشعوب المتمدنية في الشرق الأقصى ، وفي الهند والصين واليابان ولقد نحتها الحواجز الجغرافية تنحية تكاد تكون تامة ، عن الاتصال الفعلي بثقافة منطقة البحر المتوسط ^(١) والآن عندما توطد الاتصال بفتح طرق المحيطات العامة ويسرته الطائرة واللاسلكي ، فان فن الصين واليابان والفكر الديني لدى الشعوب الهندية ، العليا ، يثيران اهتماما متزايدا بين الأوربيين وقد يكون لدى المؤرخ ، بعد خمسة قرون من الآن الكثير مما يقوله عن نتائج هذا الاتصال في الشرق والغرب جميعا ولكنها الى الآن لاتزال محجوبة عن أعيننا . ان منح الحكم الذاتي ، مع نمو التجارة والتصنيع سيكون مآلهما أن يصبحا مؤثرات انفصال ، في النظرة التقليدية للحياة بين شعوب الهند ، وهذا ليس في مجال الاقتصاديات والسياسة وحسب ، وما اذا كان تعرف ارثهم الديني والمتأزريقي عن قرب سيكون ذا أثر على مدنيتنا الغربية الى مدى معائل فان هذا الأمر متنازع فيه كثيرا . ان الانقسام بين عقل الغرب وعقل الشرق بعيد الغور جدا . ان الغرب يسلم بالكثير مما يكون غريبا أو حتى قد يكون معاديا للفكر الهندي الذي يجد نفسه وقد جابهته عوائق لا يكاد يمكن اجتيازها ، أمام نقاهم متبادل .

وأحد الأسباب هو أن مفكرى الهند لم يهتموا اهتماما جديا بالزمن والعملية الزمنية التي تكون مادة التاريخ ظهرت لهم أنها أكثر قليلا من خدعة مايا (Maya) تحجب حقيقة المطلق التي لا تتغير . وهذا هو السبب في أن الهند التي انجبت عظماء الفلاسفة والمتألهين الدينيين لم تخرج أى مؤرخ ^(٢)

(١) والاستثناء الظاهر لهذه العبارة العامة جدا هو غزو الاسكندر الأكبر للبنجاب ، ولهذا فان ما توطد من اتصال بين الغرب والهند ، كان قصير الأمد وذكراه باقية للتأثير الاغريقي على الهند أكثر منه لتأثير الهند على الاغريق . ولقد استمرت التجارة على طرق القوافل البرية من الشرق الأقصى طوال الأزمنة القديمة ولكن آثارها على المدينة الغربية كانت ثانوية وغير مباشرة . كذلك لم ينجم عن غزوات التتار للغرب في الأزمنة التي وقعت بعد قيام المسيحية ومن الهون في القرن الخامس وما بعده أى شئ ايجابي للثقافة الغربية .

(٢) في أيامنا أخرجت الهند رمانوجان (Ramanujan) عالم الرياضيات العبقري ، ولكن الرياضيات كعلم ما وراء الطبيعة (المتأزيقيا) لا شأن لها بسير الحوادث الزمنية . حتى مؤرخو العصر الحديث للفلسفة الهندية مثل (رادهاكرشنان Radhakrishnan) وداسجوبتا (Dasgupta) بينا واتاهم النجاح في عرض المذاهب العديدة فانهم يعجزون عن استعراض متابعتها التاريخي في نشأة الواحد عن الآخر في ترتيب النمو الطبيعي .

وكذلك يظهر أن القادة السياسيين الهنود يجدون صعوبة في ادراك ما يكون لدى العقل الغربى شىء عادى ، وهو أن الحكومة الذاتية يكون لها نفع دائم اذا وصل الى تحقيقها كشمرة عملية نسقية تدرجية للتعليم السياسى واذا ، كما تعترف جميع الجهات ، كانت صالحة ، وعلى هذا مرغوبا فيها ، فما السبب في تأجيل اقامتها ؟ لماذا لا ننجز العمل الصالح على التو بجرة قلم ؟

وعقل الغرب على التقيض ، بكل ايضانه بحقيقة خالدة لعالم افضل - لم ينكر الا فيما ندر - وجود قدر من الواقعية الصادقة للعملية النسقية الزمنية (١) . وبوجود انفصام آخر يدعو للانتباه . ان عقيدة بقدر الشخصية الانسانية ، الذى لا يمضى متاصلة الجذور تأصلا عميقا فى العقل الغربى الذى يكاد لم تمسه الرغبة للاستغراق فى المطلق تلك الرغبة التى استولت على قلوب الحكماء الهنود .

هنا يوجد الاختلاف الاصلى بين التاله المسيحى والتسالة الهندوسى (٢) وهذه التملات تؤدى الى الرأى أنه اذا كان قدر للحواجز الروحية التى تفصل الثقافتين الغربية والهندية أن تحطم فانما يكون ذلك بذىوع الدراسات التاريخية والمسيحية فى الهند . ومهما يكن من امر هذا ، فان مستقبل الشعب الهندى كمستقبل الشعوب الشرقية الأخرى يقع خارج نطاق هذا السفر . والحال غير ذلك بفريق ثالث هو المدنيات التى قامت فى الأزمنة القديمة جدا على شواطئ نهرين عظيمين النيل والفرات وفى جزيرة كريت وهى تسترعى انتباهنا ليس فقط لقيمة ثقافتها الجوهريّة ولكن لانها قدمت السوابق التاريخية لقصة العبريين والاغريق وروما .

انها جزء من حياة عالم البحر المتوسط . وهذا جلى فى حالة كريت . ولكن مدينة مصر انتقلت بفعل ثقلها صوب الشمال الى شواطئ الدلتا . بينما كانت تمتد مدينة سهل بابل أبدا صوب الغرب الى بحر ايجه والمشرق .

(١) فمثلا اسپينوزا (Spinoza) الذى كان يذهب الى أن الزمن هو نتاج تفكير من درجة دنيا (Auxillium Imaginationis) لم يناقش أبدا واقعية الحادئات الزمنية . لقد أنكر ببساطة انها ، كزمنية ، كانت حقيقية على الوجه الاتم . لقد علق الفكر المسيحى دائما أهمية عظيمة على العالم الزمنى المكاني (Spatis temporal) كمشهد لفترة اختبار الانسان ، ووظيفته هى أن يجوس خلال الأشياء الزمنية بحيث لا يخسر نهائيا الأشياء الأزلية . وهذا يحمل فى معناه أن الأشياء الزمنية ليست الا خدعة .

(٢) يطمح المتألهون المسيحيون الى الاتصال الروحى المباشر وليس بامتزاج الذات مع الله .

انه حق أن تأثيرها على العصور التالية كان تأثيرا غير مباشر وكانت
الواسطة فيه ثلاثة شعوب هي التي تكون الموضوع الرئيسي لهذه الدراسة .
ولكنها تركت طابعها على العمل الذي استغرق حياة العبريين والاغريق
وروما ، وكانت المجال التاريخي الذي قامت فيه هذه الأمم ، وأدت دورها .
وعلى هذا فاننا سنحاول القاء نظرة موجزة على هذه المدنيات الأولى في الفصل
التالى . وسيعيننا هذا على ادراك التلاحم الجوهرى فى العالم القديم وعلى أن
نعتبر شعوبه العديدة ، ليس كذرات منفصلة يمكن أن يعكف على دراستها
مقسطة الى أجزاء ، ولكن كأعضاء مجتمع من الأمم لها علاقات متبادلة من
العداء أو التعاون كيفت ما اختلفت بتقديره لسير تاريخ البشر .

الفصل الثاني

أقدم مدنيات الشرق

١ - مقدمة

١ - ان أقدم المدنيات التي تسترعى انتباهنا ، كتمهيد لدراسة العبريين واليونان وروما هي : (١) مدينة مصر (٢) مدينة الأهم التي سيطرت ، على الولا ، على وادى دجلة والفرات - البابليين والأشوريين (٣) مدينة الشعوب التي قطنت بالأراضي الواقعة بين هذه الاصقاع ، ورقعة البحر المتوسط الساحلية ، سوريا وكنعان ، وآسيا الصغرى الشرقية (٤) ومدينة كريت التي تغلغت في بحر ايجا ، وشطر عظيم من منطقة البحر المتوسط . وسنسير قدما بنظرتنا الموجزة على هذه المدنيات الى الزمن الذي كانت فيه ، في جل أمرها مستغرقة في امبراطورية فارس العالمية ، العظيمة (القرن السادس ق م) . وأخيرا (٥) سنلمح الى طبيعة الامبراطورية الفارسية ومدنيتها حتى الغزو اليوناني المقدوني ، الذي قام به الاسكندر الأكبر (٣٣٤ - ٣٢٣) . وأما التاريخ اللاحق لمصر والشرق الأوسط تحت السيادة اليونانية - المقدونية ، والسيادة الرومانية فإنه يتعلق بطبيعة الحال بالفصول الأخيرة التي تعالج اليونان وروما .

٢ - مصر (١)

٢ - كتب هيرودوت المؤرخ اليوناني الذي زار البلاد في القرن الخامس قبل الميلاد « ان مصر هبة النيل » (٢) والتربة والحاصلات والنبات والحيوان

(١) في موضوع التاريخ المصري المبكر ، كما في كثير غيره في هذا الفصل اقتفيت ما استخلصه برستند من نتائج كما وردت في تاريخ مصر الذي وضعه (الطبعة الثانية سنة ١٩١٩) ، وبينما الغالبية من علماء الآثار يتفقون في الجوهر على تأريخ برستند للأسرات الأولى الا أنه يجب ألا يغرب عن البال أن التواريخ لاتزال موضوع مساجلة قبل الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ ق م) وعلى انقاريء أن يرجع الى جداول الأزمنة المتعادلة في الاسفار الأولى من تاريخ كامبردج القديم في جميع مسائل التاريخ التي تعرض له ، فيما يتصل بهذا الفصل .

(٢) هيرودوت ٢ ، ٥

والحياة الانسانية كلها على السواء ، يقرر أمرها النهر العظيم وهو الذى ، قبل مجيء الانسان بزمن مديد ، عمل على توسيع كسر فى الحجر الجيرى ، الى فجوة وملا الفجوة بركام من المرتفعات الجنوبية وبطغيانه على البحر المتوسط كون الدلتا . والقطر واحة طويلة ضيقة تمتد سبعمائة وخمسين ميلا من الشلال الاول ، الحد الجنوبى القديم ، الى الدلتا . والوادى ، ويتراوح اتساعه من عشرة الى ثلاثين ميلا ، تحصره حواجز صحراوية فى الشرق والغرب . ويعتمد رخاؤه ، الآن ، كما كان يعتمد منذ سبعين قرنا غيرت ، على ظاهرة طبيعية عظيمة واحدة ، فيضان النيل السنوى ، الذى تسببه أقطار الربيع وذوبان الثلوج فى مرتفعات الجنوب القاصية . وانتظام هذه الأحوال الطبيعية البسيطة يعادله انتظام مماثل فى حياة وعادات الشعب . ولقد عكف الفلاحون تحت حكم محمد على فى القرن التاسع عشر الميلادى على المهام الراتبة عينها من فلاحه التربة وأعمال السخرة كعبيد لأرض أولئك السذين لا نعرف لهم اسما ، الذين بنوا الأهرام فى الألف سنة الثالثة قبل الميلاد . ان ثروة مصر الاقتصادية كانت دائما زراعية وقد أطلق المصريون على بلادهم اسم الأرض السوداء فى التفرقة بين الصحراء « الحمراء » على الجانبين والتربة الفيضية السوداء فى وادى النيل التى قام الدليل على أنها ، تحت نظام للرى محكم ، ذات خصب يفوق المعتاد .

والنهر كان الطريق العام الذى تمر عليه تجارة الحنطة الى مرافىء الدلتا وحلقة الاتصال بين مصر والعالم الخارجى . ومن عهد سحيق حفز عدم انتظام فيضان النيل جهد الانسان الى صد غائلة المجاعة التى تحل من حين الى آخر . ولا يوجد مكان آخر صاؤل فيه مكر الانسان الطبيعة فى دؤوب على مثال ما صاؤل هنا . كانت البلاد تشيع فيها القنوات والسدود والخزانات ، وأظهر المهندسون فى مصر القديمة فى انشائها تمكنا من الفن الآلى . وخزان بحيرة موريس النسيح ، وهو من عمل فراعنة طيبة فى الأسرة الثانية عشرة (فى أوائل الألف سنة الثانية) ينهض دليلا على نفس الهمة لبلوغ القصد كخزان أسوان ، الذى أتمه المهندسون البريطانيون تحت ارشاد اللورد كرومر (١) .

٣ - ولقد كان منشأ علمنا ببراكبر تاريخ مصر القديم أثناء غزو نابليون (سنة ١٧٩٨) . وفى سنة ١٧٩٩ كشف ضابط فرنسى بالقرب من رشيد

(١) نحن لا نقر المؤلف الى ما ذهب اليه من نسبة مشروع خزان أسوان تنفيذا ورأيا الى البريطانيين فان تعاون هؤلاء المهندسين البريطانيين مع زملائهم المهندسين المصريين الذين حملوا العبء الأكبر فى المشروع كان يحكم وظائفهم فى الحكومة المصرية ولا شأن للورد كرومر به اذ قامت بتنفيذه نظارة الأشغال المصرية فى ذلك الحين .

(المترجم)

عن حجر ، موجود الآن فى المتحف البريطانى ، يحمل كتابة بسلامة أنواع من الخطوط ، الهيروغليفى ، والديموطيفى أو الشعبي ، والاغريقى • وأسماء الأعلام التى كانت هى بذاتها فى الاغريقية كما فى الهيروغليفى ، هى التى أرشدت ، بعد دراسة مستطيلة ، عن الدليل الى تعرف الكتابة الهيروغلوفية على الآثار المصرية ، ولقد رأى القرن الماضى كشف الغشاء الذى يخفى الماضى البعيد ، بالتدرج • ان الخيال يبهز عندما جلى العلماء حقبة بعد حقبة من التاريخ الماضى ، الذى يمتد الى الوراء ، على الأقل ، الى الألف الرابعة قبل الميلاد • وهو ليس مجرد تاريخ حروب وغزوات ملوك ، ولكن تاريخ عمائد وعادات وفن وثقافة يشمل سلسلة من المدنات الزاخرة لم تكن تدور فى خلد الناس الى ذلك الحين •

٤ - وتقدم قصة مصر من أول توحيد لها تحت حكومة واحدة فى الألف سنة الرابعة حتى الغزو الفارسى فى سنة ٥٢٥ ق.م سلسلة من حقب المدنية ، كل حقبة بعهدوها من الصعود والهبوط ، وتفصل الواحدة عن الأخرى فترات من الركود والانحطاط • وقد رجعت أبحاث علم الآثار الحديثة بالسجل الى الحلف ، الى زمن أبعد عندما كانت قبائل من أصل افريقى ، ولكن أتت عليها الهجرات السامية بالتجوير ، تقطن بمراكز محلية يحكمها رؤساء منعزلون • وكان هؤلاء المصريون الذين يرجعون الى ما قبل الأسرات قد حدقوا فنون صناعة الصلصال والحجر ووضعوا السنة التقويمية التى تبلغ ٣٦٥ يوما والتى اتخذها بعد ذلك بأكثر من ٣٠٠٠ سنة ، يوليوس قيصر ولا يزال العمل يجرى بها حتى يومنا الحاضر (١) •

وفى بواكير الألف الرابعة، نجد مملكتين واحدة فى الدلتا والأخرى فى مصر العليا أدمجهما مينا ، أول ملك فى الأسرة الأولى (حوالى ٣٤٠٠) فى حكومة واحدة • ومن هذه المرحلة فصاعدا يمكن جمع التاريخ المصرى

(١) أدخل التقويم سنة ٤٢٤١ ق.م وكان أول تاريخ ثابت فى التاريخ • وقد أقام برستند (Ancient records, Egypt) (١ ، ٢٥ وما بعدها) الحجة على أن التقويم استهل فى بداية فيضان النيل ، الذى كان من زمن الى آخر يجيء على التقريب آوان عيد طلوع الشعرى اليمانية (Sirius) فى مشرق الشمس فى الأفق الشرقى فى ١٩ يولية • ولكن سنة الشعرى اليمانية (الفترة الواقعة بين مطلعى الشعرى اليمانية المتعاقبين) كانت أطول من السنة التقويمية التى تبلغ مدتها ٣٦٥ يوما ، بربع يوم • ولقد بدأت سنة الشعرى اليمانية والسنة التقويمية فى نفس اليوم ، فى السنوات ٤٢٤١ ، ٢٧٨٠ ، ١٣٢٠ ق.م ، ١٤٠ - ٤١ الى ١٤٣ - ٤٤ • ومع هذا فقد حام الشك حول مشاهدة دورة مبكرة ترجع الى سنة ٤٢٤١ وأكثر ترجيحها انه وجد حساب لاحق يرجع الى الوراء •

حول قيام وسقوط ثلاث حقبة عظيمة من التطور : الدولة القديمة ، والدولة الوسطى ، والامبراطورية الحديثة (١) .

(١) الدولة القديمة (الأسرات من الأولى الى السادسة) (٢) - وصل هذا العهد الذى دام ألف سنة الى ذروته ابان حكم ملوك الأسرة الرابعة فى ممفيس (من ٢٩٠٠ ق.م) وهم الذين مدوا سيادتهم صوب الغرب على ليبيا وصوب الجنوب على النوبة ، واستغلوا مناجم سيناء ، ونهضوا بالتجارة بأساطيلهم فى البحر الأحمر والشرق .

ولقد كانوا اداريين عظاما وبنائين عظاما ، ووضعوا نظاما ماليا محكما وحكموا مصر بجيش من الموظفين ، وأوصلوا رى البلاد الى درجة عالية من الكمال ، وشيدوا أهرام الجيزة العظيمة لتكون قبورا لهم . ويمكن أن تتعرف مهارتهم فى استخدام الوسائل الآلية والموارد العظيمة للعمل الذى تستلزمه هذه الأبنية ، من الحقيقة الواقعة وهى أن هرم خوفو بنى بأكثر من مليونى قطعة من الحجر يبلغ متوسط وزن الوحدة منها ٢ ١/٢ طنا . وفن هذا العهد ، عينه ، وخاصة تحت الصور والنقش البارز فى المقابر والمعابد كان على جمال لا يضارع فى أى عهد لاحق للثقافة المصرية .

(٢) الدولة الوسطى (الأسرتان ١١ - ١٢) سقطت الدولة القديمة فى أواسط الألف سنة الثالثة على أيدي الأشراف أصحاب الأراضى ، الذين كانت قد أوجدتهم لما كان فيه خطر عليها . ثم ترادف نحو من ثلاثة قرون من الانقسام ، وقد عقد السلطان ، كما كان فى عصر ما قبل التاريخ للرؤساء المحليين الى أن قامت ملكية ثانية مركزة ، تعرف بالدولة الوسطى فى طبقة فى مصر العليا تحت حكم الفراعنة أولى الصولة (٣) من الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة (٢١٥٠ - ١٧٨٠) وقد أعيدت التجارة على مجال واسع مع بنط (الصومال) فى الجنوب بجوار البحر الأحمر ومع الساميين فى سوريا وكنعان ، والشعوب البحرية فى شرق البحر المتوسط . ولقد وجدت فى مصر مصنوعات من الخزف منوي (Minoan) ترجع الى هذا العصر . ويظهر على الفن المنوي أثر الفن المصرى (٤) . وتحت حكم الدولة الوسطى ،

-
- (١) لم تعرف مصر أبدا أى شكل للحكومة الا الاستبدادى . وأسس الحرية السياسية توضع لأول مرة فى زمننا الحاضر .
- (٢) جمع مانيتون وهو كاهن مصرى عاش فى عهد البطالمة الأوائل (القرن الثالث ق.م) ملوك مصر فى واحد وثلاثين أسرة . ويغلب أن يكون جمعه غير دقيق ، ولكنه لا يزال يستخدم ، بوجه عام ، كمرجع تاريخى .
- (٣) فرعون (بر - عا) يعنى حرفيا البيت العظيم ، كان لقباً أطلق فى الأصل على مقر الحكومة وبعد ذلك على شخص فرعون .
- (٤) انظر بعده فقرة ١٦ .

وصلت الفنون الصناعية أعظم ذروة لها من التقدم ، وازدهر الأدب ، وإذا كانت فنون النحت يغلب أن تكون تقليدية ، فانها تنافس نظيراتها في الأسترتين الرابعة والخامسة .

(٣) الأمبراطورية الحديثة (الأسترتان الثامنة عشرة والتاسعة عشرة)
 أعقب ختام الأسرة الثانية عشرة فترة غامضة كانت فيها مصر المنقسمة ، تحت رحمة الغزاة الأجانب وحكم البلاد بدو ساميون (الهكسوس أو ما يطلق عليهم الملوك الرعاة) يضمون فى الراجح سبطا عبريا ^(١) وقد أعاد أمراء طيبة الوحدة ، ويبدأ أعظم العهود روعة ، اذا لم يكن فى النافذة المصرية ، فعلى الأقل فى السلطة السياسية ، بقيام الأسرة الثامنة عشرة (سنة ١٥٨٠ ق م) . كان المصريون بطبيعتهم شعبا لا ينزع للحرب ولكن الفوضى الداخلية كانت قد أدت الى تكوين جيش مهني منظم وغدا فراغنة الامبراطورية الحديثة الحكام العسكريين لدولة عسكرية . وقد غزوا سورية وفينيقية ، وحاربوا الميتانى (قبيلة يتولى أمرها رؤساء آريون) والحيشيين على الفرات الأعلى ودانت لهم السيادة من ذلك النهر حتى الصحراء الليبية ، وأكناف الحبشة . وقد وصلت اليهم الجزية مما يوالى البحر المتوسط ، فكانت مصر مفتوحة لتجار بحر ايجيه الكفتيو (Keftiu) وكانت منتجاتها تستخدم فى كنوسوس (Cnossus) وأثر فيها الزخرفى الخاص على مهرة الصناع الميسينيين (Mycenaen) ^(٢) ، وقام على تدبير أمور الامبراطورية ليف عظيم من موظفى الدولة ، وعلى دين الدولة طبقة من الكهنة ، منظمة . وكان هذا أعظم عصور الفن المعمارى المصرى . وكان معبد الاله آمون فى الكرنك واحدا من أعظم الآثار الدينية روعة فى الأزمنة القديمة . وتقوم اليوم على رصيف نهر التيمس مسلة تذكارية أقامها ألمع غزاة الأسرة الثامنة عشرة تحوتى مس سو (تحوتمس) الثالث . وبعد انقضاء قرنين من العظمة الامبراطورية بدأت بوادر الانحلال الذى لا معدى عنه ، فى الظهور . ولقد أثار الجهد الغربى الذى بذله المصلح الدينى اخ ن اتن (اخنانون) (امنحتب الرابع ١٣٧٥ - ١٣٥٨) لاقامة عبادة اله واحد روحية ، شعور الشعب والكهنة ^(٣) . وأخفقت

(١) تجمل جعلان ملك فى هذه الفترة اسم يعقوب - هر ، أو يعقوب آت (برستند صفحة ٢٢٠) .

(٢) عن الحبشة انظر ما سيجىء بعد ، فقرة ١٢ ، وعن كنوسوس وميسينيا الفقرات ١٥ - ١٦ .

(٣) تلقى خطابات تل المعمارنه ، وهى سجلات رسائل اخناتن الأجنبية التى كشف عنها فى سنة ١٨٨٥ ، الكثير من الضوء على سياسة الامبراطورية الجديدة . ان تل المعمارنه هو موقع العاصمة اخناتن التى أسسها اخناتن كمقر لعبادة الاله الواحد (اتن) وعن دين التوحيد هذا انظر ترجمة اخناتن لاتن التى ترجمت فى كتاب برستند الصفحة ٣٧١ وما يتلوها .

تراث العالم القديم

الأسرة التاسعة عشرة فى المحافظة على هيبة مصر فى الخارج ، وقبل ختام السنوات الألف الثانية (ق٠م) بزمن مديد ، كانت سوريا وكنعان قد أفلتتا من أيدي المصريين ، وكانت شعوب البحر فى ايجا تعمل فى الدلتا نهبا وتخريبا ، وحدث فى غضون هذه الفترة من بداية نشوء الانحطاط أن قطن العبرانيون ^(١) فى جاسان (Goshen) وكان الخروج الى صحراء سيناء ليس متأخرا عن عهد واحد من فراعنة الأسرة التاسعة عشرة (حوالى ١٣٢٠ - ١٢٠٠) .

وفى قرون الانقسام والتفكك الذى أعقب سقوط الامبراطورية الحديثة نجد الرؤساء المرتزقة ، الليبيين يحكمون فى الدلتا ، وأمراء اثيوبيين فى مصر العليا ^(٢) . وفى أواخر القرن السابع (٦٧٠) غزا الآشوريون الذين كانوا يهددون استقلال مصر ردحا من الزمن ، الدلتا تحت امرة أسر حدون .

وجعلوا من مصر ولاية تابعة ^(٣) وبدأ عهد الحكم الأجنبي . ولما وهنت قوة آشور أمام قوة بابل واثت فرصة أخرى للاستقلال وفى ولاية ملوك الأسرة السادسة والعشرين (فى سايس بالدلتا ٦٦٣ - ٥٢٥) نشهد احياء للثقافة قصر الامد ومصطنعا الى حد ما ، واعادة توكيد عقيم للمطامح القيصريه . وقد تحالفت مصر مع ليديا والاغريق الآسيويين وجند المرتزقة الاغريق فى الخدمة الملكية . وخصص مقر للتجار الاغريق فى نقراش (نوكراتيس ومعناها القوية البحرية) فى الدلتا . وغزا نيخو (٦٠٩ - ٥٩٣) كنعان وحارب نبوخذ نصر ملك بابل على الفرات . وتقديمه العباءة التى كان يلبسها قربانا عندما أوقع الهزيمة ببوشيا فى مجدو ، لمعبد أبولو المليزى فى برانخيدا (Branchidae) مال ذو مغزى عن الاتصال

(١) يتوارى القفتو (المتبون) عن الآثار المصرية حوالى سنة ١٣٥٠ ويظهر بعد ذلك بقرن ونصف الاقيوشا (Akalusha) (الاخيون) - انظر ما يلى .
(٢) كان شيشنق الأول (شيشنق العهد القديم) واحدا من الأولين وكان حليف سليمان وأوى يربعام مؤسس المملكة الشمالية (الافرامية) وحارب يربعام الى المملكة الجنوبية (يهوذا) حوالى سنة ٩٢٦ (ملوك الأول ١٥ : ٩ - ١٧ ، ١١ : ٤٠ ، ١٤ : ٢٥) .

(٣) كانت جيوش آشور قد وصلت الى تخوم مصر مرتين فى القرن الثامن وقد حدثت غزوة سنخارب العقيمة فى سنة ٧٠١ ، ولقد أدرك ضعف مصر فى جلاء أشعيا ، الذى استنكر سياسة التحالف بين يهوذا ومصر ضد آشور (اش : ٣٠ ، ٧-١ و ٣١ ، ١-٣) :

التاريخي بين مصر ويهوذا وبابل واليونان^(١) ولكن إعادة الاستقلال كان ذا أمد قصير ، ولما سقطت بابل أمام الفرس كان مصير مصر قد أصبح قاب قوسين . وفي سنة ٥٢٥ غزا قمبيز مصر وظلت البلاد خاضعة لامبراطورية فارس فيما عدا ثورات متقطعة خاطفة حتى مجيء اسكندر المقدوني (٣٣٢ - ٣٣٠) .

٥ - وبقي أن نسأل الى أى مدى اثرت مدينة مصر فى المدنية التى نهضت فى غضون السنوات الألف الأخيرة ق.م. فى عالم البحر المتوسط . وإذا القينا النظر (أ) الى الدين الذى كان فى مصر كما كان بين السلالات الأولى جميعها ، بؤرة الثقافة ، فاننا نجد طائفة عظيمة من المعتقدات والعبادات المحلية ، وقد وحدها فراعة الأسرات الأولى فى دين دولة ، فيه ثم آلهة مركزيون صاغ الكتاب الكهنة من قصصهم وفرائضهم ، على سير الزمان ، شكلا ذا مذهب راهن وله طابع ثابت . وانها لتحوى اليسير من القيمة الفكرية أو القيمة الروحية ما خلا استثناء وحيدا هو محاولة اخناتن التى أشرنا إليها آنفا ، بأن يستبدل العبادات الدينية المقررة بعبادة توحيد لآتن اله الشمس . ويظهر أن الواعز لثورته كان مثالية فكرية صادقة ولكنها كانت عقيمة ولا تأثير لها حتى فى بلاده ذاتها . والكتابات الدينية ، مثل كتاب الموتى ، التى تتعلق بأقدار الروح فى حياة أخروية ، وهى مجموعة كان منشؤها فى الدولة الوسطى ، واتخذت شكلها النهائى فى زمن الأسرة الثامنة عشرة ، كان يسيطر عليها السحر ، وتكشف عن تصور مادي تماما للروح . والاعتقاد فى محاكمة خلقية بعد الموت ، وهو يرتبط بعقيدة أزوريس كان له ثمة قيمة من حيث الأخلاق . وفى نصوص الأهرام المبكرة ، يمكن أن نطالع كيف تصور المصريون القدماء نظاما خلقيا فى العالم مرده ما شاع بين الناس من أحكام على السلوك « وفقا للقواعد المرعية » فى الأسرة وفى القرية ، على أنه مع ما تقدم لا يوجد دليل على أن دين المصريين أثر خطيرا فى العالم الخارجى ، وعبادة يهوه كان موطنها صحراء سيناء وليس فى مصر . وفى عصر لاحق ، عندما تقابل الشرق والغرب تحت حكم أمراء مقدونيين فى الاسكندرية ، ذاعت العبادات المصرية ، كعبادات ايزيس وسيرايس ، وكذلك الاعتقاد فى الخلود والشفاء بالايمان الذى يرتبط بتلك الآلهة وممارسة التخصص الرمزي الخلقى الذى تميز به تعليم الكهنة المصريين

(١) هزم ينخو فى قرقميش سنة ٦٠٤ وحدث غزو بابل ليهوذا سريعا فى أعقاب هذا النصر ، أنظر الملوك الثانى ٢٣ : ٢٩ وهيرودوت ٢ : ١٥٩ ، وكانت سبعا فى سهل يزريل أو اسدييلن مشهد المعركة التى وقعت بين العبرانيين وسيسرا (قضاة ٤ : ٥) والارمجدون (وفى النسخة المنقحة سرامجدون - جبل ماجدون) الرؤيا ١٦ : ١٦ . النص الفقرة الأخيرة هو على أية حال موضوع شك .

وجد ذيوعا واسع النطاق في العالم الروماني الاغريقي . ولكن قبل هذا التاريخ كانت ديانات العبريين واليونان وروما قد وصلت الى نضوجها .

(ب) ومرة أخرى كان ما يسمى « حكمة » المصريين أمرا ذا قيمة علمية يسيرة . لقد كانت موضوعات اهتمامهم العقلية نفعية ولم يظهروا الا ميلا ضئيلا للعلم الخالص أو الفلسفة . ولقد ابتكروا قواعد يتجلى فيها الحدق ، لقياس الحقول والأبنية ولكن كان يعينهم من الهندسة مساحة الأراضى ولاشئ أكثر . ولم يستتب منهم في هذا أو في علم النجوم الذى كان لديهم ادراك للمنهج العلمى . وعندما كانت تظهر بواق لا قبل لهم عليها فى تقديراتهم فانهم كانوا يهملون شأنها ببساطة . وقد كان افلاطون على حق تماما عندما انتقد الرياضيات المصرية بأنها قاصرة على أغراض عملية بحتة (١) . والطبيب أيضا كان خليطا من الوصفات الجاهزة والتعازيم السحرية . وتظهر الكتابات الطبية الأولى ملاحظة دقيقة ، لجسم الانسان وعلاج الاصابات بما يمليه الحس العام وآراء عن الوظائف الفسيولوجية التى ربما تكون قد وصلت الى الاغريق وكانت الحافز للأوائل من رجال العلم الهلينيين ، ولكنها ظلت ، الى أن أضاءها البحث عن الأسباب والمسببات ، لا أكثر من مجموعات من المعطيات ، السابقة (٢) للمنهج العلمى (٣) .

(١) القوانين ٧٤٧، أنظر وصف بردية رند (Rhind) فى فلسفة اليونان الأولى لبرنت (Burnet) الطبعة الثالثة الصفحات ١٨ وما بعدها ، وملاحظاته فى النتائج العلمية المزعومة التى وصل اليها المصريون . وعن الطب المصرى بمقابلته بطب الاغريق ، أنظر برت (Brett) « تاريخ علم النفس » الصفحات ٢١٩ وما بعدها .

(٢) أنظر بردية ادون سمث الجراحية (Edwin Smith Surgical Papyrus) لبرستند . ان العلاج يوصف وفقا للقاعدة (عليك أن تقول الخ) ودراسة لهذه الوثيقة المشوقة تترك القارئ وقد دخل فى روعه أن الذى يمهّن الطب فى زمننا ، ولو أن دعامة عظيمة النطاق من الحقائق تشد أزره ، فإنه يحتفظ بمقدار ليس باليسير من عقلية سالفه البدائين .

(٣) نحن لا نقر الكاتب فيما ذهب اليه من انكار أهمية الطب المصرى القديم وأثره فى الطب اليونانى ، ذلك لأن الطب المصرى القديم جدير بأن يدرس فى اهتمام حتى يومنا . لقد وصل قدماء المصريين الى تقدم عظيم فى الطب والجراحة واقتبس الطب الاغريقي من الطب المصرى نصيبا عظيما حتى يمكن اعتباره امتدادا له . وليست أدراج البردى ، كاهون وادون سمث وايرز وهرست ولندن وكارلسبرج وبرلين ، الا مقتبسات من أسفار أصلية . وهى تذكر الأطباء والسحرة وأطباء الأسنان وأطباء العيون وغيرهم من الاخصائيين بما فيهم الأطباء البيطريين ، وتضم عجالات طبية وتذكرات، وضعتها الأطباء القدامى تصف ما يجب القيام به فى حالات خاصة : الطب العام وأمراض النساء وجراحة العظام وأمراض العيون . وقد عرفوا القلب =

وعندما زار الاغريق البلاد فى عهد الأسرة السادسة والعشرين تأثر خيالهم بطبيعة الحال بقدمها : « أنتم معشر الاغريق أطفال على الدوام اذ لا يوجد رجل هرم بينكم » هذا ما قيل ان الكاهن المصرى أنبا به صولون • والاحترام للآثار التى طالت عليها الحقب يقويه تحفظ المترجمين الكهنة وما يتسم به من وقار ، جعل المسافرين الشماليين يتصورون المثل العليا ، فى حدود ما وصلوا اليه من أعمال عقلية جليلة ، لعلم شعب له مثل ذلك الماضى البعيد (١) ومن الجهة الأخرى كان تأثير مصر ، فى الفنون الآلية ، عظيما فى العصور التالية (٢) •

(ج) كانت الثقافة المصرية ثقافة فن لا ثقافة أدب ، ولو أن القصص الشعبية والفاجعة (الدراما) الدينية نشأتا فى الدولة الوسطى واتاح البردى وهو هبة مستنقعات النيل ، للرسائل والسجلات المكتوبة أن تكون قابلة للحمل وسهلة • ولكن كان فى مصر هو الذى فرض طابع نفوذه على العالم الخارجى ، كما يتضح من العلامات التى يمكن تمييزها فى مصنوعات الحزف والنقوش البارزة فى الصناعة المنوية والميسنية وكان هذا قبل أن يبرز فجر

« الأوعية التى تذهب الى كل عضو » ، والعلل التى تصاب بها أجهزة التنفس كالنزلة الشعبية والتهاب الحنجرة • وتعوزنا القدرة على ترجمة كل الألفاظ التى تصف الأمراض والألفاظ الدالة على كثير من مواد العقاقير ، لكننا نعلم أنهم استخدموا عسل النحل والقشدة واللبن ، وضادات الأعشاب والتخميلة والحقنة وزيت الخروع • وتشير النصوص الى علاج الأسنان وعلمنا من فحص الموميات أنهم كانوا يعرفون كيف « تحشى » الأسنان بنوع من الاسمنت المعدنى وأنهم استخدموا الذهب لربطها • ولقد عنوا بعلاج العيون وجاءنا عدد من الوصفات التى قصد بها علاج الرمد الحبيبي والكتركتا والعشى الذى استخدموا له مزيجا من كبد الحيوان ولا تزال تستخدم اليوم خلاصة الكبد فى علاج هذه العلة •

وقد تحقق أن الكثير من مشاهداتهم للعوارض كانت دقيقة والأدوية التى استخدموها ناجعة المفعول • أما جراحة العظام ، كما جاءت فى بردية ادون سميث ، فانها تكاد تكون علمية •

وكان للطب المصرى القديم ذبوع فى الشرق الأدنى ، ولم ينكر بقراط وجالن أن بعض ما حصلوا عليه من علم بالطب جاء من المصنفات المصرية التى كانا قد درساهما فى معبد امحوتب فى ممفيس •

ويمكن لمن يريد الاستزادة أن يرجع الى ما صنفه بعض أسلام الطب من أمثال الديكاترة : حسن كمال ، ومحمد كامل حسين ، وغليونجى ، والبطراوى ، ونجيب رياض •

(المترجم)

(١) أفلاطون تيمايوس ٢٢ •

(٢) كان فى قدرتهم تحريك الأشياء الثقيلة وتكويهما ولكن لا أكثر من ذلك ، وكونهم لم يحاولوا أبدا إيجاد قناطر للنيل يبين القدر المحدود الذى كانت عليه دربتهم كمهندسين •

الثقافة الهلينية ، وعندما أهل ذلك اليوم كان الفن المصرى قد تدهور مع استثناء واحد هو الفن المعماري . لقد شيد المصريون معابد عظيمة وقبورا واستخدموا الأساطين وطرق العمد للسماح للضوء بالانسياب الى الأجزاء الداخلية بينما اقتصروا على أبسط الأبنية واعتمدوا فى الزخرفة على النقش البارز الوطىء وعلى اللون . ولقد كان لفنهم المتأخر فى الحفر أثر على فن الاغريق فى مراحلهم الأولى ولكن سرعان ما تجاوزوا تقاليده الصارمة ، ولقد أعاد حكام مصر المقدونيون احياء الفن القومي ولكن ما استنسخه الاغريق كان يجافى الذوق والدقة . واليوم بفضل علماء الآثار فان الحال غير تلك الحال . ان أعمال النحاتين العظيمة فى الأسرات الأولى قد تكشف فى جمالها لتكون مصدرا جديدا للوحى ، لفنانى العالم الحديث .

٣ - بابل وأشور (١)

٦ - والمدنية الفيضية الثانية العظيمة فى الأزمنة القديمة ، كانت مدينة بابل . ان سهل كلديا الفيضى بين مجري الفرات ودجلة السفليين كان على غرار مصر تحت نظام للرى ملائم قمينا بخصب ووفير . ولقد قام فى العصور القديمة بأود جم غير من القاطنين . واليوم بعد أن دمرت قرون من سوء الحكم رخاءه ، يتطلب الأمر كد الحيات ليذكر أن بابل كانت حينها من الدهر ، شبيهة بمصر ، أحد مخازن غلال العالم الرئيسية حيث كانت المحاصيل تؤتى ثمارا مائتين أو ثلاثمائة ضعفا . وكانت الأرض حتى بعد الحصاد الثانى تهبى الكثير من المراعى (٢) .

وحاضرة الملك التى قامت على شواطئ الفرات وأصبحت من فجر الألف سنة الثانية مقرا عظيما للامبراطورية كانت لحجمها الشارع ، أعجوبة الأزمن القديمة . وكان محيط دائرة السور الداخلى زهاء أربعين ميلا . يقول أرسطو:

(١) وهنا أيضا لم يجزم برأى فى التأريخ القديم . وعندما يوجد انقسام فى الرأى بين العلماء يكون التفضيل لأقرب التواريخ على أبعدها . وعلى سبيل المثال تواريخ سرجون ملك أكاد والأسرة البابلية الأولى . أنظر الجداول التى جاءت فى تاريخ كمبردج القديم .

(٢) حطم المغول مدينة بلاد ما بين النهرين وعجز الأتراك عن إعادة سيرتها الأولى . وقد أورد ثيوفراستس (Theophrastus) أبعد تلاميذ أرسطو صيتا فى كتابه (تاريخ النبات) : « فى بابل تحصد حقول القمح مرتين فى انتظام ثم يطعم بها الحيوان للتقليل من غزارة الأوراق وبغير ذلك لا تطلع السنابل للنبات . وعندما ينجز هذا ، فان محصول الأراضى التى تفلح فلاحه سيئة يكون خمسين ضعفا بينما يأتى محصول الأرض جيدة الفلاحة بمائة ضعف » . (اقتبسها روجرس (Rogers) : ١ ، ٤١٩) ، وازن ما جاء به هيرودوت من تقدير أكثر سخاء .

« ان بابل أمة أكثر منها مدينة » (١) . ولقد أضيف الى مواردها الزراعية الثراء المستمد من صناعات النسيج ومن تجارة رائجة (٢) ، ومنذ الألف سنة الثانية ، كانت بابل سوق النسج ومركزا عالميا ، اجذب الى أسواقه وأرصفته محاصيل الهند وايران وكان ملتقى مرور التجارة عبر الطرق الصحراوية الى الفرات من أقطار البحر المتوسط الى الغرب . والطريق الطبيعي لتوسع بابل ، كان مجاله أعلى النهر لأن سهل كالديا كانت تكتنعه من الجنوب ومن الغرب الصحراء ، ومن النسر هضبة ايران . وفي الألف سنة الثالثة كان سرجون الأكادى مؤسس أول مملكة سامية قد اجتاح أشور وبلاد ما بين النهرين وتوغل حول شمال الصحراء حتى سوريا وكنعان (٣) وعلى هذا ، فمنذ زمن مبكر تجاوز البابليون حدود مدينة سهل فيضى لتكون إحدى مدنيات البحر المتوسط . ولو أنهم عندما بلغوا البحر ، لم يستخدموه الا قليلا . وخلال ألفى سنة كان حكام وادى دجلة والفرات يتطلعون صوب الغرب الى مياه البحر المتوسط كهدف مطمحهم .

٧ - كانت ثقافة بابل وأشور التاريخية سامية ولو أنه تبيل مبعوط الساميين من بلاد العرب ، أنشأت القبائل الوطنية مدنية تعرف بالسومرية (سومر - كالديا الجنوبية) ووضعوا أسس الدين واللغة والقانون والرى والحياة المتحضرة التى ظلت أمدا طويلا بعد أن وطد الساميون سيادتهم . وقطع الجواهر هو فن مهرة البابليون ، وكان قد بلغ فى الأزمنة السومرية درجة عالية من الكمال . وكانت النقوش تحفر بالكتابة بالصور وبعد ذلك بالخط المسامرى ، حروف (رءوس سهام) وانا لنقرأ عن المشاهدات الفلكية ووضع كتب النحو والمعاجم وانشاء مكتبة ملكية . وفى أواخر الألف سنة الثالثة أو فى بكور الثانية نجد أسرة تعرف بالأسرة البابلية الأولى ، ومقرها بابل ومنذ ذلك الحين صارت عاصمة آسيا الغربية . والدين له كل الخطر فى تاريخ بابل وكانت طائفة الكهنة تستحوذ على ثروة وسلطان عريضين ، وكان الملوك يعتمدون كثيرا على حظوتهم .

(١) ارسطو - « السياسة ٣ ، ٣ ، ١١٢٧٦ » ، يجب قراءة وصف ميروودوت (١ ، ١٧٨-٨٧) ولكن روجرس (١ ، ٤٣٨) وجه النقد الى تقديره لمحيط دائرة السور ، على ضوء الحفائر الحديثة .
(٢) وعلى هذا لم تكن الحال تستدعى وأد الأبطال لتحديد النسل ولكن مناخ سهل كالديا كانت تلازمه نسبة من الوثنيات عالية .
(٣) يعتبر روجرس قيام سرجون حوالى ٣٠٠٠ ق.م ، ولكن الخطأ فى هذا التاريخ أنه أبعد مما يجب . انظر الجداول فى تاريخ كمبرج القديم ، ويمكن أن يلاحظ أن بابل كانت معرضة للغزو ، حتى من الجانب الجبلى ، أكثر من تعرض مصر له .

وحتى فى أيام سيطرة آشور لم يكن المغير يستطيع أن يستوثق من دولته
فى بابل الا بتقديم فروض الاحترام لمردوك .

ولقد كان حمورابى ، أعظم ملك فى هذه الأسرة ، هو الذى ركز العبادات
الدينية المحلية فى كلديا فى عبادة مردوك الاله - الراعى ، لبابل .

وقد نظم حمورابى المذهب الادارى للامبراطورية وأخضع عيلام الى الشرق
وأشور الى الشمال وبسط سيادته حتى سواحل البحر المتوسط^(١) وتقوم
الأدلة على ثقافة عصره من الآثار الأدبية العظيمة التى تضم ألواح عقود
ورسائل ملكية . ولكن أهم أثر تذكارى لحكمه هو مدونة القوانين التى
كشفت عنها فى السنوات الأولى من هذا القرن علماء الآثار الفرنسيون فى
سوس^(٢) .

وهذه المدونة - أحكام الاستقامة التى وضعها حمورابى ، الملك العظيم -
نظمت فى دقة واحكام القانون المدنى فى بابل ويشمل الملكية والعقود والزراعة
والتجارة وأعمال المصارف والزواج والتبني والارث وكذلك سير المرافعات
القضائية ، وتشهد على المكانة الهامة التى كانت بابل قد وصلت اليها فى
تجارة الأمم . وهى تكون مذهبا محكما لقانون الدولة ، ولو أن آثارا منها
ترجع الى ما جرت عليه العادات الأولى مثل قانون حكم الله والقصاص بالمثل
(العين بالعين) ، وهى تمثل تقدما عظيما بالقياس الى قانون العادات فى
المجتمعات الأولى . وقد حرم الانتقام بسفك الدم وقصر تطبيق شرعة المثل
بالمثل (lex talionis) على اجراءات المحاكم المقررة ، والناس من كل
الطبقات ، الغريب والمولود فى البلاد ، على السواء تنتظمهم حماية القانون .
ومن الطرافة بمكان بالغ أن تقرأ كيف ان أمثال هذه المسائل الحديثة كالاغفاء
من الخدمة العسكرية وثبات الملكية والتعويض عن التحسينات الزراعية ورقابة
تجارة الخمور ، وأودائع المصارف ، والمسئولية عن ديون الزوجة والحقوق
الشرعية للنساء والأطفال نظمها هذا الحاكم البابلى فى ختام السنوات الألف

(١) حمورابى (حامورابى وحيمورابى) يمكن أن يكون امرافل (Amraphel)
سفر التكوين ١٤ : ١ ويضع روجرس تاريخ الأسرة البابلية الأولى من
٢٢٣٢ الى ١٩٣٢ وحمورابى من ٢١٣٠ - ٢٠٨٧ .

(٢) وقد كشف أيضا عن أجزاء منها فى مكتبة آشور - بنى - بال فى
نينوى ، وقد ترجم المدونة القس س . هـ . و . جونس (Rev. C.H.W. Johns)
« أقدم مدونة قوانين فى العالم » .

الثالثة ق.م. وبامتداد المدينة البابلية الى سوريا وفلسطين فان مدونة قوانين حمورابي والقانون الذي جاء بعد ذلك مستندا اليها وضعا طابعهما على تشريع الساميين الغربيين (١) وظلت المدونة نفسها ناعذة المفعول زمنا مديدا في العهد المسيحي وأثرت بعد ذلك على شرائع غزاة الشرق المسلمين ، وغدا يبرز البابليون كقوة تعمل على بسط المدنية في آسيا الغربية ، وانتشرت في كل ربوع الشرق لغتهم وعملتهم ومعايير أوزانهم ، وكانت نساؤهم يستمتعن بمركز قانوني توفرت فيه الكرامة لهن ، وكان في قدرة الانسان أن يمتطي متن دابته في أمان من الخليج الفارسي الى البحر المتوسط تحت حماية قوانين حمورابي .

٨ - وبتقدم أعوام السنوات الألف الثانية ، حل الوهن بمملكة بابل ونهضت في الشمال سلالة جديدة تصعد نحو العظمة ، على شواطئ دجلة ، حول نينوى ، وهذا الشعب ، أبناء آشور أو الأشوريون وهم مستعمرون ساميون من بلاد بابل ومن رعايا حكامها في بادئ الأمر ، أصبحوا غزاتها حوالي سنة ١٣٠٠ ق.م.

وقد كان البابليون شعبا من الزراع والتجار ، وكان الدين أجل قدرا في أوضاعهم العامة من فن الحرب ، أما الأشوريون فعلى النقيض كانوا منذ البداية الى النهاية سلالة حرب ، وكان ملوكهم قيادة تحت امرتهم أشرف عسكريون ، ولما كانوا أكثر شعوب الشرق الأخرى غلظة وقسوة فان تاريخهم هو سجل حروب وغزوات ، وما اكتسبوه من ثقافة استعاروه من بابل ، وكان التقدم الوحيد الذي حققوه هو البناء بالحجر كما كانوا يبنون بالأجر ، وتسجل الثيران المجنحة الضخام والألواح المنقوشة في المتحف البريطاني قصة متواصلة عن الحروب الوحشية .

وقد كتب أحد الأمراء الأشوريين القدامى عن أعدائه : «ملاّت بجسومهم وديان الجبال وقللها ، بترت رهوسهم وتوجت بها حيطان مدائنهم ، وجلبت العبيد والغنائم والكنوز ، أشياء لا تحصى » ، وكان الأشوريين يخلصون ، في تعصب ، لدينهم ، وكانت جميع انتصاراتهم باسم الههم آشور ولجده ، ولكن لم يكن للكهنة الا أثر قليل في استشاراتهم ، وكان أمراؤهم أول من استبدل الاقتراع السنوي بجيش دائم وكانت انتصاراتهم الحربية ترجع الى حد عظيم الى ادخال الفرسان لشد أزر المركبات ، ويشهد على قدرتهم على

(١) عن الموضوع الطريف عن العلاقة بين الشريعة الموسوية ومدونة القوانين البابلية ، انظر س. ١٠ كوك (S.A. Cook) « نواميس موسى ومدونة قوانين حمورابي » وأوجه التشابه ترجع بالحرى الى الأصل السامي المشترك لا التأثير المباشر وربما يرجع تاريخ تأثير بابل على شريعة العبريين الى السبى (القرن السادس ق.م) .

تنظيم الامبراطورية ، طبقات الموظفين المحكمة ، وفرض ضريبة سنوية ثابتة على الاقاليم ، وبلغت قوتهم أوجها في ثلاث حقب في تاريخهم ، في القرن الثاني عشر ، ومرة أخرى في غضون القرن التاسع ، ثم في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن السابع (١) .

وكان في القرن التاسع أن نزل سوط الجيوش الاثورية على سوريا وكنعان وأطاح بمملكة اسرائيل ووصل الى شواطئ البحر المتوسط .
وسقطت السامرة مقر حكم المملكة الشمالية (الافرايمية) التي حاصرها شالمنسر الرابع ، أمام سرجون عام ٧٢١ . وقد رأينا كيف اجتاح سنخارب ، بن سرجون ، بعد ذلك بعشرين عاما ، مملكة يهوذا وهدد مصر بالغزو وكيف أن الغزو نهض به بعد جيل من الزمان ، خليفته اسرحدون الذي امتدت امبراطوريته من هضبة ايران حتى صحراء ليبيا والشرق الأدنى وشملت أيضا مرتفعات ميديا وجزيرة قبرص . وأعقب موته (عام ٦٦٨) ، تدهور (٢)
قوة آشور ، فقبل ختام القرن ، هوت بها الحال الى عقد تحالف مع الميديين والبابليين الذين استردوا استقلالهم في عهد نابولسر . وبسقوط نينوى (٦١٢) توارت امبراطورية آشور من التاريخ وسرعان ما طوت زمال بلاد ما بين النهرين سجلاتها .

ان مجدها تعفى وانقضى

من نينوى باقية الذكر .

الى أن أزاح بونا (Botta) وليار (Layard) ، في القرن التاسع عشر الميلادي الاحجار التي تقص قصة شراستها وغزواتها (٣) .

(١) الفترة الثالثة والاخيرة من عظمة آشور استهلها تجلات بليسر الثالث (Tiglath Pileser III) (٧٤٦ - ٧٢٧) الذي غزا بابل ودمشق ، ثم واصلها شالمنسر الرابع (Shalmaneser IV) (٧٢٧ - ٧٢٢) ، وسرجون (٧٢١ - ٧٠٥) وسنخريب (٧٠٤ - ٦٨٢) ، واسرحدون (Esarhaddon) (٦٨٠ - ٦٦٨) ، آخر ملك عظيم ، وفي عهد ابن اسرحدون - آشور بنى بال (٦٦٨ - ٦٢٦) الذي وضع قناعا رقيقا من الثقافة على وحشية الحكم الاثوري ، تدهورت قوة الدولة سراعا . ومكتبة آشور بنى بال العظيمة هي مصدر أساسي لعلمنا بتاريخ بابل وآشور .

(٢) ساعدت الغزوات السيثية (القمرية) (Scythian Cimmeric) على هذا التدهور . راجع الفقرة ١٧ فيما يلي .

(٣) روستي (Rossetti) : (The Burden of Ninevel) . استقبل سقوطها بالابتهاج من الشعوب التي تحيط بها . ونقرأ في ناحوم : ٣ ، ١٩ : « كل الذين يسمعون خبرك (أى سقوطك) يصفقون بأيديهم عليك لأنه على من لم يمر شرك على الدوام » . وسقطت المدينة أمام الميديين الذين استولوا على آشور الاصلية ، وأما بلاد ما بين النهرين والارض السورية - الفينيقية ، فقد أصبحتا من نصيب البابليين .

٩ - وتقاسم الظافرون الأسلاب فيما بينهم ، ما خلا مصر التي استعادت استقلالها في سنة ٦٦١ ، بعد سنوات أربع من الخضوع . ولكن انتصارهم كان قصير الأمد . وقد انحطت قوة ميديا سراعا بعد موت مؤسسها قواكسرس (Cyaxares) أما قوة بابل فقد بلغت ذروتها في عهد نبوخذ نصر (٦٠٥ - ٥٦٢) الذي أخضع سوريا وبيت المقدس وحمل أهل يهوذا الى الأسر في بابل (٥٨٦) (١) .

وقد جعلت أبنيته ومعابده وقصوره وجناته المعلقة من بابل إحدى عجائب الدنيا . ولكن قبل مضي زمن طويل حل بأسرته المصير المقدر ان أجلا أو عاجلا ، على كل امبراطورية شرقية . يهبط المحاربون الأشداء من المرتفعات المجاورة الى السهول الخصيبة ويظفرون بمستعمرة جديدة ويلمون شملها لتخضع في دورها ، عندما يمتص الترف العصاراة الحيوية في قوة حكامها وشعبها ، لسلالة جديدة من الغزاة . ونجد الفرس الآن (٥٥٣) وهم زراغ اولو نشاط ينزعون للحرب ، ومن الجذع الهندي - الأوربي ويسكنون الصقع الجبلي الى الشرق من الخليج الفارسي قد قاموا ضد أسيادهم الميدين تحت امرة زعيمهم قورش (Cyrus) وبعد انقضاء أربعة عشر عاما (٥٣٩) يفزون بابل . وتمر الفا سنة من السيادة واذا الامبراطوريات السامية تكون قد هوت ولون آخر من المدنية جديد ، من أصل آري يسطر سلطانه على الشرق (٢) .

١٠ - وقد أدى امتداد سلطان الامبراطورية البابلية وسيادتها التجارية في آسيا الغربية الى انتشار ثقافتها على مساحة أعظم مما كانت عليه الحال مع مصر . وكانت تلك الثقافة أدبية وليست فنية ولو أن قطع الأحجار الكريمة وصناعة النحاس والتطريز وما الى هذه الفنون ازدهر في بابل وغدت حلال بابل مضرب الأمثال في أرجاء العالم القديم . وكانت العمارة الوطنية من الآجر ولا شكل لها ، نسيبا ، وكانت المعابد ، وهي أبنيتهم الرئيسية ، تقوم على منصات مستطيلة وترتفع في طبقات متتابعة الى علو

(١) كانت الأسرة المشار اليها ، على التحقيق كلدية . كان الكلديون محاربين أكثر مما كان البابليون ومع هذا كانوا مثلهم قادرين على تبوء مستوى عال من الثقافة . وقد أطلق الكتاب الاغريق اسم كلديا على بابل ، على وجه عام ، ومعناها في الأصل أرض كلدى ، وهم ساميون كانوا يقطنون بالمكان الذي يقع حول مصبي الفرات ودجلة بين بابل والخليج الفارسي .

(٢) كان قورش ملك اتران في عيلام ينتمى الى عشيرة فارسية من الأكمينيين ، وفي سنة ٥٥٣ ، بعد أن غزا ميديا ، نادى بنفسه ملكا على الفرس . وفي سنة ٥٤٦ دارت الدائرة على كرويسس (Croesus) ملك ليديا ، الذي كان قد شن الهجوم عليه وأصبحت كل آسيا الصغرى في قبضة يدي قورش . ويرجع روجرز (Rogers) تاريخ سقوط بابل الى سنة ٥٣٩ .

عظيم . وبعد ذلك استخدم الآشوريون أحجارهم الوطنية وزينوا قصورهم بتماثيل هائلة وبالرسوم البارزة بروزا وطبئا التي يعهدا كل زائر للمتحف البريطاني . وتنهض ثلاث مسائل فيما يتعلق بتأثير الثقافة البابلية على أهم مدنيات الأزمن القديمة . أولا يوجد تشابه وثيق بين تقاليد البابليين الدينية وتقاليد العبريين كما جاءت مدونة في الفصول الأولى من سفر التكوين وفيها نقرأ عن جنة عدن والظوفان والتابوت وعن برج بابل وتبلبل الآلسنة . وقد سرد العبريون كيف أن أجدادهم في مرحلة بداءة قطنوا مدة من الزمان بكلديا . ومن العسير أن نحكم حكما قاطعا عن مدى رجوع هذه القرابة في التقاليد الى الاتصال المباشر مع بابل في الأزمن البعيدة ، والى أى مدى للاختلاط الذى حدث بعد ذلك مع شعوب كنعان الذين تمثلوا ، على اليقين ، ديانة بابل المتأخرة والى أى مدى ، مرة أخرى ، للاتصال المباشر زمن الأمر^(١) . ومهما يكن من أمر هذا ، فيما يتصل بتفصيلات التقاليد الدينية العبرية وفرائضهم ، تبقى الحقيقة الواقعة وهى أن تطور ديانة العبريين على أيدي النبيين الى ديانة توحيد روحية كان خلقا مبتكرا متميزا جاءت به العبقرية الدينية العبرية كما كانت فلسفات افلاطون وأرسطو التى جاءت بها عبقرية اليونان العقلية . ثانيا يوجد موضوع تأثير علم الفلك الكلدى على الفكر العلمى الاغريقى . لقد سجل الكلديون مشاهدات دقيقة عن مواقع الأجرام السماوية لمدة تربو على ألفى سنة . وتعرفوا الكواكب السيارة وسموها وقرروا ، بالطريقة التجريبية ، ترادف حدوث الكسوف والخسوف الدورى واخترعوا المذهب الستينى فى الحساب^(٢) وقد صنعوا الموزلة وهى أداة تبين بظلمها ، الانقلابين والاعتدالين . ولقد عرف الاغريق هذه المعطيات وعلى غرار هندسة المصريين التجريبية ، حفزتهم على البحث العلمى . ولكن

(١) ينقسم العلماء فى الرأى عن هذه المسألة ، والقصاص المنوه عنها يحويها ذلك القسم من سفر التكوين الذى وضع فى يهوذا فيما يرجح ، فى القرن التاسع والمعروف باسم قصص يهوه (ى) . انها على التحقيق قبل السبى ، ويجب الرجوع بسببها الى أحد الأمرين الأولين اللذين جاءا فى النص ، وفى أثناء السبى أثرت بابل مرة أخرى على الثقافة العبرية فى الدين والقانون جميعا . وفى تاريخ آخر لاحق أدى امتزاج الشرق والغرب تحت الحكم المقدونى الى مزيد من تأثير الفكر الدينى البابلى على الفكر الدينى عند العبريين ويمكن اقتفاء أثر ذلك على سبيل المثال ، فى أدب الرؤيا العبرى ، فى القرنين الأخيرين قبل الميلاد وكذلك فى أفكار الغنوصية فى بكور أزمنة المسيحية .

(٢) انظر بورنت (Burent) ، الفلسفة الاغريقية الأولى ، الصفحات ٢١ وما بعدها والتذكرات . وقد أقرت بحوث الأب كجلر (Father Kugler) حدود معارفهم الفلكية ، وفى بابل ومصر كان ما يسمى « علما » وقفا على طبقة الكهنة .

هنا أيضا ، مجرد للملاحظة ليس يعلم . ويتضح هذا عندما نبحث عن النفع الذى حققه الفلكيون البابليون من هذه السجلات . وبينما كشف الاغريق فى قرن واحد من الزمان السبب الحقيقى للكسوف والخسوف ، فان البابليين لم يواتهم أبدا حتى أن يصلوا الى التفسير المعقول لهما . لقد استخدموا معطياتهم لاغراض فلكية خالصة فاذا حدث أن كسوفاً أعقبه ، مرة ، حرب مع عيلام ، فان حرباً مع عيلام كان قد تبنى به من حدوث الكسوف . والملاحظات مهما كانت دقتها ، التى ينتفع بها لمجرد أن تكون أساساً لاستنتاجات يجمع فيها الخيال ، لا يأتى من ورائها معرفة علمية (١) . وأخيراً كان للمدنية البابلية تأثير صادق فى حياة العالم الغربى الصناعية والتجارية والطريق العام التى كانت تسير حول شمال الصحراء السورية عبر آسيا الصغرى الى سرديس وساحل بحر ايجا كانت حلقة الاتصال بين الشرق وايونان . وعلى الأخص ، لاقت العملة والمقاييس البابلية فى الألف سنة الأولى انتشاراً واسع النطاق فى آسيا وعالم البحر المتوسط . واستخدم الهنود والاعريق ، على السواء ، المنا البابلى (Mna) الاغريقى كعيار للوزن . وعلى هذا فمنا زمن باكر فى بابل الى الشرق كما فى غرناطة الى الغرب ولح السامى دوره التاريخى ، فى تاريخ البشرية الاقتصادية .

٤ - الحيشون والساميون الغربيون

١١ - رأينا كيف أن الثقافة السامية وضعت طابعها على مدينة مصر واستغرقت مدينة السومريين الأوائل فى وادى دجلة - الفرات . وكانت الحال على هذا المنوال فى الاقاليم المحصورة بين بلاد ما بين النهرين والبحر المتوسط . وكانت لغة ودين وثقافة سوريا وكنعان سامية منذ أزمن بعيدة جدا ، ويمكننا أن نميز فروعا متباينة من هذه الأرومة : الساميين الجنوبيين فى بلاد العرب واثيوبيا ، والساميين الأوسط فى كنعان ، والساميين الشماليين (الأراميين) فى سوريا والشرقيين فى بابل وأشور ، ولكن كلهم على السواء كانوا أولاد بيت عربى واحد وأواصرهم المتبادلة تبرز فى وضوح كأواصر العديد من الجماعات التيوتينية فى أوربا القرون الوسطى وأوربا الحديثة . وعلينا أن نتحدث الآن هنا عن الفرعين الشمالى والأوسط ويشمل الأول شعوب سوريا والثانى الفينيقين ، والقاطنين بكنعان وعن بينهم العبريون . وهذه جميعها ، بالنظر الى موقعها الجغرافى بين امبراطوريتين

(١) يجب أن نقيم جيدا يفرق بين علم التنجيم غير العلمى عند الكلدانيين الأوائل و(١) الأثر المتأخر لعلم التنجيم ذلك ، وعلى الدين الاغريقى الشعبى ، و(٢) التطور العلمى لعلم الفلك تحت التأثير الاغريقى فى بابل ، وكلاهما لاحق للفرزو المقدونى .

عظيمنتين ، تقوم بدور الدول الحاجزة ، ولما كانت الوسيطات فى التجارة وبيادق اللعبة السياسية لجاتيهم اللتين تفوقانها قوة ، فان تاريخها تقرر مصيره ، للخير أو الدمار ، علاقتها بأشود ومصر .

١٢ - وبين هذه الوسيطات قامت أمة ، تكاد على التحقيق إلا تكون سامية ، بلغت ، طوال قرون كثيرة ، مرتبة دولة تمت لها القيادة فى آسيا الغربية . وتبين سجلات الألف سنة الثانية ، المصريين (فى عهد الأسرة الثامنة عشر) وبعد ذلك ، هونا ما ، الإثوريين يصالون على الفرات الأعلى شعبا يطلق عليه اسم خيتا أو الحِيثيين ^(١) . ان أصلهم يحيط به الغموض ونقوش كتابتهم التى اتخذت أشكال صور لم تفسر بعد وتاريخهم يزخر بالمشاكل التى تنتظر حلا . ويظهر من المحتمل أن بعضهم ، ان لم يكونوا كلهم ، كانوا يتحدثون بلغة هندية - أوروبية ودخلوا آسيا الصغرى من الدانوب الأدنى وجلبوا معهم ثقافة ولغة خاصتين بهم، أتت عليهما بالتحوير، بعد ذلك ، المؤثرات السامية التى كانت سائدة فى أرجاء الشرق الأوسط. ^(٢) وكان أول مركز لما استعمروا من أراض ، هضبة كبدوكية (بلاد القبادق) حيث كشف عن الكثير من الآثار الحِيثية ، ثم اتسع نطاقها حتى شمل كيليكية وشمال سوريا وشعوب غرب آسيا الصغرى (أفروجيا وليديا) ^(٣) حدث هذا بين عامى ١٧٠٠ و ١٢٠٠ ويظهر أنهم حوالى هذا التاريخ الأخير ، فقدوا سيادتهم على آسيا الصغرى والطرق الى تجارة البحر المتوسط والبحر الايجي ، وربما كانت ترتبط هذه الحوادث بالغزوات الشمالية فى منطقة بحر ايضا وسقوط سيادة كريت البحرية . ومنذ هذا الوقت فصاعدا حول الحِيثيون السورويون وأساد آسيا الصغرى الجدد (ربما كانوا أفروجيين) نشاطهم الى الشرق ، والجنوب الشرقى وقد اجتذبتهم موارد ما بين النهرين

(١) انهم يظهرن باسم خيتا فى المدونات المصرية وحتى (Khatti) فى الإثورية وفى سفر التكوين « أولاد حث » (التكوين ٢٣) وفى غيره من أسفار العهد القديم باسم الحِيثيين .

(٢) بعض الكتابات المسبارية من بوغاز - كوى (عاصمتهم فى كبدوكية) سامية وبعضها غير ذلك . كانت السامية اللسان الشائع فى التواصل الدولى فى الشرق . وقد وجدت النقوش الهروغليفية فى آسيا الصغرى وكذلك فى شمال سوريا ويظهر أنها جاءت متأخرة عن الحط المسمارى ، ولقد خطت الدراسة الجدية للآثار الحِيثية خطوات عظيمة فى النصف قرن الأخير . وكان روادها رايت (Wright) (١٨٧٢) وسايس (Sayce) ، أنظر كاولى (Cowley) (الحِيثيون) محاضرات اشفايش ١٩١٨ (Schweich Lectures)

(٣) وجدت آثار حِيثية فى إيوك فى شمال آسيا الصغرى حتى حمص فى سوريا . ومن الفرات فى الشرق حتى « ساحل ايبة فى الغرب » .

الغنية . ومن مركز رياستهم الجديد فى قرقيش^(١) فى أعالي الفرات أصبحوا يسيطرون على الطرق البرية العامة بين الشرق والغرب . وتعاملوا على قدم المساواة مع مصر وأشور كليهما . ولعدة أجيال رأسوا تحالفا أوصد الطريق أمام توسع الساميين ، الساكنين بلاد ما بين النهرين ، صوب الغرب وفى القرنين التاسع والثامن اتخذت قوتهم تحت وطأة جيوش آشور وأوقع عليهم الضربة الفاضية كروسس (Croesus) ملك لىديا فى الغرب ، قبل مجيء الفرس نؤمن وجيز .

١٣ - وإذا تجاوزنا الولايات السورية - وهى سامية دون نزاع - التى كانت تقع على طريق القوافل من آشور الى البحر المتوسط وأصابت حظها من الثقافة من مصر بصفة جزئية ، ولكن أساسيا من البابليين ، فاننا نصل الى الأراضى الساحلية فى كنعان الشمالية حيث كان يستوطن ، على الأقل منذ السنوات الألف الثالثة ، الفينيقيون الساميون . وكانت حياتهم بأجمعها تتركز فى التجارة البحرية . ولما كانوا يستحذون على رقعة من الأرض ضيقة ، فى موطنهم ، فقد أقاموا الحصون والمحطات النجارية فى محاذة الطرق العامة الداخلية وخاصة حول شواطئ البحر المتوسط . وكانت صيدا فى الأزمن الأولى ، المدينة الفينيقية الهامة .

وحوالى القرن الثامن عشر تخلت عن مركزها لصور . وانا نقرأ فى العهد القديم عن التحالف الذى عقد فى القرن العاشر بين داود وسليمان وحيرام أمير صور . وكان الفينيقيون يسكنون دول - المدن ، تحت حكومة ملكية ، وبهذا كانوا يستبقون ، ولو فى نتائج جد متباينة ، دول - المدن فى العالم الهلنى . ويقع عصر القوة البحرية الفينيقية العظيمة وجلائل أعمالها التجارية بين سنتى ١٢٠٠ و ٨٠٠ فى أعقاب سقوط قوة منوىا البحرية فى البحر المتوسط وقبل نهوض اليونان . وقد كانت سفائن فينيقية تجارية العظيمة تبحر صوب الغرب الى ما وراء عمد ملقارت (جبل طارق) فى عرض المحيط الأطلنطى ، واستوطنوا تارشيش (طارطسوس (Tartessus) على مقربة من قادس (Cadiz) وجابوا ساحل مراكش بحرا وتوغلوا أيضا صوب الشمال الى البحر الأسود ، وأينما أبحروا ، كانوا يقيمون المستعمرات ، فى صقلية وأسبانيا وأفريقيا وأقدم ما جاءت به المدونات كانت أوطيقا فى افريقيا الشمالية (حوالى ١١٠٠) وأبعدها صيتا كانت قرطاجنة وبترادف الزمن نبذت قرطاجنة اعتمادها على المدينة وطنها ، صيدا وبسطت سيادتها

(١) جاء أول ذكر لقرقيش فى المدونات المصرية حوالى سنة ١٤٨٠ وكانت مركز دولة الحثيين بين القرنين الثامن عشر والتاسع . يجب أن نذكر الحثيين أصلا كحاجز بين بابل وأشور من جانب وآسيا الصغرى وبحر ايجة من الجانب الآخر .

على الأراضى التى تجاورها فى أفريقيا وأنشأت مستعمرات لها ووضعت حكرا على التجارة فى مياه البحر المتوسط الغربية . ولا تزال باقية بين أيدينا نسخة اغريقية ترجع الى القرن الخامس لرحلة قام بها حنو القرطاجنى الى ساحل أفريقيا الغربى .

ومنذ القرن السابع كانت قرطاجنة مشتبكة فى صراع تجارى لا ينقطع مع المدن الاغريقية فى صقلية وفى الغرب استمر حتى القرن الثالث عندما استدهت الحال مجابهة قوة روما التى كانت تسير فى صعود . وسنعود لقصة هذا الصراع فى فصل آت . وقد وجد الفينيقيون فى مناجم الفضة فى أسبانيا مصدرا لثروة هائلة . وكان أحد نتائج هذا الكشف هو انخفاض قيمة الفضة بالنسبة لقيمة الذهب ، وقد كانت حتى ذلك الزمن يعسر العثور عليها فى آسيا وافريقيا ، ك معدن له أعلى قيمة . واجتكر الفينيقيون أيضا حينما من الزمن ، صبغ الأرجوان الذى يستخرج من الرخويات البحرية . وبعد القرن الثامن فقدت فينيقية استقلالها . وفى زمن لاحق أمدت أسيادها الجدد الفرس بالأسطول . وكنا نعتبط أن يكون لدينا مزيد من المعرفة عن الاقتصاد الداخلى لهذه المدن العظيمة حيث كان تصادم المصالح مصدرا للقلق الدائم . ومع كل ما وصلوا اليه من حذق فى التعدين وصناعة المعادن وجسارتهم فى البحار ، فان الفينيقيين لم يكونوا مبتكرين . لقد كانوا الوسطاء العظام فى زمنهم وكان عملهم ببساطة ، أن يوزعوا منتجات البلدان الأخرى على شعوب عالم البحر المتوسط .

١٤ - ويدين سكان كنعان الساميون ، الى جنوب فينيقية بأهويتهم التاريخية لما كان يربطهم من أصرة وثيقة مع العبريين ، بعد الفترة التى امضاها العبريون على تخوم مصر ، وانقاذهم على يد موسى (عليه السلام) فى الأسرة التاسعة عشرة ، تجولوا فى صحراء سيناء الى أن نجدهم يستقرون فى قادش فى جنوبى كنعان . رسنرى فيما بعد كيف أن موسى كان قد أوجد أمة عبرية بأقراره عبادة يهوه كدين قاصر على الأسباط العبرية . وبعد ذلك ببضعة أجيال ، عندما دخل العبريون كنعان ، تشبعوا بثقافة السكان الأولين وتحت التأثير الكنعانى ، أبدلوا عادات البداوة بحياة زراعية مستقرة ، وفى ختام الألف سنة الثانية نجم عن الكفاح مع الفلسطينيين وهم شعب غير سامى وربما كانوا مهاجرين من كريت ، قيام النظام الملكى فى عهد شاول البنيامينى واستهلال حقبة قصيرة من الرخاء الديوى . واحصم داود الشعوب التى تربطها وشائج القرابة ، مواب ، وادوم ، وعمون ، والممالك السورية الى الشمال ، وفى عهد خلفه سليمان ، نمت التجارة وصار للعبرانيين اتصال أكثر قربا بالثقافتين المصرية والبابلية ، واصبحت الحياة أكثر ترفا وحجبت ، ببساطة ، العادات القديمة بمدينة البلاط الحضرية . وبموت سليمان (حوالى ٩٣٣) أعلن الاسرائيليون

الشماليون يقودهم سبط افرايم استنقلالهم عن الجنوب (يهوذا) ، ودامت الملكية المنقسمة فى أعداد متقلبة ، مدة تزيد على مائتى عام ، وقامت المملكة الشمالية ، وكانت أقوى الملكتين ، بدور عظيم فى السياسة الدولية فى عهد بيت عمري الذى سجلته ألواح أشور ، ولكن كان من الواضح أن الموضوع موضوع زمن ليس غير اذ أنهم وقعوا تحت وطأة جيوش الشرق • وفى سنة ٧٢١ سقطت السامرة ، أمام سرجون الأشورى وتوارت عن انوجود المملكة الافرايمية • وأنقذ يهوذا ، فترة من الزمان ، اعتراف ملوكها بولائهم فى الوقت المناسب ، وفشل سنخارب فى مصر (٧٠١) الى أن حلت بابل محل أشور كدولة دانت لها السيادة فى الشرق • ثم على يد نبوخذ نصر حلت ساعة مصيرها المحتوم (٥٨٦) واستطال زمن الشعب العبرى فى الأسر عند انهار بابل الى أن حملهم قورش مؤسس الامبراطورية الفارسية على العودة الى استيطان موطنهم القديم (٥٣٨) وكان فى هذا العهد أن العبريين - وقد أصبحوا على عقيدة دينية محضها الألم وشريعة تجددت تحت تأثير المعلمين الذين ينزعون الى النبوة ، ولو أنه كان لهم شأن يسير فى المجالات الدولية الدنيوية - استهلوا رسالتهم الروحية للبشرية •

وستنحدث فى الفصل القادم عن عبقرية العبريين فى الدين وعن أثرهم فى مدينة العالم •

٥ - كريت

١٥ - ألقينا نظرة شاملة على مصر وبابل وأشور وكنعان وسوريا حتى النصف الأخير من القرن السادس ق.م • عندما طوتها امبراطورية فارس القوية بين حناياها • ولكن لايزال علينا أن نتحدث عن سلسلة أخرى من مدنات قامت فى كريت وجزائر بحر ايجا وشواطئه ، لقد سبق أن ألعنا الى الغارات التى كان يشنها جوايو البحار على مصر فى زمن الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين • ترى من كان شعوب البحر هؤلاء الذين تسميهم الآثار المصرية (داردنويين واقيوشسيين) وهما اسمان يقاربان اسمى دردانيين (= الطرواديين) واخائيين ، اللذين جاءا فى هومر ، وثمة طرافة خاصة يلمسها المتتبع لتاريخ هذه السلالات الابجية الأولى علاوة على طرافة الكشوف العجيبة التى رفع النقاب عنها علماء الآثار فى السنوات القربية ، فى أنهم كانوا السابقين الأولين للاغريق • فمئذ سبعين سنة حلت ، لم يكن يعرف الا اللذر اليسير أو لا يعرف شئ ما على التحقيق ، عن حياتهم وتاريخهم • وكان الرائد لعلم آثار ايجا هو هينريش شليمان (Heinrich Schieman) لقد أثارت خياله وهو صبى فى حانوت تاجر فى المانيا ، القصص التى جاءت فى أشعار هومر ، فعلم نفسه الاغريقية وأصاب نجاحا فى العمل واكتنز مالا وفيرا وكان هدفه الأوحد هو أن يحقق بالبحوث فى موقع طرواده تراث العالم القديم

الهومرى صدق قصص الألياذة وفي حصارك في الطرواد (شمال عرب آسيا الصغرى) ، موقع طرواده كما ذهبت اليه الشائعات . وفي ميسنيا (Mycenae) وفي طرونس (Tiryns) ، في بلوبونيسس ، أزاح التراب عن معالم مدنية عظيمة يرجع تاريخها الى الألف سنة الثانية قبل الميلاد (١) واقتفى العلماء من جميع الأمم خطواته ويأتي كل عام بمزيد على كنوز المعرفة الوفيرة التي كشف عنها على هذا المنوال ، عن حياة منطقة ايجيا الأولى وثقافتها ، ويمكننا هنا فقط أن نرسم الخطوط المجملة لبعض النتائج الرئيسية التي كشف القناع عنها .

١٦ - في غضون السنوات الألف الثالثة قامت في جزيرة كريت مدينة باهرة متبينة الأشكال اتسع نطاقها على مدى الزمن حتى شمل جزر بحر ايجيا ورودرس وقبرص وشبه جزيرة اليونان والجزائر الايونية وتشعبت أفرع لها بعد ذلك في سوريا الشمالية وصقلية وفي غربى البحر المتوسط وأدت الى التواصل مع فلسطين ومصر . واطلق عليها اسم منوية (Minoan) باسم منوس (Minos) واضع القوانين وصديق زيوس (Zeus) الذى جاء فى الأساطير الاغريقية وتوجد ذكرى سيادته على البحار محفوظة فى صفحات ثقوديدس (Thucydidos) (٢)

والسلالة التى قطنت بكريت فى أزمان ما قبل الهلينية لم تكن آسيوية ولكنها من سلالات البحر المتوسط وتنتمى على ما يرجح كثيرا الى الأرومة غامقة اللون طويلة الرأس ، قصيرة القامة الناحلة الجسم التى كان موطنها الأصلي فى شمال أفريقيا . ان كريت حلقة اتصال طبيعية بين أوروبا وآسيا وأفريقيا وأصبحت على الزمن مركز امبراطورية بحرية تجارية قوية . وكانت مدينتها لها لون يتميز عن مدينتى مصر وبابل وبلغت ذروتها أولا عند استهلال الألف سنة الثانية (الفترة المنوية الوسطى الثانية) عندما كانت الأسرة الثانية عشرة تتولى الحكم فى مصر ومرة أخرى ، بعد ذلك ببضعة قرون (الفترة المنوية المتأخرة) ، فى وقت معاصر للأسرة الثامنة عشرة المصرية . وعلى هذا فقد ظل ازدهارها متواصلا قرابة ٦٠٠ عاما .

(١) تعرف شليمان (Schliemann) طرواده الهومرية على أنها الثانية (من أسفيل) من سلسلة المدن التى كشف عنها فى حصارك . وفى الواقع ، اتضح أن هذه المدينة ترجع الى تاريخ سابق كثيرا (حوالى ٢٠٠٠) وأن المدنية الهومرية كانت المدنية السادسة أو ربما أوائل السابعة فى السلسلة (حوالى ١٤٥٠ - ١٢٠٠) .

(٢) ثقوديدس (Thuc) - ١ - ٤ - قابل هيرودوت ١٧١-١٧٣ . ينسب قدماء الاغريق الكثير من قانونهم ، (مثلا تشريع لكورجس (Lycurgus) فى اسبارطه) وفنهم (أسطورة الصنع ديدالوس (Daedalus) أول طيار ، الذى أقام اللبورنت لمنوس ، والتمائيل التى تتحرك من تلقاء نفسها) والدين (ولدزوس فى مغارة دكتى (Dikte) الى أصل كريتى .

ولقد كشفت الحفائر الحديثة في كنوسوس (Cnossus) وفايسطس (Phaestus) وغيرها من الأماكن عن قصور ملكية رائعة تزخرها النقوش البارزة المنحوتة والصور وتحوى كنوزا من صناعة المعادن، من الذهب والبرنز والنحاس ودمى من العاج والصيني وجواهر محفورة وخزفا فى بدع نادر ، وكلها تقدم الأدلة الكافية على المستوى العالى الذى وصلت اليه الثقافة والتهذيب . وقصر كنوسوس بنا فيه من تيه الغرف ، طبقات بعضها فوق بعض والمجازات والساحات ، هو فى ذاته مدينة وهو قصر التيه (اللورنت) الحق ، الذى كان فيه الأسرى ، كما جاء فى الأسطورة واستبان الآن أنها سجلت صدقها التاريخي ، يقادون فى ميدان مصارعة الثيران كقرايين للوحش المقدس الذى كان معبود كريت . وكان نظام المصارف والمرافق الصحية خليقين بالقرن العشرين بعد الميلاد . وعندما استعرضت أمام عالم فرنسي أردية النساء فى صور الحيطان هتف : « ولكن انهن لباريسيات » ! mais ce sont des Parisiennes ! ولقد صورن فى لبوس محكم بذراعات مطرزة قصيرة وأردان واسعة وقمص طرال الشق من الأمام ونطق صغار الصدر خيطة عند أعلى حوافها شرط أو اتخذت شكل ناقوس ، وبنىقات عالية كتلك التى كان يتخذنهن سيدات الحاشية فى إنجلترا على عهد اليصابات، وكانت شعورهن مزرفنة (مجدونة كالزرفين وهو الحلقة) ومجددة ولها أربطة من الدانتلا . وكن يلبسن قبعات مظلة تزينها شرط وورود . وكان الرجال يخلقون شعر الوجه ولهم شعر طويل مضفور فى حلقات وله عقائص على الكتفين ويرتدون سراويل وأحذية عالية متينة ويتمنطقون بأحزمة عند الوسط وعلى غرار النساء يتزينون بالعقود والدمالج .

وكان مهندسو كريت المعماريون والبناءون بالحجر ينافسون أولئك الذين كانوا فى ممفيس وفى طيبة . وكان الكريتون أول شعب معروف فى أوروبا استخدم الكتابة ، وقد وجدت نقوش فى حروف تشبه الهيروغليفية وحروف خطية على السواء ، بوفرة . . . وعندما ثبت أن الجهود التى بذلت لتفسيرها حققت نجاحا فسنعلم المزيد من التاريخ المفصل لعالم البحر المتوسط الباكر . ومع هذا فان ما نعلمه علم اليقين، هو أنه قبيل منتصف السنوات الألف الثانية كانت ثقافة متناسقة الشكل قد مدت رواقها الى حد بعيد فيما يلى تخوم المنطقة الايجية ، والى مراحلها المتأخرة ينتمى كشوف شليمان فى طرونس (Tiryns) وميسينيا (Mycenae) ومن المحتمل أنه عندما هوت كريت من عليائها ورثت ميسينيا موطن أجامنون الهومري نصيبا من قوتها البحرية . ومهما يكن من أمر هذا ، فانه توجد أدلة واضحة على أنه فى تاريخ يقرب من سنة ١٤٠٠ حلت بالمدينة المنوية فى كريت جائحة اطاحت بها . وتقص أطلال قصر كنوسوس المتفحمة قصتها . ويرجع الكثير الى فعل الزلازل ، ولكن الغزاة الهمج من الشمال كانوا يتداعون فى جماعات ، متواليات على العالم الايجي -

وكانوا محاربين أجلافا يتفوقون بالعدة والسلاح ، وأخيرا ، بمعرفة الحديد ، ولم يعنوا كثيرا بالثقافة الرائعة التي اطاحوا بها ومن المحتمل جدا أن هؤلاء القوم ، الذين يتحدثون لغة هندية - أوربية كانوا سلفا للاغريق الذين يعرفهم التاريخ . وجاء في أعقاب هذا عصر ظلام استطال زمنه الى أن نجم عن امتزاج بقايا المدنية القديمة بطبع وعبقريّة الاسياد الجدد مولد ثقافة اليونان التاريخية (١) .

١٧ - كانت شواطئ آسيا الصغرى الايجية كما سنرى وشيكا ، اغريقية من ابعد الأزمنة . وعندما قامت المدن التجارية الغنية في القرنين الثامن والسابع ق.م كانت هدفا طبيعيا لحسد أمراء الاضطباع الداخلية . ان آسيا الصغرى هضبة تنحدر منها الوديان الى الساحل الغربى تعزلها سفوح الجبال وقد حددت طبيعة البلاد من جبال وسهول تاريخها . ان المدن البحرية ، وقد عزلت الجبال الواحدة عن الاخرى ، كانت فريسة سهلة للغزاة من الهضبة الداخلية . وفي السنوات الالف الثانية كان الحيثيون ومن يتبعونهم على الهضبة قد وسعوا نطاق سلطانهم حتى السواحل الايجية . وفي القرن الثامن اجتاح القمريون (٢) الرحل الهابطون من سهول السهوب (Steppes) فى شمال البحر الأسود ، آسيا الصغرى وعملوا فى المدن الاغريقية المكتبة من البحر تخريبا ونهبا . وقد دمروا مملكة فروجيا القديمة وضربوا دولة ليديا الفتية ضربة قوية . وكانت ليديا فى ذلك الوقت (من القرن الثامن الى السادس ق.م) الدولة الحاجزة بين العالم الاغريقى وامبراطوريات الشرق العظيمة . وقامت أسرة ليديية جديدة تنقف أمراؤها بالثقافة الاغريقية وأعطوا الاغريق مقابل ذلك ما يميز فى المعتاد بأنه اختراع الليديين المبتكر الوحيد ، العملة ذات الطابع التى حلت محل المعدن ذى الوزن الذى لا يحمل طابعا والذى

(١) انظر ما يلى فصل ٤ : يذهب بعض الثقاة الى أن اليونانيين ورثوا ثقافتهم وحتى لغتهم من المنويين (Minoans) (أنظر برنت (Burnet) Early Greek Philosophy) الصفحة ٢ وما يليها) واحياء الدين الشعبى (وهو يتميز عن فرائض العبادات الاولمبية) فى القرنين السابع والسادس يشير الى احياء التقاليد الدينية المتوية التى كانت تتركز فى عبادة الهة فى العالم السفلى . وكشوف كريت فى القرن الحالى سترتبط أبدا باسم سير آرثر ايفانس (Sir Arthur Evans) .

(٢) ربما كان هؤلاء القمريون بدوا من شمال البحر الأسود . كان العهد عهد غزوات من الشمال . وفى القرن السابع اجتاح السيثيون (Scythians) الذين طردوا القمريين (Cimmerians) سوريا وكنعان (راجع هيرودوت ١ : ١٠٣ وما يليها وتنبوءات ارميا وصفنيا التى أشير اليها فى الفصل التالى ٩) .

كانت تتداوله الثقافة البابلية وغيرها من الثقافات الأولى^(١) ، وحوالي عام ٥٦٠ ق.م أصبح كروسس ملكا على ليديا . وطالما كان يخضع الاغريق على سواحل ايجيا في آسيا ، فانه كان يحكمهم حكما متحررا ووضع تحت رعايته الدين والثقافة الاغريقيين . وعندما قهر قورش الفارسي ميديا (عام ٥٤٩) شن كروسس دونه أن ينظر معاونة مصر وحلفائه الآخرين ، الهجوم على قورش وأغرمته الهزيمة مملكته (٥٤٦) . وصحب سقوط ليديا خضوع الاغريق الآسيويين وأصبحت امبراطورية فارس تمتد من الهندوكوش الى بحر ايجيا .

٦ - امبراطورية فارس

١٨ - فى زمن ما قبل التاريخ ترك فرع من الاسرة الهندية - الأوربية موطنهم الاصلى فى اراضى السهوب شمال قزوين وهاجر فى اتجاه جنوبي شرقى . ولقد سار بعضه عبر ممر خيبر الى البنجاب بينما استقر البعض الآخر فى شرق الهضبة الايرانية العظيمة . وفى بواكير السنوات الالف الثانية ، يمت هذه القبائل الايرانية (سمت نفسها آرية ومن هذه التسمية اشتق الاسمان المحليان آريا وايران) صوب الغرب الى المرتفعات التى تحف سهول ما بين النهرين وكلدنيا . وبعد ذلك بألف سنة ، نجد الميدين الى الجنوب من بحر قزوين والبريتين فى خراسان والبكتريين فى منحدرات الهندوكوش الشمالية والفرس فى الجبال التى تشرف على الخليج الفارسي الى الشمال الشرقى . وكانت سلاسل جبال الهندوكوش وسليمان تقوم حاجزا من جهة الهند . ولقد أحضر هؤلاء الآريون معهم الحصان وهو من نتاج سهول السهوب ولم يكن للبابليين أيام حمورابي عهد به ولكن استخدمه الآشوريون كعدة حرب^(٢) . ولقد حملوا معهم كذلك دينا متميزا ، يتناقض تناقضا يسترعى البال مع دين جيرانهم الساميين المستوطنين السهل وكان يختلف أيضا - على الرغم من أساس مشترك دأب على المحافظة على نفسه بين الفرس الى يومنا - عن دين الآريين ذوى قرابتهم فى الهند^(٣) . وبينما أخضعت العقيدة الهندية

(١) من المحتمل أن العملة المطبوعة قد ترجع الى تاريخ أسبق وربما كان منشؤها فروجيا (Phrygia) وعلى أية حال فان أصلها يتصل بطريق القوافل العظيم الذى كان ينحدر من هضبة آسيا الصغرى الداخلية الى ساحل ايجيا وكما جاء فى الأساطير بحقل الذهب فى سردس Sardis

(٢) كما يدل على هذا الاسم البابلي للحصان « جحش الشرق » .

(٣) بين العناصر المشتركة عبادة ميترأ وهو اله الشمس وذابح المبارد (اندرا الهندى) وعبادة النار والاعتقاد بشرعة قدر يتفوق على الالهة والانسان . انظر ف. كيمون (F. Cumont) - ص ١-٣ (Les mystères de mithra) وكان ارونا أعظم اله خلقى فى مجمع الالهة الفيديا تطورا موازيا لاهور مزدا ومن أصل آرى مشترك .

كل الآلهة الأخرى إلى اله أعظم أوحد فان الدين الإيراني كان له مظاهر ثنائية^(١) وكان مجمع آلهتهم يألف حول قوتين لهما السيادة ، الواحدة قوة الخير وهي ايجابية خالقة ومصدر النور والحياة والأخرى قوة الشر وهي الظلمة والموت، وهي سالبة ، وكانت القوتان تسميان على الولاء، أهورا مزدا (أورمزدا) وأهريمن . والصراع خارق العادة ، بين هاتين القوتين الإلهيتين غدا ينعكس في مجرى تاريخ البشر . وبين الاثنتين ، يقف الانسان وقد وهب الحرية الخلقية التي يتوقف على استخدامها مصيره في العالم الذي يقع فيما يلي للحد . وكان الدين الإيراني ينزع إلى آداب السلوك ، ولم تكن آلهته كآلهة الآريين الهنود . معان مجردة تصورية ولكنهم كانوا شغوصا خلقيين ولم يكن هدف الجهد الإنساني الاندماج التآلهي في مطلق وحدة الوجود ولكن سعادة أبدية في السماء حيث يحكم أهورا مزدا وما كانت الحياة الإنسانية وما يلازمها من فروض اجتماعية وأفراح وأحزان بخدعة ولكنها المجال للعمل في همة والقيام بالواجب الخلقى . وفي اعترافه بقيمة الثقافة الدنيوية واتجاهه إلى غاية يكون فيها الخلاص الفردي وليس الخلاص القومي ، فان دين إيران كان يختلف عن دين العبريين وان تشابهه معه في تعليمه الخلقى الرفيع . وكان الفرس يتسامحون مع الديانات المحلية عندما لا تناصب دينها العداء ومع هذا فان عقيدتهم انتشرت صوب الغرب بتوسع امبراطوريتهم . وفي نقاوته كما نهض به النبي زرداشت ، كان دون ريب ، عقيدة الفلة أكثر من أن يكون عقيدة الكثرة ، وكان من شأنه ، بين أيدي المجوس (وهم طبقة من الكهنة) أن يتدهور إلى فرائض رسمية بينما أصبحت الجماهير تفسر تعليمه في صيغ ديانة ما قبل زرداشت القديمة^(٢) . وكان مرجع قوته الحقيقية إلى اصراره على المسؤولية الخلقية . ويستعرض فرس التاريخ نوعا نبيلًا من الخليفة ، لقد

(١) ولكن براهما الأعلى في دين التوحيد الهندي كان لا سبيل للوصول إليه وكان الناس مساقين إلى استرضاء الهين أقل شأنًا هما سيوا ووشنو .
(٢) عاش زرداشت على الراجح حوالي عام ٦٥٠ ق.م وتحوى الأسفار الفارسية المقدسة التي يطلق على مجموعها لفظ أوبتا ، الجانات وهي ترانيم ربما كتبها النبي نفسه . ويقرب المذهب الزرداشتي أن يكون توحيدًا . وكانت عبادة النار لها شأن عظيم إذ كانت النار أنقى مظهر لأهورا مزدا ، ويظهر أن المجوس الأوائل كانوا معادين لمذهب زرداشت ولم يحفل مخبر هيروdot بهم كثيرا . ولقد أثرت عبادات فارس ، كعبادات مصر وبابل ، في الدين الغربي أولًا ما أثرت في العهد الذي أعقب غزوات الاسكندر . وفي العهد الروماني ، كما سنرى فيما بعد ، كانت عبادة ميترا جد شائعة في عالم البحر المتوسط وأثرت الثنائية الفارسية على المسيحية في الشرق . انها أصل الاعتقاد في شيطان شخصي . أنظر كيمون Cumont في الكتاب السابق الإشارة إليه ، المقدمة ص ٦ - ٨ ، وفصل الله (عند الأيرانيين) ، في قاموس التوراة لهيستنج (Hastings' Dictionary of the Bible)

ولدوا حكاما للناس وكانوا أولى كبرياء ومسلك يتسم بالأبهة والفخامة محبين للولائم والصيد وذوى انسانية فى الحرب ولهم أفضال على الشعوب التى عنت لهم وعلى أهبة أن يقابلوا الأفكار الأجنبية بالتسامح أو قد يستحوذون عليها . ولما غزا مقدونو الاسكندر فى القرن الرابع امبراطوريتهم كان يمكنهم أن يروا فى أشرف الفرس ، وهو فى الواقع ما كان حقا ، أنسبائهم القدامى . ولقد أظهر الفرس فى الفن وفى العمارة ، القليل من الابتكار وكانوا ينقلون عن النماذج البابلية . أما التجارة فقد حقرها لأنها كانت غير خليقة بالرجل الحر . وكانت الجندية والزراعة والفلاحة أعمالهم التقليدية . وكان الكذب أعظم الجرائم صناعة . ولقد لحص هيرودوت تدريب شبابهم فى الركوب والرمى بالقوس والصدق فى القول (١) .

١٩ - ولقد اتخذت فاجعة الامبراطورية الفارسية السميت الذى أصبح مألوفاً فى تاريخ الشرق ، الغزو والتنظيم والاحتفاظ بالقوة احتفاظا لا يريم فالنندهور فالسقوط ، تتابع كلها فى سلسلة منطقية . ويمثل قورش المؤسس وأحد بناء الامبراطوريات العظام ، فى التاريخ ، فترة الغزو . وعند موته عام ٥٢٨ ، كانت ممتلكاته تمتد من ايجيا فى الغرب الى هندوكوش فى الشرق ومن قزوين فى الشمال الى صحراء العرب فى الجنوب . ولقد خلع ملك فارس على نفسه لقب شاهنشاه (ملك الملوك) . ولم يكن توكيده هذا لدعواه فى امبراطورية عالمية ، دون أساس . لقد كان قمبيز بن قورش هو الذى غزا مصر (عام ٥٢٥) والمستعمرة الاغريقية فى قورينا . ولم يحدث قبل ذلك بتاتا أن مدينة النيل تألفت بمدينة الفرات فى دولة واحدة . وتتركز الحقبة الثانية ، حقبة التنظيم فى شخص دارا بن كشتاسب (٥٢١ - ٤٨٦) . ان دارا هو طراز الادارى الشرقى على مدى الزمان . وكانت امبراطوريته شاسعة الأجزاء وهى مزيج من جميع الشعوب والأصم واللغات ولا تنظمها وحدة سلالة أو دين أو صالح مشترك ، وكانت تنقسم الى عشرين ولاية أو اقليم يحكمه نائب ملك . ولكى تكون البلاد بأمان من خطر نشوب ثورة ، وضع دارا زمام السلطتين المدنية والعسكرية فى كل ولاية فى أيدى مختلفات ، وكانت الوظيفة الخاصة لشخص عظيم الشأن فى سوس مقر الحكم الرسمى ، يحمل لقب « عين الملك » ، هى الاشراف على الولايات .

(١) هيرودوت ١ - ١٣٦ وازن الصلاة فى ١ ، ١٣٢ . كان الفارسى يصلى من أجل الملك وجميع الفرس ولم يكن يصلى ، على الاطلاق ، لنفسه وحدها .

وساعد على تركيز التحكم^(١) ، نهج رائع للطرق والمراكز . وكما كانت تجرى عليه الأمور في الإمبراطوريات الشرقية ، فإن الشعور بالحاضنة كانت تحتفظ بدياناتها المحلية وعاداتها ونظمها ، بعيدة بعدا تاما عن تدخل الحكومة المركزية . وكانت علامتا الخضوع دفع جزية سنوية ثابتة والتجنيد لخدمة الميدان . وكان اشراف الفرس يعيشون تربطهم أواصر شخصية وثيقة بالحكام أما الفرس المقيمون في الأقاليم فكانوا يكونون مع ممثلين من السكان الوطنيين مجلس الشورى للوالى . وعلى هذا ، كان يقوم بالرقابة على الوالى مجلسه وقائد الجيش والحكومة المركزية فهى آن واحد ولقد أصبح هذا النهج الذى وضعه دارا النموذج الذى تحتذيه الملكيات الشرقية التى جاءت فيما بعد^(٢) .

وضم هارا أيضا البنجاب وبلاد العرب الى الامبراطورية وعبر السبندس الى أوروبا وتقبل ولاء تراقيا ومقدونيا . وفى ختام حكمه الطويل كان يجمع جيشا ليجيا لينهض باخضاع اليونان الحرة . وعلى مثال غيرها من دول الشرق، جهدت فارس فى التوسع صوب الغرب الذى لاقت منه مصيرها المحتوم . ولكن قصة الصراع الاغريقى مع فارس تتصل بفصل آخر سيعرض له هذا الكتاب .

٢٠ - كان خلفاء دارا طوال قرن ونصف قرن بعد ذلك (٤٨٦ - ٣٣٨) معنيين على الأخص بالمحافظة على الامبراطورية التى عمل دارا على لم شملها وقد أدى الوهن الذى حل بالبيت المالك والثورات المتواصلة فى الأقاليم المتطرفة ، وخاصة فى مصر ، والصراع الطويل مع اليونان على انحلالها على التدرج ، وانتقل مركز النقل فى السياسة العالمية الى شواطئ بحر ايجيا . وقبل انتصاف القرن الرابع كانت تعتمد هيبة الفرس على معاونة المرتزقة الاغريق وقادتهم . وأعقب موت آخر حاكم قدير وهو أردشير الثالث (أخوس)

(١) أمن الطريق الملكى من سوس الى سردس (فى ليديا) لأول مرة فى التاريخ السيطرة على آسيا الصغرى بقوة من بلاد ما بين النهرين . وكان يستطيع جيش أن يقطع عليها مسيرة عشرين ميلا كل يوم فى المتوسط ، وهذه حقيقة تفسر الى حد بعيد انتصارات الاسكندر . وكانت توجد أيضا طرق فارسية عبر آسيا الصغرى ، من الشمال الى الجنوب ومن بابل بالقرب من همدان الى بلخ ومن بلاد ما بين النهرين ، عبر فينيقية الى مصر ، ومع هذا فان مرتفعات شبه الجزيرة لم تكن عليها حراسة فى الواقع الى أن ظهرت روما على المسرح .

(٢) كان دارا بناء عظيما وسعى الى استرضاء رعاياه بالاسراف فى تقديم صنوف التكريم لدياناتهم ولقد استخدم نفس السياسة فيما بين تخوم الامبراطورية بالهدايا تقدم الى مهبط الوحى فى دلفى الذى حبه بادية الأمر هجوم الفرس على الاغريق .

فى سنة ٣٢٨ قتره فوضى أتاحت للعدو فرصة فريدة اذ كان فيليب ملك مقدونيا قد دبر حرب انتقام من الغزو الفارسى لليونان ، فى القرن السابق . وفى عام ٣٢٤ عبر ابنه الاسكندر السببطنس وأقام نفسه سييدا على آسيا الصغرى . وفى عام ٣٣١ حقق أعظم انتصار له فى جوجيلا ، وبعد ذلك بعام ، بموت آخر خلف لدارا ، انتقل اللقب والامبراطورية جميعا الى الغازى المقدونى . ومن ذلك الوقت ، أصبح تاريخ الشرق الأوسط جزءا من تاريخ المدينة الهلينية .

٧ - الخاتمة

٢١ - ولو أن مختلف المذنبات التى مرت أمامنا فى هذا الفصل كانت لها أهمية جوهرية بالغة ، فانها ، مع استثناء واحد ذات أهمية ثانوية بالنسبة لمستقبل العالم الغربى . واذا نظير اليها من هذه الناحية فيمكننا القول ألا شىء كان يلائمها أفضل من اندماجها ، آخر الأمر ، فى الهلينية . وسنرى قريبا كيف أنه عندما أصبح امتزاج الشرق والغرب حقيقة واقعة ، وفى عهد خلفاء الاسكندر أثارت أفكار مصر وبابل وفارس الدينية استجابة من داخل نطاق الثقافة الاغريقية - الرومانية . ولكن تلك الثقافة نشأت ونمت فى أوضاعها الخاصة على النقيض من فكر الشرق وعاداته ، أكثر من أن تكون بمعاونتهما . والاستثناء الوحيد الذى ألمنا اليه آنفا هو ، دون مراة ، دين العبريين ، ان دين العصور اللاحقة ، فى هذا المجال وكذلك فى مجال الاخلاق ، للسلاسة السامية ، لا يحصى . ان عبريا من طرسوس كانت تنشئته فى أشد مدارس المذهب الفريسي الحق صرامة أصبح رسولا للوثنيين . وعلى هذا فان الفصل التالى سيخصص لدراسة الحقبة الانشائية الرئيسية فى التاريخ العبرى الدينى وعند ذلك سنتحول صوب الغرب ، الى اليونان وروما . وحتى دين العبريين ، لم يؤثر تأثيرا خطيرا فى الغرب الا بعد أن كانت اليونان وروما قد أقامت دعائم مدينتهما . وكانت الهلينية قد وصلت الى ذراها قبل أن يشرع رسل الانجيل ، بزمن مديد ، فى العمل على جعل التقاليد العبرية ملائمة لمزاج وعادات العالم الاثريقى - الرومانى . لقد كانت الهلينية فى ارفع تعبيراتها ، كلها ، فى الفن والفلسفة والحياة المدنية ، الخلق المبتكر العبرية الاغريق . ولقد أضافت السلالات الاخرى ، مواد الى دعائم بنائها الاقتصادية وحافزا أمام حب استطلاعها العقلى وتركت هنا وهناك كما فى فن العمارة ، آثارها فى بعض تفصيلات جلال أعمال الاغريق ، ولكن الاغريق كانوا يعرفون ما كانوا يرمون اليه عندما قابلوا بين ثقافتهم الخاصة وحياة الهمجية التى كانت تطفى أمواجه حول جماعاتهم

الصغيرة من كل جانب (١) . ولقد قامت الثقافة ، كالسحر ، وسط عالم غريب كما نهضت الالهة اثينا في الاسطورة من رأس زيوس ويظهر تاريخ الشعوب المجاورة النقيض ويقدم الاطار للتعبير عنه (٢) .

(١) يعرض برى (Bury) (العصر الهليني) الصفحات ٢٤ وما بعدها (Hellenistic Age PP. 24 ff.) الرأي بأن نظرية مرتبة الهمج الوضيعة هي من نتائج الحروب الفارسية وبعد ذلك ارتاب فيها الفلاسفة ، ولقد ارتأى افلاطون أن ملكا فيلسوفا قد يوجد بين الهمج ، وذهب الرواقيون شأوا أبعد حتى تصوروا أخوة تشتمل البشر أجمعين . انظر الفصل السادس القسم الرابع .

(٢) تحدث جروت (Grote) في مقدمة تاريخ اليونان (History of Greece) (١٨٤٦) عن حركة العقل الاغريقي التلقائية فقد كان يجد معاونة من الخارج ولكن لم يلجا أبدا الى الاستعارة وبعث الضوء في شطر من العالم صغير كان يغير هذا غائما وراكدا ، ولقد كشف عن الشيء الكثير منذ زمن جروت ولكن توكيده أن العلم الاغريقي كان مبتكرا ، يظل ثابتا لا يتزعزع .

جداول تاريخية



عجزي آسيا

بابل وأشور
السومريون (تقريباً ٢٠٠٠)

٣٠٠٠

سرجون
(بعد ذلك بزمه وبعين)

٢٧٥٠

الانتفاش السومري

٢٥٠٠

المملوك الاشوريون
في آشور سنة ٢٤٠٠ تقريباً

٢٢٥٠

٤٢٣٠ - ١٩٣٠
أول أسرة بابلية

حورام
٢٠٨٧ - ٢١٣٠

الآشوريون الفارسيين
٢٠٠٠ - ١٦٠٠ تقريباً

٢٠٠٠

سلسلة من الأزمات
البابلية

خروج العبريين (?)

١٧٥٠

الآشوريون إلى الهند
تقريباً ١٦٠٠

١٥٠٠

دولة الميتانيين في آسيا
الشمالية ١٧٠٠ - ١٤٠٠

قيام دولة آشور
سنة ١٣٨٠

شالمانصر الأول (١٢٧٦)

١٢٥٠

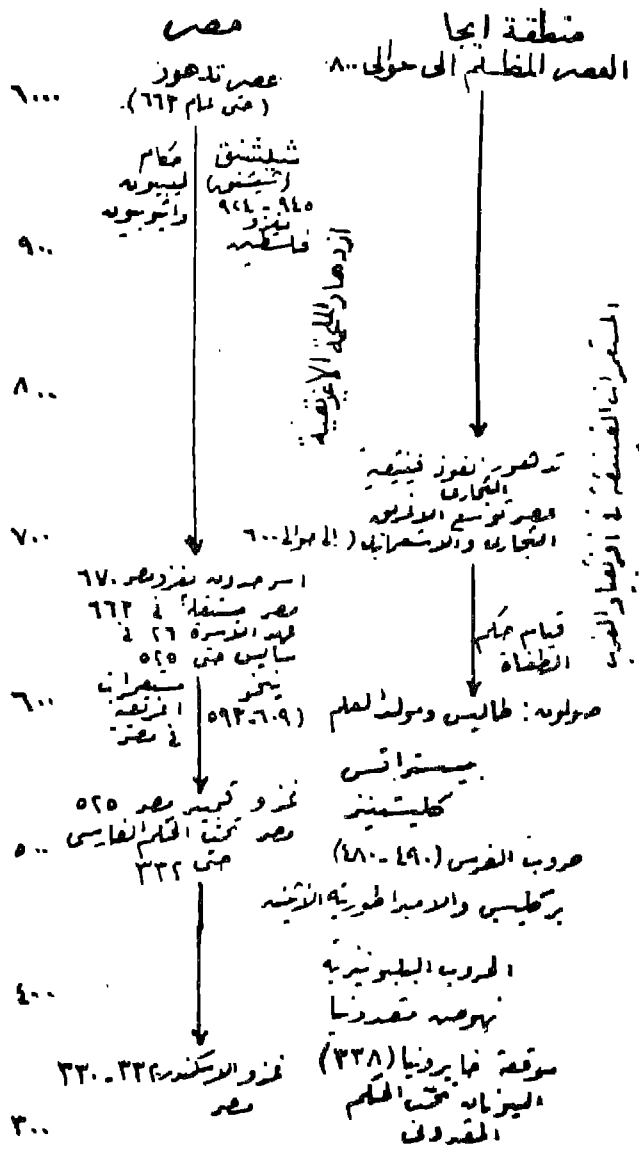
بابل تحت حكم
آشور

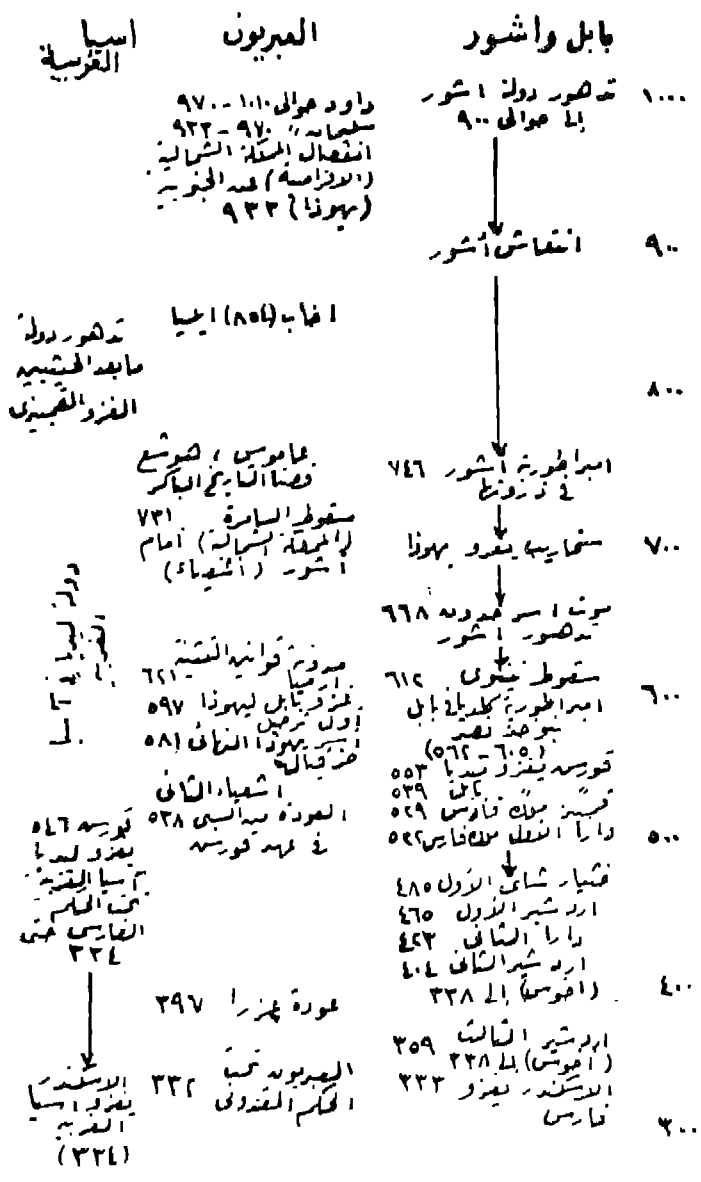
طغلات - ظهير الأول
تقريباً ١١٢٠

١٠٠٠

خروج إسرائيليين سنة ١٢٥٠
دولة الميتانيين في آسيا
الشمالية ١٧٠٠ - ١٤٠٠
صورة من شرق سوريا: أول
مستعمرات الآشوريين (القرن ١٢)
الآشوريون ومملكتهم في فلسطين
سنة ١٢٠٠
المملكة
في إسرائيل { شارل ١٠٢٥ تقريباً
داود ١٠١٠ تقريباً

تدهور دولة آشور
(ال ٩١١ تقريباً)





الفصل الثالث

دين العبريين (١)

١ - تقديم

١ - ان ديانات عالم البحر المتوسط العظيمة الثلاث، العبرية والاسلامية والمسيحية كلها من أصل سامي . ولأنها لاتزال قوة حية بين الناس، فإن هذا يقيم الدليل الذي يبقى على الزمن ، على قدر العبقورية الدينية التي كانت لدى الساميين . ولقد كان قبول الدينين الأولين مقصورا ، على وجه الاجمال تقريبا على الفرع السامي أما الثالث وهو الدين المسيحي فقد حطم منذ زمن بعيد حواجز السلالات وأقام دعواه ، كدين عالمي ، في ولاء الوثنيين العبري ولكن انجيله بشر به للعبريين في البداية وقام بينهم كتكملة تاريخية لناموس العبريين ونبوءة العبريين . ويواجهنا السؤال كيف تأتي لعقيدة قبلية لشعب سامي لا خطر له أن تقدم في غضون نموه التاريخي أساسا لرسالة روحية للبشرية ؟ أين كانت ، بين الحصال التي لازمت عقيدة العبريين القديمة وعبادتهم ، تكمن البذور لتكونا عامتين ؟ لم يكن لدين العبريين في مراحلها الأولى ما يتميز به كثيرا عن دين شعوب كنعان التي تحيط به . كيف حدث أنه بينما توارت آلهتهم بانهيار الدول التي كانت تعبدها ، سياسيا ظل اله العبريين باقيا بعد السبي وتفرق شعبه ولأيزال موضع اجلال الملايين من جميع السلالات في زمننا الحاضر ؟ ان الجواب على هذا السؤال يتكشف في دراسة أنبياء العبريين . وكما أن عبقرية الاغريق العقلية وهي تغمل في مناهج لها نفع عام للفكر الانساني ، حولت معطيات التجارب التي لم تتناولها يد التهذيب ، الى بنيان من المعرفة التي يدعمها العقل ، وكما أن عبقرية روما السياسية صاغت قوانين مدينة إيطالية في مبادئ قضائية ، لدولة

(١) أطلق عبريو أزمنة العهد القديم على أنفسهم « أبناء اسرائيل » (بنى اسرا ال) وأصل اسم اسرايل غامض وقد فسر : (الله ال) يجاهد ، أو يبقى) ، أما لفظ عبري فقد أطلق فيما بعد ومعناه ، طبقا للرأى التقليدي ، الشعب من الجانب الآخر من (اللفظ العبري .عبريم) نهر الفرات (أو الاردن ؟) . واسم يهودى معناه (رجل يهوده) ويطلق على التحقيق على القاطن بفلسطين الجنوبية ، ومن الراجح أن اسرايل وعبريين كانا في الأصل اسمين لعشائر .

عالمية ، كذلك محضت عبقرية العبريين الدينية التي تجلت عن طريق بصيرة أنبيائها ، عبادة اله قبل كانت وظيفته أن يخوض غمار معارك شعبه ضد منافسيه من الهة البلاد الأخرى ، الى عبادة اله واحد خالق الكون الذي يظهر أبوته الروحية في حكومة بارّة تسود أمم الأرض جمعاء .

٢ - عندما لم موسى ، في النصف الأخير من الألف من سنة الثانية ، قبل الميلاد ، شمل فريق من العشائر السياسية في مجتمع واحد ، فانه لم يؤسس أمة وحسب ولكنه أرسى قواعد دين^(١) وكان كحامل لوحى دينى ، أعلى مثال محمد (صلعم) بعد ذلك بألفى سنة، انه استطاع أن ينهض بتحول بعيد الأمد في عادات البدو الساميين القبلية التي لولا ذلك لظلت باقية على ما هي عليه . وقد ثبت عبادة يهوه لتكون عبادة شعب وبهذا أتى بأمة الى حيز الوجود^(٢) ومنذ ذلك الحين صار يهوه اله العبريين الذي أطلق سراح آبائهم من العبودية وقادهم خلال أخطار البرية الى أرض الموعد . وكذلك يمكن أن ينسب الى موسى وضع شعائر عبادة ونظام كهنى . ولقد كونت أحكامه الشعبية النواة لقيام شريعة (التوراة)^(٣) ودين يهوه هذا ، كما حمله

(١) ان تاريخ الخروج غير معروف على التحقيق . ويعتبر بعض الثقاة أنه يتفق مع طرد الهكسوس أو الملوك الرعاة الساميين (في أوائل القرن السادس عشر) ويذهب غيرهم الى أنه حدث في الأسرة الثامنة عشرة (المنحوتة الثانية حوالي ١٤٤٥) وتذهب طائفة أخرى أن ذلك وقع في عهد مرنفتاح (الأسرة التاسعة عشرة) حوالي عام ١٢٢٠ أو بعد ذلك بجيل .

(٢) كان اليهود ، خشية إساءة استخدام اسم يهوه المقدس يكتبونه بالحروف المتحركة لكلمة ادوناي (= ربى) أو الوهيم (= الهى) على أن يقرأ هذان اللفظان بصوت مرتفع بدلا عنه . ويرجع تاريخ هذه العادة الى ادخال علامات الحركة الذي حدث بعد قيام العهد المسيحي ببضعة قرون . وكانت الكتابة العبرية تتكون أصلا من السواكن . ومن هذا حدثت الصيغة المضللة يهوه التي أشار إليها في زمن مبكر في القرن السادس عشر بعد الميلاد بطرس جلطينوس (Petrus Galatinus) de arcanis Catholicae veritatis, 1518)

ويعنى اسم يهوه غير مؤكد . ويعتقد بعض العلماء أن يهوه كان يعبدته العبرانيون قبل زمن موسى . والعهد القديم ، غامض في هذا الأمر إذ أن الكاتب البهيوى (ى . انظر التذكرة التالية) يذكر أن عبادته ترجع الى ما قبل الزمن الموسوى (تك ٤ : ٢٦) والكاتبان الالهى (ا) والكهنى (ك) يذكران أن عبادته أدخلها موسى (خروج ٣ : ١١ - ١٤ و ٤ : ٢ - ٣) ربما من مديان . وتاريخ ما قبل موسى غير محقق ويحيطه الغموض .

(٣) الأستفار الخمسة (أى التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية) ويشدوع تمثل تصنيف التاريخ والشريعة القديمين - اللذين وصلا الى شكلهما الحاضر بعد السبى - معا ويمكن تقضى أثر الجمع في ثلاثة مصادر أساسية أشير إليها على الولاء بالحروف : اى ، ت ، ك .

العبريون: بل كنعان كان على التحقيق بدائيا ويتخذ الهه هيئة انسان . وكانوا يتصورون أن ليهوه شكلا جسميا ومقرا للسكنى وتدفعه العواطف الانسانية، من غيرة وغضب . ولقد كان الها محاربا « رجل حرب » يقاتل دون هواده لأجل شعبه الخاص. ضد أعدائهم وعلى غرار حاكم شرقي كان يطلب مقابل هذا ، الولاء والعطايا . ولم يكن همه يتعلق بالفرد ولكن بالامة وبالامة خاصة فى أزمته الحرب . ولكن يمكن أن ننتبهن فى هذا الشكل البدائي للعقيدة القومية بدور دين خلقى وان لم يكن دين توحيد ، فانه كان صراحة عبادة إله واحد من بين الهة كثيرين . ولقد أنفد الأمر الى العبريين : « لاتعبد

== (١) فصتان للتاريخ الباكر كتبنا واحدة فى المملكة الشمالية (افرام) والآخرى فى الجنوبية (يهوذا) ربما بين عامى ٨٥٠ ، ٧٥٠ ق.م وقد ضمتنا فى مؤلف تاريخى واحد ، عام ٧٥٠ على التقريب . ويطلق على الأولى (١) من استخدام اسم الوهيم للدلالة على الله (عز وجل) والآخرى يطلق عليها (٢) من استخدام اسم يهوه . والمؤلف الذى يضمهما يرمز اليه بالحرفين ي ١ . (ب) شريعة التثنية يطلق عليها ت ويرجع تاريخها الى منتصف القرن السابع (انظر ٨ - فيما يلى) .

(ج) التاريخ ومدونة القانون الكهنين يطلق عليها (ك) وربما يرجع انشاؤها الى زمن السبى (انظر ١٠ و ١١ فيما يلى) . وتمثل أسفار التكوين والخروج والعدد امتزاج ي ١ ، ك ، وينتمى سفر اللاويين الى ك ، والتثنية الى ت ، ويشوع الى ي ١ ، وهو من محررى التثنية ، والى ك .

وعلى القارىء أن يدرك أن المحررين المتعاقبين كانوا جامعين لا مؤلفين أصلا ، وأدمجوا فى مؤلفهم ما كان يوجد من وثائق قبل ذلك وأضافوا فقط ما كان لازما لتوافق المقتبسات بعضها مع البعض الآخر . وعلى هذا فان الكثير من القوانين والقصاص فى هذه الأسفار كان أساسها عادات وتقاليد وأغانى تاريخ سابق لها كثيرا وكان مرجع بعضها الى سجلات مسطورة (مثال سفر العدد : ٢١ ، ١٤ ، وما بعدها ويشوع : ١٠ ، ١٢ ، وما بعدها) ونواة الناموس القدبمة التى يطلق عليها سفر العهد أو الميثاق (الخروج : ٢٢،٢٠ - ٣٣،٢٣) والوصايا العشر الاقدم منها (الخروج : ٣٤ ، ١٧-٢٦) كانت موجودة كتابة قبل أن يجمع ١ . وكذلك أيضا آخر ما جمع (ك) يحوى ثم ناموس قديم جدا فى سفر القداسة (اللاويين : ١٧ - ٢٦) الذى رمز اليه بالحرف ق وربما يرجع الى ما قبل السبى . وبينما الشريعة كما توجد بين أيدينا جاءت متأخرة عن النبوة الاقدم منها ، فان الكثير من محتوياتها يرجع الى ما قبل النبوة .

وعن الموضوع كله ، انظر درايفر (Driver) (مقدمة لأدب العهد القديم ص ٨٢ وما بعدها ، و ١١٦ وما بعدها Introduction to the Literature of the O.T.)

آلهة أخرى غيرى ، (١) • ولم يكن ليهوه أساطير خرافية أو مجمع الهة يشتركون معه أو زوجة . - الهه كما كان طابع العبادات الكنعانية (٢)

انه كان مصدر الحق والعدل وقدس أقداسه مستودع القانون المعترف به • ويكتب عالم معاصر نابيه : « ان فضل موسى العظيم يرجع الى الحقيقة الواقعة وهي أنه أُلّف بين الفكرة الدينية والحياة الخلقية » (٣) وكانت تربط يهوه بشعبه الآصرة الشخصية التي تكون بين أب وبنيه ، آصرة لا تستند الى وشيجة طبيعية من قرابة الدم ولكن الى الاختيار والارادة • لقد اختار يهوه العبريين وتقبل العبريون يهوه ، ونجد هنا أصلا مبدأ « العهد » الذي جاء فيما بعد • ولقد كانت هذه العقيدة الخلقية التي تمثلت لعبراني ذلك العصر فى مناصرة يهوه للعبريين ضد أعدائهم هي التي حفظت الأمة الناشئة من أن تطويها مدينة الكنعانيين السابقة لها • وكان الاستقرار فى كنعان عملية امتزاج بطيئة تركت ، عرضا ، علامات فى دين العبريين • وكما عرف المهاجرون البدو من جيرانهم عادات حياة الزراعة فانهم استحوذوا معها على عبادات آلهة الكنعانيين (بعليم = أسياد البلاد) • ولم يكن هؤلاء البعليم • على غرار يهوه ، آلهة حرب ولكنهم كانوا آلهة طبيعة مسالمين تمثل فى شخصوهم قوى الحصب والحياة المنتجة ويتألقون أزواجا ، ذكرا (بعل) وأنثى (عشتاروت) ، ولهم ديانات محلية متباينة تصحبها الشهوة المخزية (١) ولو كانت عملية الامتزاج سلمية بجملتها ، فربما كان دين العبريين قد هبط فى يسر الى مستوى الدين الكنعانى وكان يهوه قد اندمج فى البعليم ولما ترك العبريون طابعا على تاريخ البشر الروحي • ولكن كان على الغزاة أن يحاربوا لا ئجل ميراثهم ولقد حفظ شخصيتهم الدينية والقومية ، ما وقع من حرب متواصلة • وظل يهوه بين كل ما تمثلوه من العبادات الكنعانية كالمرفعات والصور الخشبية لعشتاروت أو العمدة المقدسة، اله شعبه المختار •

(١) عبادة اله من بين الهة كثيرين (Monolatry) معناها أنه ولو أنه توجد آلهة كثيرة فان واحدا فقط هو الذى يجب أن يعبد ، اما التوحيد فمعناه أنه لا يوجد الا اله واحد •

(٢) تشير برديات الفنتين الى زوجة - الهة ولكنها تستعرض دين العبريين فى شكل حط من قدره • انظر كاوى (Cowley) (Aramaic Papyri) أدراج البردى الأرامية (المقدمه) •

(٣) كوينين ، دين اسرايل (Kuenea, Religion of Israel)

(٤) كون الشهوة المشار اليها كانت نتاجا لما تتطلبه العبادة يجعل الفارق أكثر ظهورا • وتوضيح الواج راس شمرة (القرن الخامس عشر الى القرن الثالث عشر ق م) التي كشف عنها فى سنة ١٩٢٩ ، الاساطير الكنعانية على أتمها (انظر جاك (Jack) الواج راس شمرة (The Ras Shamra Tablets) وتقدم الدليل على نشاطه أدبي فى فلسطين ، قبل قيام الملكية الصيرية بضعة قرون

وأغنية دبورة وهي واحدة من أقدم شذرات أدب الشعر العبري ، لا تزال باقية لتبين كيف أن عقيدة يهوه ألهمت عشائر العبريين في تلك الممارك القديمة مع الشعوب المحيطة بها ^(١) . وقد عملت على تقوية الشعور بقومية متميزة ، الحروب مع الفلسطينيين في القرنين الحادى عشر والعاشر التى نجم عنها قيام النظام الملكى فى شخص شاءول البنيامينى وغدا يتجسم فى الملك الاستقلال الدينى والقومى فى نفس الوقت . ومن ذلك الوقت فصاعدا ، أصبحت عبادة يهوه ، على الرغم من طائفة عظيمة من اخصافات كنعانية ، الرمز المعترف به لمصير العبريين الذى تميزوا به .

٣ - واذا نحينا الى جانب المشاكل الغامضة عن أصل عبادة يهوه ، الى الجانب الآخر ، أرجأنا النظر فى تطور دين العبريين تحت تأثير النيبين الى دين توحيد خلقى خالص النقاوة ، فاننا نلاحظ الحصال التالية الملازمة لذلك الدين من عهود استهلاله على يد موسى الى أن وصلت اليهودية الى صوغها النهائى كدين عالمى فى القرنين الأولين من العهد المسيحى . وستفصح للقارىء عن الهوة الواسعة التى تفصل التقاليد الدينية العبرية ، قبل وبعد ان تستحوذ عليها المسيحية ، عن تلك التى يرجع مصدرها الى التفكير الهليني سواء أكانت عن مسائل ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) أو علم اللاهوت . فى المكان الأول (١) كانت تقوم على الاعتقاد الذى لا يمارى ، بوجود الله (عز وجل) لا استنادا الى أية فروض استنتاجية عن وجوده أو طبيعته وجوهره . والجواب الوحيد الذى صرح به ، ردا على موسى وهو يستعلم اسمه كان توكيد كينونته الذاتية : « أهيه الذى أهيه » ^(٢) وفى كينونته الذاتية ، فانه العلة ، كخالق لوجود كل ما هو كائن « فى البدء خلق الله السموات والأرض » ^(٣) وهذه الكلمات ، فاتحة الأسفار الخمسة لا تعبر عن نظرية فلسفية ولكنها بيان أولى للوعى الدينى العبرى . ومن البداية أعلن يهوه نفسه الاله الحى ، ويكون قبوله بالايان ويسمو على أقصى ما يصل اليه الاستقصاء الفسكى ^(٤) . وعلى غير شاكلة اله افلاطون . وأرسطو فان اله ابراهيم واسحاق ويعقوب هو ، بالنسبة للعقل الانسانى ، اله مستخف (Deus abscontitus) . ثانيا (ب) دين العبريين موحى به ويستمد سلطانه ودعواه فى طاعة الانسان ، ليس عن طريق العقل ولكن عن

(١) القضاة ٥ قابل الطلبة القديمة فى سفر العدد ١٠ ، ٣٥ ، ٣٦ :
« قم يا رب فلتنبتد أعداؤك » الخ .
(٢) الخروج ٣ ، ١٤ .
(٣) التكوين ١ ، ١ .

(٤) كما جاء فى تعبير دكتور هوايتهد (Dr. Whitehead) فى (Adventures of Ideas) : مغامرات الأفكار فان السؤال : « أتقدر بالبحث أن تجد الله ؟ » ، يصلح لفكر العبرى ولكن لا يستقيم مع التفكير الاغريقى .

طريق مصدره الالهى لا غير . والوحى واحد كما أن الله واحد . وكان تصور فقيض الله الذي تحاشى الدين الفارسى به ، مشكل مصدر الشر ، غريبا عن العقل العبرى ، تماما . وعلاوة على هذا فقد كان الوحى نهائيا وكاملا كما أن الله نفسه كامل ولا يتغير . « كل الدين أوحى به وكل فحوى الوحى كان الدين » (١) . وكان يتألف منه التوراة أو شريعة الله، ويشمل القانون المسطور (الأسفار الخمسة) وعلى سبيل الزمان ، تفسيره الشفوى أيضا كما صيغ ووضعت له مذاهب ، فى النهاية ، فى المدارس اليهودية . وكانت الحال كذلك مع الانبياء الذين لا ينطقون بأقوال من عندهم يدلون فيها بما لديهم من ثقة ولكن بكلمات أوحى بها اليهم يهوه . ثالثا (ح) دين العبريين تنظيى ، بما أنه التعبير عن الإرادة الالهية بلغ بها الانسان ككائن ذى نشاط وله حق الاختيار . انه مجموعة من الأوامر تنظم سلوك الانسان وتفرض عن طرق جزاء فيها الخير أو الويل نتيجة لقبول الانسان أو رفضه «مخافة الرب هى الحكمة» (٢) والى الحد الذى يجعل فيه الله طبيعته معلومة للعبريين ، فى الكشف عن ذاته ، تكون طبيعته كطاقة عملية فان الكون يصير الى وجود بفعل قوته الحرة . ويتجسم فى سجل تعامله كله مع العبريين غرضه الأساسى . ولو أنه يسمو سموا لا يمكن أن يلم به وصف ، على أساليب الزمن أو التغيير ، فان وجوده باطن (٣) وتستبين ارادته فى كل جزىء فى الطبيعة وتاريخ البشر . ويكون مشهد نشاطه ، ليس الشعب المختار فقط ولكن الكون بأجمعه وجميع الأمم التى تسكنه : « ألم أصعد اسرائيل من أرض مصر والفلستينيين من كفتور والأرايميين من قير ؟ » (٤) . وهنا كمال غرض الله ولو أنه، على غرار فاتحته، عمل من التدخل خارق العادة ، فى مجرى التاريخ ، فانه يتصور ككارثة فى المستقبل التاريخى . وفكرة الحياة الأبدية التى يرتاح لها الفلاسفة الاغريق كانت غريبة عن نظرة العبرانيين الدينية . ان يهوه كان يسمو على الزمان ، ليس لأن لا زمن له ولكن لبقائه الذى لا يعرف نهاية : كان « منذ الأزل الى الأبد » (٥) وأخيرا ، انه من الجلى (١) أن دينا توحى به هذه العقائد كانت تقعه قدرة. فياضة على التطور الخلقى . كان يهوه اله بر ورحمة أوصى بأعمال الصلاح والرحمة عبده . وأولى هاتين الحصلتين كان يتمثل فى أنه فرض فى صرامة القصاص عن الخطيئة أى فى عبارة يوحنا «التعدى على الناموس» (٦)

(١) ج . ف . مور (G.F. Moore) اليهودية ١ : ١١٢ (Judaism)

(٢) عاموس ٩ ، ٧

(٣) فى مذهب وحدة الوجود ، ماهية الله باطنة فى العالم أى أن الله

والعالم واحد

(٤) أيوب ٢٨ ، ٢٨

(٥) مزامير ٩٠ ، ٢

(٦) يوحنا الأول ٣ ، ٤ وإزن يونس فى رومية الأصحاح الرابع .

والثانية في استعداده الذي لا يعتريه وهن للصفح عن الخطيئة بشرط أوحده هو توبة الحاطي ، • وهنا لا يوجد وعى بالتفرقة بين الواجب الدينى والواجب الحلقى ، وكل عمل سواء أكان صادرا عن الفرد أو المجتمع يقع فى مجال المسئولية الحلقية وكذلك ينطوى على طاعة أو عصيان الأمر الإلهي ، لأن المجتمع (بيت اسرائيل) أيضا كان يتألف برابطة شخصية يهوه « كشخص ذى جسد » ، واقعى ، يتميز بأنه ينزع الى آداب السلوك ، عن وعى الجماعة الغريزى السابق للأخلاق وكوحدة قائمة بذاتها عن المجتمع المصطنع الذى هو نتاج تعاقد من جانب الأفراد الذين ينتظمون أعضاء فيه •

٢ - تبوءة ما قبل النبى

٤ - فى هذه اللحظة نسمع أول ما نسمع ، عن النبىين عند العبريين • وكان الملك شاءول نفسه ، فى احدى القرص ، من عدادهم ^(١) ولكن هؤلاء الانبياء لم يكونوا يتميزون الا قليلا ، عن انبياء البعل الذين كانوا بين ظهرانى الشعوب الكنعانية الأخرى وهم فرق من الدراويش الذين يستولى عليهم الجذب ^(٢) وكانوا تحت تأثير الموسيقى والرقص يتوهمون استحواذ الههم عليهم • ولقد كانوا رجالا من طراز حد مختلف عن عظماء المعلمين الذين تقدموا الصفوف بعد ذلك بقرون قليلة كنصرأ لعقيدة محضة • وكان بداية ظهور هؤلاء فى وقت تقسيم ملك سليمان فى المملكة الشمالية أو الافرامية تعارضين انتشار العبادات الدينية الغربية والمدنية الدنيوية ^(٣) • وكان سليمان قد فتح الباب للتجارة الخارجية وأنشأ أسباب التحالف الأسمى مع الملوك الأجانب ، وهى سياسة أدت الى تجديدات فى العادات الاجتماعية التى كرمها الزمن والى ادخال العبادات الأحنبية • ولقد جلب النراء والشرف فى أعقابها فوارق الطبقات وانفصاما يتزايد بين الغنى والفقير وكانت السخرة ، على النموذج المصرى ، تمس الحاجة اليها لبناء قصور الملوك والمدائن الحصينة والهيكل الدينية وأصبح جزءا من نظام الحياة الحديد وحوود حاشية وحريم وحشد من الموظفين العسكريين والكهنة ، وهذه المظاهر وأمثالها لملك سليمان حوكيت فى المملكة الشمالية تحت أسرة عمرى (من حوالى ٨٨٧) • وعندما أقر أخاب بن عمرى شرعا عبادة بعل صيدا ووسع الحقوق الملكية

(١) صموئيل الأول ١٩ ، ٢٠ - ٢٤

(٢) الجذب - عند الصوفية حال من أحوال النفس يغيب فيها القلب عن علم ما يجرى من أحوال الخلق وتغشاه غبطة شاملة وهو قمة التفلسف الاقلاوطينى - مصطلحات مجمع اللغة العربية • (المترجم)

(٣) ان نورة يربعام الأول واقامة مملكة افرامية منفصلة (٩٣٣) ربما كان مرجعها كراهية السخرة وقد أيدها أخيا النبى • انظر ملوك الأول ١١ ، ٢٨ وما بعدها •

فوق ما جرت عليه العادة التقليدية فان ايليا استنكر وهو مشتمل برداء بدوى مرددا روح البساطة البدوية البدائية، سياسة البلاط الدينية والدينيوية جميعا (١) . وقد عمل خلفه اليشع ، فى تألف وثيق ، بنقابات النبوة ، على اسقاط الأسرة ووجه ، كناصر معترف به ، تعاليم يوشع وابنه (٢) وكان الظفر حليف النبوة فى المملكة الشمالية ، ولقد توطدت دعائها كقوة خلقية فى المجتمع ، ولم تكن مجرد انتصار سياسى . وظاهر ايليا واليشع دعوى يهوه ، القاصرة عليه ، فى ولاء اسرائيل وأن شريعته شريعة بر مطالبيا ، بالخدمة الخلقية ، أبناء المختارين . وكانت عبادة اى اله آخر خطيئة وكان معنى عبادة يهوه ، تحقيق ارشاداته الخلقية فى حياة المجتمع . وهذا الاعتراف بشخصية يهوه التى تتصل بالسلوك القويم ، ذلك الذى مهد الطريق لصوت النبوة المكتوبة ، لا تشهد به فقط القصص المدونة، ولكن أقدم أجزاء الأسفار الخمسة أيضا ، التى ربما كان وضعها ، تحت تأثير رسالة النبوة التى أتت بها ايليا .

٥ - ان أقدم نبوة مكتوبة وهى نبوة عاموس ، يرجع تاريخها الى حكم يربعام الثانى فى مملكة العبرانيين الشمالية (٧٨٣ - ٧٤٥) (٣) . وتجلت مملكة افرايم فى مشهد من الرخاء الظاهرى . ولكن فيما وراء المظاهر ، كانت الأمة مريضة حتى الموت . وكان الأشراف والحاشية والكهنة ، كلهم سواسية فى الفساد . واستشرى الترف والشهوة والجور وظلم الفقير . واتاحت العبادة فى الهياكل العظيمة مثل بيت ايل فرصة سانحة ليس فقط للحفلات الصاخبة كثيرة التكاليف ، والمراسم الرائعة ولكن لأعمال العنف والظلم أيضا (٤) . وأصبحت تتوارى الشفقة الأخوية القديمة بانتشار الثروة والانغماس فى الشهوات الذاتية . وكانت طبقة الزراع الأحرار التى ظلت حتى الآن دعامة الأمة فى السلم والحرب ، تسير الى دمار . وفيما يلى التخم،

(١) كان فى انتهاك آخاب للعادة الاجتماعية فى موضوع كرم نابوت اثاره للشعور العام أكثر من أية ظاهرة أخرى فى سياسته . ويمكن وضع تاريخ حكم آخاب بعد عام ٨٥٣ .

(٢) « مركبة اسرائيل وفرسانها » كما نعته الملك (الملك الثانى ١٣:١٤) (٣) تقع نبوة عاموس بين عامى ٧٦٥ و٧٥٠ ونبوة هوشع ، فى مملكة العبريين الشمالية أيضا ، بين عامى ٧٥٠ و٧٣٤ . وبلى هذين النبيين فى الترتيب ، ميخا واشعيا وكلاهما فى يهوذا ، خلال الشطر الثالث الأخير من القرن .

(٤) أنظر عاموس وهوشع على وجه عام ، أما عن الجور وانحلال الروابط الاجتماعية فيمكن الرجوع الى عاموس ٢ ، ٦-٨ ، ٣ ، ١٠ ، ٥ ، ١١ ، ٨ ، ٤-٦ وهوشع ٤ ، ١ ، ٢ وعن العبادة الاباحية وعبادة الأصنام عاموس ٢ ، ٧ ، ٨ وهوشع ٤ ، ١٣ ، ١٤ وعن فساد الأنبياء والكهنة هوشع ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٩ ، ٦٠ .

جلب تدهور دولة دمشق الحاجزة ، تهديد آشور المروع الى أبواب العبريين عينها ^(١) وقد عميت أبصار الملك والشعب على السواء ، عن المصير المحتوم ولكن أمام بصيرة صافية ، كان الدمار قريبا ومحققا ، كما كان يمكن أن تصير اليه حال بلجيكا سنة ١٩١٤ لو أنها واجهت ، دون حليف ، هجوم جحافل الألمان . وكان في مثل هذه الضائقة أن عاموس ، راعي القطعان وجاني الجميز من تقوع الواقعة في المرتفعات الجنوبية التي تحف بالبحر الميت ، ظهر بين الصاخبين المهتللين الذين لا يعاؤون بشيء ، في بيت ايل ، لينطق بكلمة القضاء التي أوحى بها يهوه الى خادمه . وكانت رسالة عاموس ، كرسالة كل من سبقوه من الأنبياء ، كثييرة كآبة لا تتحول . لقد عمل العبرانيون الشر وسيتجلى قضاء يهوه الحق في تدمير الأمة تدميرا لا يبقى ولا يذر . وكان الناس يتطلعون الى « يوم يهوه » الذي كانوا يعنون به اليوم الذي فيه ينتصر العبريون ، في القتال ، على أعدائهم . وقد أودع عاموس ، وهو يعلن عن المغير الأشورى كأداة ليهوه ، في الكلمة المأثورة القديمة ، مغزى جديدا مروعا : « ويل للذين يشتهون يوم الرب ! لماذا لكم يوم الرب؟ هو ظلام لا نور » ^(٢) .

وعند عاموس ، لم يكن يهوه أبدا « اله العبريين » ، انه يهوه اله الجنود ، ليس رب الجيوش القومية ، ولكن رب جنود السماء والأرض . وكان الدين الشعبي يرى في الهزيمة آية بأن يهوه تخلى عن شعبه ، وعند عاموس كان الانهيار المتوقع أوضح انتقام لعدالة يهوه من الشعب الذي تركه ، ولسبب انه اختارهم ليكونوا مستودع معرفته ، فان عدم طاعتهم الخلقية أثار عقابه البار : « اياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك أعاقبكم عن جميع ذنوبكم » ، « من أجل ذنوب اسرايل الثلاثة والأربعة لا أرجع عنه لأنهم باعوا البار بالفضة والبائس لا أجل نعليه » ، « سقطت عذراء اسرايل لا تعود تقوم انظرحت على أرضها ليس من يقيمها » ^(٣)

٦ - ان نبوءات عاموس وهوشع تسترعى الانتباه ليس لأنها تشمل فجر عهد جديد في تاريخ العبريين الروحي وحسب ، ولكن لأنها تشمل الحصال الجوهرية كيفا وجوهرا للتعليم التنبؤي السابق للسبب . وكانت رسالة النبي اعلان « كلمة » يهوه لشعبه وكانت النبوة توصيل وحى شخصي ، وليس جوهرها في التنبوء عن حادثات تقع في المستقبل . والنبي

(١) استرد يربعام الثاني كل فلسطين الشرقية حتى شمال لبنان ، الملوك الثاني : ١٤ ، ٢٥ ، وقد غزا الأشوريون دمشق عام ٨٠٣ وربما كان يربعام يدين لآشور بالولاء .

(٢) عاموس ٥ ، ١٨ .

(٣) عاموس : ٣ ، ٢ ، ٦ ، ٥ ، ٢ .

شخص يتحدث بالنيابة عن يهوه في اعتراض مدرك ، لعالم الحكام الديويين .
والكهنة الرسميين والرأى الشعبى وجتى نقابات التنبوء . ويقول عاموس .
« لست أنا نبيا ولا أنا ابن نبى » (١) ، وصوته صوت من يصيح في البرية
نى استنكار يتفجر عن عاطفة عنيفة ، للمخازى العلية وجور النظام
الاجتماعى . والقول الذى يعلنه ليس قوله وانما قول يهوه ووظيفة التنبوء .
ليست من اختياره . لقد أحس بسلطة يد يهوه القاسرة وينطق فقط بما
وضعه يهوه فى فيه : « الاسد قد زمجر فمن لا يخاف ؟ السيد الرب قد
تكلم فمن لا يتنبأ ؟ » (٢) ومن هنا كان رسوخ اعتقاده الشخصى وتيفنه المطلق
من صدق رسالته . ولكن بيانه لم يكن مجرد أقوال تضطرم حماسا ، ناجمة
عن الجذب وكذلك لم تكن تعتمد على اثاره مصطنعة . ولا يمكن تعرف الا
القليل من الانحراف البدنى أو العقل فى كتابات التنبوء . والأحوال والرؤيا
خارقتا العادة ، اللتان تصحبان تجاريب النبوة (وأكثر ماتحيثان فى حزقيال ،
وأقل فى أرميا) تقبلان على أنهما موضوعيتان وترجعان الى وحي مباشر من يهوه (٣)
ويأتى قول يهوه مصداقا لعقله وضميره . وقد يكون الوحي عن طريق الرؤيا
أو أعم من ذلك بالكلمة ، ينطق بها ، وقد يؤيد بالآية ويعززه المثال والرمز
ولكنه فى جميع الحالات جلى وحاسم (٤) . وعلاوة على هذا فان الرسالة توجه
الى الأمة ويندر أن يخاطب بها الفرد . ولم يكن للفرد الى الآن الا شأنه
يسير فى دين العبريين وكان الجزاء ، للخير أو للضير ، يوقع على المجتمع فى
مدرجة تاريخه الديوى . وسنرى فى التعقيب كيف أنه فى زمن لاحق ،
ظفرت دعوى الفرد من العبريين ، بالعدالة الالهية والأمل فى تعيم بعد الموت ،
بالذكر فى الدين العبرى . ولكن موضوع الأنبياء الأوائل هو التزام
الاستقامة القومية وأحكام يهوه على الخطيئة القومية . ومرة أخرى ، تكون
الرسالة ، كوحى بغرض يهوه هى فى ذاتها الضمان وليست فى حاجة الى
دعم بالدليل . واذا مست الحاجة الى برهان ، فانه يقدم ، لا بالاستنتاج
العقلى المجرد ولكن بآية أى بدلالة محسوسة مادية عن مصدرها الالهى .

(١) عاموس : ٧ ، ١٤ ، وازن هوشع ٩ ، ٧ والفقرة القصصية عاموس
٧ ، ١٠ - ١٧ تفصح فى جلاء عن هذه المعارضة لسياسة الحكام وطوائف
الكهنة .

(٢) عاموس ٣ ، ٨ قابل عاموس ٧ ، ١٤ وما بعدها واشعيا ٦ وارميا
١ و٢٣ ، ٩ وحزقيال ١ ، ٣

(٣) أنظر هويلر روبنسن « الشعب والكتاب » الصفحات ٣٧١ وما بعدها .

(Wheeler Robinson «The People and the Book»)

ان النبى يعنى معنى الالهام وعلى شاكلة الشاعر فان شطره خلق وشطره تصور
(٤) دون أشعيا رؤيا واحدة فى غضون أربعين عاما من رسالة النبوة
وتخلو نبوءاته كلها من آية عاطفة يستعر فيها الحماس .

وانا لا نجد أى اثر للاستدلال الفكرى فى النبوة العبرية . لقد كان تعليم النبي يعنى بالمراس ، لا النظرية ، ورجوعه لا يكون للعقل ولكن للإرادة (١) وكان الباعث له ، فى كل مرحلة ، تأزم واقعى فى مصائر الامة . وقد أثار التهديد الاشورى رسائل عاموس وهوشع واشعيا ، أما البابلي فرسالة ارميا . وهنا تقدم النبوة العبرية نقيضا للفلسفة الاغريقية ، يسترعى الببال . اذ بينما كان الفكر الاغريقي يتلمس تفسيراً عقلياً لكل واقعة وأسبابها عقلية لكل حكم فان النبي العبرى كان يجد التوكيد الكامل فى الحدس (٢) المباشر بإرادة يهوه وكان يقدم لقوله بالتصريح البسيط « هكذا قال يهوه » والواحد كان زهرة الثقافة الدنيوية والاخر خصمها الذى لا ينزل عن شئ . من حقه فى سبيل صلح . وادعى كل منهما أنه يعرف الحق ، الأول بمعرفة العلم الذى يقوم على العقل ، والاخر بمعرفة الايمان الخلقى .

٧ - ولم يكن ضمان الصدق موجوداً فقط فى وسيلة الوحي التنبؤى ولكن فى جوهره . كان طبع انبياء ما قبل السبى ، طبع توبيخ صارم لخطيئة العبريين وفيه قنوط أسى من توبة العبريين . وطريق الخلاص مفتوح « اطلبوا الخير لا الشر لكى تحيوا » (٣) . ولكن ليس للنبي الا أمل ضئيل فى أن ينتهج . انه النبي الكاذب ذاك الذى يهتف بالسلام حيث لا يوجد سلام ولارضاء الناس يعلن عن أمن وهمى (٤) . وعندما هوت الضربة وحمل العبريون الى السبى ، تتغير النعمة وتكون رسالة يهوه وعدا بالبركة وبالعودة (٥) ونقرأ فى اشعيا عن بقية عادلة من الشعب ينقذون فى ساعة اليأس ليكونوا نواة

(١) ان ما ينطوى عليه لفظ « لب » ويترجم عادة « قلب » هو معنى الارادة لا العاطفة . انظر قيما بلى فقرة ١٦ .
(٢) الحدس - ادراك الذهن لموضوع الفكر ادراكاً مباشراً ويقابل الاستدلال .
(المترجم)

(٣) عاموس ١٤ ، ٥
(٤) ملوك الاول : ٢٢ واشعيا ٣٠ ، ٩ - ١١ وأرميا : ٢٨ و (خاصة) حزقيال : ١٣ والتثنوية : ١٨ ، ٢١ ، ٢٢ تضع معيار الصدق فى انجازه ولكن قابل التثنية : ١٣ ، ١ - ٤ . قد تتم النبوة الكاذبة وقد لا تتم النبوة الصادقة . انظر شارلس (الإخرويات Eschatology) Charles صفحة ١٨٥ ، تذكرة .

(٥) من الراجح أن مثل تلك الفقرات التى جاءت فى عاموس ٩ ، ٨ - ١٥ وهوشع ١٤ التى تتنبأ عن إعادة فى المستقبل - ترجع الى تاريخ لاحق وربما قد تكون الأخيرة صادقة . وهى تجد القبول لدى روبرتسون سميث (Robertson Smith) ودرايفر (Driver) (المقدمة - الصفحات ٣٠٦ و ٣٠٧) الذى يدل على أن الانبياء الذين يسرون على هدى الوجدان وليس المنطق ، ربما كانوا قد عبروا عن الرجاء فى إعادة مثالية ، فى خاتمة تحذيراتهم الاستنكارية .

لامة عبرية متجددة . ولكن اليأس من توبة العبريين لا يلقى أبدا ، للحظة ، ظلا من الريبة على ايمان النبي بحكومة يهوه البارة ، ليهلك العبريون اذا كان في هلاكهم ، تتجلى عدالة يهوه . ولم يكن المغير الاشورى الا أداة ارادته المقدسة القديرة على كل شيء . وعند عاموس وهوشع ، كان يهوه اله جميع الأمم واله الأرض كلها . وقوته تسيطر رواقها على الطبيعة وعلى جنود السماء وحتى على مستقر الراحلين (شيول = جهنم) (١) ، انه كان شخصا خلقيا ، لم تترك سيادته العامة الفريدة مجالا لاية قوة الهية أخرى سواء . لقد كان حضوره الحي وهو يدأب على العمل الناشط ، وليس جوهره ، هو الذى تمتلئ به عقول الانبياء ، ولقد فسروا نشاط ارادته فى حدود أقصت الاعتراف بأى اله آخر غيره . وكانت حكومته الخلقية تتجلى فى معاملته مع جميع الشعوب وفى المكان الاول ، مع شعبه المختار . وعلى مثال العبريين ، كان مفروضا أن يوقع على الشعوب الوثنية القصاص من أجل خطاياها (٢) وفى تعبير عالم معاصر عظيم ، يتصور الانبياء فاجعة الهية مسرحها الأرض، والاشخاص القائمون بالأدوار فيها ، الشعوب ، والبطل مدار الرواية ، الشعب العبرى ومؤلف الفاجعة ، يهوه (٣)

ولقد فتح قيام الاشوريين عيونهم الى عالم أوسع ونجم عن هذا التوسع فى أفق خيالهم ، تقدم البصر الروحي وكان فى الايمان بحكم يهوه الخلقى ، ما يكفى العالم الأكبر كما يكفى العالم الأصغر . ومرة أخرى ، حمل تصور شخصية يهوه الخلقية هذا ، معه ، مطلب الخدمة الخلقية من عابديه . وكانت السنن الرسمية والمراسم الحاوية لا شيء ، فى نظره . « انى أريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات » . « بغضت كرهت أعيادكم ولست التذ (لا اشم - النسخة المنقحة) باعتكفاتكم : انى اذا قدمت لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى . . . وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم » (٤) . انه فى

(١) عاموس ٩ ، ٢ اشعيا ٧ ، ١١ ومع هذا فان التصور البدائى عن أن شيول (جهنم) خارجة عن نطاق حكم يهوه ظل قرونا بجانب مذهب التوحيد وعدم الترابط التفكرى هذا لم يكن يحس به (أنظر اشعيا ٣٨ ، ١٨ ومزامير ٨٨ ، ٥) .

(٢) عاموس : ١ و ٢ و ٩ ، ٧ . انه لأجل مظالم ارتكبت ضد العبريين ، أن خمسة من الستة شعوب التى أشير اليها فى الأصحاحين الاول والثانى سيوقع عليها القصاص . ولا يزال التعميم الذى جاء بعد ذلك ، بعيدا ، وفى اشعيا : ١٠ ، ٥ - ١٥ نجد أشور داخل نطاق سيادة يهوه .

(٣) ولهوزن (Wellhausen) الذى يوضح زيادة على ذلك ، كيف أن الانبياء أدمجوا فى دينهم التصور الحديث لدولة - عالم (أى أشور) التى كانت تحطم الأمم الأخرى ودياناتها .

(٤) هوشع : ٦ ، ٦ . وعاموس : ٥ ، ٢١ - ٤ قابل اشعيا : ١ ، ١١-١٧

صورة المعرفة ، أن الانبياء يعبرون عن العلاقة الخلقية بين يهوه وشعبه . ان يهوه كان يعرف اسرائيل وأبى اسرائيل أن يعرف يهوه . « لا أمانة ولا احسان (محبة) ولا معرفة الله في الأرض ٠٠٠ لقد هلك شعبي من عدم المعرفة لأنك أنت رفضت المعرفة أرفضك أنا » (١) . وعند عاموس ، تكون هذه المعرفة بالاعتراف العملي بالعدالة الاجتماعية وفي مراعاة الانسانية والتعامل العادل بين الانسان والانسان . وعند هوشع ، تكون نعمتها الجوهرية المحبة ، محبة الطفل لأبيه والعروس لزوجها . ان ما تدرس به شخصيا من تجربة مريرة في عدم أمانة الزوجة التي كان يحبها يضفي شعورا فريدا بالاشفاق على الصورة التي وضعها هوشع لرفق يهوه الذي لا يعتريه وهن ، وهجران العبريين ليهوه لاشباع شهوة جسمية للتعليم الكنعاني . لقد فصمت الأمة وثاق زواجها ، وفي قلب دوجع ، يساق يهوه الى النطق بالحكم على مصيرها : « والآن اكشف عورتها أمام عيون محبيها ولا ينقذها أحد من يدي » (٢)

٨ - لقد عاجلنا في شيء من الاستفاضة رسالة عاموس وهوشع التنبؤية لأنها استهلكت عهدا جديدا له مغزى يفوق الحصر في تطور دين العبريين . ولقد أزاح أنبياء العهد اللاحق الغطاء عن مظاهر تعليمهما الجوهرية بتطبيقها بوسائل متباينة على مجرى التاريخ العبرى المتغير . ويسقوط المملكة الشمالية (٧١١) ينتقل مركز الاهتمام صوب الجنوب الى يهوذا وهنا ، تحت امرة ملوك من سلالة داود ، أصبحت الحكومة مركزة ومستقرة وغدت الحياة الاجتماعية ، ما عدا بلاط بيت المقدس ، أكثر بساطة وأقل ترفا وحتى ذلك الحين كان التهديد الاشورى نائيا . ولكن الآن ، جلب غزو السامرة العدو حتى الابواب عينها . ولقد أتاحت الازمة القومية ، كسأناها دائما ، الفرصة للوحي التنبؤي في شخص ميخا ، وهو زارع من تخم فلسطين واشعيا من بيت المقدس وهو أكبر شخصية في النبوة العبرية . واستغرق عمل اشعيا الاربعين سنة الاخيرة من القرن الثامن وكان منتهاه في عهد الملك حزقيال عام ٧٠١ ، عندما غزا الاشوريون في عهد سنخريب يهوذا وظهروا أمام أسوار الحاضرة ، وتتضمن الفصول التسعة والثلاثون الأولى من السفر الذي

(١) هوشع : ٤ ، ١ ، ٦ قابل عاموس : ٣ ، ٢ ، ١٠ وهوشع : ٢ ، على قصود اسرائيل عن معرفة يهوه .

(٢) هوشع : ٢ ، ١٠ قابل ١ و٣ و١١ ، ١ - ٨ والاستنكار النهائي ١٣

يحمل اسمه ^(١) ، تنبؤاته وهي فى مادتها ، تضرب على النعمة التى صدح بها عاموس وهوشع نعمة الاستنكار العنيف للخطيئة القومية وقصاص يهوه المحيق ، على يد أشور . والتصوير الذى يملك اشعيا هو القداسة ، التعبير الشائع فى الدين الشعبى ، الذى يضىف عليه معنى روحيا جديدا . ان يهوه ليس فقط « رب الجنود » ولكن « قدوس اسرائيل » . والعبريون شعب مقدس تخصص لخدمته . ولقد كانت قداسة يهوه على النقيض من نجاسته هو ونجاسة اسرائيل التى أوقعت على النبى الحزى والفزع فى الرؤيا الرائعة التى دعت الى خدمة النبوة ^(٢) وتمثل شريعة القداسة ، كما فى عاموس فى مطلب العدالة الاجتماعية وكما فى هوشع فى مطلب الاخلاص الشخصى . وخطيئة الشعب هى أنهم « ردلوا شريعة رب الجنود واستهانوا بكلام قدوس اسرائيل » ^(٣) . ويتميز اشعيا عن تقدموه ، بالزمن المديد الذى استمر فيه نشاطه التنبؤى وبمكانته كناصح سياسى للملك ، معترف به ^(٤) وفى داخل الدولة ، كان يبشر بالعدالة نحو الزراع الذين كان يتكون منهم ، كما فى

(١) وخاصة فى الاصحاحات ١ - ١٢ و ١٤ ، ٢٤ و ٢٣ و ٢٨ - ٢٢ . ويرجع سفر اشعيا فى صيغته الحالية الى ما بعد السبي . وأية مناقشة للمسائل التى يثيرها النقد الحديث ، تقع خارج نطاقنا . ويجب على القارىء الرجوع الى روبرتسون سميث (Robertson Smith) أنبياء اسرائيل (Prophets of Israel) المحاضرة الخامسة (وخاصة التذكرة ٧ صفحة ٤٢٢) ومقدمة أدب العهد القديم لدرابفر

(Driver's Introduction to the Literature of the O.T.)

أما عن آراء أكثر جزما فأنظر شين (Cheyne) التعريف بأشعيا ، ومقالته « اشعيا فى موسوعة التنوارة (Encyclopaedia Biblica) » ، أما عن اشعيا الثانى فأنظر ١٥ فيما يلى .

(٢) اشعيا : ٦ يجب دراسة الرؤيا فى عناية . فى الدين التقليدى كان الشئ المقدس محرما أى محظورا على البشر استخدامه لأنه (مشحون) بخواص من خوارق الطبيعة . أنظر روبرتسون سميث (دين الساميين) المحاضرة الرابعة (التذكرة ب) ويشوع : ٧ (قصة عخان) وصموئيل الأول : ١٥ (سناؤل وأجاج) وصموئيل الثانى : ٦ (عزه والتابوت) ولللفظ فى اشعيا دلالة داخلية وروحية خالصة ، عن تقديس وتطهير القلب ولكون الكلمة عينها تستعمل كقلب لعاهرات المعبد اللواتى يحتجن لفرائض المقدس الشهوانية التى لم تلغ الا عند اصلاح التنبية فان هذا يمكن أن يعد مقياسا للهوة الواقعة بين النبوة العليا والدين الشعبى ، فى ذلك الزمن .

(٣) اشعيا : ٥ ، ٢٤

(٤) وازن علاقاته مع احاز زمن الغزو السورى - الافريمى (٧٣٥ - ٤) اشعيا : ١٧ ، ١ - ١٦ ومع حزقيا زمن غزو سنخريب (١ ، ٧) ملوك الثانى : ١٨ ، ١٣ و ٢٠ (وهو المصدر الذى أخذ عنه اشعيا ٣٦ - ٣٩ فى معظمه) .

اسرائيل الشمالية العمود الفقارى للأمة وباللحاجة الى تحقيق الفروض الدينية كجزء لا يتجزأ من الحياة العادية^(١) وفى السياسة الخارجية كان يحض على أن تفلح يهوذا عن الاشتباكات الدولية وخاصة التحالف مع مصر وغيرها من الدول ، ضد آشور^(٢) وكانت مشورته الباكرة لآحاز التى أعيدت بعد ذلك بإعوام على حزقيال فى مواجهة هجوم سنخريب : « احترز واحداً • بالهدوء والطمانينة تكون قوتكم »^(٣) ولقد وطد انهيار الجيش الأشورى سلطة اشعيا أمام عينى الملك والشعب • ونجم عنه أكثر من هذا لأنه هيا ليهوذا مجال تنفس لاستيعاب درس التعليم التنبؤى • وفى المملكة الشمالية كانت الطامة قد حلت سراعاً عقب تحذيرات عاموس وهوشع • ولم يعد بعد لدين يهوه أثر بين الأسرى فى آشور أو بين الفلول التى بقيت فى فلسطين ولو كانت يهوذا لاقت مصيراً مماثلاً على يد سنخريب قبل أن تظفر حياة شعبها الدينية بقوة جديدة من رسالة اشعيا ، لكان الايمان بالله قومى خالص قد اندثر بسقوط الأمة • ولكن يقين اشعيا كان يبرره الحادث وزال الخطر ومنع التدهور السريع الذى حل بدولة آشور سقطت يهوذا طوال قرن من الزمان • وعندما حل ذلك السقوط على يدى بابل ، كانت رسالة اشعيا قد تاصلت جذورها • وكانت قد تجمعت حوله ، فى حياته ، شردمة أمانة وكونت النواة لمجتمع دينى فى داخل الأمة ويتميز عنها وفى هذه العصبية من تلاميذه^(٤) كان يرى النبى الأمل فى عودة ، فى النهاية - بعد أن أرفع يهوه قضاياه على الدولة الحالية - لصهيون ممحضة تحت ولاية أمير من سلالة داود القديمة ولها السيادة على الشعوب المجاورة ، لأمة عبرية قدسها الألم وتميش عيشها القومى فى توافق نام مع شريعة يهوه : « لذلك يقول السيد رب الجنود عزيز اسراييل آه انى استريح من خصمائى وانتقم من أعدائى • وأرد يدى عليك وانقى زغلك كأنه بالبورق وأنزع كل قصديرك • وأعيد قضاتك كما فى الأول ومسيرك كما فى البداية بعد ذلك ندعين مدينة

- (١) لعن الجور والشرف - اشعيا : ١ ، ٢١ - ٣ ، ٣ ، ١٦ - ٢٣
وه ، ٢٣-٨ ، ١٠ ، ٣-١ وازن ميخا : ٢ ، ٣ ، ٢-٣ ، ١١
لعن السحر والعرافة اشعيا : ٢ ، ٦ ، ٨ ، ١٩
لعن عبادة الأوثان اشعيا : ١ ، ٢٩-٣٠ ، ٢ ، ٨ ، ١٨ ، ٢٠ وازن
ميخا : ١ ، ٧
لعن الكهنة والأنبياء اشعيا : ٢٨ ، ٧ وما بعدها ، ٣٠ ، ٨ وما بعدها
وميخا : ٢ ، ١١ ، ٣ ، ٧-٥ ، ١١
(٢) استنكر التحالف مع مصر فى اشعيا : ٣٠ - ٣١
(٣) اشعيا ٧ ، ٤ ، ٣٠ ، ١٥
(٤) اشعيا : ٨ ، ١٦ التى ربما تعنى « ساصر الشهادة واختتم الشريعة فى قلب تلاميذى » وازن ارميا : ٣١ ، ٣٣ وقد وحدت أدراج البردى اليهودية فى أسوان (ترجع الى القرن الخامس ق.م) مربوطة ومختومة •

العدل القرية الامينة » (١) لقد ضرب على نعمة الرجاء ومنذ ذلك الحين ، يظل الايمان بعودة العبريين قائما ، فى شدة تطرد ازديادا كمظهر جوهرى للنبوة العبرية .

٩ - وأتى نفوذ اشعيا ثمرته على الراجح فى غضون حياته ، وبقينا بعد فترة من رد الفعل فى زمن منسى فى الاصلاح الدينى الذى وقع فى عهد الملك يوشيا (٦٣٩ - ٦٠٨) . ولقد كانت مدونة القوانين التى جاءت فى سفر التثنية والتى نفذت رسميا عام ٦٢١ من عمل مدرسته وتشيع فيها برمتها روح تعليمه (٢) . وكان هدفها عمليا الى أبعد حد وهو جعل حياة العبريين اليومية الواقعية تتوافق مع مثل النبوة الاعلى . لقد حظرت كل عبادة الاصنام والتماثيل وكذلك ما تبقى من عبادات كنعانية ولقد نظمت الاواصر الاجتماعية والفرائض الدينية كذلك وفقا لروح الانبياء (٣) . وفوق هذا كله ، ألغيت الهياكل المحلية دون هوادة وتركزت العبادة الدينية المحضنة فى معبد بيت المقدس ولو كانت جمهرة الأمة برهنت على أنها خليقة بأن تسلك الطريق الذى رسم لها فان تشريع التثنية ربما كان قد هيا الوثيقة الكفيلة بالاصلاح . ولكن لم يكن هذا ليحدث وظل المثل الاعلى التنبؤى مثلا أعلى وحسب ، لا قدرة له على تغيير القلوب الا قلوب اقلية ضئيلة ويتجلى التناقض

(١) اشعيا : ١ ، ٢٤ - ٢٦ وازن ٧ ، ٣ ، ٢٨ ، ١٦ وما بعدها . ان اشعيا مواطن بيت المقدس والمشير الملكى ، لم يكن لديه شىء من التحيز ضد المدينة ولديه ايتار للعودة الى حياة البداوة تلك النزعة التى كانت لسلفه من النبيين . واذا كان اصحاح ٩ ، ١ - ٧ واصحاح ١١ هما لاشعيا كما يعتقد معظم الثقة فانهما يعدمان أزوع تعبيرات عن الأمل فى العودة . ولقد كان للعبارة التى جاءت فى اصحاح ١١ تاريخ لا يغيب عن البال . ان ارجوزة الرعاة الرابعة للشاعر الرومانى فيرجيل تحوى سطورا تماثلها تماثلا وثيقا وازن الجامعة : ٤ ، ٢١ وما بعدها و ٥ ، ٦٠ واشعيا : ١١ ، ٦ - ٨ . وهذا التشابه بين ما جاء فى فيرجيل ونبوءة فسرت على أنها تشير الى المسيح ، هو السبب الى حد بعيد للتبجيل الخاص الذى كان يضمم لفيرجيل فى العصور المسيحية الاولى وفى القرون الوسطى . ويلحظ شين (Cheyne) (الحياة الدينية) صفحة ١٠٣ - تذكرا . أن فى كاتلدراثية زامورا فى اسبانيا يمثل فيرجيل بين الانبياء العبريين . ومن الجائز أن فيرجيل والنبي العبرى عبرا تعبيرا مستقلا عن فكرة شرقية عامة .

(٢) توجد فى التثنية : ٥ - ٢٦ وهى منسوخة عن شريعة أقدم أتى عليها بالتحوير التعليم التنبؤى . وعن قصة الاصلاح ، أنظر ملوك الثانى : ٢٢-٢٣ (٣) لعن اشعيا عبادة التماثيل والأرواح فى الأشجار (١) ، ٢٩ وما بعدها (١٧ ، ١٠) وكانت عبادة التماثيل قد لعنها هوشع (٨ ، ٤ - ٦ ، ١٠ ، ٥ و ١٣ ، ٢) الذى كان تأثيره على التثنية أعظم من تأثير أى نبي آخر من انبياء القرن الثامن . وتحض التثنية على الشعور الانسانى والعدل نحو الاثمة واليتيم والعبء والمستوطن الغريب وحتى العجم من الحيوان .

بين النصح والعمل ، في وضوح عشية خراب اورشليم كما كان عشية خراب السامرة .

١٠ - ولقد كان هذا الرفض العصبى لارادة يهوه المعلنة هبو الذى ختم طابعه على روح ارميا (١) . و مرة أخرى كان العدو على الابواب ، ليس الاشوريون الذين كان عصر امبراطوريتهم قد ولى ولكن نبوخذ نصر من بابل . ودنت ساعة الاسر ووجدت حشرجة موت يهوذا تعبيراً لها فى صرخة النبى ، من التوجع اليأس . وكان ارميا الكاهن الهابط من عناثوث ، فى صدر شبابه يناصر اصلاح التثنية ولكن الآن ظهر كأنه سخرية خاوية وكان شعاره هيكل يهوه « (٢) شبولت من الانبياء والكهنة الكذبة . ان هيكل صهيون ، مقدس العبادة التى جددت سيلاقى المصير الذى لاقاه مقدس شيلوه : « كيف تقولون نحن حكماء وشريعة الرب معنا . حقا انه الى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب » . « صار فى الأرض دهش وقشعريرة . الانبياء يتنبأون بالكذب والكهنة تحكم على أيديهم وشعبي هكذا أحب . وماذا تعملون فى آخرتها » (٣) . و ارميا كانت دعواه الى عبادة ، لا تقوم على رسميات الهيكل

(١) كانت بداية تقدم ارميا كنبى عام ٦٢٦ وقت غزو السيشيين الذى جاء وصفه فى هيرودوت (١ ، ١٠٣ ، وما بعدها) والذى استدعى التنبؤات التى وردت فى ارميا : ٤ - ٦ . ولقد تنبأ صفنيا ومن الراجح أنه كان أميراً من الدم الملكى فى ابان الأزمات نفسها (أنظر صفنيا : ٢ ، ٣ ، وما بعدها) . وقد عاون السيشيون على اضعاف دولة آشور التى كانت تسير الى تدهور . وقد شنتوا شمل الفلسطينيين ووصلوا الى تخوم مصر ولكن يظهر أنهم أعفوا عن يهوذا . ورأى صفنيا فى مجيئهم « يوم بهوه » أنظر صفنيا : ١ ، ١٤ وما بعدها وهى العبارة التى أوحى بالترنيمة المسيحية (Dies irea, dies illa) وقد عاش ارميا بعد سقوط اورشليم نهائياً على يد نبوخذ نصر عام ٥٨٦ . وتوجد أهم تنبؤاته فى الفصول ١ - ٢٤ وتنبؤات العودة فى الفصول ٣٠-٣٣ ، يشك فيها بعض النقاد الحديثين ولكن يقبلها ولهاوزن (Wellhausen) ودرایفر (Driver) وكورنل (Cornill) على أنها ، أساسياً ، من عمل ارميا (فيما عدا ٣٣ ، ١٤-١٦) . جاء (فى الفصل ٣٦) أن التنبؤات السابقة أعيدت كتابتها باضافات باروخ بأمر من ارميا بعد أن أقيمت بأعوام كثيرة . وترجم الى نفس الحقبة تنبؤات ناحوم (حوالى عام ٦١٢ ، تاريخ سقوط نينوى) وحقوق (قبل عام ٦٠٠ بزمى وجيز) . وييجى حقوق بتحول جديد فى تصور « اليوم » . انه فى نظر الشعب ، يوم انتصار العبرانيين على آشور ولكن اذا فسر خلقياً فانه انتصار الامة الصالحة على الامة الطالحة .

(٢) القضاة : ١٢ ، ٦ « كانوا يقولون له قل اذا شبولت فيقول سبولت ولم يتحفظ للفظ بحق ٠٠٠ » .

(٣) ارميا : ٨ ، ٨ ، ٥ ، ٣٠ ، ٣١ وعن تبشير ارميا الباكر ، بشرية التثنية أنظر الفصل ١١ ، ١ - ٨ وعن عبادة الهيكل أنظر فصل ٧ وعن الانبياء الكذبة فصل ١٤ ، ١٣ - ١٦ و ٢٣ ، ٩ ، وما بعدها وفصل ٢٨ حيث يناصر حنانيا ارميا ، العقيدة السياسة التى ألهمت اصلاح يوشيا .

تراث العالم القديم

وقد دعا الى العدول عن القوانين السطحية وعن الديانة تؤخذ من الكتب واللياذ الى هيكل روحي وأضحيات روحية ونى نغمات أكثر وضوحا مما جاء بها أى نبي سابق ، نادى بمطالب دين شخصي • وأولئك الذين أتوا فى عصر لاحق ، الذين أقاموا الدعوى ضد التشريع باسم القداسة الداخلية ، رجعوا بنظرة الى الخلف ولسبب صالح ، الى ارميا ، كمصدر للإلهام ^(١) وهذه المأساة لطبع منطو على نفسه ، حساس ، تجبره دعوة متعالية لتشديد النكير على عصيان الحكام والشعب وأن يتنبأ بهلاكهم القريب ، استهوت فى قوة قاسرة ، خيال العصر التالية • ولما كان لاسبيل للخوف اليه وفى غمرة مجازفة بالحياة دائمة ، وهو يقوم بوظيفته « كجمل أو ثور يقاد للذبح » وكان بطلا ، كما قال كاتب عاطف ، ليس بطبعه ولكن بالنعمة ، فان ارميا كان يحس بانعزاله احساسا شديدا • ولم يكن يوجد انسان عامل بالعدل طالب الحق فى كل اورشليم ^(٢) وكان يتشوق عبثا الى التحرر من عناء رسالته المبرح : « يا ليت لى فى البرية بيت مسافرين فأترك شعبي وانطلق من عندهم لأنهم جميعا زناة جماعة خائنين » ^(٣) • وارميا هو الرائد للشعر الغنائى الدينى والملهم بالكثير من المزامير حتى لقد رأى فيه البعض نموذج ما جاء فى اشعيا : ٥٣ • ولما فط من التوبة القومية « هل بغير الكوشى جلده أو النمر رقطه ؟ فأنتم أيضا تقدرون أن تصنعوا خيرا أيها المتعلمون الشر » ^(٤) فانه وجد لياذا فى فكرة عهد جديد ، ليس كما كان قدما بين يهوه والأمة ولكن بين يهوه والعبرى الفرد • « فى تلك الأيام لا يقولون بعد الآباء أكلوا حصرا وأسنان الأبناء ضرست • بل كل واحد يموت بذنبه ، كل انسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه ••• هذا هو العهد الذى أقطعه مع بيت اسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب اجعل شريعتي فى داخلهم واكتبها على قلوبهم وأكون لهم الها وهم يكونون لى شعبا • ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين أعرفوا الرب لأنهم كلهم سيعرفوننى من صغيرهم الى كبيرهم يقول الرب • لأننى أصفح عن اثمهم ولا أذكر خطيتهم بعد » ^(٥)

(١) وازن تصور ارميا الروحى للعهد الجديد ٣١ ، ٣١ - ٤ : الذى اقتبس فيما يلى فى النص ، بمزمور ١١ ، ٦-٨ مثلا من الأمور الجديدة بالملاحظة • أن ارميا هو رائد دين هو على السواء اتصال الفرد الشخصى اتصلا داخليا مع الله ، وعام فى دعواه ليس ثقت للعبرى ولكن للشريعة جمعاء • ومن الوجهين فانه أعلن روح المسيحية كما أعلن حزقيال روح اليهودية المتأخرة • (٢) ارميا : ١١ ، ١٩ الكاتب الذى ذكر هو شين (Cheyne) ارميا ٥ ، ١ وعن محاولة قتله انظر ١١ ، ١٨ وما بعدها • (كانوا رجالا من عناثوث) ١٨ ، ٨ ، ٢٦ و ٨ ، وما بعدها ، ٣٨ ، ٤ (٣) ارميا : ٩ ، ٢ وازن المزامير ٥٥ ، ٥٠ - ٨ (٤) ارميا : ١٣ ، ٢٣ (٥) ارميا : ٣١ ، ٢٩ - ٣٤

ان هذا القول يضرب على وتيرة جديدة فى تعليم العبريين الروحي . ولقد خبا ضوء رؤيا الانبياء الأوائل بادماج الفرد فى حياة ومصير الأمة ولم يكن الا بعد أن أدرك أرميا أن العبرى الحقيقى انكمش فى ذاته ، وان هذا التحيز أمكن التقلب عليه . ومن الآن كان الوعى بقيمة الدين الشخصى فى نظر يهوه ملكا مقيما للنبوّة العبرية . وفى الحق سار يهوذا الى السبى أمام عينى ارميا وأصبحت الهوة التى تفصل المنزل الأعلى عن الواقع أكثر عسرا فى امكان اجتيازها ، مما كانت عليه الحال فى أية لحظة فى التاريخ . وقد نفى رؤساء الشعب الى بابل عام ٥٩٧ وبعد ذلك باحدى عشرة سنة دمرت اورشليم وأصبحت دولة العبريين لا وجود لها (٥٨٦) ولكن ايمان ارميا بيهوه كاله العبريين الحى ظل ثابتا لا يتزعزع بانحلال الأمة السياسى . كان نبوخذ نصر خادم يهوه ، ويهوه سلم العبريين الى يده (١) وقد قدر لرسالة النبى تحقيق أزر مما كان يحلم به . واذا كانت كلماته ، كما تدل جميع الظواهر قد عجزت عن انقاذ روح الأمة فان عكس ذلك كان ، حرفيا ، الحق . ولما كان قد حملها الأسرى معهم الى السبى فانها كانت مقفلة بالنشاط الذى يبعث بالحياة فى الزمن اللاحق . وقد اتاحت ساعة الانهيار الديوى الفرصة للأمة العبرية للولوج فى رسالتها الروحية للبشرية .

٣ - السبى وما بعده

١١ - لقد دمع الأسر فى بابل ، بطابع عميق ، تاريخ المنفيين الأصلي . لقد أصبح هيكىل اورشليم حيث كانت تتركز العبادة الدينية وفق اصلاح التثنية ، خرابا (٢) وكان الشعب المختار فى الواقع ، تحت حطر . ولقد حطم فى عنف الأمل الذى كان يشيع فى الدين الشعبى القديم بأن يهوه سينقذ العبريين من أعدائهم وقام الدليل على أن « اليوم » ، كما تنبأ عاموس واشعياى يوم ظلام وليس يوم نور . ولولا وجود بذور عقيدة أرفع ، غرسها تعليم الانبياء ، فربما كان المنفيون قد اندمجوا وفقا لنية هازمهم فى حياة بابل الدينية والقومية . ولكن الأمر كان فى الواقع خلاف ذلك . لقد أوجدت حالة انزالهم عينها ، حيوية متجددة فيما كان يبلغ أسس ذروة وأعظم مكانة ممتازة ، فى عقيدتهم . ودلت أولا على أنها كانت دافعا قويا لدين القداسة الشخصية الذى وجد تعبيرا له فى نبوءات ارميا . لقد التمس الروح الفردية التغزية والملاذ فى الاتصال الروحى الشخصى بيهوه .

(١) ارميا : ٢٧

(٢) ومع هذا ، فان الموقع لم يكن مما لا يمكن الوصول اليه (انظر ارميا : ٤١ ، ٥) ويظهر أن حياة متواصلة دأبت على السير بين أولئك الذين تركوا فى اقليم يهوذا ولو أنه كان ينقصهم النشاط للقيام بأية اعادة .

وثانيا ، على النقيض التام من اخلاص القلب هذا ، استعاد المنفيون في أصرة ولاء ، تقاليد عبادة الهيكل القديمة وجمعوا في دراسة وثيقة تراث التعاليم الشعبية التي تتصل بالفرائض . وعكف الكتبة الكهنة على تفسير الشريعة وتطويرها وعقدت اجتماعات ، يوم السبت ، للصلاة وقراءة الانبياء وعكفوا على الصوم وتذليل الجسد وبدأت المجامع تحل محل الاقامة التي توارت . وكان عهد النفي ، عهد تأسيس الكنيسة اليهودية واكتسبت السلطة الكهنوتية والمنظمات الكنسية قدرا جديدا . وازداد الاعتقاد بأن دين يهوه يمكن المحافظة عليه فقط بالقيام الدقيق بنصائح الناموس . ولقد تكررت نفس العوارض في الأثرن التالية بعد العودة من الأسر ، في القرن الخامس ، ومرة أخرى في صبخ تعليم الربانيين بالصبغة الشرعية بعد أن دمر الرومان الهيكل الثاني وتشئت الشعب العبري نهائيا . والأمر الثالث هو أن المنفيين التمسوا التعزية والرجاء في رؤية صهيون وقد عادت الى سيرتها الأولى ، عندما يسكن العبريون ، مرة أخرى الأرض التي يملكونها ويحكم أمراء من نسل داود بالصلاح كخدام لارادة يهوه . هذه هي النعمة السائدة في نبوءة السبي وما بعد السبي ولم تعد كلمة يهوه بعد كلمة غضب ومصير وشيك الوقوع ، والآآن وقد وقع القصاص على خطيئة العبريين فان يهوه كشف عن نفسه في اشفاق محبة كمنقذ ومخلص شعبه ، ذي الفضل . وتظهر هذه الخصائص الثلاث لعصر النفي ، في نبوءة حزقيال وهو كاهن عبري ، نفي الى بابل عام ٥٩٧ ويرجع عمله في التنبؤ الى الأعوام التي تستهل الأسر (٥٩٢ - ٥٧٠) . ويترك سفره في نفس القارىء أثرا قويا عن وحدة تكوينه وقد يكون ، كما هو اليوم قريبا جدا من حالته عندما كتبه حزقيال على ضفاف خابور منذ خمسة وعشرين قرنا خلت . ولكن من المحتمل أن جزءا من السفر ، كما يعتقد بعض النقاد ، كتب في أورشليم وأن أجزاء أخرى (كالفصول الختامية) أضافتها يد أخرى بعد ذلك . وعلى غير شاكلة النبوءات السابقة فانه في معظمه انشاء أدبي ، لا مجموعة من أقوال نطق بها ، ولو أنه يحوى بعض النبوءات الشفوية ^(١) ويشمل سردا متتابعا من الأحاديث رتبها في منهج منظم ، بيده . وهو يزخر بالرؤى والرمزية وينعكس من خلاله ، مزاج اللاهوتي الكاهن ^(٢) . وكان حزقيال (١) صلبا في توكيده المسئولية الفردية والقصاص . وقد ألقع مرة واحدة ودون رجعة

(١) حزقيال : ٣٣ ، ٣٠ ، ٣١ عن هذه المسائل المتنازع فيها ، انظر مقدمة كوك (Cooke) في « حزقيال » في (التعليقات النقدية الدولية) (International Critical Commentary)

(٢) في حزقيال ، يمكننا أن نتتبع أصل أدب الرؤيا ، الذي حل فيما بعد محل النبوءة . انظر ١٥ فيما يلي وعلى غير شاكلة نبوءة ما قبل السبي فان نبوءة الأسر وما بعدها تتخذ صبغة أدبية . لقد كتبها النبي نفسه ولم يكن بالضرورة ، أن نطق بها على الاطلاق .

عن تصور يهوه التقليدي كاله غيور ينتقم لذنوب الآباء في الأبناء ، ان كل انسان ينهض أو يهوى ، في نظر يهوه ، بأفعاله الخاصة : « الابن لا يحمل من اثم الأب والأب لا يحمل من اثم الابن ، بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون » ^(١) والى الآن لا يوجد تفكير في قصاص في الحياة الأخرى ويأخذ الانسان نصيبه من رغد العيش في الحياة الدنيا أو يلاقى المحنة وفق استحقاقه الخلقى . وسنرى في قسم آت ، كيف عجزت هذه الفردية المغالى فيها ، في ارضاء وعى الشعب العبري الخلقى المتطور . ولكن بالنظر الى الاستمسك الساهل الذي كان يحرص عليه التعليم الدينى الباكر ، بمطالب المجتمع ، كان من اللازم ومن الطبيعى أن يصير حزقيال ، فى تأكيد ينحاز كذلك الى جانب واحد ، على مطلب الفرد التكميل وهو وجوب أن يكون المقرر لحكم يهوه ، الرجوع الى أفعاله والى أفعاله دون سواها . وقد واجه النبى تذر المنفيين من أن طرق الله لم تكن متعادلة وكان الجواب وقد اعترف فيه بان شخصية الفردية ، يدل على تقدم خلقى . ما كان بالمستطاع تحقيق أى تقدم صادق فى التأمل الخلقى الا بعد أن يكون مبدأ الجزء الشخصى قد تأيد ووجد ناقصا .

ثانيا (ب) نحوى الفصول الختامية من سفر حزقيال الوعد بعودة اسرايل . سيجمع يهوه من جميع البلدان غنمه المشتته : « وأصيرهم أمة واحدة فى الأرض على جبال اسرايل ٠٠٠ وداود عبدى يكون ملكا عليهم ٠٠٠ وأجعل مقدسى فى وسطهم الى الأبد ٠٠٠ وأكون لهم الها ويكونون لى شعبا . فتعلم الأمم أنى أنا الرب مقدس اسرايل اذ يكون مقدسى فى وسطهم الى الأبد » ^(٢) . وينحصر ألق حزقيال فى مستقبل الشعب المختار ^(٣) ، اذ لا يمكن للأمم فى ملكوت مسيا ولكن نبقى بعد انتصار العبريين لمجرد أن بنى لحظة اعترافها بقوة يهوه القاهرة ^(٤) . وتسيطر الغيرة على كرامة يهوه على كل سلسلة تنبوءات حزقيال ومجرى تفكيره أنه يتحتم على يهوه أن يعيد اسرايل وبهذا فقط . تحفظ كرامته وتتجلى قوته أمام ابصار الأرض كلها . ولهذا استفاض فى شرح الهوة التى لا يمكن أن تقاس ، تلك التى تفصل نجاسة الانسان عن قداسة يهوه ستجعل أمة العبريين المعادة فى حالة من

(١) حزقيال : ١٨ ، ٢٠ أنظر الفصل كله و١٤ ، ١٢ - ٣٠ ، ٣٣ ، ١ - ٢٠

(٢) حزقيال : ٣٣ - ٤٨ وخاصة ٣٦ والاقتباس من ٣٧ ، ٢١ - ٨

(٣) هذا ما يورده المؤلف عن العقيدة العبرية . ولا يمكن أن تقبل عقول الأحرار فى زمننا هذه النعرة العنصرية ولا يمكن أن يسمح دين سماوى بإبادة شعب وادع مسالم لصالح طائفة من جواب الاتفاق .

(المترجم)

(٤) حزقيال : ٣٨ و ٣٩ . ولكن هذت الفصول عن الأمور الأخرى ، وأجزاء عظيمة من الفصول ٤٠ - ٤٨ ، من المحتمل أنها أضيفت بعد ذلك .

الوضاءة • ويظهر الكاهن في حزقيال في جلاء في (ح) هذا المثل الأعلى من الطهارة الفرضية • وهو يضع رسما مجبلا في الفصول التسعة الختامية للدستور المثالي للمجتمع المعاد • وتستنبين في كل صفحة الصبغة الرسمية التي تتخذها نظرتة وتصوره للقداسة التي توجبها الفروض • والفكرة التي تسيطر عليه كانت فكرة حكومة مقدسة من الكهنة يظاهاها أمراء ينتمون الى سسما من بيت داود وتنظم حيناً العبريين الدينية من هيكل أعيد تجديده • ولقد وضعت أبغاد المقدس الجديد في تفصيل دقيق • وقد أمر بالختان ، ليس كعادة قومية ولكن كمرسوم الهى • وكان حزقيال الرائد الأول لحكومة الهية مثلى ، اشتملت عليها فعلا منظمات عهد العودة وكان الأب الحقيقى لمدونة الشريعة الكهنوتية • وقد قام نظام قانونى وتصور أمة -- كنيسة ، لبيقيا • ان عهد الأنبياء كان على وشك أن يفسح المجال لعهد الشريعة •

١٢ - وبما أن هدفنا هو ألا نستعرض تاريخ حياة العبريين الدينية فى متنوع مظاهرها ولكن بالحري أن نوضح ما خلفته للمدنية الحديثة فاننا لن نترسم نمو النظم القانونية فى حقبتى السبى وما بعد السبى أو نطيل النظر فى قشرة التفقه والرسميات التى كانت تحجب فى بعض الأوقات تعليم الأنبياء النظام الأكبر ^(١) • ومع هذا فان تأثير الأنبياء على ديانة العبريين لم يبلغ أعظم مدهاء قط الا فى القرون التى أعقبت العودة • « ان الرأى القائل ان سفر الشريعة لعزرا حول الدين العبرى الى فرائض ونظم قانونية جداواين ، ينقضه كل أدب الزمن التسالى » هكذا يكتب دكتور مور (Dr. Moore) ^(٢) وقد استحضر فى خاطره الكثير من أحسن ما جاءت به

(١) بعد أن وطدت الشريعة حكمها المطلق كمذهب كامل للأوامر الالهية فى المجتمع المعاد لم يعد مجال للإلهام الذاتى • وعلى هذا ، ما كان لكاتب جديد أن يتقدم دون أن تأذن له الشريعة • وقد نسبت اضافات الى كتابات تنبؤية الى أنبياء (مثل دانيال) ، سابقة للشريعة • والتفاخر بالتأليف كان غريبا على الطبع السامى وروح النبوءة العبرية • وكاتت العناوين التى تنسب النبوءات الى واضعيها اضافات جاءت فى زمن لاحق • وقد نسبت الى أسماء وهمية أسفار الرؤيا التى تكشف عن المستقبل التى حلت محل النبوءة (انظر ما يلى ١٦) • ولقد أدار الدين العبرى على مذهب الربانيين الذى كان ذا صبغة قانونية ، ظهره الى أسفار الرؤيا فى القرن الأول بعد الميلاد وترك المجال الى الكتاب المسيحيين وواضعى تلك الاسفار ، ولقد نبذت أسفار الرؤيا المسيحية ، وقد تخلصت من ربة الشريعة ، الاسماء الوهمية ولكن احتفظت بها أسفار الرؤيا العبرية خلال القرون الأولى من عهدنا وخلال العصور الوسطى - انظر شارلس (Charles) الامور الأخروية (Eschatology) الصفحات ١٩٦ وما بعدها و٤٠٣ وما بعدها •

(٢) الدين العبرى (Judaism) - ١ ، ١٦

المزامير والامثال وأيوب والاضافات الى الكتابات التنبؤية التي يرجع تاريخها الى العصرين الفارسي والاغريقي . ولم يكن الا في تدرج شديد ، ان الالهام التنبؤي كتبت أنفاسه . ولقد ظل قوة حية حتى ارتفاع نجم المذهب الفريسي .

كان للقرون التي أعقبت العودة مغزى خطير في تاريخ الدين العبري اللاحق . وفيها أقرت الخطوط الجوهرية في المراسم الدينية والخلقى للائزمنة المقبلة . وعندما غزا قورش بابل أذن للمنفين بالعودة الى أوطانهم (٥٣٨ - ٧) وبعد ذلك بقرن (٤٥٨) لحق بالمجتمع العائد طائفة من الكهنة بزعامة عزرا ، الذي حمل معه شريعة من عمل يهود بابل ، تناولتها يد التجديد . وهذه الشريعة التي أنفذها عزرا عام ٣٩٧ ، أصبحت منذ ذلك الحين شرعة المجتمع الهادية . ولقد تحولت شريعة التثنية الى مدونة قوانين كهنوتية وأعيد تدوين تقاليد الماضي لتصبح تاريخا كهنوتيا . واتخذت الأسفار الخمسة شكلا يطاق في الواقع الشكل الذي نقرأها فيه ، في كتابنا المقدس اليوم . ونغمتها في وضعها المعاد الذي قام به عزرا كانت تلك التي جرى عليها حزقيال ، النعمة الكهنوتية . ولقد تجمعت أمة عبرية مصطنعة ، مجمع وليس دولة ، كان الواعز لها مثل أعلى للقداسة اللاوية حول عبادة تؤدي في الهيكل في اورشليم^(١) . وقد عقدت الرئاسة للكاهن الاعظم . وكان تعليم ما بعد السبي هو أن كل شيء في الأمة العبرية هو من حق يهوه ، واذا دفعت الضريبة المقررة فانه سيرسل بركته على ما تبقى . كان المبدأ نبيلاً ولكن تطبيقه من جانب أصحاب الفتاوى ، أصبح وقد قارب أن يكون غير محتمل^(٢) ان مخالفة فرائض العبادة دون أن يكون لها ، في الغالب ، مغزى يتصل بأداب السلوك أصبحت تعد خطيئة لها نفس الخطورة التي تكون لانتهاك القانون الخلقى لأن كليهما ، بوصفهما أوامر يهوه ، كانا قرصا لا يحده شرط^(٣) . وعلى مر الزمان ، أصبحت سلطة الكتاب الذين

(١) بنى الهيكل الثاني عام ٥١٦ ونعمة هذا العصر نجد رجوع صداها في حجى وزكريا : ١ - ٨ وعن الطهارة الخارجية أنظر اللاويين : ١٢ و ١٤ ، ١٨ - ١٣٣ ، ١٥ و ١٦ ، ٣٠ ومع هذا ، فمن الجدير أن نتذكر ملاحظة كوينن (Kuenen) (دين اسرايل : ٢ ، ٢٨٥) : « لا يسعنا الا أن نعترف بأن تلك التخطيطات التي كان يرثيها الشارع (لمدونة القوانين الكهنوتية) كانت جليلة وجميلة . ولقد وضع بطريقة عامة فكرة شعب مقدس يخص نفسه ليهوه ، وحاول أن يحققها في مجال واسع » .

(٢) انظر انج (Inge) : مقالات صريحة (Outspoken Essays) ، القديس بولس ص ٢١١ و ٢١٥ - ٢١٦ عن : التعليم المدرسي ، في عهد الربانيين في ائزمنة الرسل .

(٣) انظر ، على سبيل المثال ، الخروج : ٣٠ ، ٣٣ واللاويين : ١٠ ، ١٦ - ١٤ ، ٣٣ - ٥٣ واللاويين على وجه عام .

كانت مهمتهم تدوين وتفسير القانون تنزع الى الحلول محل سلطة طائفة الكهنة (١) وأصبح الدين العبرى ، فى اطراد يتزايد ، دين كتاب مقدس (٢) ومن هذا الينبوع ، انبثق القانون الشفوى بأثقاله التى تطرد ازديادا . وفوق ذلك كله ، فان الحاجز الفاصل بين العبريين الذين كانوا يراعون الشريعة التى أعيد وضعها ، من جهة ، والسامريين الملحدون والأهم الوثنية من الجهة الأخرى جعل بحيث يكون مانعا على الاطلاق . وفريضة الحتان وهى الطابع المميز للصفة القومية استعرضت فى التاريخ الكهنوتى كجزء لا يتجزأ من دين يهوه ، وآية ميثاقه الأبدى مع ابراهيم . ونستطيع أن نرى السبب الذى دفع العبريين العائدين لوضع هذا القصر الصارم . ولقد عدا الاتصال بين الشرق والغرب ، فى ظل الامبراطورية الفارسية وخاصة فى ظل امبراطورية مقدونيا ، أكثر توثقا وتحطمت على التدرج حواجز السلالات وكان يمكن أن يفقد عابدين يهوه الأتقياء فى يسر ، ذاتيتهم ويندرجوا فى العالم الوثنى الذى يقوم حواليتهم لولا أنهم اعتصموا بعقيدتهم المتميزة ومعها قوميتهم المتميزة . بسور من الشريعة الرسمية يحيط بهما . انهم كانوا مقدسين أمام يهوه ، أما من عداهم من الخلق فلم يكونوا مختننين وكانوا أنجاسا . وهذا الوعى بدعوة خاصة والعزيمة التى لا تنزعزع بأن يكونوا موالين لالتزاماتها زادت شدة ، فى القرن الثانى ، اضطهاد انطيوخس ايفاناس Antiochus Epiphanes (١٧٥-١٦٤) وبعد ذلك غزو روما . ويمكننا أن نرجع الى ذلك العهد مصدر الثبات الذى يبعث على الدهش الذى يتسم به الدين العبرى وطبيعة السلالة العبرية خلافاً للتالى كله . وتوجد ، دون ريب عظمة فى مشهد شعب صغير . سفر ، صفر اليندين من دعائم الوحدة الطبيعية والسياسية ، وهو يوجد روافد صناعية تأتى عليه بالنفع فى الحفاظ بقوميته كصخرة بين عواصف تتناوح من كل جانب . وكان الثمن الذى دفع باهظا وهو فرض عبء فادح أوصد الباب أخيرا وصدا نهائيا أمام الأخوة الروحية مع عالم الأمم الوثنية . ومن ذلك الحين ، كان فقط بالانفصال الثورى عن العقيدة العبرية الصحيحة ، أن روح دين الأنبياء أتبع لها أن تشيع فى المدنية الغربية . ويجب أن نبحت فى مظنة أخرى

(١) بعد ختام العهد الفارسى عام ٣٣٢ ، يظهر الكتابة كطبقة تمتاز عن طبقة الكهنة .

(٢) ولم تكن قد تحددت بعد حتى فى القرن الأول الميلادى أسفار التوراة المقبولة لدى الكنيسة المسيحية كقانون للايمان . لقد تسلمت المسيحية الأسفار اليهودية ومعها مبدأ الإلهام الحرفى وأضانت (العهد الجديد) الذى كان أكثر تجانسا فى محتوياته وفى مستوى تعليمه الروحى من (العهد القديم) ، ويمكننا أن نوازن تأثيرات (دين كتاب) على الدين العبرى قبل قيام المسيحية ، وتأثيرات احيائه بعد حركة الإصلاح التى لا يزال يمكن تبينها الى اليوم .

غير الشريعة عن التراث الاصلى الذى تركه العبريون للبشرية (١) فالشريعة كانت الصدفة وليست نواة الحياة الدينية فيما بعد السبى . ولقد نهض جنبا الى جنب مع الصيغ الرسمية الفرضية دين من التقى الداخلى والرعة ، وجنبا الى جنب مع خواص المجتمع الصحيح خلجت رؤية مملكة

(١) يجب ألا تؤخذ هذه العبارة كإنكار للتأثير الواضح الذى كان للشريعة الموسوية على تاريخ المسيحية . فعلى سبيل المثال ، تركت النصائح الخلقية التى جاءت فى الأسفار الخمسة الأولى من التوراة ، أثرا عميقا على آداب السلوك المسيحية . لقد احتفظت المسيحية عندما امتزجت بالهلمينية ، بمدونة القوانين الخلقية العالية التى ورثتها عن الدين العبرى ، وتدعو الحال فقط الى ذكر الوصايا العشر . ثم أن تاريخ نظام الكهنة ونظام القساوسة المسيحيين أثرت عليه المدونة الكهنية اليهودية وتصور العبريين لوظيفة الكاهن . والرسالة الى العبرانيين هى مثال باكر لهذا التأثير ، وهى التى تركت أيضا طابعها على مبدأ التكفير المسيحى ، ومع هذا فإن النظام الكهنوتى المسيحى ، على غير شاكلة النظام العبرى ، لم يكن قط وراثيا ويغلب عليه العزوبة ، وكذلك نثر الفكر القضائى المسيحى بالشريعة الموسوية كما ينتجلى ذلك فى (108-90 S. Th. Aquinas' tractate de legibus) . لقد كانت الشريعة الموسوية النموذج للتعديلات التى أدخلها قسطنطين وخلفاؤه المسيحيون فى الامبراطورية ، على قانون روما الجنائى . ولقد كتب جيون (Gibbon) (فصل ٤٤) : « لقد استقبلت شرائع موسى كمصدر إلهى للعدالة وكيف الامراء المسيحيون قوانين عقوباتهم على درجات التسفل الخلقى والدينى » ، فعلى سبيل المثال ، أصبح الزنا جريمة عقابها الموت . وقد لقى هذا التأثير القضائى للشريعة العبرية واعزا قويا فى زهلى الاصطلاح . وقبل ذلك الوقت ، لم تؤثر الى درجة خطيرة على القوانين الفعلية لدى الشعوب الغربية . ان الفرد (Alfred) يشير الى موسى فى مقدمة مدونة القوانين الانجلوسكسونية ولكن القوانين التى تجيء بعدها لا تستبين فيها اية علامة للتأثير ، ومن الجهة الأخرى ، كثيرا ما أهدجت الجماعات البروتستانتية نصائح موسى فى تشريعها . وفى اعلان أصدره الزراع الألمان فى عام ١٥٢٥ نجدهم يطالبون بأنه « يجب إلغاء صفة علماء القانون وأن تجرى العدالة طبقا لشريعة موسى لأنه لايجمل بالإنسان أن يحصل على قانون أفضل من ذلك الذى أعلنه الله » (فنوغرادوف Vinogradoff) . القانون الرومانى فى أوربا العصور الوسطى صفحة ١٢٩) . ولقد رفض المستعمرون فى مساشوسستس (Massachusetts) أن ينتهجوا مذهب المحاكمة بوساطة المحكمين لسبب أن موسى فى شرائعه لم يصرح بها . وكانت عقوبة الموت للسحر ولانتهاك يوم السبت ، هناك وفى أماكن أخرى بين جماعات المحضين ، لها ما يبررها استنادا على ما جاء فى شريعة موسى . ويكتب ي . ن . فيجس (J.N. Figgls) من جرسم (Gerson) الى غروتم (Grotlm) صفحة ٢٠٩) : « ان القانون لدى لوثر (Luther) سواء آكان طبيعيا أو خلقيا أو مدنيا ، كله يندمج فى الوصايا العشر وأى شىء غيرها هو مجرد قوانين ادارية سواء فى الدولة أو الكنيسة » .

مثالية في صهيون يكون من أمرها أن تضم جميع الشعوب وتحمل الخلاص ليس فقط للعبريين ولكن للأمم^(١).

١٣ - وكان من الطبيعي تماما أن هذا التعبير المزدوج عن العقيدة الدينية ، الذي يضم المثليين الأعلى ، الاتصال الروحي الشخصي بالله وملكوته العام ، ينهض في آن واحد مع خاصية الشريعة . ومثال توضيحي لنزوع الحد الأقصى للفردية والتعميم ، هذا ، الى التقابل في تلاحم وثيق تقدمه الهلينية المعاصرة حيث أصر الفلاسفة الرواقيون عند انحلال دولة - المدينة الحرة ، بعد الغزو المقدوني ، على مطالب الفضيلة الفردية وكذلك على عضوية مجتمع عالمي . ويبرز هذان المثلان الأعلى في الأدب الديني العبري في عصرى السبى وما بعد السبى . ومن الضروري جدا فيما يتعلق بالأول أن نلاحظ ، وخاصة بعد ما قيل عن الصفة الرسمية التي ميرت وضع مدونة القانون الكهنى ، كيف بعث حكم الشريعة في المجتمع العبري مستوى خلقيا رفيعا وعنصرا من التقى زاخرا . ان قوة دين العبريين كانت ، الى حد ما ، تتأصل في ضعفه بالذات^(٢) ولقد دل المجمع المحلي ، باجتماعاته للصلاة العلنية وقراءة وتفسير الكتاب على أنه واعز قوى للدين في الفرد . ومما هو أجدر بالملاحظة ، ان عبادة الهيكل نفسها ولدت روحا من التقى المستعرة ظفرت بتعبير دائم في المزامير . ولما كانت نتاج مؤلفات متعاقبة يتراوح تاريخها بين عهد السبى الى القرن الثاني ، فان هذه التراجم التي لا يعرف لها مؤلف والتي تشتمل على المزامير ، سميت ، لسبب صالح ، « كتاب تراجم

(١) انظر التذكرة الإضافية في خاتمة هذا الفصل عن تاريخ العبريين فيما بعد السبى .

(٢) لقد بين مستر كلود مونتفيور (Mr. Claude Montefiore) في محاضرات هيرت (Hibbert) لعام ١٨٩٢ ، في جلاء كيف أن الشريعة نمت الحياة العليا الخلقية والروحية في مجتمع ما بعد السبى . ولم تكن نتائج النظم الشرعية فيما يتعلق بالسلوك ما يتوقع مبدئيا منها . وهو يقول : « ان المرء في حاجة الى أن يأخذ حذره عند الكتابة عن الشريعة » (صفحة ١٧٨ تذكرة ١) ، ان ما كانت تتميز به حياة أتباع الشريعة الصادقين هي الطهارة وحسن الصنيع ، وفوق كل شيء البهجة في الخدمة المحبة . ولم يكن العبري يشعر أنها حمل ولو أنها من جهة نظر التعميم كانت حملا . وفي هذا الفصل يعالج دين العبريين بصفة شاملة من وجهة النظر هذه وتقع قيمتها داخل نطاق الدين العبري ، خارج اختصاصنا . وعن الدين العبري في القرن الأول بعد الميلاد ، انظر فصل مستر مونتفيور بعنوان « روح الدين العبري في بواكير المسيحية » لجاكسون (Jackson) وليك (Lake) المجلد الأول .

الهيكل الثانى ، (١) وهى تشهد فى كل صفحة كيف كان قلب الفرد من العبريين يندق فى توافق مع قلب مجتمعه الدينى . انه كان يمشى ويتحرك وله كيانه ، فى حياة العبريين الروحية .

واذا لم يكن يهوه الها قصيا ولكنه « عون حاضر فى الضيق » ، فلانه كان « يرعى العبريين » واذا كانت روحه تشتاق الى يهوه « كما يشتاق الابل الى جداول المياه » فمرجع ذلك الى انه انفصل عن مقدس الهيكل الذى اتخذه اله السماء والارض مسكنه الخاص، وسط شعبه المختار (٢) ، وعندما يتحدث صاحب الزامير فى صيغة المتكلم ، فليس ذلك باسمه هو. ولكن باسم الطائفة الروحية التى تندمج فيها شخصيته الخاصة . ولقد الهم بعض الزامير ، مباشرة ، الاخلاص للشريعة اما البعض الآخر ، ففى نهج اكثر حصرا ، يعبر عن مطامح وآلام انصار المذهب الصحيح الصارم ، الحاسديم (الاسدانيون او الاتقياء - السابقون الاولون للفريسيين) الذين بذلوا حياتهم فى مقاومة الهلينية فى ايام انطيوخس ايفانوس (٣) Antiochus Epiphanes . وانا لنسمع، جنبا الى جنب مع الافصح عن الايمان بيهوه وبالفرح فى حضرته ، صدى الذكريات القومية القديمة والامال فى خلاص قومى والبهجة فى عبادة المعبد ، ولكن اهمية الزامير بالنسبة لنا ترجع بالحرق ، الى انه تشيع فيها روح من الاخلاص الدينى تسمو على حدود العبادة الكهنوتية وحدود الشريعة، الضيقتين . والتأثير الذى بسطته هذه القصائد فى القلب البشرى خلال الفى سنة ونيف ينهض دليلا على شدة وعظم الشعور الذى الهم أولئك المؤلفين بجانب أمواه بابل - الذين تجهل أسماءهم - بها ، وكذلك الى الذين قاموا فى المجتمع الذى التم شمله فى فلسطين . وفى بعض الزامير ينفذ التقى الشخصى ، عن وعى ، من خلال الحواجز التى أقامتها السنن الخارجية ويعرض عن الشريعة المكتوبة الى تلك التى رقت على صفحات القلب (٤) انه هذا التنوع وهذا الفيض من العاطفة الدينية الذى يلم بكل الحالات

(١) ولو أنها ، على غير شاكلة كتب الترانيم التى لدينا ، لم تكن قط بين أيدى المجمع . ومن المحتمل أن بعض الترانيم ترجع الى ما قبل السبى ولكن من غير المرجح أن أيا منها من تأليف داود . انظر درايفر (Driver) «المقدمة» وشين (Cheine) « أصل الزامير » .

(٢) مزموذ ٤٢

(٣) الاخلاص للشريعة وخاصة المزموذ : ١١٩ ومزموذ : ١ يعبر عن مشاعر (الاتقياء) أو (الأبرار) على النقيض من (الأشرار) و (الخطاة) و (المحتقرين) وازن ١٢ ، ١ - والاشارة الى الهيكل واضحة فى الزامير ٢٤ و ٢٧ و ٦٥ و ١٣٨ وعن تفصيل مجمل لموضوعات الزامير انظر درايفر (Driver) (مقدمة) الصفحات ٣٦٨ - ٩

(٤) مثلا الزامير : ٤٠ و ٥٠ و ٥١

النفسية التي فيها تتجه روح الانسان نحو الله ، في أيام الخير كما في أيام السوء ، هما اللذان جعلنا من المزامير كتاب ترانيم ، ليس فقط لهيكل الثاني ولكن للدين العبري في جميع العصور وللكنيسة المسيحية ايضا .

١٤ - واذا كان العبري الصالح قد وجد رضى لمطامحه ، في دين خدمة - المعبد ، العملي وفي مراعاة القانون فقد واجهته في نفس الوقت مسألة تتصل بعلم اللاهوت وآداب السلوك ، كانت تسبب الكثير من فحص القلب فحفا خطيرا . ومبدأ حزقيال الذي تردد صدهاء بعض المزامير^(١) وهو أن كل رجل يلقي الجزاء الوفاق فيكافا أو يعاقب بمقتضى ما هو حقيق به في مدرجة حياته الدنيا ، لم يستطع أن يصمد في مواجهة الوقائع . ان أقدار الفرد كانت تعتمد كما هو جلي على أقدار رفاقه وما كانت حاجة السعادة الخارجية لتتناسب مع ما له من فضل . وكان هذا التناقض العملي ، وليس أى تعارض فكري ، هو الذى دفع الناس الى التشكك في العدالة الالهية^(٢) . وقد لاذت بعض العقول الى التفريق بين الرخاء الظاهري والرضى الداخلى وغيرها الى الفكرة بأن آلام الصالح ، لم تكن تأديبا وانما كانت تقويما بينما سعود جده الشرير . كان من شأنه فقط أن يزيد وقع الكارثة التي تجتاحه آخر الأمر^(٣) . ولكن تصور الألم على أنه قصاص عن الخطيئة كان متأصلا فأصلا عميقا في العقل العبري ، لتكون أمثال هذه الحلول مقبولة . وعلى هذا فان المسألة التي قامت ، تكون موضوع شعر أيوب الفاجعي . لماذا ينعم الأشرار ويلاقى الأبرار تعاسة لا يستحقونها ؟ ان الكاتب يحس أن هذا لا يمكن الاجابة عليه في حدود صيغ الخطيئة الشخصية ، ولكن بينما يصيغ وضع الصعوبة فانه لا يقدم حلا فيه الكفاية . ويظهر أن الافتتاحية تدل بأسباب الراى الذى يقول ان أيوبا تالم كشهيد يعلن عن عدالة الله بينما يظل هو غير واع بالهدف من آلامه أى جزاء الورع الذى لا برمى الى نفع . وليأذه الأخير هو الى ما تمليه العقيدة الخلقية معرضا عن وقائع الظروف الخارجية ويظل تيقنه العملي من بر يهوه بحيث لا يتزعزع ، الى النهاية^(٤) وفي نص واحد يجيء برأى عابر عن الأمل ، الذى قدر له منذ القرن الثاني وما بعده أن يتأصل

(١) على سبيل المثال المزمور : ١ ، ٣ ، ٣٤ ، ١٩ - ٢١ والامثال : ١١ ، ٣١ ،

(٢) أيوب : ٢١ ، ١ - ١٥

(٣) مزامير : ٣٤ ، ١٩ ، ٣٧ على الأخص ٣٥ ، ٣٦

(٤) انظر كتيب دكتور روبنسون بعنوان « صليب أيوب » ، (كتب الدين والحياة) الصفحات ٦٤ - ٦٩ وتشارلس (Charles) : الامور الاخروية (Eschatology) الصفحات ٦٩ - ٧٣ . وفي السفر الخاص بأيوب في

و التعليقات النقدية الدولية ، (درايفر وجرى (Driver and Gray)

ينذهب القول الى أن القرن الخامس هو تاريخ القصيدة المحتمل .

بين العبريين ، في بعث البار ليستمتع برؤية يهوه شخصيا (١) وسنعود وشينكا الى هذه العقيدة ونقتصر هنا على التنويه الى أنها لا ترجع الى استدلال من مقدمات قياس نظرية ولكن كنتيجة فرضتها على العقل صعاب الحياة العملية . وهذه الحقيقة تكفي بذاتها الى استبعاد الرأي الذي يقول ان ظهور العقيدة الجديدة كان مرجعه الى التأثير الهليني . وعلى الرغم من خضوع العبريين للحكم المقدوني من عام ٣٣٢ وما بعده ، فإن سياسة الامتزاج بين الغرب والشرق التي نماها خلفاء الاسكندر تركت أثرا ضئيلا في الفكر العبري الا في الاسكندرية حيث كانت الطائفة العبرية تستمتع بمكانة لها ميزة خاصة . وأعظم استثناء يلفت النظر في العهد القديم هو الذي يورده سفر الجامعة الذي ربما يكون قد كتب قرب نهاية القرن الثالث حيث تتخذ الفردية الدينية ، تحت وازع الهلينية ، صورة البحث المتشكك . ان طبع هيروdot (٢) لينعكس في هذه الالفاظ : « ووجهت قلبي للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات » ويستبين المذهب الكلي في الكتاب في يسر في عبارة : « رأيت كل الاعمال التي عملت تحت الشمس فاذا الكل باطل وقبض الريح » .

(١) أيوب : ١٩ ، ٢٥ - ٧ ، أنظر شارلس (Charles) صفحة ٧١ ودرایفر (Driver) المقدمة صفحة ٤١٨ : « ان فكرة حياة في المستقبل ، مباركة ... فكرة ناشئة في سفر أيوب » في مجلد (التعليقات النقدية الدولية) عن أيوب يقدم جرای (Gray) العبارة :

الآية ٢٥ : أما أنا فقد علمت أن المنتقم لي حي وأنه بعد هذا سيقف فوق

• التراب

الآية ٢٦ : و... و...

• وبدون جسدي أرى الله

الآية ٢٧ : الذي أراه أنا لنفسي وعيناي تنظران وليس آخر •

في الشطر الأول من الآية ٢٦ توجد صعوبة تكاد تكون مستحسنة . والكلمة التي ترجمت (منقذ) في النسخة القديمة معناها منتقم لظلم لا يستحق (أنظر هامش النسخة المعدلة) . و (أنا) في الآية ٢٧ للتوكيد . ويفسر جرای في ملاحظاته العبارة بأنها تعبر عن اعتقاد أيوب ليس في حياة بركة دائمة بعد الموت ولكن في رؤية الله بعد الموت رؤية عابرة تبين أن الله معه . وعن الايمان بالبعث أنظر ما يلي ١٥ •

(٢) الجامعة : ١ ، ١٣ ، ١٤ وازن الامثال : ٣٠ ، ٢ - ٤ لتشكك مشابهة .

ويمكن تقصي التأثير الاغريقي أيضا (فيما يحتمل) في الامثال : ١ - ٨ وفي سفر (Ecclesiasticus) من الاسفار شبه المقدسة . حيث يوجد بيان محمل عن المثل الأعلى للرجل العاقل ومبدأ الوضيع وبنوه عن قيمة وقت الفراغ حياة الحكمة (مثلا (Ecclus) ٣٨ ، ٢٤) واسم (Ecclesiastes) هو الترجمة الاغريقية للفظ العبري (Qoboleth) ومعناه معلم الحكمة . وعن أدب (الحكمة) الذي ينتمى اليه سفر الامثال أنظر درایفر (المقدمة) الصفحات ٣٩٢ وما بعدها •

وبين انعدام الجذ التفكيرى فقط. كيف كان العقل العبرى وسيطا غير ملائم لتقبل الفلسفة الاغريقية . والآراء التى كان يؤثرها هى قواعد السلوك الحكيمة ، عند الابيقوريين وهم من بين جميع المدارس الهلينية المتأخرة ، المدرسة التى لم تقم أقل وزن للبحوث الميتافيزيقية ، ومسألة أيوب يمكن اهمالها على التو بانكار الجزء الخلقى^(١) و « الجامعة » مثال منعزل فى أدب « الحكمة » العبرى . ان آلام الشهداء ، الحاسديين ، فى عهد انطيوخس ايفانوس Antiochus Epiphanes والعاطفة الوطنية العنيفة التى اتسمت بها ثورة المكابيين التى أثارتها جهوده فى فرض الهلينية قسرا ، أهدمتا روح الحرية العقلية فى فلسطين وضمنتنا انتصار الخاصية التى تفرد بها العبريون .

١٥ - وفى غضون السبى ، أصبح الأمل فى الملكوت قوة مسيطرة فى حياة العبريين الدينية وكان نموه تدرجا واتخذ ضروبا من الصور المعينة . فحينما كان يضيق بحيث يتوافق مع أشد مذهب قومى صرامة وحينما آخر يوسع حتى يحطم كل حاجز كان يفصل العبريين عن العالم الوثنى . وهو يرتبط فى الغالب ، وخاصة فى السنوات التى سبقت ميلاد المسيح مباشرة بالاعتقاد فى مجيء مسيا ، الملك من نسل داود الذى يجب أن ينقذ العبريين ويستهل مملكة يهوه^(٢) . ولكن هذه الظاهرة ، ليست جوهرية ولب التصور هو انشاء « مجتمع أعيد إحياءه » يجب أن تتحقق فيه الإرادة الالهية^(٣) .

ولقد أدمج الترقب القديم « ليوم يهوه » - ولم يعد بعد ذلك يفسر كمحنة غضب على العبريين ولكن كوعد بالفداء - فى رجاء الملكوت التى أعلن

(١) الجامعة : ٨ ، ١٤ ، ٩ ، ٢ الصدفة تحكم العالم (٩ ، ١١) قواعد السلوك الابيقورية من طراز أقل رفعة ، القربية من المذهب القوريني (Cyrenaicism) (٣ ، ١٢ وما بعدها و ٥ ، ١٨ وما بعدها و ٩ ، ٧ - ١٠) . هذه ونصوص أخرى كثيرة تورد للذاكرة نغمة رباعيات عمر الحيام .

(٢) مسيا معناه (المسحوق بالطيب) وبعادله فى الاغريقية Christos Christ (الذى مسحه يهوه بالطيب) كان تعبير يطلق كثيرا على ملوك ما قبل السبى .

(٣) شارلس (Eschatology) الامور الآخروية ، صفحة ٨٤ - يتصور المذهب العبرى السابق للمسيحية ، الملكة المثالية أحيانا على أنها حكم أمير دنيوى من نسل داود وأحيانا على أنها حكم الهى بحكومة من الكهنة . ولا يوجد ذكر لمسيا فى عاموس أو صنتيا أو ناحوم أو حبقوق أو يوئيل ولا فى دانيال أو فى النصوص الآخيرة ، اشعيا : ٢٤ - ٢٧ ، ٦٥ - ٦٦ وكثيرا ما يذهب التصور الى أن الملكوت تكون تحت حكم يهوه مباشرة .

عنها اشعيا و ارميا وبينهما حزقيال فى وضوح (١) . وفى نبوءة حزقيال
 يستعرض التصور فى أعظم صورة شاملة له ، كتأسيس كنيسة من الكهنة
 تسبقها دينونة لا رحمة فيها للأمم والعبريين غير المؤمنين ، أما بركات
 الملكوت فيختص بها الأبرار من العبريين وتكون لهم وحدهم (٢) .
 ويرجع بعض انتصار هذا التفسير الضيق ، فى النهاية ، بين يهود العودة ،
 الى الاضطهاد الملاحق فى عهد انطيوخس وبعضه الى عدم قدرتهم على ادراك
 كل اتجاهات عقيدتهم فى التوحيد . والا ، ما كانوا ليعجزوا عن الوصول
 الى الاستنتاج بأن اله الأرض كلها لم يحصر عنايته الرحيمة فى شعب واحد
 له امتياز ولكن بشاءت ارادته بأن معرفته يجب أن تكون ، عن طريق
 العبريين ، نورا لجميع الأمم على الأرض . ولقد عبرت ، فى الواقع عن هذا
 التصور الأكثر اتساعا للملكوت ، نبوءة السبى وما بعد السبى . كان
 يوجد فى حياة العبريين الروحية ذلك الشيء الذى لا قبل له على أن يحتبس
 داخل الحدود التى رسمها حزقيال . هكذا كانت رؤيا الملكوت التى ألهمت
 رسالة اشعيا الثانية (٣) . وهو يستهل بصوت التعزية : « تعزوا ، تعزوا ،
 يا شعبي » وطمانينة بافتداء قادم عندما «يكشف عن مجد يهوه وكل الأجساد
 تراه معا » . ولو أن الرجاء فى نجاة عاجلة على يد قورش الفارسى يزدوج
 بذكرى عدم اخلاص العبريين السابق والتأنيب على عدم ايمانهم الحالى ، (٤)
 فان النعمة السائدة هى نعمة الوثوق من رحمة يهوه . انه المخلص المنعم
 الذى « سيطعم قطيعه كراع » وانه غفر فى سماح ، ذنوب شعبه : « بفيضان

(١) عن (اليوم) انظر عاليه ٤ - عن اشعيا انظر عاليه ٧ - و ارميا :
 ٢٣ ، ٥ ، ٦ - حزقيال : ٣٤ ، ٢٣ وما بعدها و ٣٧ ، ٢٤ وما بعدها .
 ولكن لا يوجد رجاء فى مسيا ، فى حزقيال (انظر كوك المرجع المذكور آنفا
 « المقدمة » ، صفحة ٣٠) .

(٢) وازن أر : ٤ ، ٢ و ١٢ ، ١٤ - ١٧ و ١٦ ، ١٩ حيث شملت الملكوت
 الشعوب . وقد ورد الرأى الضيق ، على سبيل المثال فى اشعيا : ٦٦ وفى
 نبوءة يوثيل (حوالى ٤٠٠ ق م) .

(٣) تجيء تنبوءات اشعيا الثانى فى الاصحاحات ٤٠ - ٥٥ . ويرجع
 تاريخها الى زمن غزو قورش لبابل (٥٣٨) . وتضم هذه الاصحاحات
 (أغاني خادم يهوه) الأربع ومن المرجح أنها لكاتب آخر - الاصحاحات :
 ٤٢ ، ٤١ - ٤٩ ، ١ - ٦ و ٥٠ ، ٤ - ٩ و ٥٢ ، ١٣ ، ٥٣ ، ١٢ والاخذ عشر
 اصحاحا الاخيرة من سفر اشعيا (٥٦ - ٦٦) ربما وضعها مؤلفون مختلفون
 وترجع الى تاريخ لاحق . وعلى أية حال فيمكن أن يعد من الأمور المقررة أن
 الاصحاحات ٤٠ - ٦٦ لا تحوى أية تنبوءات من اشعيا نفسه .

(٤) اشعيا : ٤٠ ، ٢٧ وما بعدها و ٤٢ ، ١٨ - ٢٥ ، ٤٩ ، ١٤ - ٢١

الغضب حجبت وجهى عنك لحظة وباحسان أبدى أرحمك قال وليك الرب» (١)
 وكانت دعوة اشعياء الثانى للايمان أكثر من أن تكون للتوبة • ان علمه
 باللاهوت أكثر وعيا وأكثر جنوحا الى التأمل بالقياس الى ذلك الذى كان لدى
 الانبياء السابقين انه يفرض معتقداته فى التوحيد كحقائق نظرية ، ليس
 بتوكيد العقيدة ولكن بالدليل المقنع • ان يهوه هو الخالق المعترف به ، الحافظ
 للكون ، الاله الواحد الأبدى الذى لا نهاية له والذى تظهر يده القادرة خلال
 الطبيعة كلها والتاريخ كله : « من فعل وصنع داعيا الاجيال من البدء ، أنا
 الرب الأول ومع الآخريين أنا هو » (٢) • ولقد توارت آخر آثار للشرك ،
 كما يتميز عن التوحيد • ان آلهة الوثنيين أصنام ، أشياء لا وزن لها وباطلة •
 « لا اله غيرى » (٣) • وعلى توافق تام مع هذا الإدراك الجلى للوحدة الالهية ،
 فان الرؤية تنفذ الى ما وراء حدود القومية ، الضيقة ، وتطالع خلاص جميع
 الشعوب داخل الملكوت المعاد (٤) • وينذهب التصور الى أن اورشليم هى
 الحاضرة المنتظرة لكنيسة عامة : « فتسير الأمم فى نورك والملوك فى ضياء
 اشراقك » (٥) • ان فى «أغانى خادم يهوه» الأربع ، تجد رسالة العبريين العامة
 أنبل توكيد لها • ولا توجد هنا أية فكرة عن السيطرة السياسية أو السيادة
 الانسانية • ولقد صورت أمة العبريين البارة كخادم ، لا يتألم من أجل
 خطيئته الخاصة ولكن من أجل خطيئة شعبه « محتقر ومرفوض من الناس
 رجل أحزان ومختبر البلية » ، وأرسل الى أراض غريبة ليخلص أولئك
 الذين فى العبودية ويعان عن مجيء الملكوت •

(١) اش : ٤٠ ، ١١ ، ٤٣ ، ٢٥ ، ٥٤ ، ٨

(٢) اشع : ٤١ ، ٤ ، وازن ٤٠ ، ١٢ - الآخر ٤٥ ، ٨-٥ ، ٤٤ ، ٢٤
 و٥١ ، ١٣

(٣) اشع : ٤٤ ، ٦ وازن ٤٤ ، ٩-٢٠ ، ٤٦ ، ١-٧

(٤) تستعرض علاقة الأمم بالملكوت فى صور شتى فى الستة وعشرين
 اصحاحا الأخيرة من اشعياء • فى وقت ، تظهر أمة العبريين كدولة امبراطورية
 تدين لها جميع الشعوب بالولاء • اش : ٤٥ ، ١٤-١٧ (القصاص يقع على
 الشعوب) ٤٩ ، ٧ ، ٢٢ ، ٣ ، ٥٤ ، ٣ ، وفى غيره ، تقبل الشعوب ملكوت يهوه
 عن ارادتهم الخالصة اشع : ٢ ، ٢-٤ (= ميخا ٤ ، ١-٣) ، نص يرجع
 الى ما بعد السبى : ٢٥ ، ٦ ، ٧ (ربما حوالى ٣٠٠ ق م) •
 (٥) اشع : ٦٠ ، ٣ ، وازن مز : ٢٢ ، ٢٧-٣١ ، ٤٥ و ٨٦ و ٨٧ و اشع :
 ١٩ ، ١٨ - ٢٥ نص متأخر يسترعى البال جدا فيه تندمج أشور ومصر فى
 الملكوت على قدم المساواة النامة مع العبريين • راجع أيضا ما يقصه يونان
 تمثيلا •

وليس من المغالاة في القول ان هذه الفقرات وأمثالها من فصول اشعيا
الاخيرة تركت على ابصار الناس طابع نظام مجتمع مثالي ، ظل باقيا طوال
الازمنة اللاحقة . ولقد رأى المسيحيون فيها منذ البداية اقرب توقع للملكوت
الانجيل . لقد كان الحصى الاثيوبي يجيل التفكير في « أغنيات الخادم » في
مركبته عندما قابله فيلبس ، الشماس ، في الطريق من اورشليم الى غزة .
ان أغنية سيمون التي سجلها القديس لوقا ، تنهض دليلا على انه كان يوجد
في زمن مجي المسيح ، على الرغم من انتصار التخصيص في المذهب اليهودي
الصادق ، اولئك الذين كان يراودهم الامل الاكبر في الملكوت وتكون
« نور اعلان للاهم ومجدا لشعبك اسرائيل »^(١) . وعلاوة على هذا ، فمن المرجح
حقا أن المسيح الذي أخذ فقرة قرية من « أغنيات الخادم » موضوعا له عندما
كان يبشر في المجمع ، تأثر بها ، عن وعي ، في رسالة الخلاص التي حملها .
١٦ - ولقد تحول مبدأ الملكوت ، بطريقة تلغت النظر ، في القرنين
السابقين لميلاد المسيح ، عن طريق الامتزاج بالاعتقاد ، الغريب عن الفكر
اليهودي في زمن أكثر بكورا ، في بعث بعد الموت^(٢) . وكانوا يتصورون
ملكوت بهوه ، في التقاليد الشعبية وفي تعاليم الانبياء على أنها خلاص
العبريين ، يحقق في تاريخ الأمة القادم على الارض ، وكان بعد زمن متأخر ،
وتحت دافع الالم الشخصي القاهر ، أن اليهود دفعوا الى ربط الرجاء في

(١) الاعمال : ٨ ، ٢٦ وما بعدها ولوقا ٢ ، ٣٢

(٢) راجع (الاخرويات) لتشارلس الفصلين الخامس والسادس . ان
الاعتقاد اليهودي في بعث بعد الموت ، عندما ظهر هكذا في زمن متأخر ، لم
يكن بأية حال ، عودة جديدا لآراء بدائية . لقد كان نتاج مسائل خلقية
ودينية تنتمي لنضوج المدنية العبرية . لقد أودى دين بهوه ، على التدرج ،
عبادة السلف مع ما كان يلازمها من اعتقاد باستمرار حياة الروح في شيول .
ولقد هضمت قرون قبل أن ينجم هذا الايمان الخلقى الجديد في البعث ، عن
دين يهوه المتطور . وكان تصور حياة مستقبلية يرتبط ارتباطا وثيقا في
الدين اليهودي بتصور بعث من الموت . وبين الاغريق ، من الجهة الأخرى ،
اتخذ شكل الاعتقاد في عدم موت الروح ، التي كان خلودها صفة جوهرية
ولم يكن هناك موضوع عن بعث . ولكن مبدأ خلود الروح الافلاطوني كان
يشارك مع مبدأ البعث اليهودي ، في أنه كان مستقلا عن الاعتقادات البدائية
في البقاء (ولو أنه استخدم مواد استمدت من الاعتقادات الدينية الشعبية) .
وكانت عقيدة افلاطون ترجع الى أسباب علمية (وفي هذا ، فإنها على نقض
تام مع عقيدة اليهود) . أنظر ما يلي فصل ٤ ، ١٧ وفصل ٥ ، ٢٠ و ٢١ .
ويقوم الاعتقاد المسيحي بالخلود وهو يتألف بالاعتقاد ببعث الموتى حياة أبدية
على أساس مزدوج (١) على المذهب اليهودي فيما بعد السبي (البعث) ،
وعلى الفلسفة الافلاطونية (الخلود) . راجع كوكوك . ج . وب (C.C.J. Webb)
محاضرات جفورد (القسم الثاني) عن الشخصية الالهية والحياة البشرية
الصفحات ٢٥٧-٦٤ . وعن الفلسفة الافلاطونية (الخلود) ، راجع كوكوك . ج . وب
(C.C.C. Webb)

تراث العالم القديم

الملكوت بالرجاء فى بعث الأبرار حتى يسهموا فى نعيمها وتبعاً لهذا ، الى الاعتقاد فى خلود الروح . ولقد كان الرأى التقليدى عن الروح لدى العبريين وكذلك لدى السلالات الأخرى جافياً ومادياً يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعبادة السلف ويتجرد عن أى مغزى خلقى . عند الموت ، كان الطيف يسير الى شيول حيث يقيم فى صورة شبه جسمية بينما الروح أو نسمة الحياة التى ميزوها بعد ذلك على أنها مصدر المواهب النفسية العليا ، ترجع الى الله الذى أعطاها . ولا يوجد هنا أى موضوع عن الخلود الشخصى أو الجزء الأدبى بعد الموت (١) . وكما رأينا ، مر زمن طويل ليدرك العقل العبرى فكرة

(١) عن موضوع علم النفس العبرى ، الشيق ، الذى أهمل اهماً بالغا ، راجع المقالة (١١) بذلك العنوان ، التى وضعها العميد هويلر روبنسن فى (الشعب والكتاب The People and the Book) طبعة بيك الصفحات ٣٥٣ ٣٨٢ . وعند العبريين يكون الكائن البشرى الفرد (الذات) هو «الجسم كمركب يشتمل على أجزاء تستمد حياتها ونشاطها من روح - نفس ، ليس لها وجود منعزل عن الجسم » (صفحة ٣٦٦) . وينسب أصل - الحياة ، ويشمل القوى الواعية ، الى المادة الجسمية ككل والى أعضائها العديدة (القلب والكلى واللحم والعظام والعين واليد الخ .) . ولا يعرف علم النفس العبرى تقسيماً ثنائياً للروح والجسم ، ولسبب أقوى لا يعرف تثليث الجسد والروح والنفس . والجسد هو الانسان والشخصية هى الجسد الذى استودعت فيه الحياة ، وليس الروح المتجسد . ان الكلمة العبرية التى تدل على أصل الحياة هى نفس وتجيء فى المعتاد مترجمة خطأً بلفظ (Soul) فى النسختين القديمة والمعدلة (A.V. and R.V.) . وتعبير آخر ، روح (ويترجم فى المعتاد (Spirit) ومعناه فى الاصل (ريح) باعتبار أنها نفس الله) يستعمل مراراً للدلالة على الالهام ، اشارة الى أصل - الحياة كشهقة النشاط الالهى يهمل فى الانسان من الخارج وخاصة فى الالهام النبوى وغيره من ظواهر قوة - الحياة . ومن أوجه نشاط الانسان ، يشار فى المعتاد الى الوجدان والعواطف بلفظ (نفس) والعقل و (خاصة) الارادة (الضمير) بلفظ (لب) - حرفياً قلب - وتكون الارادة أصلاً ، فى علم الأخلاق العبرى ، فى الله والانسان معاً (راجع ما تقدم صفحة ٦٩ تذكره ٢) . وكان الحيال أو الشبح يذهب الى شيول كنسخة من الانسان كله ويبقى موجوداً فى حالة شبح وعلى ذلك فمن الخطأ الجسيم اعتبار شيول موطن الأرواح الراحلة . وكان يستوطن شيول هذه الأطياف (نغابم) دون سواها وعندما يظن بصفة استثنائية أن الموتى ، كما فى حالة صموئيل ، عند اندور ، يرجعون فان القناع الجسمى الذى يحمل فى الحياة ، يظل باقياً . وكذلك الحال فى هومر (ادو ، ١١) ، يجب على الأشباح فى الجحيم أن يشربوا الدم حتى يستردوا الوعي ويتحدثوا مع أدوسيسوس . وعلى هذا ، فعندما حان للعبريين أن يتصوروا حياة مستقبلية فانها كانت بعثاً حقيقياً للجسد لايجاد تجديد للحياة الجسمية على الأرض . ويوافق مبدأ الايمان المسيحى عن بعث الجسم ، التقاليد العبرية تماماً ولو أنه قوى بمعارضته للثنائية الماتوية (الرأى أن المادة وخاصة جسم الانسان شريرة شراً ملازماً وترجع الى خالق شرير ، فوق مستوى البشر) .

المسئولية الشخصية . وحتى عشية النفي ، كانت الامة مسئولة عن خطايا أعضائها وكان البريء والمذنب ، على السواء ، ينالهما الجزاء الذى يقع على المجتمع . ثم حدث مع النفي ، تغير وأصبحت مطالب الفرد فى عدالة يهوه تلح الحاحا يطرد ازديادا ، لارضائها . وقد رأينا كيف أن مفكرين كمؤلف سفر أيوب جاهدوا ، على غير طائل ، للوصول الى جواب عن المسألة . لقد كانت وطأة الاضطهاد فى عهد انطيوخس هى التى فرضت الاعتقاد فى البعث على عقل الشعب اليهودى . ولقد كان قاصرا ، قبل ذلك الوقت ، على أقلية صغيرة تأثرت فيما يرجح بالاتصال بالأفكار الزرداشتية فى عهد الحكيم الفارسى . ان النصوص الواردة فى العهد القديم التى تشير اليه قليلة ومتأخرة (١) . وعندما تأصل الاعتقاد بين اليهود ، كان فى صورة تتميز بأنها يهودية ، وفى اتحاد وثيق مع الانتظار القومى للملكوت . ولقد ذهبوا الى أن العبريين الأبرار ينهضون من شيول ليسهموا فى تحقيق الملكوت على الأرض . وبهذا وصلوا الى حل يسد مطلب عدالة يهوه نحو الفرد المصاب ويرضى الطموح ، الحبيب الى القلب ، الى خلاص العبريين فى النهاية . وتبين كتابات الرؤيا التى ترجع الى القرنين الثانى والأول بأن هذا الايمان لم يكن عقيدة ثابتة ثباتا دائما ، ولكنه يظهر فى صور متباينة وفقا لمجرى التاريخ العبرى المتغير (٢) . وكانت تقوم أسئلة عديدة تسمح بإجابات مختلفة . هل كان

(١) ان النصين الواردين فى العهد القديم اللذين يظهر فيهما الاعتقاد هما فى نبوءة اشعيا الهامة (متأخرة) : ٢٤ - ٢٧ (وخاصة ٢٦ ، ١ - ١٩ بعث العبريين الأبرار حوالى ٣٠٠ ق م) وسفر الرؤيا لدانيال (حوالى ١٦٥ ق م) وفى دانيال : ١٢ ، ٢ نجد بعث (ا) الأبرار حقا (ب) الأشرار حقا (أى المرتدين عن اليهودية) . ولا يوجد فى أحد النصين ذكر لبعث عام . والنظرة الى البعث هى أنه عودة الشبيح الى حياة جسمية على الأرض ، جدت ، وهو نوع الحياة الوحيد الذى كان يمكن للعقل العبرى أن يتصوره . ولم يخطر لهم على بال قط فكرة روح ، افترق عنها الجسد .

(٢) عن طبيعة الرؤيا واختلافها عن النبوءة ، راجع شارلس (الأخرويات) الصفحات ١٧٣ وما بعدها و٣٨٧ - ٨ والاختلافات الأساسية هى أن الرؤيا ترجع الى تاريخ متأخر وتسمية خاطئة وأكثر شمولا فى مداها . وقد شرعت فى وضع فلسفة دين وتاريخ تسعى الى التغلغل الى ما وراء الحوادث لتصل الى غرضها الالهى وتضم الماضى والحاضر والمستقبل فى رسم مجمل واحد ، خارق العادة ، ينتهى بمجىء الملكوت الالهى والدينونة الأخيرة وبعث الأبرار الى حياة مستقبلية مباركة . وقد حداها ميل لتحديد تواريخ الحوادث القادمة فى احكام زمنية . ان مذهب (الألف سنة) هو نتاج الرؤيا اليهودية . لقد هيات مخلصا خياليا لروح حب الوطن بين اليهود ، الذين كانوا أضعف من أن يدركوا مطامحهم القومية تسير الى تحقيق . ولقد ترجم تشارلس كتابات الرؤيا اليهودية ، العديدة ، فى مصنفه العظيم The Apocrypha and Pseud epigr apha o: the O.T. وعن الرؤيا المسيحية ، راجع كتاب هذا المؤلف =

العبريون الأبرار فقط ، هم الذين يقومون أو أن الأشرار والوثنيين يسهبون في البعث ؟ وفي الحالة الأخيرة ماذا كان مصير اليهودى ، غير المؤمن ، والوثنى في الدينونة التي تسبق إقامة الملكوت ؟ هل كان يسمح للأهم بامتيازاتها أو تفرض عليهم العبودية للعبريين ؟ وكان في المعتاد ، أن تقابل هذه المسائل بروح التخصيص الصارمة . وهرة أخرى ، ماذا كانت طبيعة الحالة الوسيطة ، بين الموت وقيام الملكوت ؟ هل كان البعث قاصرا على النفس فقط أو الروح المتجسدة وماذا كان شكل جسد البعث ؟ هل كانت الملكوت أبدية على الأرض أو محدودة الأجل ؟ ماذا كانت وظيفة مسيا فيما يتعلق بقيامها وبالدينونة ؟ وبعد أن قطع القرن الأول شوطا ، ظهر تطور آخر بعيد المدى . لقد قام الاعتقاد بأن هذه الأرض لم تكن خليقة لأن تكون مسرحا للملكوت في كمالها ، وأنه عند مجيء مسيا أو عند ختام حنمه الدنيوى ، سيخلق يهوه سماء جديدة وأرضا جديدة وأنه بعد دينونة أخيرة ، تعبر نفس العبرى البار الى حياة أبدية في الملكوت السماوى . وعلاوة على هذا ، فإن مسيا يشخص أحيانا كابن انسان ، وأحيانا كأمر خارج من نسل داود ، عليه أن يخلص الشعب اليهودى من نير الرومان ويستفتح الملكوت الأرضى كمقدمة للملكوت السماوى الأبدى ^(١) . ومن الشيق تتبع هذه التصورات في أدب الرؤيا اليهودى ، بعد مجيء المسيح . ولكن قيل ما فيه الكفاية ليتضح كيف كان حاسما انتصار روح الانعزال القومى قبيل ذلك التاريخ ، على نظرة النبوة الأولى ، الأكثر اتساعا . ومن النادر الكشف عن أى أثر في الكتابات اليهودية في القرن الأول ق . م . أو القرن الأول

== (سفر الرؤيا) في (Inter national Critical Commentary) وعن موجز مختصر للموضوع كله ، راجع كتابه (Between the Old and the New Testament بين العهدين القديم والجديد) في (Home University Library)

ان أهمية الرؤيا اليهودية لفهم البيئة الدينية التي ظهرت فيها المسيحية ، عظيمة جدا وقد قام الدليل على أن تأثيرها على (الأخرىات المسيحية) عميق ودائم فمثلا : تصورات الدينونة الأخيرة والسماء والقصاص الأبدى ترجع أصولها الى أدب الرؤيا .

(١) يجب التمييز في وضوح بين مسيا ، فوق مستوى البشر ، ومسيا اللقب لا توجد دلالة ، خارقة الطبيعة في استخدام حزقيال الكثير له (وازن داود . ان اتخاذ المسيح لقب (ابن الانسان) يضيف أهمية خاصة على تاريخ المزاير : ٨ حيث يعبر عن الانسانية ، على وجه عام ، وفي دانيال : ٧ ، ١٣ يدل على أمة العبريين كطراز مثالى للانسانية بالمقابلة بالحىوان = الممالك الوثنية ، وفي انوخ الأول ، وهو سفر رؤيا (القرن الثانى ق . م) يطلق على مسيا ، فوق مستوى البشر .

الميلادى للسماح للأُمم بدخول الملكوت (١) . ومنذ ذلك الحين يبقى التوحيد وبقية التخصيص - على الرغم من عدم توافقهما الذاتى - فى عقيدة المجتمع اليهودى .

٤ - الخاتمة

١٧ - لقد تقصينا منهاج تعليم النبوة ونتائجها حتى عشية تأسيس المسيحية . ويمكن أن نستخلص نتيجتين من فحصنا . ففى المكان الأول تمتزج حياة العبريين الدينية ، حتى فى أعلى تطور لها ، امتزاجا لا ينفصل بقيود تختص بها . وترجع قوة الدين العبرى الى الاعتقاد باله أوجد وحكمه العالم حكما خلقيا . أما ضعفه ، المقيم فكان الافتراض الذى لا يمكن محوه بأن الغرض الالهى يتركز فى شعب واحد ، اختير من بين جميع الشعوب ليكون مستودع عطف يهوه الخاص وأن كل مجرى الطبيعة وتاريخ البشر ، يدور بارادة يهوه حول حياة ومصير العبريين . وهما لا يمكن انكاره أن سياسة العزلة المصطنعة قوت الاخلاص الدينى وأوجدت سموا خلقيا يناقض الانحلال السائد فى العادات الاغريقية الرومانية والاغريقية الشرقية ولكنها أبعدت الأُمم عن أى نصيب فى الميراث الروحى . ان التاريخ الدينى العبرى ممتلئ بهذه الشواذ الغربية والأضداد المتناقضة وقد ازدوجت الذلة التى تصدر عن الشعور بالخطيئة الشخصية بكبرياء العضوية فى مجتمع بار ، العنيفة ، غير المعتدلة ، وروح التقوى الداخلية بحرص دقيق فيما يتعلق بالفرائض الخارجية . ولقد نجم عن الايمان بوجود الله وجودا مستمرا وبتنظيمه الرحيم لكل حادثة فى الحياة العامة احترام متعادل لخصائص الواجب الحلقى الجوهرية ولقواعد صيبانية لمدونة مراسم (٢)

وعلى هذا فان الشعب العبرى عجز عن أن يدرك بصفة فعالة رجاء الانبياء الأعظم أو يكمل رسالتهم الخاصة فى القيام على تعليم البشرية تعليما روحيا . واذا بحثنا عن السبب الذى يرجع اليه هذا الفشل ، واذا سألنا لماذا لم ينتج لهم أبدا أن يدركوا عدم التلاؤم بين التخصيص والايمان بحاكم خلقى أوجد للكون ، فيجب أن نشير فى الاجابة على هذا الى ما كان يلازمهم من قيود عقلية ، فعلى غير شاكلة الاغريق ، لم يكن العبرى يفكر فى الامور تفكيرا يتسم بالعمق . ولم يصل أبدا الى مستوى التقدم العقلى الذى تقوم فيه

(١) ولكن ٤ اسدرس استثناء (IV Esdras)

(٢) وهكذا تعالى الله وباطنيته كمستوطن فى قلب البار ، وعدالته ورجوته، ومبدأ الجزاء الوفاق ومبدأ الغفران الطليق ، والرجاء فى ماثوبة مستقبلية عن الافعال القيمة والسعى فى الخير من أجل الخير ، والحتمية والحرية ، وغضب ومحببة الله - تحيء متلازمة فى الفكر الدينى اليهودى ولو أن صنعاب تمحيصها لا تدرك أبدا ادراكا تاما .

دعوى العقل بأن يكون له صوت في تقرير المعتقدات الدينية والخلقية (١) وهذا هو السبب في أن أنبل أقوال التقوى العبرية لا تنتظمها مجموعة متجانسة من الحقائق اللاهوتية ، وتعميها الاختلافات والمتناقضات التي غفل عنها واضعوها . وهكذا ، مرة أخرى ، يمكننا أن نشرح ما يمكن أن نطلق عليه عرض الفكر الديني العبري ، الحقيقة التي سبق أن لوحظت مرارا وهي أن أقواله يحددها تتابع الحوادث التاريخية التي حدث أن كان لها تأثير على الأمة العبرية . وكانت هذه الحوادث توحى ليس فقط بوقت النبوة العبرية ولكن إلى حد بعيد بفحواها . وكلما كانت ذلة الشعب المختار مريرة ، وكلما كانت آلامه عظيمة الشدة ، قوى تيقنهم من الافتداء في النهاية .

وكانت رؤية العبريين الروحية تتسع بنسبة عكسية لما كانوا ينجزونه من أعمال جليلة دنيوية ، وكان المنطق ، لأنه لا بد من وجود منطق ، يرجع بعضه لمنطق الظرف التاريخي وبعضه الآخر لمنطق الضمير ، الداخلي . ولم يكن قط من البداية إلى النهاية منطق العقل . وعلى هذا فقد أتيج للأنبيا . أخيرا بأن يروا حقائق ، احداها في وقت وغيرها في وقت آخر ، في عزلتهم واستقلالهم . وما أتيج لهم أن يعرفوا الحقيقة . وهذا هو السبب في أن العبريين ، حتى بمعزل من قيود القانون ، لم تكن لهم قدرة على توصيل مغزى رؤيتهم الروحية إلى شعوب الغرب . وحتى يكون هذا بالأمر المستطاع ، كان يشتم صوغ الحقائق العديدة في كل متجانس وتفريق الجوهرى عن العرضي والكشف عما يكون هناك من دلالات وتجديد الصحة النسبية لكل حقيقة بعملية تنسيقية يتوافر فيها التوضيح والافاضة . وبهذا وحده كان

(١) وعندما جاء دور العقل ، أصبح ينزع إلى السفسطة والرسميات ومنطق المدارس الجذب . وفي الوقت نفسه ظل التواصل قائما بين التعليم الروحي الأعلى ودين الشعب . وقد نجح الأنبياء اليهود هنا ، حيث فشلت فلاسفة الاغريق . (راجع وب (Webb) - محاضرات جفورد ، السلسلة الأولى عن « الله والشخصية » الصفحات ٨٥ ، ٨٦) . ان العلاقة الشخصية بين يهوه وعابده اليهودي لم يأت عليها وهن في جميع مستويات الإدراك الديني . ويمكننا أن نلاحظ أيضا أنه بينما الرابطة الوثيقة بين النبوة العبرية والازمات التاريخية التي انتابت الأمة كانت تقيد أغراض يهوه وادارته بالحوادث الزمنية فانها أضفت على اليهود احساسا قويا بمغزى التاريخ ، الخلقى ، ولم يساورهم جنوح قط . كما كان يساور الفلاسفة الاغريق في الغالب ، بأن يفرقوا بين القيم المثالية وسير الوقائع . « ان التاريخ بأجمعه هو كشف الغطاء عن الغرض الالهي وعلى هذا فان التاريخ ككل ، له أهمية عند اليهودي ، لم تكن مطلقا عند المفكر الاغريقي أو اليهودي الذي اصطبغ بالهلينية . ان الفكرة العبرية عن الله دينامية وخلقية وعلى هذا فانها تتأصل في فكرة الزمن » (انج (Inge) - مقالات صريحة - القديس بولس صفحة ٢١٥) . ان هذا الاحساس بقيمة الواقعة التاريخية كان له تأثير قوى على الفكر المسيحي - راجع السفر الثاني الفصل التاسع .

يمكن لتعليم النبوءة أن يصل الى عقيدة دينية يكون لها وقع ليس في القلب وحسب ولكن في العقل . هل كان يصدق أن يحدث مثل هذا التحول الاساسي الا بالانفصال عن اليهودية .

١٨ - والامر الثاني هو أن حياة العبريين الدينية هيأت السوابق التاريخية للمسيحية . ولقد اعترف المسيح نفسه بهذه القرابة عندما أعلن أنه جاء لا ليهدم الناموس ولكن ليكمل . وعند القديس بولس ، رسول الأمم ، كان الناموس معلما يهدى الناس للمسيح . وقد كان عن طريق وساطة المسيحية ، أن ميراث اسرائيل الروحي نقل الى العالم الغربي . وفي عملية النقل النسقية ، أعيد صياغته وحول . وقد أهمل الكثير مما كان يتميز به الدين اليهودي وأصبح ما مثل أساس بناء جديد ومنذ ذلك الحين ، سارت الديانتان في طرفهما الخاصة المتعددة . وما كان الوعي بالعلاقات التاريخية الا ليوسع الهوة التي تفصل بينهما . ويكون التواصل ظاهرا أعظم ظهور ، في تصور الملكوت الالهي . وكان من الطبيعي أن تلاميذ العقيدة الجديدة يرجعون الى الانبياء عن سوابق الانجيل ، وليس الى الشريعة لأنه كشف للانبياء عن رؤية « يوم يهوه » ، عندما تسود العدالة ويتوارى الاضطهاد والظلم ، عندما الناس « يطبعون سيوفهم سكا ورماحهم مناجل . لا ترفع أمة على أمة سيفا ولا يتعلمون الحرب فيما بعد ؟ » .
وعندما « لا يسوؤون ولا يفسدون في كل جبل قدسي لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر » (١) .

ولقد عاق تقبلهم هذه الحقائق قيود : تحيزهم لما كان لشعبهم الخاص من حقوق ، وفشلهم في التوفيق بين مطلب الفرد الروحي ومطلب المجتمع وادراكهم الناقص للباطنية الالهية وارجاؤهم المجتمع المثالي لزمان يجيء في المستقبل . وفي تعليم الانجيل ، تحررت فكرة الملكوت تحررا نهائيا من هذه القيود . أصبح الفرد يستطيع أن يجد الخلاص ويظفر بالحياة الابدية فقط عن طريق الاندماج في المجتمع الالهي الذي كان يرتبط أعضاؤه ، الواحد مع الآخر ، بأصرتهم الشخصية مع رئيس ذلك المجتمع . وفي النهاية حطمت حواجز القومية الى الابد وفتحت ابواب الملكوت لليهودي والاممي ، والاغريقي والهمجي ، والاسير والحر . . . ووجد ايمان - ازال الهوة التي كانت تفصل ما هو الهى عما هو انساني - كل البشرية بروابط أخوة عامة . ومرة أخرى ، أصبحوا يتصورون اقامة الملكوت على أنها ليست حادثة بعيدة ولكن واقعة حاضرة ، حقيقة حياة لها وجود فعلى في قلوب الناس « على الأرض كما في السماء » (٢) . ولكن بذور مبدأ الايمان ، هذه التي

(١) اشع : ٢ ، ٤ = ميخا ٤ ، ٣ واشع : ١١ ، ٩ = حب : ٢ ، ١٤

(٢) عن الملكوت كواقعة قائمة : مرقس ٤ ، ١١ ، ٣٠ وما بعدها (حبة

الجردل) ١٠ ، ١٤ ، ١٢ ، ٣٤ وكذلك متى : ٥ ، ٣ = لوقا : ٦ ، ٢٠ ومتى ٦ ، ٣٣ = لوقا ١٢ ، ٣١ .

انت يمثل هذه الثمار فى تجديد البشرية تجديدا روحيا كانت مفروسة فى تربة النبوة العبرية . ولهذا السبب كان يستطيع اليهودى ، بل والمسيحى أيضا أن يعترف بدعوى العبريين فى أن يلقبوا بالشعب المختار : « أنتم فقط الذين عرفتهم من بين جميع عشائر الأرض » . ومن بين شعوب عالم ما قبل المسيحية ، سمح للعبريين دون سواهم برؤية ملكوت الله وما دونوه عن هذه الرؤية ، هو تراثهم لبنى الانسان (١) .

= عن عدم مجيء الملكوت بعد : مرقس ١ ، ١٥ (اقترب) وكذلك متى ٨ ، ١١ و ٢٢ ، ٢ وما بعدها وامثال الكنز المخبأ فى حقل والدرّة ذات الثمن العظيم . عن الملكوت كحياة أبدية فى العصر القادم : مرقس ٩ ، ٤٣ وما بعدها و ١٠ ، ١٧ وما بعدها وكذلك متى ٧ ، ٢١ وما بعدها .

راجم جاكسون وليك ، التمهيد الجزء الأول ، لأعمال الرسل الصفحة ١٧٨ وما بعدها الذى أخذ منه المراجع آفة الذكر . ان كلها تجي . اما فى مرقس أو فى تلك الأجزاء من متى ولوقا التى يمكن ارجاعها الى مصدر مشترك ويرمز اليها بالحرف (١) الذى يعبر عن مرقس . ويذكر كتاب نسايرلس (الأخرى والصفحات ٣٦٤ وما بعدها) متى ١٢ ، ٢٨ ولوقا : ٤ ، ١٨-٢١ (الملكوت حاضرة) مرقس : ٩ ، ١ (مستقبلة ، فى السماء) ، متى : ١٨ ، ٣ ، ٤ ولوقا ١٨ ، ١٧ (حاضرة ومستقبلة على السواء) .

(١) يجب التنويه عن فروق آخر بين المسيحية واليهودية المعاصرة . جاء المسيح ليسر « بأخبار طيبة تجلب ثرجا عظما » . وكان على هذه الحال أن رسالته استهوت شعوب عالم البحر المتوسط . ولكن الفكرة السائدة فى كتابات الرؤيا اليهودية فى الفترة الواقعة بين ٢٠٠ ق.م - ١٠٠ م هى فكرة الانتقام الالهى . وكانت الرسالة للعالم بأسره ، حتى لتغير الصالحين بين اليهود رسالة فزع وليس رسالة رجاء . لقد كان اليهود يعتقدون فى مفعول الخوف والعقاب وانصب تعليمهم على عداوة الله عداوة لا هواده فيها للأشرار غير التائبين . وحتى «عهد البطارقة الاننى عشر» (القرن الثانى ق.م) الذى يحوى ما يقرب من مبادئ الايمان المسيحى فى الغفران ، يقصر دون الوصول الى المنزل الأعلى المسيحى فى محبة الأعداء . ويذكر مونتفيور (Montefiore) (فى الأعمال ، ١ : ٧٩ لجاكسون وليك) أنه لا توجد فى اليهودية المعاصرة النصيحة التى تتميز بها المسيحية لمحبة تسعى الى الخاطيء ومن سقط . واذا كان هذا واجب الانسان ، فيجب أن يكون كنعير عن المحبة الالهية التى تنسحب حتى على غير الشكور والشريير . لقد كان كتاب الرؤيا يعجبون لماذا خلق الله جماهير الناس ليلافوا العقاب الأبدى ولكن لم يناقشوا الواقعة قط . ومما لا ريب فيه أن علم اللاهوت المسيحى استوعب الكثير من هذا التقليد اليهودى ، وفى قصيدة دانتي نفراً أن جماعات من الأرواح تساق الى الجحيم أمام بصر الشاعر بينما يمر شاعر ملحمة (Statuis) فقط ، أثناء رحلته من المطهر الى الفردوس . ولكن هذا التراث المهالك لم يمح اطلاقا تعليم المسيح الجوهري ، الجديد عن محبة الله التى تشمل الكون ، ذلك الذى تضمنه ، على سبيل المثال ، مثالا الحروف المفقود والابن الضال .

تذكرة إضافية

عن تاريخ العبريين بعد النفي

قد يكون من المفيد أن نلخص في ايجاز الوقائع البارزة لتاريخ ما بعد النفي ، وهي تقع في ثلاث حقب :

(١) كان المنفيون المعادون خاضعين لسيادة فارس الوداعة من منتصف القرن الخامس حتى غزو الاسكندر الأكبر المقدوني ، (٣٣٢) .

(٢) وكان يحكمهم ، قرابة قرنين ، أسياذ مقدونيون . وكانت فلسطين مرة أخرى ، الغنيمة التي يتصارع للفوز بها البطالمة في مصر . وملوك آسيا السلوقيون . وقد فتحت الأبواب على مصاريحها للهليونية . وقام اضطراب مدني في عهد سليوقد أنطيوخس أفيقانس (١٦٨) بين اليهود الذين يسرون على الهلينية يعاونهم الملك الاغريقي وحزب المبادئ القويمة مما أدى الى تدخل أنطيوخس بالقوة والى انتهاك المعبد واستشهاد الكثيرين . وقد وجد «الأخبار» نصيرا في يهوذا المكابي من عشيرة الكهنة الهسمونية (هشموناي) الذين حققوا الاستقلال القومي وأسسوا حكومة دينية ظلت باقية الى أن ظهر الرومان على المسرح .

(٣) وفي الأعوام ٦٣ - ٦١ أعاد بومباي ، بعد أن تم له قهر مترادطس ملك بنطس ، عدو روما العظيم في الشرق ، تنظيم ذلك الجزء من اقليم البحر المتوسط . وقد وضع اليهود تحت السيادة الرومانية واحتفظوا بقسط عظيم من الحكم الذاتي يباشره كبار الكهنة . وفي عام ٤٠ آلت الحكومة الى هيرود العظيم الحاكم الادومي ذي القدرة الاستثنائية الذي عاون باستمرار روما وعاونته روما .

ولقد أعاد اقامة المعبد في روعة عظيمة وأسس قيصرية . وكان كنجني، غير محبوب بين جمهرة اليهود . وعند موته (٤ ق.م) انقسمت المملكة وهي أبدا تحت السيادة الرومانية . وفي عام ٦ م . أصبحت اليهودية اقليما من المرتبة الثانية ، يدير شئونها وال مسئول أمام مبعوث legatus سوريا ودام هذا النوع من الحكومة (فيما عدا فترة الثلاث سنوات ٤١-٤٤ م عندما حكم هيرود أغريبا Herod Agrippa الأول اليهودية كملك) حتى الثورة العظيمة التي حدثت عام ٦٦ وتدمير طيطس أورشليم في عام ٧٠ .

وكان بنطيس بلطس Pontius Pilate أحد سلسلة من الولاة في عهد طبريوس . وأخيرا بعد ثورة اليهود الثانية ضد روما في عهد هدریان (١٣٢ - ٥) أصاب الجماعة الضربة القاضية ، ففد الغى اسم اليهودية ، وتاريخ اليهود اللاحق هو تاريخ التشتت .

ويجب أن يلاحظ بعد هذا :

(أ) ان الوطنية القومية اليهودية ازدادت شدة وانعزالا بازدياد صرامة الحكم الأجنبي ، الفارسي والاغريقي والروماني . وكانت كل محاولة لفرض الآراء الغربية تثير اندلاع مقاومة عنيفة . وقد كسب الحزب القومي قوة في عهد الحكم الروماني على الرغم من الاحترام المدروس الذي كانت الحكومة الامبراطورية تتسايح به الشعور الديني اليهودي ، والسلطات الواسعة القضائية والادارية التي منحت الى السنهدريم (سينديريون Synedrion الاغريقية = مجلس) وكان الشعب اليهودي على الدوام ، على وشك الثورة خلال هذه الحقبة ، وكانت الجليل مركز العاصفة الرئيسي .

(ب) ان جماعات التشتت اليهودية (Diaspora = Dispersion) تزايد عددها وأهميتها في اطراد في خلال الحقبتين المقدونية والرومانية . وكان يوجد على الدوام مستعمرة يهودية في بابل ، عظيمة وهامة جدا . واستقر اليهود في مدن آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، وخاصة في الاسكندرية حيث احتلوا اثنين من أحياء المدينة الخمسة وكانوا يستمتعون بمزايا عظيمة .

وهناك وضعت الترجمة الاغريقية « للعهد القديم » ، المعروفة بالترجمة السبعينية (Septuagint) في القرن الثاني ق.م . وكانت الاسكندرية مكان اجتماع الفكر اليهودي والهيني ، الرئيسي ، ونرى اليهودية تنحني للنفوذ الغربي ولكن لا تنكسر تحت وطأة الضغط (انظر ما سيجيء بعد ، فصل ٦ ، ٨ ، ٩ ، ٢) . وقد وجد بين اليهود كثير من المرتدين (وكذلك شبه مرتدين كانوا يقبلون العقيدة اليهودية دون ختان ودون غيره من الفروض الموسوية) في الأقاليم التي اصطبغت بالهينية . ويعطى سفر أعمال الرسل : ٢ ، ٩ - ١١ فكرة عن مدى التشتت ووجود اليهود ، الذي ألمح اليه ، في فارثيا وغيرها من البلاد الشرقية ، خارج الامبراطورية الرومانية ، يقيم الدليل على التبشير بالمسيحية في تلك الجهات في الأزمنة القديمة (ولو أنه لا يعلم الا النذر اليسير جدا عن هذه البعثات) . وتوحي الرغبة التي عبر عنها القديس بولس في التبشير في اسبانيا (سفر رومية ١٥ ، ٢٨) ، بأن اليهود تغلغلوا الى أقصى الغرب في العالم الروماني .

(ج) انه كان في العهود الاغريقية والفارسية والرومانية أن اليهودية ، وهي تتميز عن دين العبرانيين في فترة ما قبل السبي ، تطورت كدين حتى

بلغت الصورة الكاملة النهائية التي طلعت عليها منذ النصف الأخير من القرن الثاني وبداية القرن الثالث • وهذه العملية النسقية التي بدأت كما رأينا بتنفيذ قانون عزرا والتي حافظت بتأثير النبوة في المراحل الأولى على استمرار لا ينقطع ، مع دين ما قبل اليهودية - كانت تتميز بسيادة تضطرد ازيادا للتوراة التقليدي ، كما يفسره في المدارس والمجامع ، الكتبة ومن جاء بعدهم من المفسرين الماهنين الذين أدمج عملهم في النهاية في « المشناه » وهي مجموعة القوانين التقليدية كما انفذت في ختام القرن الثاني ، وبعد ذلك في التلمود (التعليم) الذي وضع في الجليل في أواخر القرن الرابع ، وبابل (في أواخر القرن الخامس) • وأصبح التوراة ، وقد وضع هكذا في مدونة قوانين ، عفيدة يهودية عامة أساسها الاشتراك في الفروض والتغلغل في كل تفصيلات حياة المجتمع اليهودي ، الدينوية وكذلك الدينية والشخصية والمنزلية والقومية • وقد حل منهج التخصص محل منهج التعليم وانتصر مذهب الشريعة وبطلت النبوة ينطق بها أنبياء أحياء ، ولكن يظل خلق المذهب اليهودي في شكله النهائي الدائم عملا جليلا حقا قامت به عبقرية الشعب المختار ، الدينية (١) •

(١) راجع مور Moore "Judaism" السفر الأول - مقدمة ، وفصل

الفصل الرابع

قيام الهلينية

١ - مقدمة

١ - ان أصول الشعب الاغريقي يعسر اقتفاء اثرها . ولقد رأينا كيف أنه منذ عهد بعيد ، فى الألف سنة الثالثة ، كانت كريت موطن مدينة زاخرة وصلت الى اليونان فى القارة وجزر ايجة والبحر المتوسط . والرأى السائد هو أن صانعى هذه المدينة كانوا يختلفون عن يونانى التاريخ اللاحق ، فى السلالة والحليقة واللغة . وعلاوة على هذا فان شهادة التقاليد القديمة وعلم الآثار الحديث تشير كلاهما الى كارثة أطاحت بدولة كريت ، فى وقت ما ، يقرب من ختام الألف سنة الثانية ، والى فترة لاحقة من الفوضى والاضطراب ، مماثلة لتلك التى وقعت بين سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب وظهور نظام مجتمع جديد فى العصور الوسطى . والأزمة القديمة أيضا كان لها عصور مظلمة ، ومنها أنبعثت يونان التاريخ . وفى كريت ، على سبيل المثال ، دمر حريق أبنية منويا العظيمة ثم بعد قرون لم يصل منها الا اليسير من الوثائق نجد الاغريق الدوربين يحتلون الجزيرة . ولقد أنبأت قصة الديانة الاغريقية عن صراع بين آلهة عجائز وآلهة أصغر منهم سنا وعن انتصار هؤلاء . وقد حفظ الشعراء والمؤرخون الاغريق ذكريات عن هجرات بالبر والبحر وعن صراع وامتزاج بين الغزاة الأخائيين والدوربين من جهة والبلادسجين السابقين للاخائيين من جهة أخرى . والفليل الذى نعلمه عن عصر الانتقال هذا يوحى بمشكلات لا بنتائج . ولكن هذا القدر على الأقل نُعلمه علم اليقين ، وهو أنه فى زمن متأخر فى الألف سنة الثانية ، هبط محاربون طوال ، صفر الشعر فاتحو اللون ، من الجذع الهندى الأوروبى فى موجات متتابعات الى العالم الايجى من أصقاع الشمال الداخلية . وبعضهم وقد جلبوا معهم أسراتهم وما لديهم من متاع كالغوط والفرنجة فى زمن متأخر عن هذا ، شقوا طريقهم قسرا صوب الجنوب بالبر الى طراقية ومقدونيا وتاليا وأفيروس وواصلوا السير الى اليونان الوسطى وبلوبونسس . وآخرون غيرهم ، ربما فى تاريخ أسبق ، عبروا السبنتس الى آسيا الصغرى وكذلك آخرون كرجال الشمال ، فى القرن التاسع أغاروا بالبحر على سواحل وجزر ايجا . ويمكننا أن نتصور هؤلاء الشماليين الأجلاف وهم لا يختلفون فى عاداتهم وثقافتهم عن المقدونيين فى عصر فيليب والاسكندر أو عن الألبانيين فى زمننا . ولم يكونوا حين سادوا فى خلال القرون مدينة كريت القديمة هدامين بكل ما تحمل الكلمة من معنى . ولقد تركت هذه المدينة آثارها على تدرجهم فى الرقى ، ومن المحتمل

أن تفوق الثقافة الاغريقية بموازنتها بثقافة الرومان كان مرجعه الى حد ما ، الى هذه الواقعة وهى الاتصال المبكر بالمدينة المنوية . وعلى أية حال كان اغريق التاريخ نتاج الامتزاج التدرجى بين الأخائيين وغيرهم من دخلاء الشمال والقاطنين القدامى بالعالم الايجى . ومن الطبيعى أن هؤلاء الأخيرين وقد كانوا أكثر عدا أن يطبعوا الغزاة بطابع ثقافتهم . واستقرار الغزاة الى اليونان الأوربية كان يصحبه أو يعقبه هجرات المستعمرين الاغريق الى جزر بحر ايجا وشواطئه الآسيوية والتقابل مع ذوى قرابتهم الذين عبروا الى هناك بطريق آخر فى زمن أسبق . ومن المحتمل جدا أن ذكرى مثل تلك المعارك هى التى حفظتها قصة حرب طروادة (١) . ولقد أبحرت احدى تلك الجماعات من المستعمرين ، وهم الأيوليون ، من تساليا الى شمال غربى آسيا الصغرى والجزر التى تقع فيما يلى الساحل . وغيرهم من المستوطنين ، بعيدا الى الجنوب ، اتحدوا فى تحالف فدرالى ، يطلق عليه اسم الجمعية الأيونية حول مقدس بولو فى ديلوس . وكان باسم الأيونيين (بوفان فى العهد القديم) أن قداماء الاغريق عرفوا لدى شعوب الشرق . ويمكن أن نضع تاريخ هذه الهجرات البحرية عبر ايجا بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٠٠٠ ق.م. ومن المحتمل كثيرا أن هذه الهجرات ترتبط بالشدائد التى عانتها مصر من جواىب البحر فى عهد الأسرة العشرين (٢) .

وأخيرا فى ختام الألف سنة الثانية تماما وصلت آخر موجة من الغزوة الشمالى الى اليونان الأوربية عندما احتل الدوريون وهم جيل من أصلا المحارين ، أسلاف الأسبارطيين الذين جاءوا فى تاريخ لاحق ، أجزاء من اليونان الوسطى والغربية ، وعندما بلغوا فى سيرهم مناطق الجنوب دانت لهم السيادة على التدرج ، على الجزء الأعظم من بلوبونسس . وعبر المهاجرون الدوريون أيضا بحر ايجيه واستعمروا كريت ورودس وشواطئ آسيا الصغرى الجنوبية الغربية . وكان من أثر هذه الهجرات التى استغرقت عدة قرون وانتهت حوالى سنة ٥٠٠ ق.م. استقرار السلالة الاغريقية واللغة الاغريقية على جانبى بحر ايجا .

(١) ان التاريخ التقليدى لحرب طروادة هو ١١٨٤ ق.م. ورأى العلماء فى زمننا الحاضر أكثر تحفظا عما كان عليه منذ قرن . وهذه القلائل فى بحر ايجا وعالم شرق البحر المتوسط قد تكون السبب فى فقدان الحيشين لنفوذهم فى غربى آسيا الصغرى . انظر ما سبق قوله فى الفصل الثانى فقرة ١٢ ومحاضرات اشفايش Schweich Lectures لكاولى Cowley عن الحيشين .

(٢) انظر ما جاء فى الفصل ٢ فقرة ٤ وقد كان بعض الغزاة المتأخرين يمتشقون سيوفا من الحديد من صنع أدخل التحسين عليه وأمامها كانت المدى من البرنز التى يحملها خصومهم الكريتيون قليلة النفع .

٢ - دولة المدن الهلينية

٢ : ان حياة الشعب اليونانى خلال القرون البواكر من الألف سنة الأولى ، كما فى حقبة الهجرات السابقة ، يكتنفها الغموض ، وعلمنا بطبيعتها يتألف على الأكثر من نتائج عامة تستند الى استدلالات ترجع الى العصر التالى . وهذا جلى فى جميع الأحوال ، فلقد امتدت المدينة الهلينية منذ فجر تاريخها ، الى ما يلى يونان القارة . وسنرى فى الحال كيف أنه فى القرنين الثامن والسابع ، بسطت هذه المدينة رواقها فيما يوالى منطقة إيجا حول أكسين (البحر الأسود) وفوق أراضى الساحل فى أفريقيا الشمالية وجنوبى ايطاليا وصقلية . وقد أصبحت ايطاليا الجنوبية تعرف لدى الاغريق باسم « هلاس العظمى » وأينما نجد فى عالم البحر المتوسط مدنا اغريقية والتحدث بالاغريقية فهناك ، فيما له شأن بالتاريخ ، نجد اليونان . ولكن الحقيقة التى لها الأهمية الأساسية للمدينة الهلينية هى أنه عندما يرفع الحجاب جزئيا فى القرن الثامن ، نرى الاغريق ، فيما عدا الجماعات المتخلفة التى تقطن بالجزر ، قد تجمعوا هى دول مدينة ، ونرى ممالك الملوك الآباء التى نقرأ عنها فى الأشعار الهومرية قد أخلت فى الغالب أمكنتها للأرستقراطيات الوراثية ، وفى الجماعات المدنية الأكثر تقدما نجد القوانين والنظم الدستورية قد بدأت فى الظهور . وكانت كل من هذه المدن الصغيرة تستمتع بالاستقلال السياسى التام وترقى بمنظمتها التى تتميز بها وبسند الحياة ، فى سبيل التقدم . ومن الجوهرى أن ندرك أن اليونان الحرة لم تتوحد اطلاقا فى دولة واحدة . واللوائح القومى كان وثاق السلالة واللغة المشتركين وليس ذلك الذى يكون بالاتحاد السياسى . ويجب أن يكون مدار تفكيرنا فى التاريخ الاغريقى على أنه سجل لمئات المدن المستقلة التى تناثرت فى أرجاء جزر وشواطئ البحر المتوسط وكل منها يملك رقعة صغيرة من الأرض المدنية . ورقعة أئينا على سبيل المثال ، التى كانت على اتساع منقطع النظير ، كانت تشمل شبه جزيرة أتيكا ومساحتها تعدل مساحة مقاطعة انجليزية متوسطة . وفى عصر بركليس ، كان عدد المواطنين الذين يمكن تجنيدهم يبلغ ٣٠٠٠٠٠ يمثلون سكانا أحرارا تعدادهم زهاء ٢٥٠٠٠٠٠ بما فيهم النساء والأطفال يضاف اليهم الكثير من العبيد والغرباء المستوطنين (١) .

(١) انظر تذكرة الفصل الخامس فقرة ٥

كان لدى اسبارطة وهى دولة - غزو محدودة جدا نحو ٨٠٠٠ مواطن فى قدرتهم حمل السلاح ، فى زمن حرب الفرس - وقد هبط هذا العدد الى ما يقرب من ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ قبيل عام ٣٧١ وفى زمن أرستقليس الى أقل من ١٠٠٠ وكان لدى أرجوس وطيبة قرابة ٢٠٠٠٠٠ من المواطنين - الجنود ، فى آخر القرن الخامس .

وعلى غرار الجمهوريات الإيطالية فى العصور الوسطى المتأخرة كانت هذه المدن الاغريقية تحرص حرصا شديدا على استقلالها . وكلما ظفرت واحدة منها مثل أثينا أو سيراكوز الصقلية بالسيادة على الآخرين فان الامبراطورية كانت فى جميع الأحوال ذات أجل عابر وطالما بقيت ، كانت تثير الجفاء العميق بين رعاياها . وكانت الوطنية الاغريقية مدنية وليست قومية . وليس معنى هذا أنهم كانوا مجردين عن الاحساس بأصرة القرابة الهلينية المشتركة ، ولكن على النقيض كانوا يدركون فى جلاء ، الهوة التى كانت تفصل موازينهم فى الأخلاق والمدنية عما كان لدى « الهمج » الذين كانوا يحيطون بهم ولكن الرابطة كانت رابطة شعور ولغة وثقافة (١) . ولقد وجدت تعبيرا خاصا بها فى الحفلات الرياضية العظيمة التى كانت تعقد تحت الرعاية الدينية ومجالها مفتوح لكل الهلنيين وقاصر عليهم ومن بينها كان أقدمها وأبعدها صيتنا ، ذلك الاحتفال الذى كان يعقد كل أربع سنوات فى الومبيا على تخوم الس تكريما لزيوس ، وقد نظمت من بواكير القرن السادس حفلات أخرى فى نيبيا بالقرب من أرجس على برزخ كورنت - والفوى - على سهل كريسا عن قرب من هيكل أبولو فى دلفى . ودين الاغريق ، على الرغم من طائفة جمة من الضروب المتباينة المحلية ، كان يكون ارثا مشتركا . وكانت تحاط الآلهة الأوليية الرئيسية مثل زيوس وبسيدون (Poseidon) وأثينا Athene وأبولو Apollo بالتبجيل فى جميع أرجاء المنطقة الهلينية . وفى عهد التوسع التجارى تطور مهبط الوحى فى دلفى الى منظمة جامعة هلينية دينية . وبفضل سهولة المواصلات بالبحر بين جميع أجزاء العالم الهلنى ، سرعان ما أصبحت ضروب الفن والشعر والعلم التى قامت فى متنوع مراكز الثقافة ملكا مشتركا لها جميعا . وعلى هذا فان الحاجة الى اتحاد سياسى كأداة للمدنية لم يشعر بها الاغريق طوال حقبة الخلق العظيمة ، فى تاريخهم ، وحتى عندما كانت تسيطر على مدائن اليونان الوسطى والشرقية المملكة المقدونية فى القرن الرابع ، احتفظت مدن ايطاليا وصقلية باستقلالها وظفرت مقدونيا بسيادتها وحافظت عليها عنوة .

٣ - والبولس Polis دولة - المدينة كانت من خلق الشعب الهلنى

(١) يذكر الأستاذ جلبرت مرى (Five Stages of Greek Religion) خمس مراحل للدين الاغريقى (صفحة ٨١) أن الوعى بالهلينية كانت نشأته بين الأغريق الأيونيين فى آسيا الصغرى حيث كان التناقض مع الهمج المحيطين بهم أشد ظهورا ، ولفظ هلينى ، معناه « مثل الهلنيين » وليس « نسل الهلنيين » نفس المرجع صفحة ٥٨ وما بعدها .

الخاص (١) ان أسرها فى مستقبل المدينة لا يحدده حصر ، فى المكان الأول ، فى حياتها وبنيتها تستعرض ، فى شكل أبسط مما هو عليه فى الدول الكبيرة فى الازمنة الحديثة ، المعطيات والمشكلات الخلقية والاقتصادية جميعا ، اللواتى يجابهن الانسان فى كل العصور كعضو فى مجتمع اشتراكى . وكما صاغ الاغريق فى فلسفتهم ، فى تعابير بسيطة نسبيا ، النتائج الجوهرية للفكر الانسانى تلك التى توارت عن نظرنا الذى جاء فيما بعد ، تحت كتلة مركبة من المواد فهكذا فى نطاق العمل العام فى دولة - المدينة ، وطنوا أنفسهم على ادراك الشرائط الجوهرية لحياة المواطن الحقة . ومرة أخرى فان مشكلات المجتمع المتمددين كان يعالجها الاغريق الى أن تصل الى الحل التام الممكن فى ظل ذلك الشكل من التنظيم . ويمكن تتبع تاريخ دولة - المدينة الهلينية من بواكيره حتى تدهورها وسقوطها ، ثلنا قدم الاغريق نظريتهم الخاصة فى السياسة فانهم لم يخلقوا فقط دولة - المدينة ، ولكنهم كانوا يعنون الفكر فيها . وانا لنجد فى فلسفتهم كلا من التحليل المثالى والتفكيرى ، لعملهم العسام . وتقوم دولة - المدينة الهلينية على النقيض من امبراطوريات الشرق الأوليات من جهة ، ومن دول الازمنة الحديثة ، من جهة أخرى . والدولة الحديثة ، لا حاضرتها ، هى الوطن ، وقد تتغير الحاضرة كما فى روسيا من موسكو الى سان بطرسبرج وبعد ذلك من لينينجراد الى موسكو بينما الدولة باقية كما هى . وقد يقوم للدولة كيان كرابطة المصالح المشتركة (الكومنولث) الأسترالية حتى قبل أن يتحدد موقع حاضرتها المستقبلية . ولكن فى اليونان وفى روما فى عهد الجمهورية كانت الحاضرة هى الدولة بعينها ، وعلى خلاف الممالك الشرقية ، حققت دولة - المدينة فى اليونان توحيد الحياة المتمددينة والحرية السياسية . وفى الشرق يكون لحرية الحكومة وجود ولكن فقط بين القبائل غليظة الطباع التى تعيش فى جماعات صغيرة ، ويكون تقدم الثقافة ممكنا فقط عن طريق تكوين مجموعات عظيمة من مثل هذه الجماعات تحت

(١) أسس الفينيقيون ، فى موطنهم وفى المستعمرات ، وخاصة قرطجونة دولات - مدينة ولكننا لا نجد فى أى مكان الحياة العامة الحرة التى ترتبط بهذا النظام كما فى حالة المدن الاغريقية أو فى روما . ويرى فولر Fowler (دولة - المدينة صفحة ٥) فى دولة المدينة - أساس الاحساس بميراث المدينة المشترك الذى خلفه الاغريق والرومان (على سبيل المثال ، المؤرخ الاغريقى بلوبوس Polybius فى القرن الثانى ق م) وقد يوجد شك فيما اذا كانت الجماعات الايطالية الحضرية دولات مدينة كاملة التكوين . ان مدينتنا لاتيم Latium وقمبانيا Campania كانتا بالحرى مراكز حضرية بين جماعة قبلية وعن روما التى وصفها بلوبوس « دولة أعظم شبيها بدولة هليينية » ، انظر ما يلى فصل ٧ .

تراث العالم القديم

حكم استبدادى وعلى ذلك تكون الحرية الثمن الذى يبذل للحصول عليه .
وهكذا كانت حال الاسرائيليين فى كفاحهم ضد جيرانهم فانهم وضعوا أنفسهم
طوعا تحت امرة ملك كمناط رجائهم الأوحى فى الخلاص القومى . وقالوا لا بل
يكون علينا ملك فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا
ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا (١) .

وطوال العصور القديمة ، كان معنى الدولة العظيمة هو الحكم الاستبدادى
والى أن ظهر الاغريق كان معنى التقدم فى المدنية خلق دولة عظيمة . لقد
كانوا أول من حل مسألة الجمع بين الثقافة والحرية فى مجتمع صغير وحلوهما
عن طريق دولة - المدينة . وقد اجتمعت ارادتهم على أن يشابه الواحد منهم
الآخر ووصلوا الى نتيجة فريدة وحققوا فى حياة دولة - المدينة ، العامة الحرة
تاريخيا يتناقض تناقضا فاجعيا مع قصة الاستبداد الرتيبة ومزايا الطبقات
الاجتماعية والاستعباد ، التى يجيء سردها فى سجلات الشرق .

٤ - لقد أوجدت « دولة - المدينة » قاعدة المدنية الهلينية والمثل الأعلى لها
فى نفس الوقت . ولم يأتنا الا اليسير من العلم عن النسق الذى درجت فيه
المستعمرات البدائية الى دول - مدينة ، وفى مكنتنا أن نتصور المغيرين
الشماليين يسكنون كغزاة بين أهلىن معادين فى أزمنة كان البحر يكتظ فيها ،
بالجوابين من طلاب الغنيمة ويقيمون حصونا بدائية فى مواقع ضاحية على
التلال على مسافة قريبة من الشاطئ ، ، يمكن أن يأووا اليها بقطعانهم فى
أوقات الخطر . وفى أثينا فى العصور التاريخية ، كانت قلعة الأكروبول
لا تزال « المدينة » ، ومن الجائز أن الجماعات القروية تجتمع هناك للدفاع عن
النفوس أو تآلفت حول مقدس مشترك للعبادة الدينية . وفى هومر كانت
المدينة ، أولا وفوق كل شىء حصنا يمكن الدفاع عنه (٢) .

يجب أن نرجع بتفكيرنا الى الماضى ، الى زمن كان يذهب الاغريق كغيرهم من
السلالات الباكورة ، الى أن ثمة قرابة كانت تربط الالهة والناس وحتى حيوانهم .
وبقيام الهجرات وهن الوثاق وبدأت أواصر الأسرة تخلق مكانها للاخلاص للجماعة .

(١) انظر بيفان Bevan (بيت سليوكس House of Seleucus)
سفر ١ فصل ١ وفيه المثال المقتبس من صموئيل الأول ٨١ . ولقد كان
الكتاب السياسيون فى العصور الوسطى ، يرجعون الى الفقرة كثيرا ، لدعم
مبادئ الأساس الشعبى للملكية والعقد الاجتماعى .
(٢) انها مقدسة (hieros) فى هومر ، مثلا ، الايلاذة : ١ ، ٣٦٦ .
وقد كانت أقدم المعابد تقام ، بطبيعة الحال ، على القلعة الصخرية على كتب
من مقر الزعيم ، وبعد ذلك ، بتقدم أوجه النشاط التجارى ، أصبحت المعابد
تقوم حول ساحة السوق (agora) .

وأصبحت دولة - المدينة الرمز المادى لهذا الولاة . وكان كل رجل فى العشيرة يراها بعينه المجردة تستوى أمامه وهو يفلح رقعته من الأرض فى الأرباض أو يجتمع مع رفاقه للمقايسة أو للعبادة داخل أسوارها . وفى ساحات المدينة ، كان كل شىء يقع تحت نظره ، ذا قرابة وثيقة ومألوف . وهناك فى المجتمع الصغير الذى يضم مئات قليلة من المواطنين ، يتجمعون فى أسرات وعشائر ولايزال الاحساس بالقرابة يدب بين حناياهم ، وهناك كانت تسود مساواة فى الزمالة ، حقة (١) . وكان كل شخصي يعرف الآخر بالنظر وبين الواحد والآخر من الأغنياء والفقراء والحكام والمحكومين كانت توجد أواصر شخصية مباشرة . ولم تكن تعوق الملوك والنبلاء ، كما فى الحاشيات الشرفية ، قواعد آداب السلوك ورسميات الدولة ولم تقف القواعد الشكلية للتعريف حائلا أمام التواصل الانسانى . ولقد عاش الاغريقى عيشه فى الحلاء ، معرضا للشمس ، يجوس خلال ساحة السوق (agora) أو حلبة المصارعة (palaestra) متلكتا - كما يطيب للفرد من أهل الجنوب أن يتلكتا - وهو يتجاذب الحديث مع جيرانه ، دون أن يعبأ بزمن (٢) ، وكان الاغريقى شعب زراع ، يزرعون الحنطة ويغرسون الكرم والزيتون وأتاح لهم عملهم ومناخهم أن يتفقوا معظم حياتهم فى الهواء الطلق ولديهم أوقات فراغ للتواصل الاجتماعى (٣) ولا يمكن تصور نقيضا لحياة مدينة صناعية حديثة حيث يتزاحم الكل لأعمالهم

-
- (١) هكذا كما جاء فى الأدوسا (الكتاب السادس : ١ - ١٠٩) فان نوسيكنا Nausicaa ، وهى ابنة ملك كانت تغسل الملابس مع خدمها . ويصف هيرودوت (٣ ، ٤٢) طاغية القرصان بوليكراتس Polycrates وهو يطلب الى صائد سمك أن يشاركه الغذاء .
- (٢) انظر زمرن Zimmern ، (الكومنولث الاغريقى Greek Commonwealth) الفصل الأول ، من ديدن اليونانى فى زمننا أن يفرق الغريب بأسئلة فيها تشويق ، وكان اليونانى القديم يزهو بجسارته فى الحديث (parrhêsia) وكان متحررا من كل خجل أو تحفظ . وتوضح (الجمهورية ٨ ، ٥٥٧) لأفلاطون أن (الجسارة فى الحديث) دليل على الديموقراطية فى أقصى معانيها ويرى زمرن أن السؤال القصير والجواب الذى يلازم دخول شخصية جديدة فى الفاجعة (دراما) الأتيكية تنعكس فيها هذه الحصلة القومية .
- (٣) اللفظ الاغريقى لوقت الفراغ كان Scholé ومنه جاء لفظ School الذى نستخدمه . لأن وقت الفراغ كان معناه ، بالنسبة لهم ، الفرصة للقيام بأعمال لها قيمة جوهرية كذلك التى يختارها الانسان لذاتها (مثلا ، السعى وراء العلم) وهذه الفكرة هى أساس تفرقتهم بين الأعمال (الحرة) والأعمال (الضرورية) ولهذه التفرقة أهمية أساسية فى (السياسة) ، لأرستطاليس . انظر فيما يلى فصل ١٢ - ٩ .

بالمناكب ، وحيث لحظات الاستجمام قليلة ومنتظمة ، اعظم من الحياة غير الرسمية الطليقة التي كانت تحياها دولة - المدينة الاغريقية . ولكن وقت الفراغ كان يعنى للاغريق أى شىء الا الكسل . انه كان يهيبى مخلصا من ضغط المطالب المادية وفرصة لاستعراض العقل والموهبة . ويجب أن يدور تفكيرنا حول الاغريق كرجال عمل أكثر منهم فنانيين أو مفكرين . ان فنهم وعلمهم كانا يتألفان تألفا محكما بمصالح الحياة العملية . ولقد قام النحت وفن العمارة بطبيعة الحال ، بينهم لأن الحاجة كانت تمس اليهما لاقامة بيوت الآلهة والناس وقامت فلسفتهم لأن الحاجة كانت تدعو اليها للتحكم البصير فى العالم الذى كانوا يعيشون فيه . وكان الاغريق يعجب بالكفاءة أكثر من كل الأشياء ، واللفظ الذى كان يطلقه على الفضيلة (arete) لا ينسحب على السمو الخلقى وحسب ، ولكن على الموهبة العقلية والقدرة على الظفر بالنجاح فى كل ميدان فى الحياة العامة (١) . والمثل الأعلى لرجل قوى ، يعرف ما يحتاج اليه من العالم وله القدرة على الحصول عليه ، كان دائما يستهويه ويقصيه عن نهج الاعتدال . ولقد أوجدت دولة - المدينة لهذا النشاط العقلى والبدنى القلق ، مجالا طبيعيا . والحياة الوحيدة التى تستحق العيش ، فى نظر الاغريق كانت حياة الخدمة كمواطن . وكانت الأسرة تسترعى اهتماما يسيرا وقيمة خلقية ليست بذات خطر . وكان الابن عندما يصل الى سن الرشيد يترك أباه وأمه ، وفى بيته كانت الزوجة لا نفس لها ، ولا وزن لها . ومن هنا ، كان المركز الوضيع للنساء والأطفال وفشل التعليم الاغريقى . ودولة - المدينة ، وفى دولة - المدينة ، كانت السوق بما يحيط بها من أروقة ذات عمد وأبنية عامة وطنه وعالمه . وعلى هذا فكلما أخذ أفق الاغريق العقلى والخلقى فى الاتساع فان الثقافة التى كانت تجد التعبير عنها فيه كانت فى كل مرحلة ترتبط بالمدينة . ونعمة الرأى العام التى تحدد خلائق الرجال وعاداتهم ، بطريقة غير محسوسة ومع ذلك فى قوة عظيمة ، كانت نعمة دولة - المدينة المميزة أو ethos (٢) وفى القيام بدور ذى قيمة فى حياة دولة المدينة ، كان أعلى مطمح للمواطن والمعيّار الذى يقيس به نجاحه وسعادته

Spartani nactus es, hanc exorna .
 والمولد فى دولة - مدينة
 وضبعة كان يعد عثور جد خطير . وعلاوة على هذا ، كانت دولة - المدينة

(١) كان الاغريق يرون فى رجل مثل نابوليون رجلا بلغ من الفضيلة أقصى ذراها وكان ثمسطوقلس Themistocles يتجمل بالفضيلة لى درجة عظيمة .

(٢) لا يغيب عن البال ، الجو الخلقى للمدرسة أو الكلية أو النادى أو الكتنبية . ولقد أكد افلاطون (الجمهورية ٦ ، ٤٩٢) أنه لا يمكن لأى فرد ، مهما كان موهوبا ، أن يقاوم قوة نعمة دولة - المدينة ، العامة .

تحدد فحوى واجباته ، لا الخلقية وحسب ولكن الدينية ايضا . ولم يعرف الاغريق التمييز بين الكنيسة والدولة ومن الازمنة الهومرية وما بعدها كان الحاكم يرأس دين المجتمع بينما كانت تنحصر أعمال الكهنة فى تصريف واجبات الفرائض (١) . وهيات المدينة ايضا الواعز للتقدم العقلى . وفى مجالس الشعب الرسمية ، كما فى التواصل اليومى فى ساحة السوق أو مائدة الطعام أتاحت الفرصة لحرية الفكر والتخاطب . ان مثل هذه الحرية فى النقد ، شئ مستقل تماما عن الأنظمة الديموقراطية وأداة الحكم الذاتى السياسى . وكان الجند يخوضون فى مناقشة أعمال وخلائق ضباطهم من وراء الستار والصغار فى اولئك التى تكون لكبارهم ، فى المدرسة أو الكلية دون أن يكون لهم أى حق فى التصويت لانتخابهم . وكانت الديموقراطية فى اليونان النتيجة وليست السبب ، للنقاش الحر . كان اليونانيون أمة متحدثين وكان حديثهم فى الغالب صبيانياً ويجانب الاخلاص ومن شأنه أن يثير الاحتقار فى صدر الرومانى الذى كان ديدنه أن يعمل فى صمت . وما كان يميز الاغريق عن الشعوب الأخرى التى تشغف بالكلام هو أنهم كانوا يتحدثون ايضا فيما كان جديرا حقا بالمناقشة : القانون والحرية والواجب الخلقى وغاية الحكومة وطبيعة وأسباب الأشياء والفن والشعر والفضيلة وصالح الانسان ، وفوق هذا كله ، كان حديثهم يلائم العقل والمنطق ، والانصاح عن التفكير الخالص وتعمق الواقع . ولم يفكر أى شعب اطلاقا بمثل هذا التعمق أو تحدث بمثل هذه الاجادة عن هذه الموضوعات السامية ، كما فعل الاغريق . ولم يرسم أى شعب قط ، بمثل هذه اليد الثابتة الخط الفاصل بين الخدعة والحقيقة أو وطنوا أنفسهم بمثل هذه العزمة على فهم واستيعاب عالم الطبيعة . وكل هذا كان نتاج المطارحة الطليقة بين العقل والعقل التى أوجدها التواصل المشترك، كمواطنين فى دولة - مدينة .

٥ - والمثل الأعلى الاغريقى للحياة ، كان يتصور فى حدود دولة - المدينة، وكانت السعادة (eudaimonia) عند رجال السياسة والفلاسفة على السواء،

(١) ولما لم يكن فى وسع الآلهة أن يجيروا ولكن يحذرون ويعاقبون فهكذا الكاهن كان فى وسعه فقط أن يحذر ويعترض . لقد كان المنوط بنسئون المنزل والحراسة ðπηρέτης=minister, servant لالهه وبين الفينة والفينة فقط يكون المتحدث عنه . وعندما يعطى وحى χρησμός يكون ذلك لأن الرجل قبل عون الاله έρχητο .

هي النهوض بشرف ، بالواجب المدني (١) ويعبر واضعو الفاجعة والمؤرخون فى القرن الخامس ، على التقريب ، فى كل صحيفة من كتاباتهم عن احساسهم بقيمة دولة - المدينة. وهي تهى، المجال لتحقيق الحياة الصالحة (٢) والفلاسفة الذين كانوا يسعون الى أن يحددوا بالاستدلال العلمى طبيعة ومعيار الصلاح الانسانى ، لم يتزعموا فى اعتقادهم بأن الحياة الوحيدة التى تستحق العيش، كانت حياة المواطن فى دولة - المدينة الهلينية . عندما عرض على سقراط ، بعد أن حكم الاثينيون عليه بالموت ، الهرب من السجن ، أجاب بأن التملص من قانون دولة - المدينة حتى عندما يكون قد طبق بالجور كان من الوجهة الخلقية خطأ أشبه بعمل من أعمال العنف يوقعه ابن على أبيه الهرم . وقد حكم أفلاطون بأن كل الدول الاغريقية القائمة فاسدة فسادا لا رجاء فى تقويمه . ومع هذا فقد وضع تخطيطا مجملا فى جمهوريته ، للمجتمع المثالى على أنه دولة - مدينة هلينية أجرى عليها الاصلاح (٣) . وعنده ، كما كان عند أرسططاليس فى الجيل التالى ، كانت المدينة الصالحة توجد حالة الحياة الصالحة لأعضائها وكذلك ما يلزمها . وقد عرف أرسطو دولة - المدينة بأنها جماعة تكونت لحفاظ حياة مكتملة وفيها اكتفاء ذاتى ، وأشكال أخرى من الجماعات يسرت للانسان العيش ولكن دولة - المدينة وحدها ، يسرت له العيش الطيب (٤) ولقد عرف الانسان بأنه (حيوان سياسى) ، مخلوق حتى

(١) Eudaimonia (ومعناه أن يكون للمرء روح حارس طيب) كان التعبير الاغريقى عن « السعادة » أو « المراح » أى Summum bonum أو المثل الأعلى للحياة البشرية . وعن تفسير هذا المثل الأعلى ، يورده اغريقى مثقف من القرن الخامس ، راجع قصة هيروودوت عن الحديث الذى دار بين صولون وكروسس (١ : ٣٠ وما بعدها) . ولدى العقل الشعبى كانت السعادة فى سعود الجذ (eutychia) وقد رفض الفلاسفة عن وعى الرأى القائل ان الخير الأعظم كان يعتمد على ظروف خارجة أو نزعات الالهة التعسفية أو الحظ .

(٢) وازن على الأخص هيروودوت الكتاب السابق ذكره وكذلك الجزء الثالث صفحة ٨٠ وما بعدها وفى العبارة الأخيرة يذكر أن عظماء الفرس كانوا يتحاوون عن مزايبا الديموقراطية والارستقراطية والملكية على الولاء . وبطبيعة الحال ، كانت الأحاديث تعبر عن عواطف الاغريق كما كان رومانيو شكسبير فى الواقع انجليز عهد أليصابات . راجع أيضا محادثة خشيارشباى مع ديمرطوس Demaratus ٧ : ١٠ وما بعدها .

(٣) أفلاطون ، الجمهورية ٥ : ٤٧٠ وعن رفض سقراط راجع crito لأفلاطون .

(٤) أرسططاليس (السياسة) : ٣ ، ٩ ، ١٢٨٠ ب ، ١ ، ٢ ، ١٢٥٢ ب

نزعت به طبيعته نزوع حياة النشاط المدني (١) . ووظيفة المشرع والسياسي الأصلية ، هي ايجاد الصلاح الخلقى في المواطن وتعليمه حتى يمكنه النهوض الكامل بمواهب طبيعته في دولة - المدينة . وحتى الرواقيون وهم يكتبون بين أشنات الاستقلال السياسي الاغريقي المتناثرة ، جهدوا في أن يعيدوا تركيب نسج الواجب الخلقى بتعليم الناس أن يعيشوا كمواطنين في الجمهورية العالمية، دولة - مدينة أساسها العقل الخالص ، مدينة الله (٢) .

٦ : وبهذا تأصلت أرومة مدينة الشعب الاغريقي ، تأصلا عميقا في تربة دولة - المدينة . لقد كانت (الصخرة التي نحتوا منها) و (نقرة الحفرة التي استخرجوا منها) . ان فن العمارة والنحت ، والحفلات الفاجعية والأنشودة العاطفية ، والعلم والفلسفة ، والدين والأخلاق ، والطوائف الحرفية وفنون الحرب والسلام ، وتكوين الدستور ومبادئ السياسة العامة ، وأشكال التواصل الاجتماعي ، والحديث ، والأخلاق ، كانت كلها فروعاً لتكوين عضوي أوجد دولة - المدينة . ولكن للصورة جانب آخر . ان للحرية سيفا ذا حدين . وقد أفسحت حياة دولة - المدينة المجال لمزاج الوطنية المدنية وكذلك مجال الظموح الشخصي . وفي اليونان القديمة ، كما بعد ذلك بألفي سنة في فلورنسا في عهد دانتي . كانت عوامل التفكك في التشيع الحزبي والأغراض الذاتية في الأفراد تغلي مراجلها عن قرب تحت السطح . ان التوقف Stasis ، وانفصام العرى المدني ، كان المرض المزمن في دولة - المدينة الهلينية . وكلا الشكلين اللذين اتخذهما وهما عدم قدرة المدن على التضام في اتحاد سياسي ، حتى في مواجهة عدو مشترك ، والنضال الداخلي الذي يقوم بين الرجال والأسرات والأحزاب داخل أسوار مدينة واحدة ، عملا على انحلال الاستقلال اليوناني في نهاية الأمر . وفي الحق ، انا لنقرأ باستمرار عن تحالف المدن لأغراض ترجع الى الدين أو الدفاع . ان تاريخ الاغريق هو في معظمه تاريخ أحلاف، من حلف الجماعات التي يربطها الجوار الى المعبد amphictyonic في القرن السابع الى الأحلاف الأخائية والايطولية في القرنين الرابع والثالث . ولكن هذه الضروب من التضام كان ينقصها الدوام والتلاحم اذ كان لها أثر فعال فقط ، في أغراض عابرة وداخل حدود الهلينية الضيقة، وقد دلت على أنها

(١) أرسططاليس ، السياسة : ١ ، ٢ ، ٣ و ١٢٥٣ أ . ويصر مؤرخ روما الاغريقي بلوبيوس Polybius الذي ترجع كتابته الى عهد متأخر ، منتصف القرن الثاني ، على أن الدستور يكون صالحا أو رديئا وفقا لما ينتج من مواطنين صالحين أو طالحين من حيث طباعهم الخلقية (بلوبيوس ٦ ، ٤٧) .
(٢) معنى Cosmopolis مدينة (polis) الكون (cosmos)

عديمة الجدوى تماما بالموازنة بقوات مقدونيا وروما (١) وفي النهاية ، كانت نتيجة المعالاة في الحرية الوقوع في العبودية لدولة أجنبية . والاغريق ولهم ذلك الاحساس المرهف بحقائق الحياة ، لم يكونوا متباطئين في تعرف عوارض فوضاهم الخاصة ولكن كان لا حول لهم في علاجها ، ولقد أرجع أفلاطون : بصره الذي لا يخطيء بالطبيعة البشرية ، أصل الطغيان العام في الدولة الى طغيان العاطفة التي لا ضابط لها في الفرد . ولقد رأى أن أعظم أولى المواهب من المواطنين ، من أمثال ثمسطوقلس أو السييادس Alcibiades بالنسبة الى عظم ما يستحوذون عليه ، كانوا أكثر عرضة لأن يقفوا فرائس لشهوة السلطان وأن يحطموا أولا اقتصاد ارواحهم هم ، ثم بعد ذلك اقتصاد المجتمع (٢) . ومع كل ما فيه من روعة جلائل الأعمال ، يزخر التاريخ الاغريقي بالمأساة . ان حطام النفوس التي أتى عليها الدمار يتناثر في مطوي صفحاته . وهذه الصفحات تعرض التضحية التي اشترى بها عقل الانسان حريته في أن يفكر وأن يعمل . ولكن يجب ألا نخدعنا حتى نزعم لحظة أن النصر لم يكن يستحق التضحية .

٣ - توسع اليونان

٧ - ان تأثير دولة - المدينة للخير أو للضرير يتجلى في بيان أكبر وضوحا كلما درسنا تطورها في التاريخ الاغريقي . وقد شاهد القرنان الثامن والسابع انتشارها السريع في جزر البحر المتوسط وأراضيها الساحلية . وقد كانت الأحوال المناخية والجغرافية تلائم توسع السلالة الاغريقية هذا . وكانت مدن منطقة ايجنا نفع اما على الجزر واما على الوديان التي تفصلها سموح الجبال العالية وأصبحت بذلك في حماية من العدوان بالبر . ولكنها لم تكن منعزلة عن التواصل المتبادل والا كانت كالمدين السويسرية في التاريخ الحديث ، لتحتفظ باستقلالها بأي ثمن . وكان البحر وناق الاتحاد . وقد ضمن خليج كورنث والتعاريح الساحلية التي لا عد لها ، والمداخل ، للاغريق الأوروبيين خطا ساحليا بالغ الاستطالة ولا نكاد توجد أية ولاية اغريقية ليس لها مخلص سهل الى البحر . وكان الاغريق سلالة بحرية منذ الأزمنة الأولى . وقد عمل التواصل في التجارة بينهم وكذلك وبين الشعوب الأخرى ، وهو يتألف

(١) كان يظهر للاغريق أن التحالف والامبراطوريات على السواء ، خطوة تتخلف عن دولة المدينة المستقلة .

(٢) راجع الجمهورية : ٦ ، ٤٩٠ وما بعدها (حيث ترجع الاشارة دون شك الى السييادس) و ٨ ، ٥٦٢ وما بعدها (حيث يبين أن الطغيان ترجع نشأته الى المغالاة في الحرية الديموقراطية) .

بحرية مدنهم وكيانها الفردى ، على تنمية ثقافة متنوعة زاخرة ، وندر أن وجدت سلالة ، كائنة ما كانت ، أضقت عليها الطبيعة فى مثل هذا الاغداق عوامل مدنية ، وطبيعية(١) . ان الجبال والبحر والمناخ المعتدل الذى يبعث على النشاط وتربة كانت تتطلب الهمة والمهارة وتجزل لهما العطاء ، ان هذا كله عمل على بعث صفات حب المغامرة والعمل المتحرر اللذين حملهما الغزاة الشماليون معهم عندما هبطوا الى العالم الايجى (٢) .

٨ - ولقد تميز القرنان الثامن والسابع بالمغامرات التجارية والنشاط الجهم فى الاستعمار ، ونمو الثروة والتهديب الاجتماعى والقلق السياسى الذى اتسع نطاقه . وقبيل سنة ٦٠٠ ق.م . كان الاغريق قد انشأوا مستعمرات تجارية على شواطئ بروبنطس Propontis (بحر مرمرة) والاكسين (البحر الأسود) وعلى ساحل افريقيا الشمالى وحول جنوب ايطاليا وعلى الحط الساحلى فى صقلية ، بطوله الا حيث كانت حصون قرطاجنة تتحكم فى غرب الجزيرة الأقصى . ولقد رأينا كيف أنه فى بواكير القرن السادس استحوذ التجار الاغريق من أمراء موالين فى الأسرة السادسة والعشرين على مقر دائم فى نوكراتيس Naucratis فى دلتا مصر . وكانت تجارة البحر المتوسط من صقلية الى الشرق قد أفلتت من يد الفينيقيين الى الاغريق . وفى أقصى الغرب استتمعت قرطاجنة باحتكار لا ينازع . ولكن فى غيره من الأصقاع تمكن اليونانى التاجر والمستعمر بما له من عبقرية طبيعية يكون فيها مطمئن البال فى أحوال جدد وبين ناس غرباء ، من طرد السلالات السابقة من أسواق البحر المتوسط . وقد لازم هذا التوسع التجارى نتائج بعيدة الأثر فى الحياة الاجتماعية والسياسية . وقامت المدائن الرائعة مثل مليتوس Miletus فى ايونيا وسيراكوز فى صقلية وسوبارس Sybaris فى جنوبي ايطاليا ويدل لفظ Sybarite الى يومنا على شخص يتعمق الدعة المترفة . ولقد نهضت الى حيز الوجود طبقة من الأمراء التجار قامت برعاية الفن والشعر فى سخاء ونبل .

وفى مجال السياسة كان يفور على الدوام شغب دائم وثورة . فقد أصبح أولو اليسار الجدد يكافحون من أجل السلطان والامتيازات ضد احتكار النبلاء القدامى . وقد نجم عن الكفاح الحزبى العنيف دافع لجديد من الاستعمار . ولم يكن من غير المعتاد أن يرسل غير الراضين وكثيرا ما يكون

(١) ولكن لم تكن لديهم موارد قوى طبيعية (ومن هنا كانت الحاجة لخدمة العبيد على نطاق واسع) أو زجاج (وعلى هذا فلا كيمياء أو أدوات بصرية) أو فحم (وعلى هذا فلا ألواح مراجل أو بخار) .
(٢) ولكن المتويين وكذلك الشماليين قاموا بمغامرات بحرية .

ذلك بارشاد مهبط الوحى فى دلفى الذى علت أهميته فى هذه الحقبة ، كـمستعمرين الى أية منطقة غير مأهولة تصلح للتجارة ، حيث كانوا يؤسسون دولة - مدينة تتمتع بالحكم الذاتى . وكانت المستعمرة الاغريقية مستقلة سياسيا عن المدينة ، الوطن الأصيل . والأسباب التى تربطها كانت تلك التى تتصل بالدين أو العاطفة أو التحالف التجارى (١) . وعلى هذا كان العصر ، عصر انتقال سياسى سريع . وقد مهد تنافس النشأة والشراء ، والأرض والتجارة ، الطريق حيناً للديموقراطية وحيناً آخر للطغيان . وأعظم ظاهرة تسترعى النظر فى تلك الأزمنة ، كانت قيام شكل الحكومة المعروف للاغريق باسم حكم الطغاة . ولو أنها كانت قصيرة الأجل فى أية مدينة بعينها فإنها غدت منذ ذلك الزمن ظاهرة مستديمة فى مراكز اليونان التجارية . ويغلب كثيرا ، كما حدث فى أيام النهضة الايطالية أن تاجرا غنيا يطيح بالنبلأ الظالمين بمعونة الشعب وقيم نفسه حاكما مستيدا . وكان « الطغاة » فى الكثير الغالب حكاما متنورين ذوى شمائل انسانية مثل بسسراطس Pisistratus فى أثينا فى القرن السادس ولكنهم كانوا يسيئون اساءة بالغة الى تعشق الاغريق للحرية ولقد أثار حكمهم المقت المرير . لقد وضعوا أنفسهم فوق القانون وبذلك ، نيدوا كل دعوى فى حمايته . وكانت سلطتهم انتهاك لطبيعة ethos دولة - المدينة الهلينية . يضاف الى هذا ، أن الاغريق كانوا يسهمون الى أقصى حد فى المقت الذى يحس به أحرار الناس فى جميع العصور نحو السلطة التى يكون أساسها امتلاك الثروة . وقد كتب ثيوجنس مواطن مجارا : « ان الاطاحة بطاغية يبدد الناس ليس بخطيئة ولن تعاقب عليه الآلهة » . ويحتفل الشاعر سيمينيدس بحمد قاتلى ابن بسسراطس بهذه الكلمات : « ان ضوئا عظيما تفجر على الأثينيين عندما ذبح هرمدىوس Harmodius وارسطغيطن Aristogiton ابرخس Hipparchus » . وتتجلى نتائج هذه الحقبة فى حياة اليونان العامة أيضا ، فى تقدم القانون والنظم السياسية والسير قدما صوب

(١) ومع هذا فإننا نقرأ عن مستعمرات كانت تنافس المدينة ، الوطن الأصيل ، منافسة تجارية مريرة مثل كورنث ومستعمرتها كركورا Corcyra انظر ثقوديدس Thucydides : ٣ ، ٨٢ وما بعدها ، حيث يجيء وصف الثورات فى كركورا كمثال لنتائج الكفاح ، الحزبى الخلقى والسياسى ، فى العالم الهليني فى أواخر القرن الخامس . وعن مهبط الوحى فى دلفى والاستعمار ، انظر هيردوت ٤ ، ١٥٠ - ٨ (قورينا) .

الديموقراطية ، بهدم الحقوق المتوارثة (١) . ومما كان له شأن عظيم توسع الثقافة فى مجال الشعر والفن والعلم .

٤ - بواكير أدب الشعر

٩ - ان أدب اليونان ، كأدب الكثير من الأمم يستفتح بالأغنية وأقدم ما بين أيدينا من قصائد شعرية هما ملحمتان تنسبان الى هومر ، الياذة والأودسيا . وتسرود الياذة قصة معارك حربية على « السهول الداوية فى طروادة التى تعصف فيها الرياح » وغضبة وجسارة أخلوس Achilles وذبحه هكتور Hector رجل طرواده - وتقص الأودسيا تجوال أدوسيس Odysseus الذى استغرق عشرة أعوام فى البحر والبر بعد أن سقطت طروادة ورجوعه الى اتيكا وذبحه الخطاب الذين أفسدوا بيته (٢) . انهما الملحمتان الباقيتان من ملاحم كثيرة سابقة وتملان الثمرة الناضجة لفترة مستطيلة من الخلق الشعرى . ولقد أحضر أول المستعمرين الاغريق فى آسيا الصغرى ، الذين ينتمون الى الأصل الايولى ، معهم من تساليا الجنوبية ، الأغاني الشعبية الراقصة والأغاني القصصية القصيرة التى تسبح بحمد

(١) ان تدخل فارس التى كانت تستطيع التعاون دائما مع حكم القلة oligarchy أصاب تقدم الديموقراطية العادى اصابة بالغة . وهذا هو سبب بقاء حكم القلة الى القرن الرابع .

(٢) لا يعرض تتابع الحوادث فى أية واحدة من الملحمتين نتيجة لتخطيط واسع ، وكما أشار منذ عهد قريب السيد ث.س. لويس Mr. C. S. Lewis فى مقدمة الفردوس المفقود ، فى افصاح وتنبؤ ، أنه من خصال بواكير ملاحم البطولة فى اليونان كالحال بين شعوب أوروبا الشمالية ، وعلى غير شاكلة ما جاء من ملاحم « ثانوية » ، أنها لا تعالج موضوعا عظيما مثل تأسيس روما (فرجيل) أو سقوط الانسان (ملتون) ويكتب فى الصفحات (٢٨ - ٢٩) « ذلك النوع من العظمة ينهض فقط عندما يقوم ثم حدث يمكن أن يبرز على أنه أتى بتغير عميق فى تاريخ العالم ، فى دوام قليل أو كثير . . . ومجرد الصعود والهبوط الذى لا نهاية له والتبديلات المستمرة التى لا هدف لها ، من مجد وبؤس التى تتكون منها الظاهرة المروعة لما يسمى عصر البطولة لا تسمح بمثل هذا التخطيط . ولا يكون حدث بذاته فى الواقع أكثر أهمية الى حد جد بعيد ، من حدث آخر . . . لا شىء له بقاء ، ولا شىء يتعدى مغزاه للنظرة ويوجد من البطولة أو المأساة الشىء الكثير وعلى ذلك يوجد الشىء الكثير من القصص الطيبة ولكن لا يوجد « تخطيط عام . . . » وخالص النتيجة ليس شكلا النموذجيا وانما ضروب من الأشكال والألوان الجميلة » .

الآلهة والسلف القبلي والتي تتكون من أبيات يكون فيها البيت من ستة مقاطع «انه أفخم وزن صاغته شغافه البشر» (١) . وقد حيكت هذه الأغاني في ملحمتين عظيمتين في جزيرة لسبس أو على شواطئ شمال غربي آسيا في المدة التي تقع بين عامي ١٢٠٠ و ٨٠٠ واتخذت الملحمتان شكلهما الحاضر بعد أن أتى عليهما فيما بعد ، تعديلات واضافات وتطهير من الشوائب بين المستوطنين الايونيين على مسافة أبعد الى الجنوب (٢) . ويمكننا أن نتقصى في الملحمتين تغيرات في اللغة والفكر والعادات ونمو الأفكار الخلقية . والأوديسيا وهى على وجه عام أحدث الاثنتين ربما تعبر عن المزاج الابداعي (الرومانسى) في عصر المغامرات البحرية ، ولا يمكننا أن ندخل هنا في مشاكل يدور حولها الجدل والى أى مدى كانت الملحمتان أو احدهما من عمل شاعر واحد ولكن نشير فقط الى أن العلماء فى زمننا يميلون الى أن تكون لهم نظرة محافظة فى هذه المسائل أكثر مما كان لهم منذ نصف قرن . والقول ان هومر كان شخصية واقعية وان الإلياذة والأوديسيا يجب أن تنسب الى تأليفه لم يعد بعد مما يمكن دحضه ، فى استعلاء كنافلة . وعندنا كما كان عند الاغريق ، يمثل هومر كبل الأسطورة الملحمية بأجمعها ، والأعجوبة هي أن تلك السلالة أمكنها فى ذلك العهد الباكر أن تنجب مدرسة من شعراء بلغوا أرفع شأواً . ولا يوجد أدب باقى بين ظهرانينا استهل بمثل

(١) «الى فرجيل» لتينيسون Tennyson . لم يكن قصيد أدب الشعر القديم يقفى . وكان دانتي أول شاعر عالمي عظيم يستخدم القوافي . وتعتمد الأوزان الاغريقية واللاتينية على عدد المقاطع وليس على النبر . ومن هنا كانت صنوف المحاكاة الحديثة فمثلا الأبيات التى يكون فيها البيت من ستة تقطيعات لا تقدم الا تأثيرا ضئيلا جدا عن الوزن كما استعمله الأقدمون . وقد يكون البيتان الآتيان Bothie of Tober-na-vuolich لكلوغ Clough مثلا لا يصل الى الكمال :

So in the	golden	morning they	parted and	went to the	westward
There hoth he	farmstead and	land, and	fields of	corn and	flax fields.

والوضع العادى للسطر ذى الستة أقدام هو

— U U	— U U	— U U	— U U	— U U	— U
— —	— —	— —	— —	— —	— —

بحسب ان المقطع الطويل ، له ضعف قيمة القصير

(٢) انها باللهجة الايونية ولكن كان تأليفها فى الأصل بالايولية . وعن علم اللاهوت عند هومر ، ارجع الى تاريخ دين الاغريق ، لنلسون Nilsson .

هذا المجد كآدب اليونان واستهلاله بهاتين القصيدتين • وفى فحواهما
وصوغهما ، على السواء تعنو لهما السيادة التى لا تقارع على الشعر الملحمى
فى كل سلالة وزمن ، ان ما تنطويا عليه من مغزى لما أعقبها من مدنية
اليونان والعالم مثلوث العرى فقد كان جمالها وروعتهما معينا دائما للإلهام
الشعرى ، وفى مكنتنا أن نقتفى نأثرهما خلال مدرجة الأدب والفن الاغريقيين
بأكملهما • ان الشعر الرومانى وخاصة الانبياد لفرجل صيغ الى حد كبير ،
على أنموذج الالياذة والأوديسيا ، ولا تزال روح هومر تصعد الأنفاس فى
شعر العالم الحديث ولقد قيل ان اسخولس Aeschylus أطلق على رواياته
من نوع المأساة « فضلات من وليمة هومر العظيمة » ويمكن لشعراء جميع
العصور أن يرددوا صدى أقواله • ان وداع شكثور لاندروماك Andromache
والذكرى التى تجيش فى هيلن عن أخوتها الذين قضوا نجهم وهى ترقب
جيش الأخائيين من أسوار طروادة واستعطف بربام Priam لأخولس من
أجل جسمان هكتور عندما عن للملك الهرم « أن أجسر على ما لم يجسر عليه
أى رجل على الأرض قبلى ، أن أبسط يدي أمام وجه ذابح انائى » - تثير
نفس المشاعر فى القارئ فى أية أمة ولغة وفى الزارع الذى لم يؤت من العلم
شيئا كما فى العالم أو الشاعر (١) • ومنذ فجر الشعر الاغريقى كان
موضوعه كل ما هو أعظم شيوعا فى الحياة والمشاعر الانسانية • ثانيما -
على مضى الزمن أصبحت القصائد الهومرية تقرأ وتدرس كمستودع للحقائق
الخلقية والدينية • ان سطورا كعبارة أخولس الى المبعوثين « بغيبض لى
كأبواب الجحيم ، ذاك الذى يقول شيئا يشفتيه ولكن يخفى شيئا آخر فى
قلبه » أو عبارة أدوسيس « تحمل يا قلبى : لقد تحملت ما هو أسوأ كثيرا
من هذا » - كانت نصوصا يحفظها أطفال الاغريق ، يشبهون فى ذلك أطفال
انجلترا الحديثة وهم يحفظون آيات من الكتب المقدسة (٢) • ان القصائد

(١) الالياذة : ٦ ، ٣٩٠ وما يليها و ٣ ، ٢٣٤ وما يليها و ٢٤ ، ٥٠٥ - ٦
(ترجمة لنج وليف وميرز Lang, Leaf and Myers)

(٢) الالياذة : ٩ ، ٣١٢ - ١٣ أوديسيا ٢٠ ، ١٨ • ومن الجهة الأخرى ،
كانت توجد فقرات عديدة يراها شعور الاغريق الخالقين ، الذى ارتقى ،
لا تليق بتعليم الصغار كالحوادث التى وردت فى « قصص الآلهة ، الفاضحة » ،
التي ربما كانت اضافات متأخرة تعبر عن المجانة والشك الدينى عند
الايونيين فى القرن السابع مثل مكر هيرا بزيوس (الياذة : ١٤ ، ١٥٣ وما
بعدها) ومباغثة ما وقع من حب بين هفيستوس Hephaestus وافروديت
(أوديسيا : ٨ ، ٢٦٦ وما بعدها) الذى نعاه أفلاطون (الجمهورية : ٣ ، ٣٩٠)
وعراك أثينا Athena مع آرس - Ares وافروديت (الياذة : ٢١ ، ٣٩١ وما
بعدها) ، التى يمكن موازنتها بالتقليد الهزلى فى توم جونس Tom Jones =

الهومرية كان لها نصيب عظيم في تكييف وتوطيد دعائم الأفكار الخلقية والدينية في الأجيال اللاحقة (١) . ثالثا - ان لهذه القصائد قيمة من حيث التاريخ . انها تصور في اخلاص مكين حياة رهوساء ومحاربي العالم الايجي في اواخر قرون الألف سنة الثانية . ويعسر علينا في الحق أن نقول في تركيد عما اذا كان الأشخاص عاشوا فعلا أو ان الحوادث وقعت فعلا ولو أن حصار طروادة ليس من غير المحتمل أنه واقعة تاريخية . انه صدق أن الشعراء يتغنون بعصر تولى ودخلت في الصورة ألوان عادات جاءت فيما بعد . ومع هذا فاننا نعلم الكثير عن العادات القديمة ، عن الزواج والعبادة الدينية وعن طرق اقامة المنازل وأحوال الحياة المنزلية وأساليب القتال ، والزراعة وجوب البحار . وعندما نقرأ وصف أنظمة الملك ومجلس الشورى ومجمع الشعب (كما في الكتاب الثاني من الاليادة) وعن ترس أخلوس (في الكتاب الثاني عشر) وعن القصور والسلاح والملابس فاننا نجد تأييدا جليا لدقة وصفها في كسوف شليمان Schliemann وخلفائه . كان عالم هومر عالما حقيقيا . ومظهران من بين المظاهر الأخرى ، بيرزان في أنم جلاء . ان الحياة التي صورت هي حياة ارستقراطية اقطاعية . ولا نسمع الا اليسير عن عامة الشعب اذ ليس لهم دور يؤديونه وحتى العبيد هم أسرى يرجعون الى الامارة بالمولد . والشعر الذي بين أيدينا لم يكن شعرا شعبيا ، كما ان دينه لم يكن دينا شعبيا ، لقد وضعه للنبلء من الرؤساء مسدون كانوا يتغنون بشرف أسرهم وعشائرتهم . ومع هذا فانه بالرغم عن هذه الصفة غير الديموقراطية فاننا نتنسم عبق الحرية في العالم الهومري حيث لا يوجد استبداد سياسي أو كهانة ، والدسياسة والسحر على السواء نادران والنساء يعشن في مساواة

= (الكتاب الرابع فصل ٨) - مقابلة مولى سجرم Molly Segrim (نساء القرية) . وينبئنا فيدانج Feiding « أنها معركة غنتها ربة الفن على الاسلوب الهومري » . وعن هذه الاضافات المتأخرة أنظر مري Murray (نهوض الملحمة الاغريقية ، المحاضرة العاشرة) . ان لها قيمة من وجهة التاريخ مثل زينة هيرا (اليادة : ١٤ ، ١٧٠ وما بعدها) فانها تعلمنا بأمر كثيرة . وما ساقه افلاطون من نقد لهومر والشعراء عامة في جمهوريته (٢ ، ٣٧٧ - ٣ و ٣٩٢) موحه ليس الى قيمتها كشعر ، (الذي اعترف به تماما ، الجمهورية ١٠ ، ٦٠٧) ولكن الى دعواها في أنها هادية الى التعليم الديني والخلقى . وهو يعرض بصفة خاصة للطراء (الجمهورية ٣ ، ٣٩٠) ، كلمات أدوسيس التي اقتبسناها في النص .

(١) ان هيرودوت (٢ : ٥٣) يعترف بهذا والعبارة اقتبست في ١١ التي تلى . ويرجع انتصار الدين الالومبي ، (متميزا عن العبادات الشعبية الأعراف في بدايتها) ، انتصارا باقيا على الزمن يرجع الفضل فيه ، لحد عظيم ، الى هومر .

مع الرجال الى حد لم يعرف في اليونان التي جاءت بعد ذلك ويستمتعن بمكانة جليلة الشأن في الأسرة ، والعييد يتحدثون الى أربابهم ويتحدث اليهم كما يكون الحديث بين الرجال والرجال(١) . ويصل الشعور الانساني المشترك قريبا من الذروة في المجتمع الهومري أكثر مما يصل اليه في عالما الحديث الأكثر تعقيدا .

١٠ - والملاحم الأوليات كن قصصا عن أفعال البطولة وأعمال مشاهير الرجال . وبعد ذلك ضرب الشعراء على نغمة ذاتية جديدة وفي روح أكثر أن تكون ابداعية (رومانسية) عبروا عن مشاعرهم بالقصيد الغنائي . وكان يتركز اهتمامهم ، ليس في الماضي ولكن في الحاضر ، فيما تدرس به الشاعر شخصيا من الحياة . وقد شاهد عصر التوسع التجاري مولد الشعر الغنائي وشعر المراثي وفيه تنوع زاخر في صيغة الموضوع والوزن ويحوى قصائد حب وحرب وحزن وضجر وأنشودة الجنائز وأغنية الزواج والقصائد الغنائية المذهبية والتهكم الشخصي والسياسي . ان الزمن لا يمكن أن يذوى جمال هذه القصائد الذي لا يفنى . انهن يتحدثين الترجمة ولكن صدى من روعتهن يمكن أن يحس وقعه فيما نقل روسيتي Rossetti عن سافو Sappho

١

كالتفاحة الحلوة التي يعلوها الاحمرار في أعلى فرع
فوق أعلى غصن - التي نسيها القاطفون لثم داع
لم ينسوها ، كلا ، ولكن لم يظفروا بها لأن أحدا لا يستطيع الظفر بها الى الآن

٢

كزهرة عنصل ، برية يعثر عليها فوق الربى
تمزقها وتدميها أقدام الرعاة المسارة
الى أن تداس النورة الأرجوانية في الأرض

ويمكن توضيح عنصر الملحمة بالبيتين اللذين كتبهما سيمثيدس في بواكير القرن الخامس على قبر الموتى الاسبرطيين في ثرموبولاي Thermopylae « اذهب ، أيها الغريب وخبر رجال لاكديمونيا Lacedaemon أننا نرقد

(١) عن النساء ارجع الى الادوسيا . ان العلاقات بين الجنسين تعالج في رثق وتحفظ . وعن العبيد انظر يومايوس Eumaeus في الادوسيا انه نبيل بمولده وقد أسر في الحرب ويعامل كتابع للأسرة ، مكرم ، راجع التذكرة الاضافية فصل ٥ ، فيما يلي .

هنا اطاعة لأمرهم ، وقد كتب الشعر الغنائي ، كما يدل اسمه ، ليغني بمصاحبة الموسيقى وكان يصحب القصيدة الغنائية المذهبية التي تقدمت الى أن أوفت على كمال عظيم فى نفس هذا العصر ، الموسيقى والرقص ، وكان الجوق يحتفل بمديح الآلهة أو الأبطال أو المظفرين فى الألعاب ، ان قصائد بندار Pindar الغنائية الباقية الى الآن (وهى ترجع الى القرن الخامس) ، وتعد احدى مفاخر الشعر الاغريقى ، وضعت أصلا لتكريم الانتصارات فى الألعاب الرياضية . وسنرى فى الفصل القادم كيف حيكت غبقرية الاغريق فى الشعر الغنائي ، مع الملحمة فى الفاجعة الاتيكية .

١١ - وجنبا الى جنب مع أشكال الشعر الغنائي هذه ، أدى الاهتمام المتزايد بالتفكير الخلقى الى قيام شعر الحكم والأمثال (١) . الذى يعبر عن نقد للحياة ، ساذج ، ونصائح عن السياسة أو التعقل ووصايا عن العمل الخاص والعام . ولقد قام الشعر التعليمى فى أزمنة أسبق بين زراع اليونان الوسطى كشرط مقابل للملاحم الهومرية ، بين الارستقراطية الأيولية والايونية . وهو لا يزال موجودا فى القصائد التى تنسب الى هزيود البيوطى (٢) . ويمكن موازنة شعر الأمثال فى آخر القرن السابع وفى القرن السادس بمصنفات بيرز بلاومان Piers Plowman أو جور Gower « الخلقى » ، فى الأدب الانجلىزى . ولقد عبر ثيوجنس مواطن مجارا فى أوزان المراثية عن احتقار الشريف الدورى للعامية من الشعب الذين استلبوا من طبقتهم النروة والسلطان وتغنى رجل السياسة الأثينى ، صولون بخدمة الولاء للمدينة وواجب الكبح فى استخدام السلطة ، لشعب كان ينزع دائما الى تخطى جادة الاعتدال . وهذا اللون الجديد من الشعر له اعتبار خاص عندما نذكر كيف كان الشعراء لا الكهنة ، فى نظر الاغريق ، المعلمين المعترف بهم للحقائق الخلقية والدينية . وليس معنى هذا أن الاغريق كانت تعوزهم التقوى فلقد تجاوز الأثينيون فى عهد صولون ، كأعقابهم ابان زيارة القديس بولس الحد فى خشية الله (٣) . وفى بعض الأحيان كانت رابطتهم بعبادات دولة - المدينة

(١) (gnome = a maxim) — gnomonic poetry

(٢) « الأعمال والأيام » لهزيود يقدم صورة شبيقة للحياة فى الجزء الأخير من العصر المظلم الذى أعقب الهجرات الشمالية الى ايجا ، طالع يور Ure « النهضة الاغريقية » - الفصل النانى «The Greek Renaissance»

(٣) الأعمال: ١٧ ، ٢٢ . ان التعبير الاغريقى الذى ترجم «superstitious» فى النسخة القديمة والمعدلة (من الانجيل باللغة الانجليزية) معناه الحرفى « يخاف الأرواح (الوسيطة بين الآلهة والناس) » . وكانت هذه الأرواح كائنات هية مثل هرقل وغيره من أبناء الآلهة فى قصة الاغريق الدينية .

تنصاعد في غلو جنوني (١) . وكان جزءا من وظيفة الشاعر ان يقص ويفسر حكايات الآلهة والأبطال وسمح لهم بمجال عظيم في اختيارها واعادة تكوينها . ولقد قال هيرودوت ان شاعري الملحمة الأولين هومر وهزيرود : أعطيا الآلهة ألقابهم وقسما بينهم صنوف التكريم والفنون ووضعوا أشكالهم . وكان يرمى الى أنهما رسما ثم مذهب وتناسق للعدد الجم من العبادات المحلية وعلى هذا ساعدا على تبلور الخطوط الرئيسية للتقاليد الدينية في الأزمنة اللاحقة . ولا يستطيع أى فرد أن يدرك الدور الذى قام به الشعر فى حياة الاغريق وتعليمهم الا اذا وضع نصب عينيه رابطته الوثيقة بدينهم (٢) .

١٢ - ولقد كان شعراء الأمثال الرواد الأوائل لما صنفه بندار وكتاب الفاجعة فى القرن الخامس وذلك بأنهم حاولوا جعل التعليم الشعري يتلاءم مع الوعي الخلقى الذى كان يطردهم فى ذلك الزمن . ولقد أدى القلق السائد بما لا معدى عنه ، بين ناس أوتوا قدرات عقلية نادرة ، الى تغيرات فى نظرات الناس للحياة والى استبدال القيم الخلقية القديمة بقم جديد ومن عوارض هذا المزاج المتامل ذبوع الاقوال الماثورة التى جرت مجرى الأمثال نحو « اعرف نفسك » و « لا شئ تجاوز الحد » و « القاعدة تكسب عند الانسان » وهى تشل استقراءات شعبية من التجارب الخلقية . ولقد اتخذ تصور معيار خلفى ، سكله فى المثل الأعلى للسفسوسنيه Sôphrosyné وهو تعبير يتحدى الترجمة بلفظ انجليزى واحد ومعناه الحرفى « حفظ العقل سليما » أو كما يجوز أن نقول « الرأس صافيا » (٣) . ونوانه البدائية هى لفظ aidés الهومرى أو الاحترام وهو الشعور الداخلى الذى كان فى

(١) مثلا عن حادث تسويه تمائيل هرمس عشية ابحار الارمادا الى صقلية عام ٤١٥ ، انظر نفوديدس : ٦ ، ٢٧ وما يتلوها وتأثيره على الجماهير يمكن أن يوازن بما كان يمكن أن يكون لتدريس صور العذراء من أثر على مدينة اسبانية فى زمن الارمادا عام ١٥٨٨ . وعن علم اللاهوت الهومرى انظر نلسون (تاريخ الدين الاغريقى) . كان مجتمع الآلهة الاولمبية انطاعيا فى صفته على سائلة المجتمعات البشرية فى عصر البطولة . وكانوا يتصورون الآلهة وقد اتخذوا شكل الانسان ويختلفون عن الناس فى درجة المعرفة والقوة فقط ولكنهم كانوا خالدين . ولم يكن لهم علم غير محدود أو قدرة غير محدودة ، ومع هذا فان كل شئ فى حياة البشر كان يعتبر خاضعا لنفوذهم .

(٢) انظر افلاطون الجمهورية ٢ و٣ عن مكانة القصص الشعري عن الآلهة والأرواح والناس ، فى التسليم الخلقى للشباب من حكام المدينة المسالية .

(٣) يفسر ارستطاليس (قواعد السلوك ٦ فصل ٥) التعبير بان معناه الحرفى الفضيلة (التى تحفظ الحكمة العملية "phronésis" سليمة) . ويعنى لفظ Phronésis القدرة على الحكم الصائب فى مسائل سلوك الانسان .

أزمة الحروب الهمجية يغفل يد الرجل عن ايقاع الأذى البالغ باليتيم والهرم والمستعطف أو العدو المغلوب على أمره ويكبح النزعة الى الجبن أو عدم الولاء ويحفظه مطيعا للوالدين والحكام والآلهة (١) . والمعنى الجوهرى للفظ سفسرونيه Sôphrosyné ، كما نشأ فى العقل الاغريقى هو كبح جماح النفس وطاعة القانون سواء أكان قانون الدولة أو المبدأ الداخلى أمام الغواية التى تستبد به لاساءة استخدام الثراء والسلطان واخضاع الولاء المدنى لمطالب الطموح الشخصى . وبالإضافة الى هذا الواجب السلبى ، فقد كان يدل على الخصلة الايجابية ، فى النظر الصافى وليد المعرفة بالذات ذاك الذى يساعد الفرد أو المجتمع على أن ينهض بأموهرما فى اتزان حكم خلال اللحظات العصبية من تاريخهما . والعبارة المعروفة « الحكم الصائب فى جميع الأمور » ربما تقدم أقرب تعبير عن المعنى (٢) . ونقيض هذه الحكمة المنقذة كان هبرس Hubris وقد جاء التعبير فى الملحقات الأولى . ومعنى أصله ، تجاوز الحد فى عنف ، ولؤم النصر وكبرياء الحياة التى تطأ بالقدم شريعة الآلهة والناس ، غير المكتوبة . وهبرس Hubris هو أقرب ما يعادل فى الاغريقية لفظ خطيئة ، وأعظم اطلاق تميز به كان على التعطش السدى لا تطفأ مسورته ، التعطش للسلطان ذاك الذى يدفع انسانا أو أمة دفعا الى الامام كأن شيطانا ركبهما فى مسلك التوكيد الذاتى الذى لا يكبح جماحه . وهذه العاطفة التى تعمى والتى تنتهك الحرية الشخصية كما تنتهك القانون العام ، على السواء ، تستغوى الضحية فى جنون من الثقة بالذات الى موارد الهلاك . وهى تثير فى الآلهة وفى رفاقه القصاص nemesis الشعور الحق بالاستنكار . « ان خطيئة nemesis قديمة تولد على الدوام خطيئة جديدة حية لتزيد من ويلات

(١) انظر Murray نهوض الملحمة الاغريقية ، الصفحات ٧٨ وما يليها . وفى الايلاذة : ٤ ، ٤٠٢ وما بعدها ، عندما يوبخ اجا ممنون Agamemnon ديومادس Diomedes لتباطئه فى جمع رجاله للمعركة فانه لا يحير جوابا ، « احتراما aidôs لصوت الملك المبجل aidôios » . وعندما يجيب اسثنالس Sthenelus غاضبا بدلا عنه يؤنبه ديومادس . لأنى لا أحس شعور القصاص nemesis نجو اجا ممنون ، راعى الشعب عندما يحض الأخائيين المدججين على القتال .

(٢) ارجع على الأخص الى تحليل السفسرونيه فى افلاطون ، الجمهورية : ٤ ، ٤٣٠ وما يليها وارستطاليس « قواعد السلوك » الكتاب الثالث ، ويمثل التعبير لدى هذين الفيلسوفين نتاج الاحترام aidôs المفكر ، ذلك الشعور البدائى الذى وصل الى شكل واضح التحديد ، من السمو الخلقى والعبارة التى جاءت فى النص ، مقتبسة من الدعاء فى عيد الفصح فى كتاب الصلاة العامة الانجلىزى .

البشر (١) . هكذا صور الشاعر الاغريقي وهو يجهد في اعطاء الجبرية المتوارثة والاستحقاق الفردي حقهما ، السحابة التي تتجمع للقدر الذي يتفقد ذنوب الآباء في الأبناء لأجيال متعاقبة من سلالة تقارف الخطايا . وعندما ظهر الطغيان فانه اعتبر ختام مظهر الخطيئة في الحياة العامة لدولة المدينة (٢) . وبعد ذلك اطلق التصور على مجموع عمل أمة رفعتها كبرياء الامبراطورية لتهدد الاستقلال الهليني كما كانت حال الغزو الفارسي وسيادة أثينا البحرية (٣) . ولقد كان اليوناني يعرف تمام المعرفة موطن ضعفه والعواطف الأنيمة التي كانت أبدا في ترقب لتستغويه على توكيد قدرته فيما يتعدى الحدود التي رسمها العقل والقانون . ولقد كان من العسير عليه ، بما كان له من ملكيات عظيمة ، أن يلج ملكوت روحه ذاتها . أما المشاعر الغاوية فان أهمها كان الحض Peitho والرجاء Elpis والعاطفة Eros . وكان يذهب التصور الى أنها عوامل شخصية لا دوافع مجردة . « ان الحض التعس يبرز قوته . انه وليد القدر المنذر Ate الذي لا يمكن تحمله وكل دواء لا نفع فيه » (٤) . وكتب هزيبود « ان الرجاء هو رائد سىء لرجل معوز » وسفوقلس « الرجاء

(١) اسخ . أغام . صفحة ٧٦ وما بعدها . عندما تأمر كلتمنسترا Clytemnestra سيدها اجا ممنون بأن يطأ الأرجوان وهو يدخل منزله ، عند عودته من طروادة استعدادا للمصير الذي أعدته له فانه يفعل ذلك في وجل : (وأنا أطأ مواد البحر هذه ، أرجو ألا تصيبني عيني اله ، بعيدتين بغيرة (phthonos) . لأن لدى احترام aidôs عظيم لتبديد مادة ، أن اتلف بخطاي ثروات وأنسجة اشتريت بفضة) (أغا ، ٩٤٦ - ٩) .

(٢) سفو . ٥٠ ت ٨٧٣ (الخطيئة Hubris تنجب طاغية) .

(٣) عن خطيئة hubris فارس وما نتج عنها من قصاص nemesis انظر اسخولس Aeschylus (الفرس) وتاريخ هيرودوت وخاصة هير : ٧ ، ٧ - ١٨ ، (محادثة خشيارشاي وأرتابانس Artabanus) . وعن خطيئة الاثينيين في الشطر الأخير من القرن الخامس ، نحو رعاياها راجع ثقوديدس : ١ ، ٧٥ ، ٣ ، ٣٧ وما بعدها وخاصة الديالوج الميلي Melian ٥ ، ٨٩ ، وما بعدها ، وقد أعقبتها مباشرة الغزوة الصقلية (القصاص) ، وكان الاغريقي ليفسر في يسر نمو القومية الألمانية السريع على أنها سياسة لصيغ العالم بالقوة ، بالصبغة الألمانية كمثل للخطيئة القومية . وعن القصاص nemesis راجع مري في المؤلف المشار إليه انفا . والفكرة تتصل بصفة قاطعة بقواعد السلوك . وبينما يعبر الاحترام aidôs عن شعوري بعدم امكان تصور مسلك كهذا فان القصاص Nemesis يعبر عن اعتقادي بأنى (أو شخص

غري) يجب ألا يفعل هكذا .

(٤) اسخ . أغام : ٣٨٥ .

الذى يشطح بعيدا ولو أن الكثيرين يجدون فيه عزاء فانه لكثيرين خدعة يعطى أجنحة لحلم الحب والشخص الذى يراوده لا يدرى شيئا الى أن يحرق قدميه بالضرام الملتهب « (١) • ويرى الشعراء والفلاسفة على السواء ، أن الحب طاغية يستعبد ضحاياه الذين أعموا ، للعاطفة الجاسحة • ويهتف دينرا (Delanira) عاثر الجذ « ان الحب يحكم حتى الآلهة بارادته وكذلك أنا أيضا ، كيف اذن ، لا يحكم آخرين مثلى ؟ » •

لأن قلب الحب به جنه

وذهب هو التماع جناحه

والكل ، تحت تأثيره السحري

ينحنون ، عندما ينب وثبته • (٢)

وقد عن لعصر لاحق أن يرى فى هذه القوى الثلاثة ، الايمان والرجاء والمحبة ثالوثا من الفضائل هو منتهى مجد حجج الانسان الروحي • ولكن عند الاغريق فى هاتيك الأزمنة العظام كانت أرواحا شريرة تستغوى المقامر فى لعبة الحياة لأن يجازف بكل ما لديه ، دون بصر ، فى رمية واحدة ، قانلة وبذلك يثير قصاص السماء • لأن الآلهة الألومبيين كانوا غيورين وكانوا

(١) هزيود (الأعمال والأيام) ٤٩٤ ، سفو • انغ ٦١٦ وازن عن الرجاء اسخ • انغام ٩٩٠ وما بعدها وسفو • طراخ ٦٦٦ وثقوديدس ٣ ، ٤٥ و ٥٠ ، ١٠٣ وكورنفورد Thucydides Mythistoricus
(٢) سفو • Trach. : ٤٤٣ - ٤ إير Hipp. : ١٢٦٨ وما بعدها (ترجمة مرى) وراجع أيضا صورة افلاطون للروح يسيطر عليها • ارس Eros طاغية فى الجمهورية : ٩ ، ٥٧٢ - ٣ واننتاحية الأغنية المذهبية فى سفو • انغ : ٧٨ وما بعدها ترجمها سونبرن Swinburne (أغنية لأثينا) هكذا :

« الحب فى صراع لا يغلب ، الحب يتأذب أسلاب عظام الناس لم يغن أبدا فى مثل هذه الخلاوة من حنجرة سيدة أو حمامة الحب الذى مهاده بالليل خدود فتاة ، ملمس

وسيره يكون على بحار ، وسطوح وطينة لا تعدم الحب

وليس واحد من كل من يعيش ، وشيك الزوال أو أبديا

بمستطيع الفرار أو الاستخفاء من الحب ولكن من يعانقه بشدة يعجن جنونا » •

يسعون بطيفهم لايقاع الأذى بالانسان لثيم الطبع الذي يجسر على انتهاك ما لهم من حقوق (١) .

ويزخر الأدب الشعري الاغريقي بالتأملات التي تتركز حول فكرتي السفرسونيه والهبرس وهما الشطر الهليني المقابل لتعليم قواعد السلوك عند أنبياء العبريين ويمثلان الاعتراف الواعي من جانب الشعراء بوظيفتهم كمهذبين للاخلاق ، للشعب الاغريقي . ولكن فى القرن السادس ، كان صوت آخر قد أصبح مسموعا ، ان الفلسفة كانت تقيم دعوى منافسه ، تعارض الشعر ، لتعليم الحقيقة عن العالم والحياة الانسانية .

٥ - مولد الفلسفة

كتب ارستطاليس « ان الرغبة فى المعرفة طبيعية فى كل الناس » ومرة أخرى وهو يعبر عن رأى أفلاطون « ان التعجب كان أول ما هدى الناس الى الفلسفة » (٢) . والرغبة التي تدور فى مخيلته هى حب الحقيقة المجرد عن النفع ، الحافز على التفكير لمجرد التفكير وليس كوسيلة لأغراض عملية وحسب . « ان الرجل الذي تأخذ به الحيرة والعجب مدرك لجهله . وعلى هذا فيما أنهم جنحوا الى الفلسفة حتى يتخلصوا من الجهل ، فمن الواضح أنهم درسوا العلم ابتغاء المعرفة وليس من أجل أى غرض نفعي » . وعند الاغريق كان حب الاستطلاع لمعرفة أسباب الأشياء وفحص طبيعتها الداخلية يجرى طبيعيا . وفى فجر تاريخهم كانت تجتاحهم كل رغبة الطفل لمعرفة الكيف والسبب . « ولقد كانوا فى مبدأ الامر ، يتعجبون من الأشياء المحيرة الواضحة وبالندرج شيئا فشيئا تقدموا الى البحث فى المشاكل الأكثر جسامة كظواهر القمر والشمس والنجوم وأصل الكون » (٣) . وفى هذا الميل الى الاستطلاع ، الذي يتجرد عن النفع كما كان يعلم ارستطاليس ، كان مولد العلم والفلسفة . ولم يفرق الاغريق بين الانين لأن المعرفة لم تكن قد وضعت لها بعد

(١) عن غيرة (phthonos) الالهة ، انظر هيردوتس ، ٣ ، ٤٠ - ٤٣ (قصة فلوقراطس) ، ٧ ، ١٠ (خطاب ارطبانس) وانكار افلاطون انكارا عنيفا بأن الله غيور الذي ردد صداه ارستطاليس وكل الفلاسفة الذين أعقبوه يدل على احدى خطوات التقدم العظيمة التي جاء بها التفكير العلمى على الدين الشعبى (افلاطون Phaedr : ٢٤٧ و ارستطاليس Met. : ١ ، ٢) .

(٢) ارستطاليس - متا : ١ ، ١ و ٩٨٠ أ ٢١ ، ١ و ٩٨٢ ب ١١ وما يليها ترجمة روس Ross (بتعديل طفيف جدا) ، وازن افلاطون Theaet. ١٥٥ د . ويوضح افلاطون بالقصة التي جاء فيها أن اريس Iris ، رسول الالهة كان ابنا لثاومس Thaumias (التعجب)

(٣) ارستطاليس Met. : ١ ، ٢

مصورة تقسمها الى اقاليم . ان عالم التجارب الانسانية في كليته وتفصيله ، كان موضوع بحثهم العام . وكان عصر التوسع هو الذى أنعش نزعة التفكير المتأصلة على هذا النحو فى العبقريّة الاغريقية ليكون لها نشاطها الفعال . وكانت مليتوس وهى مركز عظيم للتجارة الايونية والمغامرات الاستعمارية ، مسقط رأس الفلسفة الاغريقية (١) . والقلق الذى لحظناه فى ميدان السياسة كان يثور أيضا فى عقول الرجال المفكرين وكان عالما أوسع قد تكشف أمام أنظارهم فراوا العادات التقليدية تتباين بتباين الأحوال المحلية والوقتيّة والقصص القديمة تدحضها التجارب الأوسع نطاقا . ووجد أن ستقولا Scylla وخروبدس Charybdis اللذين جاءا فى الأدوسيا كانتا مجرد ظاهرتين طبيعيتين ، صخرة ودوامة . ولقد فصمت هجرات ذلك العهد ، المتعددة ، عرى الحلقات التى كانت تربط المعتقدات الأولى بمواضع خاصة . ولأول مرة فى تاريخ المدنية البشرية ، سارت الروح العلمية وقد تخلصت من الاشتباك بالمعتقدات الدينية الشعبية .

١٤ - وقد تميزت محاولات أول الفلاسفة المليزيين فى تفسير الكون ، عن أية محاولات سبقتها بمظاهر ثلاثة ، فى المكان الأول ، كانت تحمل ، كغيرها مما خلقتة العبقريّة الهلينية ، طابع الفردية . والعلم الشرقى ، اذا جاز لنا تكريمه بهذه التسمية (٢) ، كان فى معظمه لا ينتمى الى أحد ، اذ كان العمل الحليل الذى تتوارثه وتستحوذ عليه طبقة أو طائفة (٣) . ولكن ناليس وأنا كسيماندر Anaximander واناكسيمانس Anaximenes أول فلاسفة مليطوس فى القرن السادس يبرزون كشخصيات ولكل منهم ما أضافه

(١) كانت مليتوس على اتصال بمدينة بلاد ما بين النهرين بالطريق العظيم الذى يسير من ساحل ايجا شرقا عبر آسيا الصغرى وجمصر بالمستعمرة الملزية التى أنشئت حديثا فى نوكراتيس .

(٢) ان العلم الشرقى جدير بكل تكريم . لقد أخذ فلاسفة اليونان معظم أصول علومهم عن مصر القديمة . ويمكن الرجوع الى ما جاء فى هامش صفحتى ٣٦ ، ٣٧ عن الطب فى مصر القديمة ، على سبيل المثال . (المترجم)

(٣) راجع بورنت Burnet « الفلسفة الاغريقية الأولى » الصفحات ١٨ وما بعدها . وكما أوضحنا فى الفصل السابق ، لم يكن الأنبياء العبريون بأية حال مفكرين علميين . وتنسحب الملاحظة التى جاءت فى النص على الرجال الحكماء فى مصر وبابل وكذلك على مؤرخى الحوليات وواضعى مدونة القانون بين العبريين . حتى النبوة أصبحت لا تنسب الى أحد عندما أصبحت تأملية مثلما جاء فى اشعياء ٤٠ - ٦٦ بينما صارت أسفار الرؤيا ، التى جاءت بعد ذلك اما غير منسوبة الى أحد أو مرتبطة بمعلمين سابقين (مثل نوح) انظر ما سلف ذكره فى الفصل ٣ فقرة ١١ ، التذكرة . والفقرة ١٥ ، التذكرة .

اضافة متميزة الى تقدم الفكر (١) . وعلى شاكلة افلاطون وارسطاليس فى زمن لاحق ، أسسوا مدارس ولكن التقليد فى مجموعه كان مؤسسا على العمل الخلاق للأفراد المفكرين ، أولئك الذين بقيت أسماؤهم والذين كانت شخصيتهم تسيطر فى تزايد تدرجى ، على منهاج التقدم العقلى . وفى الموضع الثانى ، كان أسلوبهم علميا على أتم وجه وكانت الملاحظة يتسع نطاقها بالتجربة (٢) . وينيرها الفرض . ولو أن مدى الوقائع التى يمكن الوصول إليها كان محدودا وكذلك وسائل البحث فإن هدفهم كان الكشف عن مبادئ لها ارتباط بالضرورة ، بين مختلف المظاهر المتغيرة . « لا شىء يمكن أن ينبعث من لا شىء » - « لا شىء يحدث لغير شىء ولكن كل شىء يحدث عن سبب وضرورة » (٣) . وعلى غير شبهه بالفلكيين الكلدانيين الذين اقتصرنا على استخدام رصيدهم من الوقائع التى حصلوا عليها بالملاحظة لتكون أساسا لتفسيرات خيالية فان المفكرين الاغريق ووطنوا أنفسهم على فهم العالم كعالم له قانون عقلى ، بمذهب ووحدة تكوين . وقد تابعوا هذا المنهاج فى ثقة وشجاعة لا يحدان وأظهروا عبقرية نادرة فى الفرض العلمى وفى النهج المنطقى على السواء . ويكتب الأستاذ بورنت « لا يكاد الفيلسوف الايونى يستوعب بضع نظريات هندسية ويسمع أن مظاهر السموات تعود للحدوث فى دورات ، حتى يتهدى للعمل فى البحث عن قانون فى كل مكان فى الطبيعة وفى جسارة تكاد تصل الى خطيئة hubris ليقيم مذهبها ينتظم الكون » . وعلى هذا ، تمكنوا من ان يكشفوا فى مدى قرنين أو ثلاثة قرن النظرية الحقيقية للكسوف وكروية الأرض وحقيقة دورانها كغيرها من الكواكب السيارة ، حول مركز نظامها (٤) . هذه هى الثمرات الأولى التى جنتها روح اتخذت لنفسها كلمتى المرور « الاحتفاظ بالظواهر » و « اقامة الدليل » . وثالثا ، تتجلى عبقرية الفلاسفة الاغريق العلمية فى تصورهم الواضح للمشاكل التى عنوا بحلها وبعد أن رفضوا نهائيا السعى الذى لا ثمرة فيه ليروا بداية الكون الأولى فى فوضى أول عصر والذي كان قد أنهك فى اليونان كما فى غيرها مهارة الأجيال السابقة ، فانهم التمسوا الحقيقة التى تكمن وراء ما هو كائن . وكانوا

(١) عاش ثاليس حوالى عام ٥٨٥ و أناكسىماندر حوالى عام ٥٦٥ و أناكسىمانس حوالى ٥٥٠ - ٥٤٥ .

(٢) وازن ملاحظة أناكسىماندر على علم الأحياء البحرى وتجربة أنبادقليس Empedocles على الساعة المائية ليبرهن على أن الهواء جسم مادى : بورنت « الفلسفة الاغريقية الأولى » صفحة ٧١ و ٢٢٩

(٣) فارمنيدس Afr.-Parmenides ٨ و أنبادقليس ١٢ ولوسيبوس Leucippus (بورنت : الفلسفة الاغريقية الأولى صفحة ٣٤٠) . وقد أشير الى الأجزاء وفق الترقيم فى الترجمات التى وضعها بورنت .

(٤) الفلسفة الاغريقية الأولى ، صفحة ٢٣ و ٢٥

يتساءلون ما هي حقيقة العالم الأساسية كما نعرفه الآن؟ والرغبة في إيجاد وحدة ومبدأ في متنوع أشكال الطبيعة التي لا تستقر على حال، اتخذت شكل بحث عن مادة أولية تبقى ثابتة وسط التغير، عن مادة فعالة توجد الطاقة، وتولد حركاتها التي تحددت وفق قانون ضروري ظواهر تجارب الحواس - ولقد كانت هذه المادة الأولية التي يطلقون عليها اسم فيسس *physis* (الطبيعة) موضوع بحثهم وعنوان عجالاتهم (١) . وقد اعتقد ناليس أنها الماء، ووجدما غيره في البخار أو في النار أو في تآلف أو توافق أصول متضادة . واختلفوا أيضا في تفسيراتهم للنسق الذي ينهض به عالمنا من هذه الحقيقة القصوى . ولكنهم جميعا على السواء يبدأون من وقائع مشاهدة ويتقدمون بالاستدلال المنطقي صوب تصور كون منظم، فيه بفعل قانون الضرورة، يولد «الواحد» «الكثير» وتنقسم تفصيلات «الكثير» في «الواحد» (٢) .

١٥ - وليس في وسعنا أن نفعل أكثر من تبيان منحى هذه الأفكار الأولى لتوضح كيف أنها تقدم تابعا منظما للتفكير العلمي :

(أ) أدت أول جهود المفكرين الايونيين التي المعنى اليها في القسم السابق، في بداية القرن الخامس، الى فلسفة هيرقليطس *Heraclitus*

(١) ان ترجمة فيسس *physis* بلفظ (طبيعة) قد يكون مضللا اذ ينقل الانتباه من النهج النسقي الى الأصل . ان *physis* هو لفظ يدل دائما على (اسم فعل) معناه نهج نسقي كنمو نبات .

(٢) لقد استمدت المعرفة بهؤلاء المفكرين الأوائل من أجزاء متناثرة من كتاباتهم ومن اشارات جاءت في مصنفات المؤلفين الاغريق المتأخرين . وناليس وحده هو الذي لم يترك كتابة بعده . وقد ذهب أناكسيماندر، خالفه، الى أن الفيسس *physis* هي جوهر مادي لا حد له تحوى وهي ممتزجة كل الأصول المتعارضة (الرطب والجاف والبارد والبارد) فصلت عن الجرم الذي لا حد له بنهج غريبة . نسقي وبذلك سبب قيام عوالم لا عد لها، ومن بينها عالمنا . وكان أناكسيماندر أول من أدرك أن الأرض تسير طليقة في الفضاء وليست في حاجة الى سند مادي . وكان أساس الطب الاعريقي الأول (القمايون *Alcamaeon* انظر ما يلي صفحة ١٢٥ ، تذكره ٢) يقوم على نقائص أناكسيماندر . وتصوروا الصحة على أنها *isonomy* أو متعادلة مع الحار والبارد والرطب والجاف - وكان المرض طغيان أحد الأضداد على الآخر . أما أناكسيمانس وهو ثالث الفلاسفة المليونيين من حيث الزمن فكان يذهب الى أن فيسس *physis* هي البخار الذي ينهض منه عالمنا بالتكثيف والتنقية . وعن معلومات مفصلة عن هؤلاء وغيرهم من المفكرين الأوائل، انظر بورنت الفلسفة الاغريقية الأولى، و « من ناليس الى افلاطون » .

الافسوسى Ephesus (١) • الذى كان مبدؤه الرئيسى أن حياة الطبيعة كانت تتألف من نضال قوى متعارضة والواحدة فى توتر مع الأخرى ، وتكون فى عملها المتبادل وحدة العالم المنسجمة • والنار وهى أعظم العناصر نشاطا تتحول الى هواء وتغذيها الرطوبة فى معايير متعادلة والصيف والشتاء واليقظة والنوم والنهار والليل والحياة والموت كلها تمثل الصراع العام الذى لا ينقطع بين « الطريق الصاعد » ، والطريق الهابط » • « ان الحرب هو أب الكل ملك الكل » « ان الطريق الصاعد والطريق الهابط واحد ونفس الأمر » • « ان الناس لا يعلمون كيف أن ما يختلف مع نفسه ، يتفق مع نفسه • انه توفيق لنعم توترات متضادة كالذى يكون لقوس وكناية » • وقد أدرك هيرقليطس أن قانون الطبيعة هو قانونٌ تغير لا ينقطع وأن العالم كما يظهر للحواس هو أبداً فى حالة صيرورة وزوال ولا يكون فى أى مكان « موجودا » وليس شئ ، يمكن أن نقول عنه فى أى مكان « انه كائن » • وقد قال « انك لا نستطيع بأن نخطو فى نفس النهر مرتين » وأضاف واحد من أتباعه « لا ، ولا حتى مرة واحدة » • ونتائج هذا الفكر عن السيل الذى لا ينقطع فى عالم - الحس ظاهره ، كما سنرى فيما بعد ، فى فلسفة أفلاطون •

«ب» وفى نفس الوقت الذى حدث فيه هذا التقدم بين الايونيين الاغريق ، كان الحافظ للبحث العلمى بثور فى الغرب • (أ) فى القرن السادس كان فيثاغورس وأتباعه فى جنوب ايطاليا قد أسسوا دراسة الرياضيات فى ميدان الهندسة البحتة وكذلك فى تطبيق الرياضيات على فروع العلم الأخرى وخاصة على نظرية الأصوات الموسيقية وعلى الفلسفة على وجه عام (٢) .

(١) عاش هيرقليطس بين عامى ٥٠٠ و ٤٨٠ وقصد تائر أيضا بالعلم الفيثاغورى الأول • والافتباسات التى تلى مأخوذة من الشذرات ٤٤ و ٦٩ و ٤٥ و ٤١ (وازن ٨١) •

(٢) عاش فيثاغورس حوالى سنة ٥٣٠ وكان موطنه ساموس الايونية واستقر فى ايطاليا • وقليل هو الذى يعرف عن حياته أو عن تعليمه الشخصى مستقلا عن تعليم مدرسته • وقد جمع الفيثاغوريون بين البحث العلمى ومبنا للحياة دبنى ، وقاموا بدور فعال فى سياسة جنوب ايطاليا • ومنذ هذا الحين لا تكون الفلسفة الاغريقية أبدا ذات نزعة عقلية وحسب • انها توجه التجربة praxis والنظرية theoria على السواء • واستمرت المدرسة فى عملها حتى ربح عظيم من الزمن فى القرن الرابع • وعلى النقيض من الفلاسفة الاغريق الشرقيين كانت أبحاثهم يغلب أن تكون رياضية • راجع سر • ت • هيث Sir. T. Heath « تاريخ الرياضيات الاغريقية » خاصة الصفحات ٢٠٢ :

ومبدؤهم « أن الأشياء هي أعداد » لم يكن تمثيلا خياليا ولكن النتيجة الاستدلالية التي وصل اليها مفكرون وجدوا أنفسهم في تحليلهم للتجارب يواجهون في كل منعطف قوانين تسمح بوضع صيغ رياضية . ولقد كانوا يتحسسون طريقهم نحو مذهب يشبه مذهب ديكارت Descartes الذي قرر حقيقة الكون المادى ، المستقلة في حدود خواصه الهندسية كامتداد له شكله الهندسى . وهذا ، على التحقيق كان الموقف الذى اتخذه أفلاطون في طيمايوس Timaeus تحت تأثير سلفه الفيثاغوريين (١) . (ب) ومدرسة فكر أخرى ، الاليائية ، التى أسسها فارمنيدس Parmenides الاليائي كان موطنها أيضا جنوب ايطاليا (٢) . وقد كشف فارمنيدس فى منطق قويم عن النتائج التى تستتبع الفروض التى كان المفكرون السابقون قد قبلوها دون نقاش . وقد كان الكل يسلمون فرضا ليس فقط أن الطبيعة physis أو الحقيقة كانت واحدة ولكنها كانت أيضا مادية . وعلاوة على هذا ، فإن الجميع كانوا يتصورون أن هذا الجسم الواحد مستحوذ على حركة ملازمة وبذلك استمد منها ظواهر التجربة وفيرة العدد . ولقد أوضح فارمنيدس أنه اذا كان الواقع واحدا وماديا فان الكثرة والحركة على السواء خدعة .

= و١٦٦ وما بعدها حيث جاء تلخيص لأعمال الفيثاغوريين الرياضية (وتشمل اقليد الكتب ١ و٢ و٤ و٦ وربما ٣) .

(١) كان الفيثاغوريون يفسرون الأعداد فى حدود الهندسة وكانت الوحدة نقطة لها موضع فى مجال فراغى ومن هنا وجد التعبير أشكال (رياضية) . راجع بورنت « الفلسفة الاغريقية الأولى » الصفحات ٩٩ وما بعدها و « ثاليس الى أفلاطون » الصفحات ٥١ وما بعدها . وبين بورنت كيف أثر الكشف بأن أنغام الكنارة تعتمد على نسب رياضية ، على التفكير الرياضى . وقد حفز العلم الفيثاغورى أيضا على دراسة الطب والفصاحة فى جنوبى ايطاليا وصقلية . وعلى هذا فان أهميته كانت عظيمة جدا . والرأى أن العالم المادى يتكون من عناصر فراغية (أو فراغية زمنية) وأن طبيعته يمكن تفسيرها فى حدود معادلات رياضية ، له مكانته البارزة فى علم الطبيعة والفلسفة المعاصرين . ويفسر أحدث مذهب ميتافزيقى (علم ما وراء الطبيعة) فى هذا القطر (انجلترا) مذهب الأستاذ س . الكسندر S. Alexander (الفراغ والزمن والاله - محاضرات جفورد Gifford فى جلاسجو ١٩١٦-١٩١٨) الكون بأنه تولد من عناصر زمنية - فراغية خالصة أى لحظات - نقطة . ان دراسات الفيثاغوريين العلمية أو صلتهم ، فى فجر التقدم العلمى ذاته ، الى تصورات أنتجت ثمرا خارقة العادة .

(٢) عاش فارمنيدس بين عامى ٤٨٠ - ٤٥٠ وحوالى التاريخ الأخير زار أثينا ، راجع أفلاطون Parm. ١٢٧ . وقد ورد فى النص ، رأى بورنت عن مكانته فى الفلسفة الاغريقية .

وقد قبل هذا الدحض لواقعية عالم الحواس المتغير ولكن منطقته أقام في الحقيقة البرهان على قياس الخلف *reductio ad absurdum* (١) على الفروض المقبولة . ومن الآن ضحى جميع المفكرين بوحدة الطبيعة واحتفظوا بإيمانهم بالعقيدة الفارمنيدية الأخرى ، بأن الواقع كان من طبيعة الجسم (٢)

(٣) ونتيجة لفلسفة فارمنيدس ، قام في منتصف القرن الخامس عدد من مذاهب الكثرة . ان انبادقليس Empedocles من أغريغنطوم Agrigentum في صقلية و أناكساغوراس Anaxagoras من اقلزومنا Clazomenae في آسيا (أول فيلسوف يتخذ أثينا موطناً له) ، ولوسيبوس Leucippus من مليطوس (معلم دموقريطس ومؤسس مدرسة الذرة) ، كلهم يتفقون مع الفيثاغوريين في اتخاذ موقفين ، الرأي التقليدي بأن الواقع مادي ، والرأي الجديد الذي ساقهم اليه فارمنيدس بأنه ليس واحداً ولكن كثرة (٣) . ثم

(١) قياس الخلف *reductio ad absurdum* = قياس أساسه البرهنة على صحة المطلوب بإبطال نقيضه أو فساد المطلوب باثبات نقيضه .
(المترجم)

(٢) ان نقائض زينون Zeno ذائعة الصيت مثل نقيضة أخلوس والسلفهة ، قدمت دعماً لانكار أستناذه فارمنيدس للحركة . وبالطبع كانت توجد طريقة أخرى لأجروج من المأزق بالتمسك بالقول ان الواقع واحد ولكن الوحدة كانت روحية وليست مادية . وقد ظهر هذا الرأي أول ما ظهر عند سقراط وأفلاطون راجع فصل ٥ - ١٧ و ٢٠ .

(٣) عاش أنبادقليس حوالي عام ٤٦٠ وعاش أناكساغوراس ولوسيبوس حوالي ٤٥٠ ، أما دموقريطس فانه ينتمي الى الجيل التالي وتأثر بالسفسطائيين ويمكن الرجوع الى الفصل ٥ ، ١٣-١٥ عنهم . لقد كان منتصف القرن الخامس زمن نشاط عظيم خالق في الفكر الاغريقي ويجب أن يلاحظ أيضاً أنه أصبح للعلوم التي تتصل بعلم الحياة أهمية متزايدة في غضون القرن الخامس . ولقد أُنعمت أيضاً مدارس الطب وهي ترتبط ، في البداية ، ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة كمدرسة القمايون القروطوني Alcmaeon of Croton ، في جنوب إيطاليا ، الذي خصص عمله للجماعة الفيثاغورية . ولكن بعد ذلك استقلت عنها كما في حالة مدرسة أبقراط في القرن الخامس ، في جزيرة قوس . ولقد كان القمايون المؤسس الحقيقي لعلم النفس « راجع عن هذا وعلى وجه عام عن علم النفس الاغريقي الباكر ، والنظريات الاغريقية عن المعرفة الأولية (بير Beare) وتاريخ علم النفس (برت Brett) وعلى الأخص الصفحات ٢٤ ، ٢٥ وفصل ٥ » ويستبين من النحت الاغريقي اللاحق (مدرسة فرغامس Pergamos) شىء من المعرفة بعلم التشريح راجع بورنت ، الفلسفة الاغريقية الأولى ، الصفحات ٢٦ و ١٩٣ وما بعدها .

الشمس أنبادقليس وأناكساغوراس بعد ذلك سبب الحركة ، ووجدها الأخير في النوس nous أو الذهن (١) . ولو أنه فسر فعله آليا ، كفعل عامل طبيعي خارجي (٢) . وقد لحص منهاج التقدم التفكيرى بأجمعه ، الذريون الذين كانوا أول من أكد واقعية الفضاء الفراغ وأرجعوا الكون الى مجموعات من الذرات التي لا عد لها ، متجانسة ولكن تختلف فقط في الجرم والشكل والموضع . تسرع في الفضاء اللانهائى في حركة لا تنقطع (٣) . وبإذاعة هذا المذهب فان الجهد لتصور العالم فى حدود عناصره المادية أنجز سبيله الى التمام .

١٦ - وكان من الطبيعي تماما أن المشكلات التى تتعلق بطبيعة الواقع عما اذا كان واحدا أو كثرة ، يجب أن يجيب عنها هؤلاء الفلاسفة الأوائل فى حدود الطبيعة . وكانوا يعنون بلفظ Physis اما جسما واحدا واما كثرة من الجسوم ، وفى الحالة الأخيرة تكون الجسوم اما محدودة واما غير محدودة العدد وتختلف فى نوعها أو تتجانس . وكان لابد أن يجيء وقت تنهض فيه فكرة واقع روجى ، فى عقل المفكرين الاغريق ، ولكن لم تكن الساعة قد حازت بعد لهذا وتظهر كل مرحلة للفلسفة الاغريقية متعاقبة فى نظام التقدم المنطقى اطاعة لقانون لم تفرضه ظروف خارجية ولكن طبيعة العقل الانسانى الملائمة . ويجب ألا نظن أن هؤلاء الباحثين الطبيعيين كانوا يتجاهلون وقائع حياة الانسان العقلية والخلقية . والتميز ، وهو جد مألوف ومع هذا فانه جد محير للفكر المعاصر ، بين المادى والروحي لم يكن حتى ذلك الحين قد تحددت معالمه . فعلى سبيل المثال ، ذهب أناكسيمانس الملىطى الى أن الروح هو بخار (٤) . وتسمية هذا مادية بالمعنى الحديث يكون أقل صدقا من القول ان

(١) مذهب الكثرة - يقابل الواحدية ويعتمد فى تفسير الكون على مبادئ متعددة كعناصر (أنبادقليس) ومونادات (ليبنتز) .

(٢) عن عدم رضاء سقراط عن تصور الذهن كقوة آلية (ميكانيكية) واستبعاد العمل الذى توفر فيه الغرض ، راجع البيان الهام عن تاريخه العقلى الباكر فى أفلاطون فايدو Phaedo الصفحات ٩٦ وما بعدها .

(٣) كتب دموقريطس من أبدرا فى طراقية ، خليفة لوسيبوس والأبعد منه صيتا ، فى الثلث الأخير من القرن الخامس عندما كانت آراء السفسطائيين الجدد التى تثير مسائل عن نظرية المعرفة وقواعد السلوك قد ملأت الاتفاق . ان مذهب الذرة لأبيقور (راجع فصل ٦ - ١٨) مؤسس على مذهب دموقريطس .

(٤) كان « هواء » أناكسيمانس يشتمل على « نسمة » الحياة والريح والبخار .

بخاره كان شيئاً ليس مجرد مادة • ومرة أخرى ، تحدث هيرقليطس عن نار توقع الجرم بكل شيء وعن الشمس تراعى حدود العدالة (١) • بينما الحبيب والكفاح وهما القوتان المحركتان عند أنبادقليس كانا يصوران كتلتين ماديتين ونوس nous «عقل» عند أناكساغوراس على أنه يملأ الفراغ، ولكن لم يكن إلا بعد انقضاء شطر عظيم من القرن الحامس أن تفكير الناس ومسلكتهم استرعى نفس الانتباه الذي كان يوجه الى مشكلات الطبيعة المادية • ثم جاء في البداية السؤال : بما أن الموازين الخلقية والمعتقدات الدينية وقوانين ومنظمات دولة - المدينة تقدم ، كالطبيعة المادية ، مشهدا من عدم الاستقرار والتغير ، فهل هي ، نتيجة لهذا ، ذات قيمة محلية وعابرة فقط و « أوضاع » أقامتها بصفة مصطنعة ، قوانين وضعها الانسان ؟ أو هل يوجد ثم فيسس physis أو خلق أدبي طبيعي • ثم قانون لا يتغير ، من وضع الله أو الانسان تكون الأوضاع المتغيرة هي شكلها العابر • كان لا معدى عن مثل هذه الأسئلة في زمن سادة القلق السياسى عندما كان قد قوم أذهان الناس أكثر من قرن من البحث العقلي • ولقد سألهم اغريق الأعوام الوسطى من القرن الخامس ويمجرد أن تلقوا السؤال فانهم أنجبوا ، كما سنرى فى فصل نال ، ليس فقط الفلسفة السياسية والخلقية ولكن تصورا فسيح المجال ، جديدا عن طبيعة الواقع ومكان الانسان ومصيره فى الكون •

١٧ - ويبقى علينا أن نشير الى الرابطة المزدوجة للعداوة والامتزاج بين الفلسفة حديثة المولد والدين القديم (٢) • فمن جهة كان من شأن توسع مجال

(١) شذرة ٢٧ وازن شذرة ٢٩ • « أن الشمس لا تتخطى حدودها ، فاذا فعلت فان الارينوس Erinyes ، خدمة العدالة سيكشفن أمرها • وعلى هذا ، فان الأشياء عند أناكسيماندر تقوم بالتعويض والترضية ، الواحد نحو الآخر ، لجورها فى مرحلة من الزمن ، (بورنت - الفلسفة الاغريقية الباكورة ص ٥٢) •

(٢) وفقا لغرضنا من تركيز الانتباه على تلك العوامل التى كان لها أعظم تأثير مباشر على الأزمنة اللاحقة ، فقد أهملنا موضوع الدين الاغريقى الشيق الا فيما كان له من أثر على تاريخ الفلسفة الاغريقية • ولقد أقتت البحوث الحديثة الكثير من الضوء على هذا الموضوع وهو ذو أهمية ليس فقط لفهم الشعر الاغريقى والقانون والحياة اليومية ولكن أيضا بالطبع ، لدراسة الأديان الأولى ، دراسة موازنة • وثمة مسألة لها أهمية خاصة لقراء هذا الكتاب هى التفرقة بين الآلهة الأومبية الذين يمثلهم أبولو وآلهة الأسرار الذين يمثلهم ديونوسيوس ، وكان الأولون كائنات فوق مستوى البشر أضيفت عليهم الصفات المثالية ومتعالين تعاليا بعيدا وكان يعسر تصور أى شيء له خصيصة الاتصال الروحى الشخصى معهم • أما الآخرون فكان يمكن ، لمن تلقن أسرارهم ، الاتصال بهم اتصالا مباشرا ، فى حالة الجذب =

الاختبار بين الناس ونمو المزاج النقدي ويقظة المطامح الخلقية العليا. بعث مذهب التشكك (الارتياب) ولكن هذا التأثير كان ينحصر في الأقلية الذين كانوا يفكرون في جد في مثل هذه المسائل أو على الأغلب في الجمهور المثقف . وكان يمكن لاناكساغوراس أن يعلن أن الشمس ليست الها ولكنها حجر ببلغ حجمه حجم بلوبونيس ، وكان الأثيني في القرن الخامس يحس بارتياح لاختلاصه وحكم على الفيلسوف بالزندقة (عدم التقى) وكان مرجع هذه العداوة ليس الى مج للتفكير ولكن لولاء متأصل لعبادات المدينة ، التقليدية .

وكان هذا ، السبب الأصلي لعدم الثقة في العلم والفلسفة التي عبر عنها تعبيرا رائعا في تهكم مسلاة (كوميديا) أتیکا القديمة . وكانت إحدى الاتهامات التي وجهها الى سقراط متهموه تهمة ادخال آلهة جدد وتعليم الناس أن يكفروا بالآلهة الذين كانت تعبدهم المدينة . وكان أمرا ذا مغزى عظيم في الحياة الاغريقية أن المعارضة ضد الفلسفة ، كان لا يتزعمها الكهنة ، ولكن الشعراء والسياسيون . وكان الفلاسفة من جانبهم يشددون النكير دون هوادة ، على المعتقدات التقليدية . وخاصة في ايونيا موطن العلم والتاريخ حيث كون الأمراء التجار جمهورا مثقفا ، كان ذيوع روح التشكك سريعا وعمما . وكتب اكسنوفانس Xenophanes القلوفوني (Colophon) « لقد نسب هومر وهزيبود الى الآلهة كل الأمور التي تكون عارا وخزيا بين الناس ، السرقات والغسق وخساع الواحد للآخر » ولقد قال هيرقليطس « يجب أن يطرد من القوائم ويجلد بالسياط هومر وكذلك أرخيلوخس Archilochus . ولقد أشار أفلاطون في الجمهورية الى أن النزاع بين الشعر والفلسفة ظل دهورا طويلا ، وكان لا يعنى نزاعا بين الفن والمعرفة ، لأن هذين ليس لهما مجال للصراع ولكن بين الدعاوى المتنافسة ، للتقليد الدينى والعقل العلمى ، فى تعليم الحق (١) .

١٨ - وفي موضوع علاقة العلم الجديد بعقائد دولة - المدينة المتأصلة كانت

= العاطفى وعن طريق طعام وشراب الفروض المقدسة . ولقد قدمت ديانات - الأسرار موادا للفلاسفة (راجع ما يلى § ١٧ وفصل § ٢١) . أما دين الألومبيين فقد أثار العداوة وحسب راجع محاضرات جفورد لوب (C.C.J. Webb) عن « الشخصية البشرية والالهية » ١ ، ٧٧ وما بعدها ويجب قراءة « مولد المأساة » لنييتشه Nietzsche - راجع أيضا « خمس مراحل للدين الاغريقى » لجلبرت مرى ومؤلفات أخرى ذكرت فى قائمة الكتب الملحقه بالمجلد الثانى من هذا الكتاب .

(١) أفلاطون « الجمهورية » : ١٠ ، ٦٠٧ واكسنوفانس ، شذرة : ١١

وهيرق ، شذرة : ١١٩ وازن شذرة : ١٦ و٣٥ و٤٣ .

توجد من البداية نتيجة واضحة . وكانت الحال مختلفة وأقل بساطة فيما يتعلق بموجة احياء الدين الشعبي البدائي التي اجتاحت اليونان في القرن السادس . ووراء عبادة الالهة الألومبية التي رعاها الشعراء الهومرون. وأرستقراطية العصور المظلمة ، ربما كان ما يزال راسخا في أذهان جمهرة الشعب قدر من المعتقدات القديمة ، ربما تكون ما تبقى من الدين المينوى السابق لقيام الهلينية (١) . وهذه المعتقدات البدائية التي تظهر آثار منها في القصائد الهزبوية وحتى في القصائد الهومرية كانت ترتبط بعبادة الموتى وباللهة العالم السفلي وخاصة بتجسد الاله غير الهومري ديونوسوس . وديونوسوس وأورفيوس كانا كلاهما يرتبطان ارتباطا وثيقا بطراقيا . ولقد لقيتا اعترافا رسميا في الفرائض التألهية لاليوسس Eleusis في أطيقا التي كانت تتكون من ضروب التمثيل الفاجعي للحوادث المقدسة والاحتفالات الأساسية لتطهير روح المعابد من الذنوب . والتطهير كان جوهر النهضة التي حدثت في القرن السادس . ويظهر الأنبياء ومطهرو المدن مثل افيماينيدس Epimenides الكريتي - الذي استدعى لتطهير أثينا - في العالم الهليني ، وكذلك تظهر جمعيات الأخوان المنظمة التي تماثل الكنائس ومنعزلة عن وشائج القرابة ودولة - المدينة ، وهي التي أقامت أساس العبادات المقررة . وكانت لديهم كتابات شعرية مقدسة منسوبة الى أورفيوس البطل الأسطوري وتحسوى مبادئ معينة لعلم اللاهوت ، وخاصة فيما يتصل بمصير الروح في عالم ما بعد القبر ، وكانت جمعيات الاخوان الأرفية تذيب التعليم عن وجود للروح سابق وعن خلودها الملازم بسبب قرابتها للالهة وتجسدها المتعاقب في أشكال الناس والحيوان البدنية وتطهيرها من الذنوب باتخاذ الجذب مع الاله (٢) ، وكانت تقدم

(١) ربما كان الغزاة الشماليون (الأخائيون) هم الذين أدخلوا عبادة أبولو والدين الألومبي ، على وجه عام ولو أن العبادة الجديدة قد تغير مظهرها بتمثيل معتقدات الشعوب الايجية ، الأقدم منها . ويمكن تفسير الارتباط الوثيق بين طغاة القرن السادس والانتعاش الديني ونشأة الفاجعة (الدراما) الباكورة (التي اتصل قيامها بعبادة ديونوسوس) ، اذا اعتجرنا أن سلطانهم كان سلطان الرأسماليين الأثرياء الذي يعتمد على التعضيد الشعبي ضد الأرستقراطية الاقطاعية وكان هؤلاء ، بطبيعة الحال ، يرتبطون بالعبادات الدينية الألومبية ، التقليدية .

(٢) يعتمد الاعتقاد في الخلود على الاعتقاد بقرابة الانسان بالله ، ولا يمكن الوصول الى الخلود الا بأن يصير المرء الها . وفي التعليم الأورفي تنصور الروح بأنها اله هوى ويمكن اطلاق سراحها من سجن الجسد بالتطهير والفرائض المقدسة (الجذب - ecstasy - وبال يونانية ecstasis معناه «الخروج» عن الجسد) وتستعيد ألوهيتها (راجع بورنت ، الفلسفة الاغريقية الأولى =

للناشئين الرجاء فى نعيم أبدى وفى هذه الحياة تعاني الروح الحبس ، والجسم هو قبرها ، وعن طريق سلسلة من الحلول فى الأجساد تنجز دورة مصيرها . وعمليا ، كان يبشر بهذه المبادئ، وتقبل فى شكل مادى غليظ ، فكان التطهير يعنى مراعاة محرقات غريبة واحتفالات سطحية ، والحياة الأخرى فردوس للاستمتاع الحسى - وفى عبارة التحقير لأفلاطون - «نشوة سكر أبدية»^{١١} . ومع هذا فقد كانت الآراء التى تتأصل فى التعليم الأورفى خليقة بتفسير أعلى . لقد استخدمها شعراء مثل فنندار وأسخولس فى الجهد الذى بذلوه للتوفيق بين السلطة الدينية ومطالب الوعى الخلقى فى زمنهم ، الأكثر سموا^(٢) . و «فايدو» لأفلاطون هو أثر تذكارى لا يفنى للاستجابة التى كان يمكنهم اثارها من الفلسفة . وفى هذا ، وفى غيره من كتاباته ، فان نفس المفكر الذى صب جام غضبه على صانعى الغفران وأشسياع صنوف الأسرار الخرافية ، حول المبادئ الأورفية عن حبس الروح فى الجسد وعن سابق وجودها وعن خلودها وعن دينونتها فى عالم آخر الى أداة لأسمى تعليم

= فصل ٢ الصفحات ٨٠ - ٤) . أما فى الدين الهومرى (الأومبى) ، فان الآلهة والناس طبقتان من الكائنات مختلفتان ، ولا يمكن أن يصبح أى انسان الها وعلى ذلك ، فلا يوجد خلود لبنى الانسان . فقط قلة من المحظوظين ، كان يحملهم الآلهة الى الوميس أثناء حياتهم وام يكن يحمل أحد بعد الموت . ويعتقد هز يود أن الأبطال يمكنهم الذهاب عند الموت الى الومسيوم Elysium بدلا من الجحيم Hades . وكان الأمر جد مغاير فى الدين البدائى وفى نهضته فى القرن السادس . ويجب أن يلاحظ أن اعتقاد الاغريق فى الخلود استخدم موادا استمدت من الدين البدائى بينما نهض اعتقاد العبريين فيه فى استقلال تام عنه . راجع عليه فصل ٣ § ١٥ صفحة ٩٧ تذكرة . وعلى هذا فان تصور الاغريق ، على غير شاكلة تصور العبريين كان يدل على وجود سابق أى الخلود es parte ante كما es parte post راجع عن الموضوع كله « المذهب الأورفى Orphism» لجورنى Guthrie

(١) راجع النص بأجمعه عن تذييد الأسرار والتعليم الأورفى (الجمهورية: ٢ ، ٣٦٣ وما بعدها) .

(٢) راجع فنندار « الومب » : ٢ ، ٦٢ وما بعدها و « شذرات » : ١٢٩ - ٣٣ وأسخولس ، أما : ٢٦٩ وما بعدها « الدينونة بعد الموت » وبخا Bacchac لأريفيديس - احدى أخريات رواياته (شقيقة على الاخص لاجل المسائل التى تديرها) .

دينى ومتافيزيقى (١) . وهنا كان أفلاطون يقتفى الخطوات الفيثاغورية (٢) . وكانت أبحاث هذه المدرسة العلمية ترتبط ارتباطا وثيقا بعقائدهم الدينية ومذهب الزهد الذى اتخذوه قاعدة الحياة . وكان فيثاغورس نفسه قد وضع المثل لهذا الامتزاج وهو يعلم أن العلم كان التطهير الحق للروح وأن الخلاص يمكن ادراكه بالتنشئة فى خفایاه . ومنذ ذلك الوقت كانت الفلسفة تعنى للمفكر الاغريقى « مذهباً للحياة » - (٣) . والفيلسوف فى نظر الفيثاغوريين وفى نظر أفلاطون ، كان قديس المذهب العقل وفى اجتماع الحديث الفلسفى Symposium فان العقيدة الأورفية فى اتحاد المتعبد مع الهه عن طريق الجذب تصاغ فى حدس عقلى للجمال المطلق وهو منتهى الطواف الشساق تصعيدا فى سلسلة جبال الاستدلال العلمى (٤) . وسنرى ثمرات أخرى لهذا التصور عندما يحين الوقت للتحدث عن الأفلاطونية الحديثة فى القرون الأولى من العهد المسيحى . ومن نفس المصدر الفيثاغورى فاض التمييز ، الذى استمد عن طريق التشبيه من الألعاب الهلينية ، لثلاثة ضروب من الحياة الانسانية ، فالبعض كأولئك الذين يفتشون تلك الاحتفالات لبيع سلعهم اختاروا سبيل الرضى المادى سبيل الكسب وأسباب المتعة وآخرون كاللاعبين المتنافسين يطمحون لنيل التكريم فى ميدان العمل ، فى السياحة أو الحرب بينما يوجد أولئك الذين يؤثرون ، على مثال المتفرجين فى الألعاب ، حياة المتفرج يتأملون بعقل لا تعيقه ميول بيت سجنه الجسدى ، مرأى الحق الكامل ، وتصور التأمل العقلى (thecrio) هذا ، كأرفع نشاط انسانى قريب لما هو الهى ، ذاك الذى أدركه أولا الفيثاغوريون ونماه أفلاطون وأرسطو يأتى بنا الى صميم العبقرية الهلينية عينه .

٦ - الخاتمة

١٩ - ان نسق التوسع الذى دون فى هذا الفصل يوضح صفة الهلينية العقلية . يوجد منطق ملازم فى كل ما خلقه الاغريق . ونظرة الى فنهم المعمارى والمناهج التام بالصوغ والوظيفة والتوازن الرياضى تكفى لأن توضح

(١) وخاصة فى الأساطير التى تتصل بالأمر الأخرى فى Phaedrus Republic, Phaedo, Gorgias راجع « أساطير أفلاطون » لاستewart و « الفكر الدينى فى اليونان » لآدم .

(٢) أهديت Phaedo الى الرابطة الفيثاغورية فى اليونان الأوربية ، لقد عقد سقراط الصلات الوثيقة بعدد من الفيثاغوريين الذين التجأوا الى اليونان بعد نفيهم من ايطاليا فى غضون النصف الأخير من القرن الخامس .

(٣) وازن أفلاطون ، الجمهورية : ١٠ ، ٦٠٠ .

(٤) أفلاطون : ندوة الفلاسفة Sym. : ٢١٠ .

تراث العالم القديم

كيف بعثت الروح العلمية الحياة في الفن التخيلي . والاعتقاد أن « الله يهندس دائما » كان يتحكم في نظرتهم للطبيعة وفي انتاجهم الجمال . والفن لدى الاغريق يعتبر أبدا أحد أشكال الحكمة (Sophia) وليس فقط المفكر الاغريقي ، ولكن الفنان الاغريقي أيضا كانا يملكان الاحساس بالحق الذي أدى بهما الى أن يفرقا في وضوح بين المثالي والواقعي وأن يعطيا كلا منهما حقه . وقد كانا يشعران أيضا بالهام تلك القوة التي خصص لها حياته شاعر من بين الشعراء المعاصرين ، ولج تماما روح اليونان القديمة ، - رؤيا الجمال العقلي (١) . ان الصرامة والصدق هما طابع الفن الاغريقي ، فمثلا عندما يقول هومر «هيلن» فانه يعنى « هيلن » وعندما يقول فرجل « ديدو » فانه يعنى « كليوباترة » أو « قرطاجنة » ويمكن تبين منطوق مماثل في منهاج تقدمهما . لقد رأينا آنفا كيف أن سجلات التاريخ السياسى وأدب الشعر والفكر العلمى تكشف عن تنابع أشكال منتظم (٢) . وما لحظه الفلاسفة الايونيون فى الطبيعة يصدق أيضا على عقل اليونان . ففي كل مكان يوجد تنوع وتغير ، ولا شئ فى استقرار . ولكن التغيرات ولو أنها لا تنقطع وتستغرق كل شئ ، فانه كانت تسير على هدى قانونى عقلى . وطراز يتبع طرازا ومدرسة تقتفى أثر مدرسة فى تعاقب منطقى الى أن ينتهى مدى كل الشكول الممكنة وتكمل دورة التقدم . وكانت خدمة اليونان الأساسية للمدينة أن تخلق فى العمل وتحدد فى الفكر الحاصلات الجهورية فى تجارب الانسان . ان الصيغ التي نستخدمها اليوم للتعبير عن الفروق والتجميعات التي تكون أساس فهمنا للعالم فى السياسة الملكية monarchy والأرستقراطية aristocracy والديموقراطية democracy وفى الأدب - الملحة Epic والقصيدة الغنائية lyric والفاجعة drama والمأساة tragedy والمسلاة comedy وفى المعرفة - أسماء الفنون والعلوم الشعر poetry والطبيعة physics والفلك astronomy والرياضة mathematics والتاريخ history والفلسفة philosophy نفسها ، كلها صيغ اخترعها الاغريق . والشكول التي ميزوها وسموها هكذا هي التي أنشأوها فى سير تاريخ حياتهم . ولا توجد سلالة أدركت فى مثل هذه البصيرة الصافية

(١) راجع شلى Shelley « أنشودة للجمال العقلى » .

(٢) راجع على الأخص دراسة شكول الحكومة السياسية التي تحوى عيوبها ، فى جمهورية أفلاطون الكتابين الثامن والتاسع حيث يعرض النظام المنطقى الذي يعالجها فيه أفلاطون ، أشبهاها كثيرة لمنهاج تطور التاريخ الاغريقي الواقعي .

وحددت فى مثل هذه الدقة ، حقائق الحياة والمعرفة (١) . وبسبب هذه
الموهبة العجيبة فى الحكم العقلى ، التى عاونتهم فى الفكر والعمل على ادراك
الموضوعات التى وضعت لها هذه الصيغ ، أن جميع الأجيال المتعاقبة رضيت
وفى الواقع أجبرت ، على أن تقيم البناء على الأسس التى أرسوها .

(١) ان سجلات العيادات الطبية للإبقراطيين ، على سبيل المثال ، هى
بيانات دقيقة عن الوقائع لا تثقلها أية زيادة فى اللغة فوق ما تدعو اليه
الجماعة . وحتى الخطباء الاغريق كان ديدنهم الاقتصاد العجيب فى خطبهم .

الفصل الخامس

عظمة أثينا

١ - دولة أثينا

١ - كان في أثينا في القرن الخامس أن المدينة الاغريقية وصلت ذراها . وكانت أثينا في ذلك الوقت أهم مدينة تجارية وسياسية في العالم الهليني الذي كان تفيض اليه كل تيارات الأدب والفن والمعرفة وفي عبارة بركليس رجل السياسة فيها ، الشهيرة ، أصبحت « مدرسة هلاس » . ولا يوجد في التاريخ ما يعادل الثروة وتنوع العبقرية الخالقة اللذين انتجتهما أثينا في هذا القرن أو ضمنتهما اليها من جميع أرجاء اليونان . وفي مدينة واحدة لم يكن تعداد سكانها الأحرار ، أكثر من تعداد سكان بلدة انجليزية متوسطة الحجم ، كان يقطن خلال ثلاثة أجيال من مدى الحياة الانسانية ، رجال سياسة مثل ثسطوقلس وبركليس والثلاثة من شعراء المأساة أسخولس وسفوكلس ويوربيدس ، وشاعرا المسلاة (كوميديا) أرسطوفانس Aristophanes وفيدياس Phidias ومدرسة النحاتين الرائعة التي كانت له ، والمؤرخان هيرودوتس وثقوديدس والفيلسوف أناكساغوراس وسقراط أعظم معلمى البشر أجمعين ، وتلميذ سقراط الخالد ، أفلاطون . وكان يوجد غيرهم كثير ، لا عد لهم - رجال سياسة وشعراء ومفكرون ، من بينهم عدد فير ليسوا أكثر من مجرد أسماء للأزمنة التي ترادفت وهم مع ذلك ، فى عهد أقل التماعا كان يمكن أن يكونوا من بين مشاهير رجال التاريخ . ويخال أن فردية المدينة الاغريقية بذلت الجهد فى فترة نضجها الوجيزة لتتجاوز حدود أجل عمل ممكن .

٢ - ولو أن أثينا تطورت الى مدينة تجارية عظيمة ، فان أساس حياتها المدنية كان زراعيا . ولقد انضم ، قبيل القرن السابع ، سكان أتيكا فى اتحاد (كومونولث) واحد ، وأخلت الملكية مكانها لحكم أرستقراطية من ملاك الأراضى وأصبحت فروق طبقات الأشراف والزراع وأصحاب الحرف ، وقد تحددت نهائيا وغدت مساوىء الدين والعبودية الشخصية واضحة وضوحا بينا . وصار الأصاغر من ملاك الأرض مدينين للكبار لدرجة ميثوس منها وسمح لهم بأن يرتهنوا حريتهم الشخصية لدائنينهم . ولقد رأى ختام ذلك

القرن نشر مدونة قوانين وهو حادث له أهمية في تاريخ كل الجماعات الأولى وعلى الأخص في حالة أثينا حيث كان « القانون المتماثل » *isonomia* فخر مواطنيها ووصل علم الاختصاص القضائي الى مستوى من الكمال لا يضارع في العالم الهليني^(١) . وبفضل قربها من البحر وفرضتها فرايوس Piraeus تمكنت أثينا من الحصول على قسطها الكامل في توسع التجارة . وهنا ، كما في أماكن أخرى ، كان فيض الثروة وقيام حكم الأغنياء من التجار مما زاد القلق السائد شدة . وكان مصدر المتاعب يرجع الى أن الامتيازات السياسية أصبحت تنحصر في ملاك الأرض . وسمح صولون بادىء ذى بدء ، للذين يملكون رأس مال تجارى بأن يشتروا الأرض من الملاك الذين يعوزهم المال ، وعلى ذلك يكونون أهلا بصفة فعالة لحقوق المواطنين وللوظائف العامة . وفى بواكير القرن السادس وقد استدعى صولون لتولى زمام الحكم حتى يحل الأزمة الاقتصادية واتاه النجاح - باصلاح القانون الجنائي وخاصة بإنشاء المحاكم الشعبية التى كان المحكام مسئولين أمامها - فى وضع أسس الديمقراطية . وفى المجتمع القديم ، كانت محكمة القانون وليست الجمعية ، موطن الحرية السياسية حيث ظفر الشعب بالرقابة على السلطة التنفيذية . وأعقب هذا فى تتابع سريع تغييرات دستورية طوال القرن السادس . وكان حكم بسسراطس الاستبدادى ، الذى ربما كان يستند الى تعضيد عماله فى مناجم أتিকা الجنوبية ، يتميز ، بصفة ملحوظة ، باحترامه للقانون واجراءاته الدستورية وتشجيعه للزراعة والتجارة وانهاش الفن والثقافة . وقد شجع أيضا صغار المستردين للأرض البور فى أتিকা . وقد مدت أثينا فى ذلك الحين علاقاتها التجارية والسياسية على كلى شاطئى بحر ايجا^(٢) . وكان حكم

(١) عن *isonomia* راجع هيرد : ٣ ، ٨٠ وما بعدها وازن ٥ ، ٧٨ وفيه التعبير المستعمل *iségorié* « المساواة فى الحديث » .
 (٢) راجع الاستاذ ف. ن. يور Prof. P.N. Ure « النهضة الاغريقية » فصل ٧ - عن علاقة الطغيان على وجه عام وطغيان بسسراطس على وجه خاص ، بالرأسمالية واستخدام العمال .

وقد عالج البحث فى استيفاء أعظم فى مؤلفه الذى جاء بعد ذلك « أصل الطغيان » وقد كان حكم بسسراطس من الأهمية بحيث يعتبر فاتحة عصر جديد لأثينا فى الفن والأدب والدين . ولقد أصبحت أثينا عندئذ مركز النقوذ الهومرى فى اليونان . وعن هذا ، راجع مري Murray « خمس مراحل للدين الاغريقى » صفحة ٦١ . وبازدياد سكانها ، كانت أثينا تجلب مايلزمها من المواد الغذائية من يوبيا Euboea والأكسين . ولهذا كان امتداد قوتها البحرية فى الشرق والشمال الشرقى أمرا جوهريا لبقائها . وكانت حالها كحال هولندا فى أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر . وهذا =

ببسطراطس الاستبدادى قصير الأمد ، لأن التعطش الى المساواة السياسية وقد أثير فى ليفيف المواطنين الأثينيين ، أصبح من الشدة بحيث لا تشفى غلته ولا يقبل هواده . وقد نفيت أسرة ببسطراطس بثورة شعبية تظاهرها قوة اسبرطية ولكن أعداءهم الحقيقيين كانوا القمايوندا Alcmaeonidae وهم أسرة منافسة ، من النبلاء . وفى ختام القرن أوقع اقليستينس Clisthenes ضربة قاضية على نفوذ الأرستقراطية الاقليمي وأعاد تنظيم الحكومة على أساس ديموقراطى صريح . ولم يسمح فقط للمقيمين الأجانب بكسب حقوق المواطن الكاملة ولكنه حل التجمعات السياسية التى كان أساسها روابط الأرض المحلية ، واستبدلهم بقبائل جدد جلب أعضائها من أنحاء متفرقة فى أتيكا . وكان من أثر هذا ، أنه عندما فاضت موجة الغزو على اليونان فى فجر القرن الخامس ، استطاعت أثينا أن تواجه الأزمة بصدة من المنظمات السياسية حقيقة بمزاج مواطنيها وبمكائنها الجديدة فى اتحاد (كومونولث) دول - المدن الهلينية . ثم فى قدرتها على التقدم السياسى وفى حرية التواصل بالمدن الأخرى ، قدمت أثينا فى هذا الوقت وما بعده نقيصاً ظاهراً للدولة التى كانت لها السيادة على أرض اليونان الأصلية ، اسبارطة^(١) . ومن مواطنهم فى وادى يوروتاس Eurotas المنعزل ، أخضعت الأرستقراطية الاسبارطية بلوبونيسس الجنوبية اخضاعاً تاماً . وبفضل شجاعتهم التى لا تمارى ومهارتهم فى استخدام السلاح ، اعترف بهم دولة عسكرية دانت لها الزعامة فى اليونان . ولكن اسبارطة كانت ثكنة ، لا دولة ، وكان يتحكم فى تدريب و حياة مواطنيها ، الهدف الأوحد وهو حذق فن الحرب . وقد احتفظت بمنظمتها البدائية قروناً ، دون أن يطرأ عليها تغيير ، فى الغالب . ولما كانت تحقر التجارة ، فقد قامت بحراسة تخومها من تدخل الأجانب ، فى بأس . ولم تصف الا القليل أو أنها لم تضيف شيئاً على الاطلاق مما له قيمة دائمة فى بناء المدينة الهلينية . وكانت قوتها ترجع الى شدها أزر العهد القديم Ancien Régime فى كل مكان فى اليونان ، فى سياستها الشعبية Herrenvolk ومبدأ العزلة الذى ضمن لها سيادتها . ولقد أنجبت جنوداً شجعاناً . ولكن لم تنجب الا القليل من رجال السياسة الممتازين . وكان المواطنون أولو المواهب العظيمة أهدافاً للريبة فى موطنهم ، وعندما كانوا يتحررون من جو التقاليد الاسبرطية ، يصبحون فرائس للفساد ، سهلة .

= يفسر السبب فى أن الديموقراطية الأثينية كانت دائماً تنادى بالتوسع الامبراطورى .

(١) يعبر ثوقوديدس عن هذا التناقض فى خطبة المبعوثين الكورنثيين فى اسبارطة فى ٤٣٢ ، ١ ، ٧٠ وكذلك فى خطبة الجنازة لبركلييس ٢ ، ٣٥-٤٦ التى جاءت مقتبساً منها فى § ٥ من هذا الفصل .

وأنا لنعجب للصيت الذي أحرزته اسبارطة في عيني اليونان المعاصرة وللسلطة الخلقية التي بسطتها على الكثير من أحسن العقول الهلينية . ولما قنط أفلاطون من خلاص أثينا السياسي ، تطلع صغوب اسبارطة بحثنا عن العلاج ويرجع السبب الى هذا : أنه ولو أن الارستقراطية الاسبارطية كانت ضيقة وغير مثمرة وظالمة فقد ظهر أن ثباتها والتمسك بوحدة المبدأ والولاء للدولة يكمل النقص الذي كانت الحاجة تمس اليه لديوقراطية أثينا العاطفية التي لا استقرار لها (١) .

٣ - وأتاحت الحرب مع فارس الفرصة العظمى لأثينا . لقد سبق أن سردنا قصة نهوض الدولة الفارسية السريع واخضاعها الاغريق الآسيويين تحت نيرها . وهدد أسطولها البحري الذي جند رجاله من مدن فينيقية التجارية ، بتحويل ايجا الى بحر فارسي . ولقد اصطدم الحكم الذاتي في دولة - المدينة الاغريقية بالقيصرية الفارسية بينما ألقت الحركات الديموقراطية وهي تهدد الحالة الراهنة ، الاقتصادية والسياسية ، بحماها المحافظين بين يدي فارس . وقد وصم القوميون الاغريق هذه الوسيلة للنجاة « بالميدية » لأن تاريخها يرجع الى ما قبل قيام فارس . وقد أوقعت القوة البحرية التي كانت لبوليكراتس الساموسي ، الخطر على تحكم فارس في سواحل آسيا الصغرى . وفتحت غزوات دارا في طراقيا عيني مليطوس التي كانت في البداية قد طغت عليها « الميدية » . وقد أكدت ثورة الاغريق الايونيين في السنوات الأولى من القرن الخامس ، للحكومة في سوس الحاجة الى تعزيز حدودها الغربية ، وفي عام ٤٩٠ ، أرسلت حملة تأديبية بحرا ضد الأثينيين الذين كانوا قد قدموا قوة عسكرية مسلحة كعمود للثورة الفاشلة التي أشعلها ذوو قرابتهم الايونيون . وقد قوبل جيش فارس وأوقعت به الهزيمة ، على سهول مراثون Marathon على ساحل أتيكا الشمالي الشرقي . ومن العسير ، بالنظر الى

(١) ان صورة أفلاطون للحكومة الديموقراطية (شكل للحكومة يؤهل فيها الأفراد للوظائف بما يملكون) في الجمهورية : ٨ ، ٥٤٧ - ٨ يماثل بصراحة شكل الحكومة الاسبرطية . ومبدها الهاديان هما « الشرف » (timé) و « النصر » وهي أقل أنواع الحكومات « غير العادلة » فسادا ، وبعد ذلك ، في « القوانين » نجد أفلاطون أقل تسامحا ، لحد عظيم ، نحو المنظمات الاسبرطية . ويوجه ارستطاليس النقد القاسي لاسبرطة في « السياسة » ٢ - ٩ و ٧ - ١٤ ، ١٥ ويصرح بلوبيوس (٦ ، ٤٨ - ٥٠) في فحصه للمنظمات الاسبرطية أنه لا يوجد مثيل لها للاحتفاظ بالاستقلال والاكتفاء الذاتي في الداخل ولكنها غير كفيلة تماما بمباشرة العلاقات الخارجية والامبراطورية .

الحوادث التالية التي كان لها شأن أعظم ، أن ندرك ما كان يعني هذا النصر لليونان . ولأول مرة قوبل التمثال الفارسي الهائل في الميدان المكشوف . وبالنسبة لأثينا ، قدمت مراثون ذكرى لا تفنى وبعد ذلك بزمن مديد عندما سرد أعظم خطبائها كيف جمع مواطنوه شملهم أمام كفاح الموت ضد مقدونيا ، فانه رجع بفكره الى أولئك الذين سقطوا ممجدين في مراثون (١) وأما بالنسبة للفرس فليس ثمة شك في أن الموقعة لم تكن تعنى أكثر من صد عنيف لسياستهم الأمامية على الحدود . وجعلت القيام بعملیات على نطاق واسع أمرا لا مناص منه ، ولكن جمع المجندين الامبراطوريين تطلب زمنا . وسببت ثورة في مصر وموت الملك دارا تأخيرا لسنين عدة . ولم يكن الجيش حتى عام ٤٨١ قد تجمع تحت قيادة خشيارشای في سردس ، بينما كان الأسطول في ايجا مرابطا عن كنب ، لغزو اليونان غزوا نهائيا . ولقد وافت اللحظة الحاسمة المدنية الهلينية آخر الأمر وأثناء تقدم الفرس ، قدم نصف المدن الاغريقية خضوعها وقام مهبط الوحى في دلفى بدور الحائن للدعوة الهلينية . كانت اسبارطة وهى العمود الفقارى للدفاع بالبر تفكر ، كما كان العهد بها دائما ، على الأخص في البلوبونيسس . وفى تلك الآونة ، تقدمت أثينا كنصير للحرية الهلينية . ولقد شاهد مواطنوها مرتين ، من ملجنهم الجزرى في سلاميس دون خوف نهب أراضيهم وتدمير مدينتهم . ولقد أحرز أسطولها النصر الحاسم في سلاميس (عام ٤٨٠) وفى السنة التالية ، حارب جنودها جنبا الى جنب مع المشاة الاسبرطيين فى « الرحمة الحتمية » فى فلاتيا Plataea ووجدت أثينا فى شخص تمسطقلس قائدا له قدرة غالبية فى الحرب وفى السياسة ، ونجت اليونان وكانت نجاتها ترجع على الأخص الى وطنية أثينا (٢) .

وكان هذا آخر تهديد يوجه للحربة الهلينية من الشرق . وكان الخطر مزدوجا ، ففي الغرب أيضا كانت قرطاجنة قد هاجمت اغريق صقلية فى سنة غزو خشيارشای فلحقت بها هزيمة قاصمة فى الهمرا على يدى جيلو Gelo طاغية سيراكوز . واستهل نصر جيلو حقبة باهرة فى سيادة سيراكوز . وفى

(١) دمستينس Demosthenes دى كرونا de Corona § ٢٠٨ .

(٢) راجع هيرد ٨ و ١٤٣ وما بعدها عن وطنية الاثينيين فى هذه الضائقة . وقد أورد قصة حملة عام ٤٩٠ فى الكتاب السادس ، ٩٤ - ١٢٠ وحملة خشيارشای فى ٧ - ٩ . وقد وضع اسسبحولس هزيمة خشيارشای فى فاجعة ، فى « الفرس » الكتاب الذى صنفه .

الحق تحتل سيراكوز من ذلك الحين المكانة الثانية بعد أثينا ، كمرکز للفن والثقافة الهلينيتين (١) .

٤ - وكان انتصار اليونان رائعا ، ولكنه على أية حال لم يكن أعجوبة . وهو يقدم أول مثال واضح ، في التاريخ عن انتصار دنيوى للنوع ضد الكم . ولقد صنع الاغريق في سلاميس وفلاطيا ما صنعه الاسكندر بعد ذلك في أسوس Issus وجوجيلا وكليف Clive في الأزمنة الحديثة في بلاسى Plassey (٢) . ان تاريخ الإنسان يكذب في كل مرحلة المثل الأحمق بأن « الله يكون الى جانب الكناثب العظيمة » ، وإذا كان نابوليون قال هذا على الاطلاق فلا بد ان قوله كان يحمل في مطواه تحفظا بأن « يكون النوع متعادلا ، والأعجوبة الحققة هي في استخدام الأثينيين للنصر الذي حازوه . ولقد أظهروا في ساعة النصر ، نفس البصر بالحقائق واتساع النظر ، كما في ساعة الخطر الداهم . وعندما ارتضت اسبارطة والدول الاغريقية الأخرى بما نالوه من أكاليل الغار ، أجمعت أثينا الرأى على أن تواصل الجهاد حتى تتحرر كل مدينة اغريقية في منطقة ايجا من النير الفارسى

وكانت السياسة وكذلك روح الوطنية دون ريب ، تشيران الى هذا الاتجاه ولكن مما فيه شرف أثينا الخالد ، أنه في هذه اللحظة لامت أثينا بين دعوة نفع المدينة ودعوة الاستقلال الهليني . ولقد جنت الشمار ألف ضعف ، في العظمة السياسية كما في حياتها الداخلية التي تتصل بالمدينة ولهى تجارتها وامبراطوريتها في البحار ، وكذلك كما سنرى ، في أنبل ثمرات الثقافة العقلية ، التي كانت أبدا من نصيب النوع الانسانى . وقد تركتها حرب التحرير (٤٧٨ - ٤٧٠) سيدها مياه ايجا دون منازع . وقد

(١) وجه بندار عددا من أحسن القصائد الغنائية الى الأمراء الصقليين بما فيهم هيرو Hiero خليفة جيلو . وقد زار اسخولس صقلية أكثر من مرة ومات في جيلا Gela وكان جورجياس Gergias الليونتينى Leontini من مشاهير السفسطائين وأستاذ الفصاحة . وفي القرن الرابع زار افلاطون سيراكوز في مناسبتين أو ثلاث . وكان جيلو القائد العام لاولجارشية (حكومة الأقلية) من الراسماليين ، قاصرة عليهم ، وقد دعت المدن الايونية في غرب صقلية قرطاجنة وهى في يأس . وتقدم سيراكوز نقيضا يسترعى البال ، لأثينا اللتيوقراطية .

(٢) رأى الأثينيون أنفسهم في وضوح ، أن النصر يرجع الى قوة ومهارة أسطولهم البحرى والى ذكاء تمسطوقلس ولروح حب الوطن التي لا تحيد ، التي تشيع فيهم (انظر نقد ١ ، ٧٣ و ٧٤ و ١٤٤) .

أمن تحصين المدينة ومرفئها ، فرايوس من منافسة اسبارطة لها في البر - وكانت أساطيلها تقوم بالحراسة على ايجيا الذي أصبح من الآن موصدا ، كما كانت أراضي ساحل آسيا الغربية ، أمام الفرس . وكانت هذه الحقائق أساس التفاهم الذي أنهى في عام ٤٤٨ الصراع الذي استطال حتى بلغ أربعين سنة ونيفا . ولقد تركت أثينا وفي حيازتها احتكار التجارة الشرقية . وكانت المدن المحررة ما تزال منتظمة في جمعية تحت رياستها ولها خزانة مشتركة في جزيرة ديلوس المقدسة ، كانت تقدم اليها كل مدينة حصنة معينة للاحتفاظ بالأسطول البحري الهامي . وفي روعة بالغة ، حققت أثينا ما انتوته وقطعت العهد به . ولكن والقرن يسير في مدها ، حدث تغير في هياستها . لقد تحولت الدولة التي عقدت لها الرياسة على الاتحاد الديلي الى مدينة ذات سيادة على امبراطورية خاضعة لها . ولقد غدا حلفاؤها القدامى تابعين يلتزمون بدفع الضريبة وكان مطلبهم في الانفصال عن الجمعية يداس تحت الأقدام في عنف ، ونقلت الخزانة الى أثينا وأعيد وضع منظماتها الداخلية لصالح سيادة أثينا . ولما كانت أثينا ديموقراطية فان المدن الخاضعة يجب أن تكون أيضا ديموقراطية . ومن خصائص التاريخ السياسي الاغريقي أن الصداقة والعداوة بين الدول كانا يعتمدان الى حد عظيم على اللون السياسي للحزب الحاكم . وقد تحالفت الحكومات الديموقراطية مع أثينا والحكومات الارستقراطية مع اسبارطة . وفي زمن بركليس (٤٦٠ - ٤٣٠) كانت الامبراطورية الأثينية تشمل جزر ايجيا ومدن طراقيا وآسيا الصغرى الساحلية والسينطس والمجاز البحري الى الأكسين . ولو أن نكسس Naxos ثارت عام ٤٦٥ وساموس عام ٤٤٠ . وأكثر من هذا ، فان أثينا أظهرت نشاطها في محاولات فاشلة لبسط سيادتها على اليونان الوسطى وفي حملة عسكرية أنفذتها الى مصر وانتهت بنكبة . ونمت المدينة في الثراء والسكان كنتيجة طبيعية لتجارها الواسعة المتنوعة . ومع الكراهية المريرة التي كان يشعر بها رعايا امبراطوريتها ، لا يوجد أى دليل على أنها كانت تحكم حكما غير عادل . ويجب أن يكون الهادى في حكمنا اعتبارين . بتركيز القضايا التي تنسحب على مدن مختلفة وكذلك أعظم الدعاوى الجنائية خطيرة ، فى المحاكم الأثينية ، فان أعلى مذهب فى الإدارة القضائية ، رقينا ، كان يوجد فى العالم فى ذلك الحين ، فتحت أبوابه لكل اليونان الشرقية ، وعلاوة على هذا ، كانت أثينا تدرك تماما الواجب الذى تفرضه عليها سيادتها . وكان لزاما على مواطنيها ، كما كان يشعر على الأقل ساستها الذين كانت لهم الصدارة ، أن يعيشوا عيشا خليقا بقدر امبراطوريتهم . ولقد حازت جهود بركليس لادراك هذا المثل الأعلى ثقة شعب ديموقراطى . ولم يصل حلم اتحاد جامعة هلينية تحت زعامة مدينة واحدة ، اطلاقا ، قريبا من تحقيقه كما فى عهد الامبراطورية الأثينية فى زمن بركليس .

٥ - وعندما نضع الى جانب قوة أثينا الخارجية لنمعن النظر في حياتها العامة الداخلية ، نجد أنه منذ عهد افلاستينس كان يهيمن على الحكومة ارادة لفييف المواطنين الأحرار (١) . ولقد رأينا كيف أنه ، عند الاغريق كانت حياة المواطن الحقة هي خدمة الدولة في السلم وفي الحرب وقد حقق هذه الفكرة في اسبارطة ، الأرستقراطية الحاكمة . ولما كانوا قد وهبوا الضياع التي يقوم بالعمل فيها الرعية من السكان ، فقد تاح لهم وقت فراغ ليخصصوا كل حياتهم للخدمة العسكرية . وقد جهد بركليس وخلفاؤه في القرن الخامس في جعل مثل هذه الحياة ممكنة لديوقراطية أثينا . واستحداث الأجرة لحضور المجلس ومحاكم القانون ، التي كان أعظم مشاغلها الدعاوى السياسية ، كان الوسيلة التي استخدمت للوصول الى هذا الهدف . وعلاوة على مهمة الحكومة المحلية ، كان مباحا لكل مواطن أن يحضر بشخصه وإن يدل بصوته وأن يتحدث في الاجتماعات الأسبوعية للمجلس ذي السيادة (Ecclesia) حيث كانت تبرم مواضيع السياسة الخارجية والامبراطورية والمواضيع المالية ويعين الحكام وتناقش تقاريرهم وتفحص . وكان مجلس الرأي Boule يعهد اليه بتحضير التشريع للجمعية وكان يجتمع عشر العدد (prytany) كمجلس تنفيذي دائم ، في دار البلدية كل شهر في السنة . وكانت لجان تتألف من بضع مئات من المحلفين يختارون بالقرعة من لفييف المواطنين ، تصدر أحكامها في الاتهامات الدينية والسياسية . ولقد صب الشاعر المحافظ أرسطوفانس التحقير الميرير على منالاة هؤلاء الدباير (٢) الأثينيين في الدعاوى القضائية . ولقد تصاعدت روح التشيع وكان الحزب الأرستقراطي ينادى بالسلم والصداقة مع اسبارطه ، أما الحزب الديموقراطي بقوته بما يضم من السكان البحريين ، فكان يناصر توسيع الامبراطورية في البحر والبر . ولكن عندما نتسامح في المغالاة في الروح الحزبية والمطامح الفردية فان الديموقراطية الأثينية لم تكن غير جديرة بالمثل العليا للسياسي العظيم الذي وطد سيادتها .

(١) يمكن أن يكون تعداد سكان أطيقا الأحرار في عصر بركليس قد بلغ حوالي ٢٥٠.٠٠٠ نسمة ويؤكد ثقو ٢ ، ٣١ أنه حوالي عام ٤٣٠ كانت تبلغ قوة المواطنين الأثينيين ٣٠.٢٠٠ . ويجب أن يضاف اليهم نحو ٢٠.٠٠٠ من الطبقة التي لها أقل ملك فيكون المجموع ٥٠.٠٠٠ من المواطنين الذكور البالغين . وربما يبلغ تعداد النساء والأطفال والمعجائز أكثر من ضعف هذا العدد ، وبذلك ربما كان يصل المجموع الكلي الى ٢٠٠.٠٠٠ نسمة من الأحرار يضاف اليهم ٥٠.٠٠٠ من الأجانب المستوطنين metics . ويظهر في احصاء عام ٣٠٩ ق م نقص في المواطنين الذكور البالغين ، يبلغ ٢١.٠٠٠ يضاف اليهم ١٠.٠٠٠ من الأجانب المستوطنين .

(٢) أرسطوفانس « دباير »

ولقد عبر بركليس عن هذا المثل الأعلى في خطبة له في الشناء على الجنود الذين سقطوا في معمة القتال في حملة عام ٤٣١ . وقد سجل الخطبة المؤرخ ثقوديدس ويمكن اقتباس النص الاتي لتوضيح تصور بركليس للديموقراطية الأثينية :

« ان شكل حكومتنا لا يدخل في مجال التناقس مع أنظمة غيرنا ، واننا لا نحتذى حذو جيراننا ولكننا نضع المثال لهم . وهو صدق ان الديموقراطية تطلق علينا لأن الادارة في أيدي الكثرة وليست القلة ولكن بينما القانون يضمن المساواة في العدالة للجميع على السواء في منازعاتهم الخاصة فان دعوى التفوق يعترف بها أيضا وعندما يمتاز مواطن في أية ناحية فانه يفضل للخدمة العامة ، ليس كامتياز ولكن جزاء للفضل . ولا يكون الاملاق مانعا ولكن يمكن للانسان أن يحقق نفعاً لوطنه مهما كان شأنه مغمورا . ولا يوجد احتسار في حياتنا العامة وبينما لا نخضع لأي قسر في تواصلنا الخاص فان روحا من الاحترام تشيع في أعمالنا العامة ويجنبنا عن ارتكاب الخطأ ، الاحترام للسلطة وللقوانين اذ لنا اعتبار خاص لتلك التي وضعت لحماية الذين وقعت عليهم مساءة وكذلك لتلك القوانين غير المكتوبة التي تجلب على الخارجين عليها تنبيذ الرأي العام اننا عشاق للجمال ولكننا بسطاء في أذواقنا واننا نثقف العقل دون خسران للرجولة . والشراء نستخدمه ليس للحديث والزهو ، ولكن عندما يوجد نفع صادق في استخدامه . والجهر بالفاقة عندنا ليس مذلة ، والمذلة الحقيقية هي في القعود عن عمل شيء لتحاشيها . ان المواطن الأثيني لا يهمل الدولة لأنه يعنى بيته . وفيما بيننا ، حتى أولئك الذين ينهمكون في الأعمال ، لديهم فكرة جد طيبة عن السياسة ونحن ، دون سوانا ، نعتبر الرجل الذي لا يهتم بالمسائل العامة ، ليس شخصا لا ضرر منه ، ولكنه شخص لا جدوى فيه . واذا كازمت قلة منا مبتكرين ، فاننا جميعا حكام صادقون لثمة سياسة . والعائق العظيم أمام العمل ، في رأينا ، ليس النقاش ولكن الافتقار الى تلك المعرفة التي تكتسب بالنقاش ، ارهاصا للعمل . لأن لنا قدرة خاصة على التفكير قبل العمل وعلى العمل أيضا ، بينما ناس آخرون لهم شجاعة وليدة الجهل ولكن يترددون بعد امعان الفكر والحلاصة ، أقول ان أثينا هي مدرسة الاغريق وانه يبدو أن الفرد الأثيني في ذاته ، يستطيع أن يكيف نفسه في أعظم شكول العمل تباينا ، بأجل ما يكون من قدرة ، متعددة النواحي ، وكياسة . وليست هذه كلمة لغو عابرة ولكنها الحق والواقع . والتوكيد تصدقه المكانة التي رفعت اليها هذه الحصال الدولة لأننا أجبرنا كل بر وكل بحر ليفسح طريقا أمام بسالتنا وغرسنا في كل أوب ، آثارا خالدة لصدقتنا وعداوتنا . هذه هي المدينة التي لأجلها حارب هؤلاء الرجال وماتوا في نبل . ولم يكن في وسعهم

احتمال الفكرة بأنه يمكن أن تستلب منهم ، وكل واحد منا على قيد الحياة يجب أن يكبح في اغتباط لأجلها ،^(١) .

٦ - ان امبراطورية أثينا وحكم الديموقراطية الذى خلقها ورباها كان كلاهما قصير الأمد . ويقع التاريخ الأثينى فى القرن الخامس فى ثلاث حقب تتميز الأولى بنهوض قوتها فى الحرب الفارسية والثانية ببلوغ ذراها فى زمن بركليس والثالثة بدهورها وسقوطها . والحياة العامة الاغريقية هى فى كل مكان سجل من التغيير متنوع المناظر . ولقد أطلت سحائب أيام قيادة بركليس السعيدة ، حتى قبل موت السياسى العظيم (٤٢٧) ، وكان منافسو أثينا يتحينون الفرصة لجمع الشمل ومهاجمة سيادتها . وأتى الواعز من دول البرزخ وخاصة من كورنث التى كانت مصالحتها التجارية فى اليونان الغربية يتهدها مطمح أثينا المتزايد . وبينما كان الكورنثيون يدفعون الى النشاط قوات اسبرطة القوية ، ولو أنها متكاسلة ، كانت المدن الخاضعة فى الامبراطورية الأثينية ترقب فى تلهف الفرصة المواتية للشورة . وفى عام ٤٣١ قام الصراع الذى يعرف فى التاريخ باسم الحرب البلوبونيسية^(٢) .

وفى الواقع تورطت كل اليونان فى الصراع وقد ناهضت قوة أثينا البحرية من جانب ، تحالفا ينتظم أعداءها تحت القيادة الاسبرطية . واستمر مع فترات انقطاع حتى عام ٤٠٤ عندما أعقب تدمير الأسطول البحرى الأثينى سقوط المدينة الامبراطورية . وقد سرد ثقوديدس قصة الحرب وقام بنفسه بدور فى مشاهدتها الأولى فى توليف سيبقى أبد الدهر خلقا رائعا للتاريخ الذى يتبع فيه التأمل . وعنده ، كان الصراع فاجعة تتركز حول خطيئة hubris الديموقراطية الأثينية التى كانت تأخذ فى النمو ، وتنتهى بالقصاص nemesis الذى نجم عندما تخطوا ، فى محاولة غزو صقلية ، المعلم . وكما فعل سالفه هيروdotس فى تقفى أثر يد عناية الهية غيورة ، فى القصاص الذى لحق الامبراطورية الفارسية عندما ألقى بجحافلها فى صلف القوة ، ضد اليونان ، رأى ثقوديدس فى روح فلسفة أكثر نضجا فى الجائحة التى أصابت المدينة وطنه فى اللحظة التى ظهر فيها أن تعطشها لامبراطورية عالمية قد أدرك مرماه ، عملية لا ليان فيها للقوانين التى تقرر مصير الأمم . والديالوج الذى يقص فيه انذار أثينا النهائى الى سكان لجزيرة ميلوس بتوكيده الذى لا هوادة فيه ، أن الضرورة لا تعرف أى قانون وأن حاجة السياسة الملحة لا تعبأ بكل مطالب الفروض الخلقية وأن طغيان القوى على الضعيف هو الحق الطبيعى للالهة والناس ، يجىء بعده دون فاصل ، قصة ابحار الأرمادا ضد سيراكوز وما أصابته من ضروب النجاح الأولية

(١) ثقو ، ٢ : ٣٧ - ٤١ (ترجمة جوت Jowett) .

(٢) كان بتوقع حدوثها من حرب سابقة (٤٦٠ - ٤٤٥) .

وما أعقب ذلك، من نكبات ثم ذهابها أبابيد (١) . ولم تقم لأثينا قط قائمة بعد هذه الضربة . ولما رأى السبيادس صديق مستقراط وأعظم شخصية سياسية التماعا وتعددا في نواحي قدرته ، أن النائبة أوقعت عليه العار ، انضم الى أعدائها ونصح بالتحالف مع فارس التي أمدتهم بموارد غير محدودة لخلق قوة بحرية . وما كانت أثينا لتتقهر الا بالبحر . وقد استمر شعبيها في القتال في ثبات وشجاعة عجيبيين ضد كثرة هائلة ولكن دم حياتهم كان قد نضب معينه وكان لا مندوحة من الخراب في النهاية (٢) . وعندما وافت النهاية ، كانت حامية من الاسبرطيين المقوتين تمسك في الأكروبول ، ووقعت المدن الخاضعة التي كانت قد ثارت ضد أثينا والأمل يحدوها في استعادة استقلالها في قبضة الظافر ، ولا حول لها . ولو أن أثينا استطاعت أن تزيح نير اسبارطة ، ولو أن الديموقراطية استعادت وفاضت التجارة مرة أخرى في فرايوس ، الا أن امبراطوريتها أصبحت في خبر كان . ووجدت عبقرية المدينة ، بعد فترة وجيزة من الروعة السياسية والعسكرية ، موطنها الحقيقي الدائم في ميادين الأدب والفكر .

٢ - الفن والأدب في أثينا في القرن الخامس

٧ - نوهنا فيما سبق بأن جميع ألوان النشاط الخالق التي عبرت عنها العبقرية الاغريقية تجمعت في أثينا في أزهى القرن الخامس العظام . ويصدق هذا ، في المكان الأول ، على فنون العمارة والتصوير والنحت التي تربطها قرابة . ولقد كان الوازع للثلاثة وازعا دينيا ، اقامة وزخرفة المعابد لعبادة الآلهة . وكان الطرازان ، الدوري والايوني في فن عمارة المعبد ، الواحد ضخم وقاس والآخر أكثر أناقة وزخرفة ، قد تطورا في الحقبة السابقة ، من أشكال بدائية للبناء بالحشب (٣) . وكان النحت أيضا منشؤه حفر الحشب وقد حل محل دمي المعبد الحشبية في عصر التوسع التجاري وتحت

(١) راجع ثقو . ، ٥ ، ٨٩ وما بعدها عن الديالوج الميلي . وتورد هذه الآراء في الحاح للذاكرة دفاع الألمان عن انتهاكهم حياد بلجيكا في عام ١٩١٤ ، ان ثقوديدس يكتب كمتفرج في عيادة للمرض السياسي .

(٢) كان الحزب الأرستقراطي والمشايع لاسبارطة يعمل داخل المدينة لصالح العدو . وكان يرجع نشاطهم الى عام ٤١٥ (ثورة الأربعمائة) وكانت صيحة - الحرب ، السياسية « العود الى عام ٤٦٠ » أي قبل بركليس .

(٣) من المعابد الأثينية في عصر بركليس كان ثسيوم Theseum وبارثنون Parthenon (راجع § ٨) أهم مثالين للطراز الدوري والارخشيوم Erechtheum ومعبد « النصر دون جناح » (Nike Apteros) للطراز الايوني .

رعاية الطغاة الأثرياء التمانيل من الحجز . وفي القرن السادس ، تقدمت مدارس أرجوس وسسنيون Sicyon وأيجينا Aegina وأثينا تقدما سريعا فى مهارة الصنعة وفى معرفة التركيب التشريحي وحرية المعالجة وتححرر فن النحت من ارتباطه القاصر على الموضوعات الدينية . وتوضح تماثيل اللاعبين الرياضيين الاهتمام المتزايد بطرز جمال الرجولة . ولقد وصلت هذه التطورات الباكورة الى قمته فى المدرسة الأثينية فى عصر بركليس تحت زعامة فيدياس . وقد قدم الى أثينا أيضا بوليغنوتس Polygnotus مواطن ثاسوس Thasos ، أعظم مصور فى ذلك الزمن والذي اشتهر بإنشاءاته العظيمة الهائلة مثل نهج طروادة وأدوسيس فى الجحيم وقد امتدحه ارستطاليس لحداقته فى تصوير خليفة الانسان (١) . ولقد دمر الغزاة الفرس أبنية أثينا وفى الجبلين التاليين وطن سياستها العزيمة على جعل المدينة الجديدة خليفة بمكانتها فى الامبراطورية . وجهد بركليس على الأخص ، فى تدريب المواطنين على حب ما هو جميل عن طريق أبنيته وما يزخرها من أفانين النحت . وفى عصر كانت فيه الكتب نسيبا ، لا سبيل الى الوصول اليها ، فمن المستحيل المغالاة فى تقدير قيمة الأبنية الرائعة ، فى التعليم . وكان الاكروبول فى أثينا ببوابة المدخل ومعابده وتماثيله ، يؤدى للأثينيين فى ذلك الزمان ، نفس الخدمة التى كانت تؤديها الكاتدرايات التى نزرخ بالنحت ، لمدن أوروبا فى العصور الوسطى . وفى عبارة جاءت فى «الجمهورية» بختنم أفلاطون حجته بأن حكام المدينة المنالية ، من السباب ، يجب أن تحط بهم بيئة من الرشاقة والجمال بهذه الكلمات :

هل يجب أن نفتصر على الاشراف على السعراء وقسرهم على أن يصفوا على اناجهم طابع الخصال الخلقية الطيبة وجزاء مخالفة ذلك عدم قرض الشعر بيننا ، أو هل يجب أن نبسط اشرافنا على أساتذة كل حرفة أخرى على السواء و نمنعهم من أن يطبعوها بتلك العلامات سيئة النوع من الانحلال والحسة وعدم الأنافة سواء فى صور الكائنات الحية أو فى الأبنية أو أى عمل آخر من صنع أيديهم . ونمنع منعا كليا أولئك الذين لا يستطيعون القيام بغير هذا ، من العمل فى مدينتنا حتى لا تكون تربية أوصيائنا بين صور الرذيلة كما فى مراعى غير صحية يقتطفون الكثير كل يوم ، قليلا قليلا ، من أمكنة عديدة ويطعمون منه حتى يجمعوا ، دون أن يشعروا ، كتلة عظيمة من السوء فى قرار ارواحهم ؟ ألا يجب علينا ، على التقيض ، أن نلتمس فنائنا من طابع آخر ، أولئك الذين بقوة العبقرية يمكنهم أن يقصوا طبيعة ما هو جميل ورشيق حتى ان شبائنا ، الذين يقطنون كما هى الحال بصقع صحى يتاح لهم أن ينهلوا الطب من كل مكان وبقع أى فيض من الأعمال

(١) ارستطاليس ، الشعراء فصل ٢ وفصل ٦ والسياسة ٨ ، ٥

النبيلة على أعينهم أو آذانهم ، كعاصفة تجلب العافية من المراتح الصحية ودون أن يحسوا ، يظفر بهم منذ نعومة أظفارهم ليكونوا على تشابه وحب وانسجام مع جمال العقل ، الصادق ؟ (١) . ولايستطيع أى فرد أمضى حدائته تحت ظلال ثمة كنتدرائية رائعة أو داخل حيطان كلية من كلياننا العتيقة أن ينازع هذا الحكم على ما للفنون من تأثير خفى غير مدرك على خليقة وعقل الانسان .

٨ - وأهم الأبنية التى أقامها بركليس على الاكروبول كان معبد أثينا العذراء ، البارثونون . ولم يعرف ضريب فى أى عصر لأعمال النحت التى كانت تزين المعبد ، من صنع فيدياس وزملائه من مهرة الصناع . وفى بواكير القرن التاسع عشر جلب لورد الجن معظم ما تبقى منها الى انجلترا وهى الآن فى المتحف البريطانى . لقد صور على الطنف مثلثة الشكل مولد الالهة أثينا من رأس زيوس والصراع بين أثينا واله البحر بسيدون على امتلاك تربة اتيكيا . وعلى ألواح الأفاريز التى كانت بزخرف الشريط الخارجى من الحجر المحيط بالمعبد فوق صف العمود الدورية ، نحتت مشاهد الكعاج فى أسطورة البطولة ، فى المباراة بين سنتورس Centaurs ولاپنيس Lapiths . وعلى النقيض من المناظر المصورة على المعبد من الخارج ، كان الانريز الذى يربط الحائط الخارجى للناوس cella يحمل رسوما بالنقش البارز الوطنى عن الحياة التى تتصل بالمدينة ، لأثينا المعاصرة ، الركب الدينى فى عيد الجامعة الاثينية ورجالا فى المركبات وعلى متون الخيل والأغنام والماشية تقاد. للتضحية وحكام المدينة والموسيقيين والفتيات اللواتى يحملن الرداء المنسوج المقدس ، قربانا لأثينا وهى تجلس بين الهة الاولمب . والشكل الأوسط فى المجموعة ، تمثال أثينا الهائل الذى صنعه فيدياس من الذهب والعاج ، أتى عليه البلى . ولكن الأشكال المصنوعة من المرمر فى متحفنا الوطنى ، تكشف للرجل الانجليزى المعاصر أكثر من أية آثار تذكارية أخرى من العصور الفنية عن صفات النشاط والاسترواح والمثل الأعلى الرفيع والجمال الرزين ، التى تميز بها الفن فى عصر بركليس (٢) .

٩ - وفى مجال الأدب ، فلاثينا القرن الخامس الذكر الباقي لخلق شكلين من التعبير ، جديدين ، الفاجعة (الدراما) فى الشعر والتاريخ فى النثر .

(١) أفلاطون « الجمهورية » ٣ ، ٤٠١ (ترجمة ديفس Davies وفوغن Vaughan) لاحظ تعرف أفلاطون أهمية ما دون الشعور .

(٢) يجب ألا يغرب عن البال أن خارج المعبد وكذلك الأشكال المنحوتة كانا ملونين .
تراث العالم القديم

ان الحافز على تمثيل الشخصيات تمثيلا فاجعيا يشترك فيه كل بنى الانسان فى الواقع لانه كما المع أرسنتطاليس فى « نقد الشعر » تتأصل عادة المحاكاة والبهجة فى انتاجها فى طبيعة البشر^(١) . ولكن توجد هوة واسعة بين ارتجالات الاغريق الاوائل والسلالات الاخرى ، التى تظهر فيها الفلطة وأمثال تلك النماذج العليا التامة من الفن الدرامى كالمأساة والمسلاة فى اثينا فى عهد بركليس . واحصاء وتفسير هذا الكنز الزاخر من الأدب الفاجعى يقعان خارج نطاق هذا السفر ويكفى أن نشير الى عدة خصائص مميزة تكون المعرفة بها مطلبيا لدراسة الروايات عينها دراسة فطنة^(٢) . والقارى، فى زمننا عندما يروده التفكير فى الفاجعة ، فانه بعكر فى شكسبير ، بما لا معدى عنه ، ولكن الرواية الاغريقية كانت تختلف اختلافا بينا فى الجو وثى التركيب جميعا عن الطراز الشكسبيرى ويرجع بعض الاختلاف ، الى الأحوال التاريخية التى ظهرت فيها الفاجعة الأنىكية الى حيز الوجود^(٣) . فعلى سبيل المثال ، كان يؤلف المسلاة والشعراء مختلفون وكاننا تمثلا فى أعياد مختلفة ، الواحدة تعالج الموضوعات المنالية والاخرى تصور طبيعة الانسان فى مستوى أوطى من المستوى العادى وكانت تثير الضحك بالسخرية من نفاص

(١) أرسنتطاليس « نقد الشعر » ، فصل ٤ ، توضح هذه العجالة كيف أن الاغريق ، فى الشعر كما فى غيره من الميادين ، لم ينتجوا النوايف وحسب ولكنهم كانوا يصلون بالتفكير الى نظرية انتاجها والقسم الموجود بين أيدينا من « نقد الشعر » يعالج فى معظمه المساة ، وقد فقد الكتاب النسبى الذى يعالج المسلاة . ويشير أرسنتطاليس (١٤٤٩ ا ١٠) الى أن المساة والمسلاة كليهما ، ترجعان الى الارتجال .

(٢) عن الآراء فى الترجمات الانجليزية ، راجع فهرس المراجع .

(٣) ان الفارق بين الفاجعة الشكسبيرية والمهينية كان مرجعه أصلا الى الاحساس بالنظام والقاعدة وهو من خصائص العقل الاغريقى . وقد وضع الفرنسيون ، بعد ذلك ، التقليد فى صوغ قانونى فى مبدأ توحدات الفاجعة (توحد المكان والزمان والعمل ، الثلاثة فوانين للدراما الاتباعية) (الكلاسيكية) - المترجم) وهو ما لم يضعه الاغريق مطلقا ولم يكن له الا اليسير من الأثر فى هذه البلاد حيث قام شكسبير بعمله ، دونه . « وكان للتوحدات أثر فى فرنسا لان الفاجعة الفرنسية كانت قد برهنت على أنها ليست حد فعالة دونها . ولقد وضع شكسبير ، دون أن يسير عليها ، نماذج مسرحية عجيبة من ابتكاره وبلغ بعضها الكمال فى الصوغ والتماثل » . (و . ب . كر W. P. Ker عن « المنل الأعلى لعالم الآداب القديمة - مواضع ودراسات لأعضاء الجمعية الانجليزية » المجلد السادس) .

البشر (١) . وكانا يختلفان في ظروف أصلهما . فقد قامت المأساة (تراجيديا = tragos = عنزة) من الترانيم التي كان يغنيها جوق يرتدى جلود المعز ، بين الدوريين في بلوبونيسيا الشمالية بينما درجت المسلاة في صقلية وكانت نشأتها في المجون الذي لا ضابط له ، لمقيمى الولايم الصاخبة (Komos = عصابة من الماجنين) الذين كانوا ينعمشون مواكبهم في فصول الحصاد وجنى الكرم بقذف شخصيات من رفاقهم من أجلاف المهرجين بين الحسد الذي يحلق حولهم . ومما يسترعى الانتباه الخاص ثلاث خصائص أخرى تبرز من خلال تاريخ الفاجعة الاثينية . (١) في « الحوادث ، الفاجعية أو الفصول وفي القصائد الغنائية المذهبية التي كانت تفتى في العترات التي تقع خلال التمثيل ، نجد الاتجاهين الأساسيين في الشعر الهليني الباكر ، وهما يتألفان في وحدة أعظم ، الملحمة والقصيدة الغنائية . انه وجود هذا العنصر الأخير بما يصحبه من موسيقى ورفض حتى ان المقنون الثلاثة تكون

(١) انظر أرسنتاليس « نقد الشعر » فصل ٢ ، ٢ ، وبصل ٥ ، ٥ . ويجب أن يلاحظ أن أرسنتاليس ينجأهل الفاجعة التي تكون واقعية تماما . وفي ختام « ندوه الفلاسفة » لافلاطون (٢٢٣) بصور سفراط وهو يقيم الدليل على أن شاعر المأساة يجب أن يكون أيضا شاعر المسلاة . وفي مقدمة Samson Agonistes يتحدث ملون عن « خطأ الشاعر في مزج مواد المسلاة بحزن واكتئاب المأساة » . ومن الجهة الأخرى ، يقول شلي في « الدفاع عن الشعر » الذي صنعه ، ان « ما جرت عليه العادة الحديثة من خلط المسلاة بالمأساة ولو أنه عرصة لأن يساء استخدامه اساءة عظيمة من حيث مراسمه ، هو دون ريب بوسيع للمجال الفاجعي » واضرب مثلا بالملك لير King Lear وتعريف أرسنتاليس ، الشهير ، للمأساة ، في « نقد الشعر » فصل ٦ - ١٤٤٩ ب ، ٢٤ وما يتلوها هو ما يأتي : « المأساة هي محاكاة عمل يتسم بالجد وكذلك بما له من عظم ، يكون كاملا في ذاته : وفي لغة لها أدوات مبسورة التناول ، فان كل صنف بوضع على حدة في أجزاء النوليف ، في صيغة فاجعية وليست قصصية بوفائع نبر الاشفاق والرغبة وبذلك يحقق التطهير catharsis لامال هذه العواطف » (ترجمة بابونر Bywater) وتشير الشطرة الثانية الى مزج الأغنية المذهبية بالموسيقى والرقص وكلمة « جد » والاشارة الى الاشفاق ، والرغبة ، هو ما يفرق بين المأساة والمسلاة ولفظ Catharsis ، تعبير طبي معناه « التطهير » . ويناقش بابوتر تفسيرات التعبير المختلفة في تذكرات النص في طبيعته « نقد الشعر » . ان العواطف تطرد كأنها بمطهر عن طريق نفس اثارها في الفاجعة - وعلى حد قول ملتون فان المتفرج « يصرف ، يغمره السلام والعزاء وسكينة العقل وقد زال كل الانفعال » (ختام سطور Samson Agonistes) .

انتاجا واحدا من الجمال الفني تكون فيه كلمات الأغنية العامل الحاسم ، هو الذى يظهر لنا عند أول تعرفه أنه غير مألوف ^(١) . وكانت الترنيمة المذهبية فى ذلك الحين أو dithyramb - النواة الأصلية للفاجعة . وقد فصل على التدرج عنصر القصص وتحول أولا ، الى شكل فواصل ينطق بها قائد الجوق بين أجزاء الترنيمة ثم الى اشراك مجيب hypocrites أو ممثل يتحدث من مسرح (وهنا نجد بداية الديالوج والتمثيل) ثم الى اضافة ممثل ثان وأخيرا ممثل ثالث . وبهذا تدرج العامل الفاجعى صعودا على حساب عامل الشعر الغنائى الى أن أصبح دور الجوق ، وهو الغالب فى الأصل ، بخضع خضوعا تاما للديالوج والتمثيل ^(٢) . وفى هذا ، وفى اختيار المدار بما يغلب أن يكون عاما ، من قصص البطولة ، نرى تأثير شعر الملحمة . لقد بين أرسططاليس الذى كان شغوبا بتقصى أثر السوابق لما جاء بعد ذلك من أشكال أن « كل أجزاء الملحمة تضمها المساة ولكن أجزاء المساة لا توجد كلها فى الملحمة » ^(٣) . وبهذا نمازجت الطرز الأولى من شعر الملحمة والشعر الغنائى ، وكذلك الموسيقى والرقص وانضوت تحت شكل التمثيل الفاجعى فى هذا الخلق المتفوق ، للعبقرية الشعرية الاغريقية ^(٤) .

(١) راجع أفلاطون « الجمهورية » ٣ ، ٣٩٨ لقد سار فن الموسيقى وفن الرقص فى تطورهما ، فى اليونان ، تربطهما آصرة وثيقة بالشعر الغنائى الذى كان الغرض منه دائما أن يعنى بمصاحبة الموسيقى والرقص .

(٢) تبين « الفتيات المتوسلات » لأسخولس وربما كانت أقدم فاجعة اغريقية باقية الى الآن ، أن « الجوق » ما يزال له السيادة ، والتجديد الحاسم كان اشراك الممثل الثانى ، وهو يرتبط باسخولس الذى استخدم تالفا بعد ذلك . ولم يكن يوجد اطلاقا أكثر من ثلاثة ممثلين لهم أدوار يدور فيها حديث ، يشركون خلال فاجعة اغريقية ولو أنه قد يظهر ممثل واحد فى أجزاء مختلفة من مشاهد مختلفة . وأقوال الرسل التى تجىء كثيرا فى روايات المساة الاغريقية تعيد الى الذاكرة الفواصل القصصية ، التى كانت فى عهد أسبق .

(٣) « نقد الشعر » فصول ٥ و٢٦ وازن الفصول ٤ و٢٣ و٢٤ .

(٤) ان التمثيلية كلها كانت شعرا واستخدمت أوزان الشعر الغنائى فى الاغاني المذهبية والوزن iambic القدم الذى يكون فيه النبر على المقطع الثانى ($\bar{u} = \bar{u}$) هو القدم iambic) الذى لا تصحبه موسيقى ،

ويتكون من ستة أقدام («أعظم الأوزان قابلية للنطق» كما يقول أرسططاليس) فى الديالوج والأحاديث . ويوضح كولريدج Celeridge وزن iambic بالعبارة « الأوزان iambic تسير من القصير الى الطويل » ويقول السيد =

(٢) وكانت الأحوال الخارجية التي أنتجت فيها الروايات لها تأثير على خصائصها . لأنها ، لسبب ، كانت تمثل فى الهواء الطلق فى مسرح نحت فى منحدر الأكروبول على مقربة من معبد ديونوسيوس وكان يشهدها حشد عظيم من المتفرجين ربما يبلغ عددهم زهاء ثلاثين ألفا يجلسون فى منحنيات متحدة المركز ، ترتفع فوق الفرقة الموسيقية والمسرح اللذين كان موضعهما فى القاعدة^(١) . وقد جعل هذا من الضرورى استخدام الوسائل الاصطناعية لمساعدة النظر والسمع ، والأحذية ذات النعال العالية لرفع قامة الممثل والتحشية والأقنعة التى ترمز للدور الذى يمثل ، وقد ركبت فيها أنابيب للتحدث ، لمعاونة الصوت حتى يصل الى أقصى مداه . ولقد عظمت هذه الأدوات ، بالضرورة ، الصفة التقليدية للفاجعة الاغريقية التى كانت تمثل الأنواع فى أشخاص الأفراد . ومع هذا فقد نجح واضعو الفاجعة والممثلون الاغريق باتقانهم الصنعة ، فى التغلب الى حد كبير ، على هذه الحوائل . ويمكننا أن نتتبع نمو وضع خصائص الفرد ونحن نسير من أسخولس الى سفوكلس ومن سفوكلس الى يوريديس . ولكن حتى فى آخر تطور لها ، كانت الفاجعة الاغريقية أبسط ، الى حد بعيد ، فى مدارها وتكوينها ، من الفاجعة فى أوربا الحديثة^(٢) . (٣) وكان شعراء الفاجعة ، كالرياضيين فى الألعاب ، يضاول الواحد الآخر ، للظفر بجائزة . وعندما نذكر أن كل متسابق كان يقدم أربع روايات تمثيلية فى احتفال واحد وأن المباريات كانت كثيرة وتقع مرارا عديدة ، فيمكننا أن نقدر وفرة الخلق الفاجعى فى أثنينا القرن الخامس . وليست الروايات التمثيلية الباقية لدينا وهى سبع فاجعات لأسخولس وسبع لسفوكلس وثمانى ليوريديس ، واحدى عشرة مسلاة لأرستوفانس ، الاجزاء يسيرا من مجموع المؤلفات الدرامية التى أنتجها هؤلاء وشعراء غيرهم من ذلك العصر ، كثيرون . وكان لغشيان هذه الاحتفالات المسنم والدربة التى اكتسبت فيها على الحكم بالجوائز ما أتى ، فى زمن كانت فيه الكتب نادرة ، بتأثير تعليمى له قيمة خارقة العادة ، على الجمهور

= فرنون رندال Mr. Vernon Rendall « ان المقادير الانجليزية قلما تكون واضحة ، ولكن قد تكون أكثر وضوحا فى الكلمات الأجنبية التى أدخلت الى اللغة الانجليزية مثل a rose, a canthus, asphodel, Chrysanthemum (iambic - مكونة من I à m - النبر فيها على المقطع الثانى - المترجم) (١) وعلى هذا كانت التمثيليات منظورة و (بفضل الوسائل التى اشير اليها فى النص) كانت مسموعة لحشد عظيم كالذى يجتمع فى زمننا لمشاهدة مناظرة تجريبية أو مباراة دولية فى كرة القدم . (٢) على سبيل المثال ، كان يوجد مجال أقل الى مدى بعيد ، من الفاجعة الحديثة ، للمدار الفرعى^٥

الأتيني . ونعلم من توكيد أفلاطون لأهمية مقاييس الانشياء الفاجعى ،
الحقة ، من الوجهة الحلقية على تدريب الاحداث ماكان لتعليم الشعراء من أثر
عميق على عقول المستمعين ^(١) . وكما فى السياسة ، كذلك فى الأدب ،
لابد أن المواطن الأتيني كان فى جميع الأحوال ، حكما صادقا ، لما له قيمة
جمالية ، ان لم يكن المبتكر له .

١٠ - ويشير الشاعر شلى فى عجالة ، سبب لنا أن اقتبسنا منها ،
الى الفاجعة الأتينية قائلا انه « مما لا نزاع فيه أن الفن نفسه لم يفهم فظ
أو ينتهج وفق فلسفته الحقيقية ، كما فى أتيينا » . وبعد أن وكد الحصلة
العقلية للفن الهليني ، كما سميناها آنفا ، يضيف : « لان الأتيين استخدموا
اللغة والتمثيل والموسيقى والتصوير والرقص والمنظمات الدينية لكى
ينتجوا تأثيرا عاما فى تمثيل الملل الأعلى فى ذروته ، للعاطفة والقوة ، وكل
قسم فى الفن وصل به فنانون وانتمهم مهارة فى أبعد حدها ، الى مرتبة
الكمال فى نوعه وفوم فى تناسب جميل ووحدة ، الواحد تجاه الآخر .
وعلى المسرح الحديث ، لا يستخدم الا الغليل فقط من العناصر القادرة على
التعبير عن شكل تصور الشاعر ، فى آن واحد . ان لدينا المأساة دون
موسيقى ورقص وموسيقى ورقص دون أعلى تمثيل للشخصيات وهو ما يلىق
أن تصاحبا ، وكلاهما دون دين ووفار . لقد أصبح من المعتاد ابعاد التعليم
الدينى عن المسرح ، فى الواقع » ^(٢) . انه هذا الترابط الوثيق بالعرف
الدينى ، هو الذى تتألف منه أعظم خصائص الفاجعة الأتينية ظهورا . وكان
يحتفل بأعياد « الفاجعة » تكريما لاله الطبيعة ديونوسسيوس وقد عقدت
رياستها لكاهن ديونوسسيوس على مقربة من معبده بمصاحبة المراسم
الدينية ^(٣) . وفى وسط الأوركسترا orchestra أو حلبة الرقص ،
كان يقوم « حجاب الاله » ولقد كان شهودها واجبا من واجبات الفن مفروضا
على كل مواطن صالح . وكجزء لا يتجزأ من عبادة دولة - المدينة ، فان الأعياد
كان يعهد بها ، بصفة مباشرة ، الى الحكام المدنيين . وتقدم الروايات
التمثيلية نفسها الأمثلة العديدة عن الشعور بحب الوطن الذى يجيش فى

(١) أفلاطون ، الجمهورية : ٢ و ٣ .

(٢) شلى « دفاع عن الشعر » .

(٣) ليكن معلوما أن المأساة والمسلاة كليهما تنتهجان فى الأصل الى
ديونوسسيوس أى الى دين التاله المتميز عن الدين الأولمبى . وفى القرن الخامس ،
فان أبولو وهو الاله الأولمبى المثالى ، وليس فى خدمته تاله ولكن معرفة
بالذات خالصة - يأتى فى الفاجعة بما يلىق له ويتركز دين سفوكلس حول
أبولو . انظر ولادوتز - مولندورف Wilamowitz-Moellendorff

محاضرة عن أبولو (اكسفورد - مطبعة كلارندن ١٩٠٨) .

نفس الشاعر . وكان مدار الرواية - على الأقل في المأساة - يستمد من المعتاد ، من قصص الآلهة والابطال التقليدية ويمكن أن يستمد على مدى وتوسع هذه المادة من الحقيقة الواقعة وهي أن أكثر من مائتين من مختلف الموضوعات ، على ما هو معروف ، عالجها واضعو الفاجعة في القرن الخامس . وعلى هذا ، كانت الفاجعة الاغريقية تدور حول مواقف متتالية وحوادث كانت - على الرغم من الحرية التي كان يسمح بها للشاعر في معالجة الشخصيات والوقائع المفصلة - مألوفة تماما للمستمعين الذين كانوا يعتقدون أنها وقعت فعلا في أزمنة البطولة ، المواضي . ومن هذا كله ، قام في عقل الجمهور الاثيني ترابط وثيق بين شعر الفاجعة وتعاليم الحقائق الخلقية والصلاح . ويقوم الدليل على أن الأمر كان كذلك حتى في المسلاة من دعوى أرسطوفانس بأن شاعر الفاجعة كان المعلم الخلقى للمواطن البالغ ^(١) . ولكن كان الثلاثة العظام من واضعي المأساة ، أسخولس (٥٢٥ - ٤٥٦) وسفوكليس (٤٩٦ - ٤٠٦) ويوريبيدس (٤٨٠ - ٤٠٦) هم الذين أودعوا في تقاليد الاغريق الدينية معنى روحيا جديدا . وسعى أسخولس في لغة أوحث مرارا بأنها تتماثل مع بصوص جاءت في النبوة العبرية لكي « يبرر طرق الله للناس » وأن يفسر سيادة زيوس القديرة حتى يمكن أن يجعل البر الالهى على نوائق مع حقائق الألم والحطية ، وأن يلائم بين فوانين الجبرية والقدرية التي لا ليان فيها وحرية الارادة البشرية ^(٢) . وفي سفوكليس تمثل المراسيم الالهية بأنها تعمل عن طريق خليعة الانسان ، الوسيط الخفى ، والحيد دون تعقل والعمل الاحمق الذى يكون وليد العماية والجهل ، يستنزلان القضاء غير المتوقع على طبيعة هي ، دون هذا ، نبيلة ^(٣) . وكان الشاعر على دين أبولو ، اله

(١) أرسطوفانس « الضفادع » ٢ ، ١٠٠٩ و ١٠٥٥ وازن ٦٨٦ : « انه جد خليق بالجوق المقدس أن يقدم النصيح ويعلم المدينة ما هو صالح » وفى ١٥٠٠ وما بعدها ، حيث يدعو Plutus أسخولس بأن ينقذ دولة - المدينة الاثينية بالنصائح الحسنة . وفى الجوق السابق (١٤٨٢ وما بعدها) يبين فى وضوح النقيض بين حكمته ومهاترة سقراط التي لا طائل تحتها ويدور كل المشهد الختامى (١٤١٨ وما بعدها) حول وظيفة شاعر المأساة فى المحافظة على الدولة .

(٢) راجع على الأخص برومثيوس المقيد Prometheus Bound وربما كان يظهر الملحق ، برومثيوس الطليق Prometheus Freed زيوس وقد روضه الألم على الشعور الانسانى .

(٣) هكذا كان مصير أوديب Oedipus فى « أوديب ملك » راجع أرسطط « نقد الشعر » فصل ١٣ ومأساتان (تراجيديتان) شبيهتان نجمتا عن الخطأ فى الحكم والنوازع العمياء تكونان موضوع عطيل Othello والملك =

الطهارة والنور ، بكلمة النداء التي تضمنها « اعرف نفسك » ومثله الأعلى لقواعد السلوك السفسرسونية Sôphrosyné وهي تتعارض مع تأكيد الذات وكبرياء الحياة (هيرس Hubris) وفي جد خلقي معادل ، ولو أنه يعبر عن مذهب الشكاك الدينى الذى يتناقض مع التقى المحافظ فى سالفه ، مزق يوربيدس ، قناع التبجيل الذى كان يخفى أفعال وخصال الآلهة عن التحليل النقدي ، وفى واقعية لا هوادة فيها ، أظهرها للعيان كما كانت فى الواقع . ويخال أنه يقول : انكم تطلبون الحقيقة وها أنا ذا أعطيها لكم ، إذا كانت هذه الأمور ، كما تعتقدون ، حدثت فعلا فان الآلهة الذين ارتكبوها لم يكونوا صالحين ولكنهم كانوا أشرارا ، وليسوا آلهة مثاليين ولكن قساة ينزوعون الى الانتقام وفيهم شر عواطف النوع الانسانى . لقد كانت صورة مزعجة ، تلك التى رسمها ، تعبر عن المزاج الذى تغير فى عصر عقلى المذهب وكان يوربيدس كذلك جادا الى غور عميق فى هذا التحليل الذى لا رحمة فيه للعقيدة الصادقة ، ونى عزمته التى لا يعترئها وهن ، لان يرى الحق ، وأن يواجه حقائق الحياة . وفوق كل شئ فى اشفاقه على الضعيف والمنكوب ، على النساء والأطفال والأسرى والعبيد وعلى جميع الضحايا الذين لا عد لهم ، لجور الانسان والقانون الطبيعى (١) . وكان قد وافى الزمن عندما كانت القوى خارقة الطبيعة لعقيدة أسبق ، تخلى السبيل لقوى الطبيعة ، أمام العقول المفكرة . ولكن بمجرد أن أصبح هذا جليا ، فان مهنة الشاعر ، كمعلم للمعرفة صار مقضيا عليها وتطلع الناس الى العلم ، وليس الى الشعر ، للهداية فى البحث عن الحق .

= لير King Lear وعن دهاء الخليقة ، راجع فلوكتينس Philoctetes ويبين مصير دينرا فى طراخنيا Trachiniae ، جيدا كيف أن الأمل والخوف يتحدان فيعيان حكم امرأة ضعيفة ويستغويانها الى موارد الهلك - راجع عليه فصل ٦ ، ١٢ .

(١) توضح هبوليتس Hippolytus هذه النقاط . ومن الناحية الأخرى ، تبين أنه كان فى قدرة يوربيدس أن يندمج فى روح ديانة ديونوسوس . وكلما كان القرن يتقدم فى مده ، كانت تؤخذ قصص الآلهة فى حد أقل ، وبينما كان الجمهور الأثينى المثقف يسير وفق عبادات دولة المدينة فانه كان متشككا فى صراحة . ويمكننا أن نتتبع فى صور الأوانى ، فى ذلك الزمن تحول الاهتمام من الموضوعات الدينية الى مسائل الصناعة فى تجميع الأشكال وانجازها . وهكذا كانت الحال فى فن عصر النهضة فان الدافع التعبدى يخلى السبيل أمام الدوافع الجمالية الخالصة ، فى معالجة صور العذراء Madonna

١١ - وكانت « المأساة » قد وطدت لنفسها مكانا في أئينا قبل الحروب الفارسية . ولكن كانت تلك الأزمة وما أعقبها من توسع الحياة العامة الأثينية هما اللذان أوجدا الحافز في سبيل تقدمها . ان كل واحد من واضعي « المأساة » ، الثلاثة العظام يمثل أحد العصور الثلاثة التي ينقسم إليها تاريخ أئينا القرن الخامس ، بطبيعة الحال . كان أسخولس فد حارب في مراثون وفي مصنعه « الفرس » وضع في صيغة الفاجعة الانتصار البحري في سلاميس . وبن سموكليس هو التعبير الذي وصل الى مرتبة الكمال لمنالبة عصر بركليس . ويعبر يوربيدس ، كما لاحظنا ، عن القلق العفلى الذي يبسط روافه فوق أئينا في سنى الحرب البلوبونيزية . ولكن في المسلاة الأتيكية نجد أعظم آصرة مباشرة بين الفاجعة والحياة المدنية الأثينية . وكان أرسطونانس ، كمعظم شعراء المسلاة ، محافظا أضفى المثل الأعلى على الديموقراطية المعتدلة في زمن الحروب الفارسية . ولما كان ذا منحى شخصى وفيه مجانة رابلية Rabelais لدرجة لا يمكن تصورها في أحوال الحياة الحديثة فانه هال التهكم ، في رواياته التمثيلية ، على الاتجاهات الجديدة فى الشعر والفلسفة والسياسة ، التى قامت فى الثلث الأخير من القرن (١) . وفى الفرسان (٤٢٤) كان همدنا لسخريته كليون Cleon السياسى الديموقراطى وفى « الدباير » (٤٢٢) المحلفون فى محاكم القانون الشعبية وفى « العصافير » (٤١٤) أحلام الامبراطورية الجامحة التى أدت الى الكارثة الصقلية وفى « الضفادع » (٤٠٦) فن يوربيدس الحديث ، وهو الذى يمثل فى « المأساة » الثقافة الجديدة وفى « السحج » (٤٢٥) آراء وتعليم سقراط وفى لبسستراتا Lysistrata (٤١١) و « السيدات فى البرلمان » (٣٩٢) مطالب النساء فى أن يسهموا فى الحياة العامة للمدينة ، المطالب التى نادى بها الكلبيون من أتباع سقراط وبعد ذلك أفلاطون فى « جمهوريه » (٢) . ان لأغانيه العاطفية التى تتناثر فى رواياته التمثيلية جمالا خارق العادة . ومن مظاهر « الكوميديا القديمة » التى أتاحت للشاعر فرصة خاصة للتهكم الشخصى كانت « براباسس Parabasis » وهى بقية من احتفالات القربة الصاخبة ، القديمة ، وفيها كان الجوق يستدير فى وسط الرواية التمثيلية ويخاطب الحاضرين بأغنية فيها مساس بأشخاص أو بموضوعات اليوم . ولقد أوقع سقوط أئينا وانتهيار سياستها الديموقراطية ، الضربة القاضية على مثل هذا النقد السياسى

(١) كانت لغظة « الكوميديا القديمة » مغزى تعبدى ، ومن الضرورى أن نتذكر هنا كما فى كل مكان فى الفاجعة ، علاقتها الوثيقة بالعبادات الدينية .
(٢) راجع « الجمهورية » الفصل الخامس . العنوان الاغريقى لرواية أرسطوفانس التمثيلية هو Ecclesiazousai ومعناه الحرفى « أعضاء الجمعية الشعبية » ، ecclesia من الاناث .

الصريح . والحال مع الشعوب كالحال مع الأفراد في أنهم يستطيعون فقط الاستمتاع بالسخرية طالما كان وعيهم بالأمان باقيا لا يتزعزع . وفي ساعة القوة ، كان الأثينيون يحذون حق كل مواطن في الإفصاح عن دخيلة عقله دون أن تقيده قوانين القذف . وقد عبر عن حرية الكلام هذه التي اختصوا بها ، أصرح تعبير في « الكوميديا القديمة » . ومن الجهة الأخرى فإنه بقيام القرن الرابع ، كفت المسلاة عن أن تكون شخصية أو تعنى بالسياسة وكانت « الكوميديا الجديدة » كوميديا أخلاق تصور طرزا من الحياة الاجتماعية في مناهج اتبعها الرومانيان فلاوطس Plautus وطرنس Terence وفي الأزمنة الحديثة مولير Molière وواضعو الفاجعة الانجليزي في عصر الإصلاح . وقد شاهد نفس العصر تدهور المأساة . ولكن أعمال واضعى الفاجعة في القرن الخامس تظل مع نحت فيدياس من عداد جلائل الأعمال التي بلغت الذروة التي قامت بها العبقريّة الهلينية في مجال الخلق الجمالي . وفي عبارة شاعر معاصر وهو يجيل الفكر في تمثال زيوس الهائل الذي صنعه فيدياس من ذهب وفضة لمعبد الومبيا وفي المأساة التي صور فيها أصخولس المارد الجبنار الذي وهب الناس النار و لغتون وقد صفده بالأغلال ، « على القوقاز المغطى بالصقيع » ، طغيان الاله ذاته ، التلق .

قضى الاله العظيم المصنوع من ذهب وعاج ، عندما سقط الندى عشية أمس أن رغام الأرض أو زبد المحيط رمز رأسه .
والأرض والمحيط سيكونان ظللا ، عندما يحين حين بروميثيوس (١) .

١٢ - لقد كان موطن أدب النثر الاغريقي ايونيا حيث تطور الى صورتين ، الفلسفة والتاريخ (٢) . وقد سبق أن تحدثنا عن الفلاسفة الايونيين الأوائل . كان اناكسيماندر أول من عرف أنه صنف كتابا . وكان

(١) سوينبرن Swinburne « أثينا » و « الفاجعة » المشار اليها هي بالطبع « بروميثيوس المقيد » . ولا يغيب عن القارىء تأثير نماذج وقوانين الانشاء التي قدمها واضعو الفاجعة الاغريقية وأرستطاليس في « نقد الشعر » على الأدب الفاجعى الأوربي في القرنين السابع عشر والثامن عشر وهو تأثير كانت نتيجته ، من وجوه عدة ، أشكالا صورية مصطنعة . وتوضيح « فاجعات » كلدرن Calderon وكورنى Corneille وراسين Racine وفولتير Voltaire هذا التأثير في مستويات من الجودة متباينات . ويمكن أن يشار في هذه المناسبة الى Samson Agonistes للنتون و Iphigenie لجوته . ولكن « بروميثيوس الطليق » Prometheus Unbound لشلى تمثل روح الفاجعة الاغريقية تمثيلا أبعد من هذا بكثير في قدرته .

(٢) كذلك كان الحديث المنظوم في الفاجعة وكان الوزن Iambic من

أصل ايونى .

أدب اليونان الغربية شعرا حتى شسوط بعيد في القرن الخامس عندما أدت دراسات جورجياس الصمقلى الفصاحية الى تطورات هامة في كتابة النثر ولو أن فارميدس وأنبادقليس كانا قد أوضحا فلسفتها نظما . وكان أول مؤرخ نقدى ، هقطايوس Hecataeus من أهل ملىطوس وكان له دور بارز في الثورة الايونية ضد الفرس . وتبين كلمات كتابه الافتتاحية ، المحفوظة في جزادة أنه ضرب على نعمة علمية جديدة بالموازنة بتواريخ البلدان ، الاخبارية في جيل أسبق . ويتحدث هقطايوس الملىطوسى ، انى اكتب كما ارى أنه صدق لان تقاليد الاغريق تخال لى أنها متعددة ، ومضحكة^(١) . لقد خلق الاغريق التاريخ ، كما خلقوا الفاجعة ، اذ كانوا أول من فهم كنه حقيقتها الجوهريتين ، التفرقة التي لم يدركها قط في وضوح مؤرخو الجوليات الشرقيون بين الواقع والخرافة والحاجة الى تفسير للحقائق المدونة يقوم على الاستدلال العقلى^(٢) . والقول أنهم قذفوا بشخصيتهم فى كتابتهم ودونوا انطباعاتهم وأحكامهم هو طريقة أخرى فقط لذكر الدعوى نفسها . لقد كان التاريخ العبرى لا ينسب الى اسم بعينه ، انه كان تنساج جماعة . وحتى الأنبياء يضعون التمهيد لرسالتهم ليس بالعبارة « هكذا يقول أشعيا بن عاموس » ولكن « هكذا يقول الرب » . لقد كان المؤرخ الاغريقى كالفيلسوف الاغريقى يتكلم كل منهما باسمه الخاص . « هذا هو عرض لبحث هيروdotس الهلقرناسسى Halicarnassus » و « كتب ثقيوديدس الاثينى عن حرب البلبونيزيين والاثينيين » . ولقد فعلوا ذلك عن صواب لان التاريخ والفلسفة على السواء ، يعبران عن نقد المفكر الفرد نقدا تأمليا لحقائق الحياة . ولقد وصل البنا مؤلفان تاريخيان عظيمان من القرن الخامس وكلاهما يرتبط ارتباطا وثيقا بأثينا فى عصر بركليس . ان هيروdotس اتخذ موطنه هناك أعواما

(١) مرى Murray - « الأدب الاغريقى القديم » .

(٢) وعلى هذا فان الساميين ، على الرغم من كل احساسهم بالمغزى الدينى للحوادث التاريخية ، لم يتركوا تاريخا جديرا بهذا الاسم . والأسفار التاريخية فى العهد القديم ، على سبيل المثال ، ليست الا مجرد تاريخ اخبارى ، التعبير عن حكم جماعى وليس فرديا . وكان الاغريق أول من أقاموا الحكم على الماضى بالاستدلال العقلى . وكان مدلول كلمة historié فى الأصل واسع النطاق - كان معناها « البحث » وكانت تنسحب على جميع البحوث فى مسائل الواقع ، والتاريخ الطبيعى والجغرافيا وعلم الانسان (انثروبولوجى) وكذلك التاريخ السياسى . ولقد نبئنا أن مؤرخا اغريقيا من القرن الرابع (افورس Ephorus) وجه اللوم فى صراحة لادخال الأسطورة (mythos) فى التاريخ

قبل أن يلحق بمستعمرة بركليس في ثوري Thuri في ايطاليا الجنوبية ، وكان تفوديدس أثيني المولد وتشبع في حدائته بتقاليد سياسة بركليس العظيمة . وكان هيرودوتس رحالة نافذ البصيرة وزار مصر وفينيقيا وبابل وسواحل الأوكسين وكذلك كل أرجاء العالم الهليني ونزعت المنحمة للاستطلاع والرغبة في فهم ما يسمعه ويراه « الأعمال العجيبة التي قام بها الاغريق والهمج وخاصة لتذكر الأسباب التي لأجلها شن هؤلاء الحرب ، الواحد على الآخر » مما يجعله على الراجح أعظم من توفرت فيه الحصاص الاغريقية من بين جميع الكتاب الاغريق (١) . وفي السياسة الهلينية تجيش فيه عواطف قوية نحو أثينا والحكومة الديمقراطية . انه مرارا وتكرارا يظهر المساواة في القوانين وحرية القول ضد دعاوى الطغيان (٢) . وفي منهاج العقل ، له صفات النوع لجيل كان يتأرجح على خط الحد بين التصديق والتشكك . انه يوشك على الدوام أن ينبئنا بأن تقاليد شعبه الدينية حكايات عجائز ولكنه لا يستطيع قط أن يوطن نفسه تماما على أن يقول ذلك . وهو يرى الى ما وراء كل الطبيعة وتاريخ البشر ، يد اله خفي « اله يشكل مصائرنا ، وينحتها في أول صورة ، لما سنكون » . ولقد ظفر ، بعدالة ، باسم « أبي التاريخ » ليس لمجرد أن تاريخه هو أول تاريخ موجود يفرق بين الحق والحرافة ويسعى الى معرفة أسباب الأمور التي تحدث ولكن أيضا لأنه سعى أولا الى أن ينظم قصته لغرض واحد وهو أن يستعرض قيام فارس والقصص التي لحق بها حطيتها hubris ، باستخدام اليونان أداة لذلك (٣) . وكان موضوع

(١) ولد هيرودوتس في حوالي عام ٤٨٤ في هلقرناسس في آسيا الصغرى الجنوبية الغربية وزار أثينا حوالي عام ٤٥٠ واستقر في ثوري عام ٤٤٣ وكان قاريا Carian في تبعته ، ايونيا في ثقافته وأثينا في عواطفه وآخر اشارة في كتابه (٧ فصل ٢٣٣) هي الى الحوادث التي وقعت في العامين ٤٣١ - ٤٣٠ في بداية الحرب البلوبونيزية والعبارة المقتبسة جاءت في الجملة الافتتاحية من الكتاب الأول .

(٢) انظر الفصل §٤ ٥ تذكرة ا عاليه ووازن بالنصوص التي أشير اليها فيه ، ٥ ، ٧٨ و ٩٢ وما بعدها (عن الطغيان في كورنت كتوضيح لمساوته) وعن وطنية أثينا الديمقراطية ٧ ، ١٣٨ وما بعدها و ٨ ، ١٤٣ وما بعدها .

(٣) عن خطبة خشيارشاي راجع ٧ ، ٧ وما بعدها وعن غير العناية الربانية وعدم ثبات رخاء البشر ١ ، ٥ ، ٣٠ وما بعدها . والأسفار ١ - ٥ تصل بالتاريخ حتى الثورة الايونية والسفر ٦ حتى انتصار مراثون بينما تسرد الأسفار ٧ ، ٩ قصة غزو خشيارشاي . كان في نية هيرودوتس أن يكتب تاريخ حرب التحرير (راجع ٧ ، ٢١٣) ولكنه ترك عمله دون أن

ثقوديدس أكثر تركزا ونظرته للأمر أعظم مراعاة للنهج العلمي ، وكان هدفه تدوين الحرب البلوبونيزية حتى سقوط أثينا عام ٤٠٤ (١) . وبينما يسرد هيروdotس قصة الخطيئة الفارسية hubris بكل ما لدى فنيان أدب من سماحة واستفاضة مزهوا في بهاء الظفر الرائع ، فان ثقوديدس سجل قصة أثينا في وقار صارم كثيب تدفعه الرغبة الوحيدة في كشف الغطاء عن الحق في واقعه المرير . وبين المؤلفين ، حدث ليس فقط سقوط أثينا ولكن عصر الاستنارة . وفي اللغة وأكثر من ذلك في الفكر ، ينتمي ثقوديدس الى صفوف السفسطائيين . ولما كان يكتب كسياسي لتعليم السياسيين ، فانه يحلل في دقة أسباب ونتائج الظواهر الخلقية والسياسية (٢) . ولقد أشرنا الى قصته عن الحملة الصقلية التي دونها في شدة فاجسية لا مثيل لها في الأدب التاريخي لأن ثقوديدس كان يعتقد كما كان يعتقد يوربيدس أن مناهج الحياة البشرية لا تقرر عوامل خارقة للطبيعة ولكن يقرره القانون الطبيعي . وهو يبدي ضيق تشكك تام في قبول الدعوى بوجود دافع لعمل الانسان لا غرض من وراءه وله كل ايمان رجل ينتهج المذهب العقلي ، بالعقل كفتاح يكشف أسرار خلائق الرجال ومسلكهم . وأخيرا في الأحاديث التي يزخر بها مؤلفه ، يمكننا أن نتتبع تأثير فن الفصاحة الجديد الذي كان موطنه صقلية

يتمه . ولقد أدمج ثقوديدس خلاصة السنوات ٤٧٨ - ٤٣٢ في السفر : ١ ، ٨٩ - ١١٧ من تاريخه .

(١) لقد كان ثقوديدس منفيًا عن أثينا لمدة عشرين عاما نتيجة لفشله كقائد للأسطول لانقاذ أمفيبولس Amphipolis في سنة ٤٢٣ . ولم يكن صديقا للديموقراطيين الذين جاءوا بعد بركليس (مثل كليون Cleon) وكان من أعوان مذهب التحرر المعتدل البركليسي . ولقد عاش بعد سقوط أثينا (٤ ، ١٠٤ - ٧ و ٥ ، ٢٦) ولكن سار بتاريخه فقط حتى عام ٤١١ . وقد استمر اكسنوفن Xenophon في كتابه Hellenica وهو عمل أقل مرتبة من عمل ثقوديدس ، في القصة من هذه المرحلة حتى موقعة منطينا Mantinea (٣٦٢) .

(٢) راجع على الأخص ، العبارة الافتتاحية (١ : ١ - ٢٢) - قصة الطاعون في أثينا وأثرها الخلقى (٢ : ٤٧ - ٥٤) الدراسة التحليلية للثورات السياسية (٣ : ٨٢ - ٤) عرض القصص الأثينية والطفيان الامبراطوري (١ : ٧٤ - ٨ ، ٣٧ : ٣٧ وما بعدها ٦٦ : ٨٣ وما بعدها وفوق كل هذا الديالوج الميلي ٥ : ٨٤ وما بعدها) والمقابلة بين الخليقة والسياسة الأثينيتين والاسبارطيتين (١ : ٧٠ ، ٢ : ٣٥ - ٤٦) وكذلك Cornford Thucydides Mythistoricus

ولكن سرعان ما وجد جوا صالحا فى اثينا (١) . وفى الربع الأخير من القرن الخامس ، بدأ يكون له أثر حاسم على النثر الأتيكى . واتخذت الخطابة فى المحاكم والسياسة مكانا معترفا به ، كصورة لفن أدبى . وفى القرن الرابع ، لا نجد المستوى العالى للخطابة الاغريقية فى خطب ديمسثينس فقط ، ولكن فى ديالوجات أفلاطون الفلسفية ، العمل الجليل الذى وصل الى أعظم كمال فى النثر الذى عرفته اليونان والعالم على الاطلاق ، فيما هو راجع .

٣ - السفسطائيون وسقراط

١٣ - لاحظنا أن تاريخ ثقوديدس ، وتراجيديات يوريبيدس ، وكوميديات أرسطوفانس على السواء ، فى مختلف طرائقها تحمل طابع الحركات التفكيرية الجديدة ، التى كانت تروج فى العصر البركليسي ، وكانت نزعة الفكر المتزايدة تتجه نحو مسائل النظرية الخلقية والسلوك . وكان بعض هذا يرجع الى شعور بالاصطدام بالواقع فيما يتصل بالبحوث الطبيعية فى الحقبة السابقة ، وكانت خطوط التفكير المتنوعة قد أنجزت حتى تمامها وأصبح يواجه الناس تيه من النتائج المتضاربة التى يبدو ان التوفيق بينها كان مستحيلا . ولقد قنطوا من الوصول الى اليقين فى مثل هذه المسائل ، وتحولوا الى السعى نحو معرفة لها اتصال مباشر أعظم ، بالحياة العملية . وكذلك غدا للعلم الطبيعى نواحى تخصص أكثر ، وكان المتخصصون يميلون الى استنكار اقتحام الفيلسوف للأمكنة التى هى حرم لهم . وعلى أية حال فإن المشكل الخلقى كان ينادى بأعلى صوت لمعالجته وفقا لمناهج البحث العقلية . ولقد رأينا فى الفصل الأخير ، كيف أن نقدا للمقاييس والمنظمات الخلقية ،

(١) عن خطب ثقوديدس راجع «الكلمة الافتتاحية» من وصفه (١ ، ٢٢) وعجالة جب Jebb فى Hellencia . والخطبة الجنازية التى اقتبسنا عاليه (§ ٥) تكاد لا تكون شيئا غير ، تقرير دقيق لعبارات وحجج بركليسي وربما أقيمت على مسمع من ثقوديدس نفسه .
ومما يسترعى النظر عند قراءة أعمال المؤرخين الاغريق (والرومان) قريبا الوثيق للشعر وخاصة الشعر الفاجعى فى الصيغة والفحوى والغرض . ولقد كانوا يفهمون التاريخ على أنه شئ جد مختلف عما يذهب اليه تصورنا فى القرن العشرين . انه كان فنا وليس علما ولم يكن يدرس قط ، كما تدرس العلوم ، فى الجامعات . فضلا عن هذا ، فانه كان يكتب لتقوية رجال الأعمال . ويبدى كونطليان Quintilian ملاحظا (Inst. Orat. ١٠ ، ١) § § (٣١ ، ٣٤) : « ان التاريخ يأتلف ائتلافا وثيقا بالشعر ويمكن أن يشبه بقصيدة منشورة وغرضه هو السرد وليس اقامة البرهان وقيمته الرئيسية هى فى تقديم أمثلة لتعليمنا ، »

كان النتيجة المنطقية للجهد الذي يبذل للعثور على جوهر دائم يقع فيما وراء تغيرات الطبيعة المادية . ولقد عمل على تنمية الاهتمام ، الذي استيقظ حديثا ، بالمسائل التي تتصل بقواعد السلوك ، الأحوال الخاصة للحياة العامة في أئينا الديمقراطية ، والطموح العام لمقياس أعلى ، في الدين والأخلاق الذي جهد الشعراء ، على تحقيق بغيتيه . وكان العهد من عام ٤٥٠ وما بعده عهد خصب خارق للعادة ، في النقد وفي الانشاء على السواء ، في الفكر السياسي والذي يتصل بقواعد السلوك ، وقد مهد هذا كله الى ثورة قوية الاثر في حياة الاغريق العقلية ، وعن طريق الاغريق في الحياة البشرية . ولأول مرة في التاريخ ، سلط نور العقل الصافي على مسألة سلوك الانسان . ولقد كان عصر استنارة كالعصر الذي أطلقت عليه مثل هذه التسمية ، في أوروبا القرن الثامن عشر ، حيث كان فيه فولتير قطب الرحى . وكما أن الاستنارة الحديثة أدت الى فلسفة « كانت » الانشائية العظيمة ، فكذلك مهد العصر الأسبق الطريق لفلسفة أفلاطون . ويمكن أن يعتبر قول فروطغراس : « الانسان مقياس كل الأشياء » دليل ذلك العصر (١) . وقد قام اعتقاد واسع النطاق في العالم الهليني مؤداه أنه في المهن الخاصة وفي الفنون ، على السواء ، وفي فن العيش على وجه عام ، لا سبيل للنجاح بغير اعداد من المعرفة يقوم على الاستدلال العقلي ، وأن الفضيلة (areté) لا تعتمد على القدرة الطبيعية أو على هبات الثراء وحسب ، كما كان يتوهم الناس على وجه عام ، ولكن على عدة من النظريات المكتسبة . وقد قامت الحاجة الى نوع جديد من التعليم تأهب له وقام على تنشئته لفيث من المعلمين النابهين وقد جعل أساتذة الثقافة الجديدة معرفتهم تأخذ وجهتها نحو المران على الحرب والموسيقى والزراعة وكذلك التدريب الأكثر تخصصا على الفروسية وفن المسرح والطبخ . وقد وضعوا كتباً للتعليم أطلق عليها technai (فنون)

(١) وقد شرع فروطغراس من أهدرا في طراقية ، الذي ولد حوالي عام ٥٠٠ وتوفي حوالي عام ٤٣٠ ، لمستعمرة بركليس في ثوري . وقد طلب الى أحسن عقول في اليونان القيام بهذا العمل . ولقد وضع تخطيط المدينة هبودامس من مليطس ، أعظم مهندس معماري وكان هيرودوتس ، كما ذكرنا آنفا أحد سكان المستعمرة . ومعنى قول فروطغراس ، الذي اقتبس في النص ، أن حكم أي فرد كان المعيار لما كان مرغوباً فيه أن يفعل أو لا يفعل في أي موقف عملي . وبعد ذلك طبق المبدأ آخرون لدعم نظرية عن نسبية المعرفة ، أي ، أن أي شيء يدركه الانسان ادراكاً حسيّاً يكون صادقاً لديه عندما يدركه . وأن هذا هو الصديق الواحد الذي يمكن الوصول إليه . راجع ثياططس لأفلاطون (Plato's Theaetetus) عن هذا التطور ، ونقداً له على أنه القول الفصل ، كأي شيء في الفلسفة يكون كذلك .

عن طائفة عظيمة من مثل هذه الموضوعات ، وعلاوة على هذا كله ، فإنهم كانوا يعلمون الفصاحة ، فن مخاطبة الجماهير الذى كان لا غنى عنه للاستقراطي الذى كان يجد نفسه على الدوام مهددا باتهامات أمام المحاكم الشعبية وللشباب الطامح الى مراتب الشرف السياسى فى محكمة القانون وفى الجمعية . ولقد اثر نهوض الفصاحة لا على خاصية الحياة العامة الاغريقية فحسب ، ولكن على تطور الأدب الاغريقى عن طريق الفنيين القريبين له ، النحو والأسلوب ولكن أهميتها الكبرى كانت فيما قدمته من تدريب على السلوك العام ، فى الحياة العامة والخاصة . عندما سأل سقراط فروطراس ، فى ديالوج أفلاطون الذى يحمل اسمه ، ما الفوائد التى سيحصل عليها تلميذه الحدث ، أجاب بأنه سيعلمه أن يتكلم وبذلك يجعله يوماً بعد يوم مواطناً أفضل وأكثر قدرة على الاضطلاع بالشئون سواء أكانت شئون دولة - المدينة أم شئون بيته الخاصة (١) .

وفى الواقع استهل واضعو الفصاحة عهداً جديداً فى البحث الخلقى ،

ان الالفاظ رموزاً لأفكار ، ودراسة التعبير عن الأفكار الخلقية يترتب عليه تحليل الأفكار نفسها .

١٤ - وكان يطلق على القائمين بالتعليم الجديد السفسطائيين Sophists وكان معنى اللفظ ببساطة أساتذة الحكمة (Sophia) ولم يكن بعد قد اتمت بالدلالة التى كان مصدرها أفلاطون ، بأن الحكمة التى جهروا بها كانت خدعة (٢) . ولقد قدموا من جميع أصقاع العالم الهلنى ، وكانوا يرتحلون

(١) أفلاطون ، فروط : ٣١٨ - ١٩ وازن ٣٢٨ و « الجمهورية » ٦٠٠ ، ويجب دراسة الديالوج بأجمعه على أنه مثال لتعليم السفسطائيين . ولقد قال اسقراطس فى القرن التالى ان السفسطائيين كانوا يدعون أن أولئك الذين يأخذون العلم عنهم « سيعرفون ماذا يجب أن يفعل وعن طريق هذه المعرفة يحققون السعادة » .

(٢) ان ما يوحى به التعبير مبدئياً هو التعليم المهنى ، ولو أنه يطلق أيضاً فى معنى أوسع على أى رجل حكيم ، كأن يكون شاعراً . ان هيردوتس يدعو صولون سفسطائياً . ولقد كان السفسطائيون كثيراً ما يأخذون أجراً عن تعليمهم ، وقيل أن فروطراس سمح لتلاميذه فى نهاية الفترة الدراسية ان فروطراس كان أول من سمى نفسه سفسطائياً . ولقد كان أفلاطون بأن يدفع كل منهم ما يعتبره موازياً لتعليمه . ويقول أفلاطون (فروطغ ٣١٧) يفرق بين الفيلسوف الصادق والسفسطائى تفريقاً دقيقاً مطبقاً نقيضته المحبوبة « حقيقى » و « ظاهر » راجع غرغ . Gorg. : ٤٦٣ ووازن سف Soph. ٢٢١ « الذى يتمرس بفن من فنون الخديعة ، الذى دون معرفة

من مدينة الى مدينة ويلقون المحاضرات والتعليم غير الرسمي فى جميع فروع المعرفة (١) .

وقد ادعى هيبياس (Hippias) وهو أحد جماعة السفسطائيين الذين قدموا الى الفروطغراس ، بأنه أستاذ كل فن ، وعلاوة على ما قدمه من بحوث ذات قيمة حقيقية فى علمى الرياضة والفلك فانه كان يعلم علم التقويم وعلم اثاره الذاكرة (mnemonics) وعلم الأصوات ودراسة الايقاع ونظرية النحت والتصوير والموسيقى والمهن الصناعية . وقد جاء فى قصة أنه ظهر فى الألعاب الاولمبية وهو يرتدى ملابس ، كلها من صنعه .

وقد كان أيضا عالم أخلاق وشاعرا وخدم دولته الوطنية كسفير ، ومن الخطأ الظن بأن علم السفسطائيين كان سطحيا لأنه فى تلك الأزمنة ، كان من الأيسر أن يكون المرء عارفا بعلوم وبقنون عديدة عما هى عليه الحال الآن - حيث تتطلب المقادير العظيمة من المواد ، التخصص .

وراء عداء أفلاطون للطراز ، يمكننا أن نتبين احترامه الصادق للمفكرين العظام من أمثال غرغياس وفروطغراس ، ولقد قال الأخير : « ان الثقافة لا تزدهر فى الروح الا اذا سبر المرء أغوارها » ولم يكن السفسطائيون شيعة تلتزم مبدأ منتظما ، وانا اذا التمسنا نظيرا فى العصر الحديث ، قاننا نجده فى الصحفيين فى زمننا أو فيما كان للكتاب أمثال هكسلى Huxley ورسكن Ruskin وماثيو أرنولد Matthew Arnold من تأثير على الرأى العام الفطن فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر (٢) . وكان فى مقدور

حقيقية بما هو خير يمكنه أن يضىقى على نفسه مظهر تلك المعرفة « . وهكذا قال أرسططاليس فى « الفصاحة » Rhet : ١ و ١ و ٤ « مدع يداجى بالمعرفة مستخدما ما يعلم أنه باطل بغرض الحديعة والكسب المالى » ولقد كان جورج غروط George Grote (تاريخ اليونان : ٨ فصل ٦٧) هو الذى أنقذ صيت السفسطائيين من الوصمة التى ورثوها من أفلاطون وأرسططاليس . وفى هذا ، سبقه الى حد ما ، هيجل .

(١) مثل غرغياس ، من ليونطيتى فى صقلية ، وهبياس من الس Elis وفردقس Prodicus من الجزيرة الابجية قاوس Ceos واثراسومخس Thrasymachus (راجع « جمهورية » أفلاطون : ١) من خلقسندون Chalcedon

(٢) أو ، مرة أخرى ، هيربرت سينسر . ومن بين الكتاب المحدثين « يمكن موازنة مستر برنارد شو وهـ . جـ . ولس بالسفسطائيين الاغريق . ويمكن أن نجعل الفكر أيضا فى التوسع السريع فى جامعاتنا فى تطبيق تراث العالم القديم

أفلاطون أن يحقر السفسطائي وينعته بأنه « مصدر بالجملة لبضائع روحية صنعها آخرون » ، وفي أحوال معينة كان للزراية ، دون ريب ما يبررها . ولكن كان بينهم عدد ليس بالقليل جمعوا في أشخاصهم مواهب الوسيط العقلي ومواهب المفكر المبتكر .

١٥ - وكانت المناقشات التي تتصل بعلم الأخلاق ، التي أثارها تعليم السفسطائيين تتركز حول لفظي طبيعة (physis) وعرف (nomos) (١) . وقد اختلف أفراد السفسطائيين اختلافا بعيد المدى في النتائج التي وصلوا إليها ، فكان بعضهم مثل هيباس يذهب الى أن أساس الواجب الخلقى هو قانون الطبيعة غير المكتوب ، الأبدى والالهي ، في حين يعتقد غيرهم مثل ثراسومخس Thrasymachus أن الحق للقوة بموجب قانون الطبيعة أو ، مرة أخرى ، أن العدالة الاجتماعية كانت تصالحا مصطنعا فرضه على القوى الضعيف ، في الدفاع عن النفس . وأنكر غيرهم أيضا مثل فروطغراس ، وجود أي مبدأ طبيعي لا يتغير وكانوا يعلمون أن قواعد العرف في المدينة يجب أن يقبلها ويراعيها المواطن (٢) . وتهمي هذه المناقشات في نغمتها . شبيها يلفت النظر بتلك التي جرت في استنارة أواخر القرن الثامن عشر والتي تضمنتها كتابات روسو Rousseau وتوم بين Tom Paine ووليم جوردون William Godwin .

وفي مقدمة إعلان الاستقلال الأمريكي وفي بيانات الثورة الفرنسية وفيما أثاره في زمننا ، المنادون بدعاوى الانسان الأعلى (السوبرمان)

النظريات على الأعمال ، في الزراعة والهندسة والتجارة والعلوم الاجتماعية وبخاصة أعمال الرعاية والخدمة الاجتماعية . ومن شأن التعليم في زمننا أن يعمل لأجل الكثرة ما كان السفسطائيون يدعون عمله نحو القلة .

(١) Nomos = « العرف » وكذلك « القانون » أي ما يكون من وضع الإرادة البشرية ويمكن أن يشرع أو يلغى ويختلف باختلاف الزمان والمكان . وكثيرا ما يستخدم في معنى « القانون والعادة » كما جاء في نص لأرستطاليس (علم السلوك - ٥ فصل ٢ § ١) بأن ما لا يأمر به nomos فإنه يمنعه . (٢) عن آراء هيباس راجع اكسنوفن Mem. : ٤ ، ٤ وازن انطيوخون ، كسفوكلس ٤٤٩ - ٥٧ عن مبدأ مماثل . وعن ثراسومخس ، راجع أفلاطون « الجمهورية ١ » ووازن خطاب غلوقن Glaucon في مستهل الكتاب الثاني . ويجي حكم أفلاطون النهائي عن التناظر التاريخي بين nomos, physis « في القوانين ٨٨٩ » .

والدولة العليا ضد قيود التقديرات (١) الخلقية التقليدية ، وانها لتمثل عبقرية الاغريق ، في ادراك المشاكل الجوهرية والدائمة في سلوك الانسان ، ولقد افاضوا البحث في موضوع الطبيعة والعرف ذاته ، في متنوع تطبيقاته ، على أصل المجتمع واللغة ومركز المرأة والرقيق الاجتماعى ، واقامة نظام الملكية الخاصة وصحة التقاليد الدينية (٢) .

وكان نتاج المناظرة استخلاص تصور أكثر صدقا ، عن الطبيعة والطبيعى على أنهما يعينان ، ليس حالة بدائية وهمية تتجرد عن كل اكتسابات اجتماعية ، ولكن بالحرى الادراك التام لطبيعة الانسان الاجتماعية ، وكان هدف أفلاطون في « الجمهورية » - الكشف عن هذا المثل الأعلى لشخصية انسانية ، اكتملت لها خصائصها ، وبهذا يشفى الانقسام الجافى بين نفع أو صالح الفرد وذلك الذى يكون للمجتمع .

وسنعود فيما بعد الى حله للمشكل ، وهو الذى جعلته بحوث السفسطائيين الكنفدية ميسورا . ولو أن تعليمهم كان ينحو منحى التشكك ، وبهذا اثار الحصومة المريرة فى المحافظين أمثال أرسطوفانس ، فقد ثبت مع هذا أن نتائجها كانت فى جوهرها انشائية ، وكان من الضرورى التحليل التام للمعتقدات التقليدية ، اذا كانت القيم الخلقية ليعاد صوغها على مبادئ عقلية ، وقد اتى نقد السفسطائيين النفاذ بالثمار على مذهبه أفلاطون وأرستطاليس ، التفكيريين .

(١) كان الانسان الأعلى superman موضوعا شائعا فى اليونان فى النصف الاخير من القرن الخامس ، وكان يمثل البطل هرقلس Heracles راجع تمثيلية أريفيدس « هرقلس المجنون » . وعن الدولة العليا راجع الديالوج الميلى Mellian dialogue فى ثقوديدس .

(٢) عن أصل المجتمع - راجع أفلاطون - فروطغراس صفحة ٣٢٠ وما بعدها والجمهورية : ٢ (خطاب غلوقة) . أما عن الرق فانظر التذكرة الاضافية عن هذا الفصل . ويجب ألا يغيب عن الذكرة أنه بينما كانت الثقافة الاغريقية تقوم ، دون ريب ، على أساس الرق فان الاغريق كانوا أول شعب شك فى مبرراته . وعن الشيوعية راجع أفلاطون : الجمهورية - ٤ ، ٤١٦ - ١٧ و ٥ . وينتقد أرستطاليس - السياسة : ٢ هذه الآراء وخطط فلياس الخلقدونى Phaleas of Chalcedon لوضع تعادل بين الملكية الحقيقية وامتلاك الدولة للعبيد ، وما يترتب عليه من رقابة الدولة على الصناعة وعن مركز النساء ، راجع أول التذكرات الاضافية فى هذا الفصل .

١٦ - وأبعد المفكرين شهرة ، فى ذلك العصر ، دون منازع كان سقراط الاثيني (٤٦٩ - ٣٩٩) أعظم معلم بشرى عاش على الاطلاق (١) . وبين فيض العبقرية التى ازدانت بها أثينا فى النصف الأخير من القرن الخامس كانت شخصيته فريدة ولها تأثير فى الروح ، الى أقصى حد . كان مظهره الغريب وأساريره - الشكل البدين والرأس الصلعاء ، والأنف المفرطح والشفتان المكتظتان والعينان الجاحظتان - يذكر أفلاطون بصور اله الغاب سلنوس Silenus وكان يسير فى خيلاء وهو حافى القدمين مهلهل الثياب، خلال شوارع أثينا « كابن الماء » كما يقول أرسطوفانس ، وكانت عاداته وسمته يبعثان الانزعاج فى نحو غريب ، عندما كان يفاجئ جماعة من السفسطائيين أو الصاحبين فى وليمة ، أو نبلاء أحداث فى حلبة المصارعة ، أو وهو واقف فى تجهم وصمت مددا من الزمن فى طريق المرور أو فى المدخل ذى العمد وقد استولت عليه غيبوبة تألهية (٢) . والهاتف الداخلى أيضا - (الشئ الالهى) "daimoneon" كما كان يدعو - الذى كان يقدم اليه النصيح فى صوت مسموع ليتجنب الخطر فى اللحظات الحاسمة فى حياته وينهاه على سبيل المثال ، من ولوج السياسة ، كان مما يتفرد به عن غيره من معلمى زمانه (٣) . ولقد كان يعيش فى فقر نسبي ويحقر أن يستولى على أجر عن القيام بما كان يعتبره رسالة الهية ، وكان يقف فى معزل عن السبيل المعترف بها للوصول الى الميزات المدنية ، الا فى فرصتين حدثتا فى ختام حياته عندما أجبر على أن يكون فى الطليعة فى السياسة ، وأظهر الاستقلال

(١) ان أهم المصادر للمعرفة بسقراط هي مذكرات اكسنوفن Xenophon's Memorabilia والسحب "Clouds" لأرسطوفانس وديالوجات أفلاطون . وما ذكر فى النص يرجع أصلا الى المصدر الأخير . وليس من الميسور فى هذا المؤلف مناقشة الأتهامات التى تحدو الى رفض اعتبار سقراط أفلاطون ، أسطورة فاجعية . وللقارىء أن يرجع الى كتابات الأستاذين بورنت Burnet وتايلور Taylor (اللذين أثرت آراؤهما على ما أورد هنا) على أن يذكر أن ما وصلا اليه من نتائج ليس ، بأية حال موضع قبول عام . ومع هذا فان المؤلف مقتنع أنه اذا لم يقبل أفلاطون على أنه المصدر الأساسى عن سقراط ، فمن المستحيل تقديم تفسير مفهوم لفلسفة أفلاطون أو تأثير سقراط أو « تهكم » أرسطوفانس . راجع بورنت من ناليس الى أفلاطون Thales to Plato وتايلور «متنوعات سقراطية Socratica Varia» ومقدمة طبعة بورنت لكتاب أفلاطون Phaedo

(٢) أفلاطون "Symposium" - ندوة الفلاسفة ٢١٥ - ٢٢ وعن الغيبوبة Sym. : ١٧٤ - ٥ قابل أرسطو : الغيوم : ١٥٠ .
(٣) عن daimonion راجع Apol. : ٣١ ، ٤٠ ، و Rep. : ٦ .

الذي كان ديدنه في مقاومة وصاية الديمقراطية ووصاية الطغيان ، على السواء (١) . ومن الوجهة الأخرى ، فإنه خدم في مناسبات عديدة في بسالة ظاهرة في الميدان ، وكانت شجاعته الشخصية مضرب الأمثال في جميع أرجاء اليونان (٢) . ولم يكن سقراط معنزلا ، ولم يكن في طبيعه شيء من الصرامة التي تكون في الأرستقراطية العقلية أو زهد المتطهرين .

وكآخر - كان يأتي طاعما شاربا ، وكانت رقة حاشيته صفة تميز بها كضبط النفس الذي أثار إعجاب وحسد معاصريه . وكان سر تأنيره في قوة شخصيته وفي سحر حديثه . وفي هذا ، كما كان أيضا في مظهره العجيب ومسلكه ، ورحابة اهتمامه الانساني وميله الشديد للجدل ووجهه للمدينة التي لم يغادر حيطانها قط الا عند الاحتجاج - « انى أنعشق المعرفة ، والناس الذين يقطنون بالمدينة هم معلمى ، وليس الاشجار أو الريف » (٣) . فإنه يورد الى ذاكرتنا أحيانا دكتور جونسون ، ولم يترك أية كلمة مكتوبة ، ولكنه عاش مدى سبعين عاما تحت بصر الجمهور ، ينفق أيامه في محادثات مع أقرانه من كل صنف وحالة ، الأغنياء ، والفقراء ورجال السياسة وقواد الجيش والشعراء والمفكرين والوضعاء من رجال الحرف والنسوة الدنيويات ، محادثات يصفها أفلاطون بأنها مضحكة عند أول سماعها . وحديثه يدور حول الحمالين والحدادين وراتقى الأحذية ، وهو أبدا يكرر نفس الأشياء في نفس الألفاظ حتى ان أى جاهل أو أى شخص غمر لم تصقله التجارب قد يحس ميلا الى الضحك منه . ولكنها ألفاظ هي في صميمها الألفاظ الوحيدة التي تحمل معنى في مطاوها والتي هي الهية الى أعظم حد ، وتزخر بالجميل من صور الفضيلة ومفهومها أعظم ما يكون رحابة ، أو بالجرى تنسحب على واجب الرجل الخير الكريم ، بأجمعه (٤) .

١٧ - وعندما يلخص أرسططاليس ما أضافه سقراط لتاريخ الفكر في عبارة « الاستقراء والتعاريف العامة » فإننا نتعرض الى هزة من الرجوع للواقع وذهاب الوهم (٥) . ان عمل حياته لا بد أنه كان يعنى أكثر من ذلك . ان أرسططاليس بالطبع معنى بخدمة سقراط للمنهج الفلسفى وكل باحث يعلم كيف أن اصلاح المنهج يعلن مقدما عن كل تقدم حاسم في تاريخ العلم . وفضلا

-
- (١) كانت المناسبتان في ٤٠٦ و ٤٠٣ راجع أفلاطون . Apol. : ٣٢ .
 - (٢) راجع Symp. فى النص المذكور .
 - (٣) أفلاطون : Phaedr. ، ٢٣٠ .
 - (٤) على فم القبيادس ، يمتدح سقراط . Sym. ٢٢١ - ٢ .
 - (٥) Met: ١ ، ٦ ، ٨ ، ٤ .

عن هذا - فان استقراء سقراط كان يتضمن الاعتراف بطبائع الأشياء ، الحقيقية التي تشتمل عليها مظاهرها المحسوسة ، بينما «التعريف» واعتباره كما في اعتبار أرسططاليس لم يكن مجرد ألفاظ ، ولكن التعبير الدقيق عن جوهر الأشياء المعرفة . وفي حدائته ، كما تعلم من « الغيوم » ومن نص عن تاريخ حياته في « فيدو » لأفلاطون كان سقراط باحثاً شغوفاً في المذاهب الطبيعية التي اكتسحت وقتذاك الميدان . ولكنها عجزت عن ارضائه لأنها كانت تتحدث فقط عن « كيفية » الأشياء وكانت رغبته تجنح الى معرفة « أسبابها » ، وخرج من نفس الباب الذي دخل منه ^(١) . والفيتاغوريون وحدهم ، الذين هدتهم البحوث الرياضية الى التفكير في حقيقة فطنة تقع الى الخلف من مرأى الظواهر المحسوسة ، كان يظهر أنهم يبينون الطريق الذي يؤدي الى هدف مسعاه ، المعرفة التي يدعمها الاستدلال العقلي بالخير المثالي . ولقد كان سقراط مفكراً يسير على النهج العلمي ومتألفاً دينياً في الوقت عينه . وكان ايمانه بالعقل لا تطفأ غلته - انه كان ابن اليونان الصادق في اعتقاده أنه فقط بالكبح العقلي تستطيع روح الانسان أن تصل الى رؤية الحق الكامل ، ولهذا كان تفويم الفلسفة في نفس الوقت ، انجاز دعوة دينية . وقد حفظت القصة التي تحكي كيف أنه وهو بين الثلاثين والأربعين عاماً من عمره أعلن مهبط الوحي في دلفي أن سقراط أحكم الناس، وعلى ذلك استدعى الى الرسالة التي خصص لها بقية حياته ^(٢) . وقد سأل نفسه كيف يتأتى ذلك بما أن الله وحده هو الحكيم وهو ، سقراط ، لا يعلم من الحكمة شيئاً . ولدينا هنا التفسير لتصور سقراط لأروس Eros أو الحب ، وليد الوفرة والحاجة الذي كان يتلاعب حوله في أحاديثة مرة في مزاج ومرة في جد عميق - الفكرة أن الانسان خليفة عالمين ، ويتوسط الطريق بين الجهل والمعرفة وخلاصه يكون في التعطش بعاطفة عنيفة للحكمة "Philosophia" ذلك التعطش الذي يقود الروح صعوداً من حب مسائل الحس الزائلة ، الى حدس جمال عقلي ، نوره وحده هو مصدر النعمة والحق لحلم الحياة القلق ^(٣) . وقد صدق سقراط مهبط الوحي بقوله : « انه ولو لم يؤت من العلم شيئاً آخر ، فانه يعلم أمراً واحداً - جهله هو ، بينما كان غيره يظنون أنهم حكماء وهم ليسوا على شيء من ذلك . وهذا هو « تهكم » سقراط (irony) منهج

-
- (١) راجع Phaedo : ٩٦ وما يليها . في مطلع شبابه ، قابل سقراط فارمنيدس وزينون وكذلك فروطغوراس : أفلاطون : Parm. : ١٣٠ : ١٣٥ و Protag., : ٣٦١ .
- (٢) Apol. : ٢١ وما يليها .
- (٣) شلى «ترنيمة للجمال العقلي». Hymn to Intellectual Beauty . راجع Symp. : ٢١٠ وما يليها .

سقراط في المناقشة بادعاء الجهل) الذي كان ينير مثل ذلك الدهش والضجر في سائليه (١) . كيف كان يستطيع أن ينقذ أرواحهم بالكشف عن معرفة هو لا يزال يبحث عنها - الا باقناعهم بجهلهم هم ، وبذلك يوقظ فيهم الرغبة فى أن يعرفوا ؟ وهذه كانت فى الحق الرسالة التى تهيأ لها فى ولاء لا تترتبه كلاله ، أن يأتى بالفحص على موازين الرجال فى السلوك والغايات التى يحبونها ويعيشون لأجلها ويختبرها بمنطق صارم مبدد ، الى أن ينزاح عن السامع طمأنينته ويقر أنه أصبح مثلولا ولا حول له . . . ولقد قال سقراط « ان حياة لم تفحص لا تستحق العيش » (٢) .

وقد شبه نفسه بنعرة أرسلها الله ليلسع حصانا كريما هو الشعب (demos) الأثينى ليخرجه من عموة الجمول ، ومرة أخرى يشبه نفسه بقابلة روحية تأتى بمولد أفكار صادقة فى أرواح الناس (٣) . وعلى هذا يمكن أن نتخيله وهو يسأل انجليزيا معاصرا - ماذا كان يعنى على وجه التدقيق بمثل هذه التعبيرات ، الشرف "honour" الرجل المهذب "gentleman" أو مسيحي "Christian" ولماذا حدا به الطموح لدخول البرلمان « ولماذا أرسل ابنه الى الجامعة أو الى مدرسة عامة .

وكان سقراط يعمل دون هوادة ليكشف غموض آراء الناس فى مثل هذه المسائل وأنهم لم يقطعوا بالتفكير فيها نهاية الشوط أو يواجهوا بديلا لها ، وفوق كل شئ أن نظراتهم ومراسمهم العملى لم يكونا الا انعكاسا باهتا لرأى يمثل المستوى العام لما يراه العالم المحيط بهم . وهذا يعتبر الموضوع ذا الاهمية القصوى الدرّة غالية الثمن ، الخير الأعظم وغاية الحياة! .
وعلى هذا ، اتخذ تعليم سقراط ، صورة سلبية تكذب مغزاهما الحقيقى .
وتخلى عن لقب معلم لأنه كان يعلم أن الحكمة المنقذة يجب أن يظفر بها كل انسان لنفسه ، وأن مهمته الخاصة تكون فقط فى أن ينتزع حجاب الجهل الذى يخفى الناس عن أنفسهم . والمعرفة بالذات وهى شعار معبد دلفى ، كانت الشئ الوحيد الذى يحتاج اليه فى الحياة وقوام الفضيلة .
وكان يقول ان الرذيلة هى الجهل، أو اذا اقتبسنا ما يظهر أنه طرفا نقيض

(١) Symp. : ٢١٦ - sty = Eiron ماكر (بورنت الذى يقابلها باللفظ الاسكتلندى "Canny") . كان يوجد الكثير من الحس المشترك فى سقراط ويستخلص من تهكم رفضه اطلاق « معلم » عليه . Apol. : ٣٣ .
(٢) Apol. : ٣٨ .

(٣) Apol. : ٣٠ ، ٣١ ، Theaet. ، ١٥٠ ، ٣٥١ راجع أيضا Meno ٧٩ ، ٨٠ لما كان من تأثير على سامعيه .

«لا يخطئ» أحد بارادته الحرة» (١) . وكان يعلم أن الرخاء دون معرفة بالذات كان مصدر نصف التعاسة والشر في حياة البشر ، وكان يعلم أيضا ، وأفرط في علمه ، كيف أن الناس ، يغتفرون أى شيء الا اظهار جهلهم لهم وكيف يمقتون ممتا مريرا تحطيم شعورهم بالرضى عن ذواتهم ، ذلك الرضا الذى قبروا فيه ارواحهم . وقد أنبأ قضااته « لم أكن غير عليم بالعداوة التى اثرتها ونالنى الأسى والخوف من ذلك ولكن الضرورة وضعت على - ورايت أن كلمة الله يجب أن يكون لها الاعتبار الأول » (٢) . والقاعدة الرئيسية التى وضعها لآخوانه المواطنين بأنه يجب عليهم « أن يراعوا ارواحهم » ، كانت تحمل دلالة ، تميز عصرا ليس فى الفلسفة الاغريقية وحسب ، ولكن فى الفكر البشرى بأجمعه عن الروح ، وكانت الروح (Psyché) تعنى للاغريقى العادى فى القرن الخامس ما كانت تعنيه لهومر ، وكما سبق أن رأينا (٣) ، للعبريين كذلك ، بأنها أصل الحياة الذى يغادر الجسم عند الموت ويسير الى العالم السفلى حيث يعيش كشبح لا حياة فيه ، فى حالة دونوعى . ان أمر الناس بمراعاة مثل هذه الروح ، كان استخدام ألفاظ لا معنى لها . ومن الجهة الأخرى ، فان المعلمين الأرفيين والفيثاغوريين ميزوا فى تحديد واضح الروح بأنها الهية ، وعلى ذلك خالدة ، عن الجسد الذى احتبست فيه عقابا لحظيئة ما قبل الميلاد ، وهى فى غفوة الا فى أحلام التنبؤ وكانوا يعلمون طريقا للخلاص ، بالتنظيف من الحاجة الى العود للجسد . ومثل هذه الطريقة للتنظيف يمكن على اليقين أن توصف بأنها «مراعاة الروح» . ولكن سقراط كان يعلم شيئا آخر يختلف عن أى من هذين الرأيين . لقد رأى فى هوية الروح شخصيتنا الواعية ، الذات التى تقلك القدرة على النشاط العقلى - التفكيرى والعملى كليهما - الذى اذا ما روعى فى عناية فانه يجد تعبيرا له فى المعرفة العلمية وفى الطبع الخلقى على السواء . وكان هذا مبدأ ثوريا وجديدا على الاطلاق ، ويمكننا أن نفهم فى يسر ما كان له من مغزى لسقراط والعداوة التى أثارها فى جماعة سامعيه الذين فزعوا لما كان ينطوى عليه من معان ، وأخرجهم عن طمانينتهم (٤) .

(١) المعرفة بالذات : Phaedr: ٢٢٩ و Mem., Xen. : ٤ ، ٢ ، ٢٤ وما يليها . الخير هو المعرفة Laches : ١٩٤ و Protag. : ٣٤٥ و Apol. : ٢٥ راجع Mem, Xen. ٣ ، ٩ ، ٤ و Ethics, Arist : ٣ ، ٧ ، ٣

١١٤٥ ب ، ٢١

(٢) Apol. : ٢١ ح .

(٣) راجع ما سبق فصل ٣ § ١٥ تذكرة ١ .

(٤) راجع بورنت عن مبدأ سقراط عن الروح (Proc. Brit. Acad., 1915-6) أعيد طبعه فى « مقالات وخطب » ، (Essays and Addresses London 1929, pp. 126-62.

١٨ - وجاءت النهاية عام ٣٩٩ عندما وصل سقراط الى سن السبعين ، وقد وجد أنه أذنب في تهمتين - عدم التقى وفساد الشباب وحكم عليه بالموت - والعجيب حقا هو أنه تأجل زمنا استطال بهذا المقدار وكان الأثينيون كغيرهم من الشعوب الأخرى يحدوهم ميل للاشتباه في أولى العقل ولم يظهر سقراط قط أنه يضمير للديموقراطية ودا . وكان يعتقد أن الحكومة السياسية ، كأي ناحية أخرى من نواحي العمل ، يجب أن تكون في أيدي أولئك الذين يعلمون . وفوق هذا كله ، وهنا قوة الاتهام - عد من بين المقربين الى سقراط رجلان يحملان من بين الكافة ، المقت الذي نجم عن سقوط أثينا حاكم القلة اقريطاس وهو أحد الطغاة الثلاثين الذين أقامهم الاسبرطيون لتولى زمام الحكم بعد استيلائهم على المدينة والسيادس الذي أدى به مطمحه الجامح أولا الى الحوض على الحملة المشؤومة الى صقلية ، وبعد ذلك الى ما قدمه من نصيح لأعداء أثينا عن السياسة التي كان فيها دمارها . ولم يكن هذا ، في نظر الديمقراطيين الذين أعيدهوا للحكم الا ثمرة التعليم الجدي فعداوا باللائمة على سقراط باعتباره المصدر الحقيقي لما أصابهم من محن . على أية حال كانت عداوتهم سياسية وليست دينية ، لأن سقراط كان يحرص أدق الحرص على المحافظة على عبادات المدينة . وكما حدث ، فانه كان قريبا من الحكم ببراءته . لو أنه رضى بالانسحاب الى النفي ، أو لو أن دفاعه لم يتخذ صورة تبرير رسالته تبريرا لا يقبل مساومة ويغلب أن يكون فيه زراية ، لكان قد أنقذ حياته دون ريب . ولكن طبيعة سقراط لم تكن لتهيب ، أي سبيل لفكرة المساومة على التصالح . لقد أقامه الله حارسا ويجب أن يكون امينا على حراسته . وقد دفع عنه ما عرض عليه من فرار من السجن ، اذ عده عملا ينطوى على عدم ولاء لقوانين أثينا التي في كنفها ولد ونشأ ، كما ولد ونشأ والداه ، ومات يتجرع السم (١) ، شهيدا في سبيل العقل وحب الحق (١) . وهو برفضه أن ينكر ما كان يعتبره

(١) hemlock - شوكران - صرو - درست (فارسية) Conium

masculatum l. (المترجم) .

(٢) راجع Apology و Crito و Phaedo لأفلاطون

ولفايدو الذي خص بها رفاق سقراط الفيثاغوريين ، أهمية خاصة (١) في أنها توضح تأثير الأفكار الأورفية والفيثاغورية على سقراط وأفلاطون ، عن الروح والفلسفة على أنها نهج في الحياة والصور (أو الأفكار) على أنها موضوعات المعرفة الحقة ، (ب) للتمهيد الذي يعالج السيرة حيث يسرد سقراط تاريخه العقلي المبكر ، (ج) للمشهد الحتامى الذي يصف موت سقراط وربما كانت أعظم نص في الأدب المنشور بأجمعه . ويذكر هجل (فلسفة التاريخ ٢٨١) أنه ولو أن سقراط أدى واجبه في ولاء نحو دولة المدينة ، فان عالم الفكر ، وليس أثينا ، هو الذي كان موطنه الحقيقي .

رسالة الهية ، ولو لمجرد انقاذ حياته وفي رفضه أن يرتكب ضرا ضد سلطة القانون ، بتجنب العقوبة التي أوقعتها المحاكم فان سقراط يقدم أعلى مثال للمعارض الذي يهتدى بضميره .

٤ - افلاطون

من بين رفاق سقراط الاحداث ، كان أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧) وهو ثرى أثينى من أسرة كريمة خصص أعوام نفيه الاختيارى التي أعقبت الحكم باعدام استناذه لتلك الكتابات التي حفظت ذكرى عقل سقراط وشخصيته أحسن حفظ . ويقع خارج نطاقنا أن نتتبع أثر ينبوع الفكر ، الذهبي الذي يفيض خلال الديالوجات الأفلاطونية (١) . ان هذه نماذج عليا بلغت الغاية في الاستدلال العقلي الذي يسير على النهج العلمي ، وفي الفن الفاجعى ، على السواء . ويمكننا أن نقدر تمام التقدير كيف أن أفلاطون ، فى صدر شبابه اجتذب الى كتابة الشعر . ولم تفسح الصورة الديالوجية المجال فقط أمام خيال الفنان ولكنها كانت تعكس - بطبيعة الحال - الحركة الحية لمحادثات سقراط وتصور أفلاطون الخاص للمنهج الفلسفى على أنه المحاولة الصاعدة للأرواح

(١) لقد وصلت الينا جميع كتابات أفلاطون . ولا يمكن أن تذكر هنا الأسباب التي حدثت الى تحديد ترتيبها التاريخى لدرجة عظيمة من الاحتمال . ويمكن أن تذكر النتائج كالاتى لارشاد القارىء فى أول تعرف بأفلاطون . والترتيب بين كل حقبة أكثر مدعاة للشك .

الحقبة الأولى - (بين ٣٩٩ وحوالى ٣٨٧) :

Crito, Apology, Euthyphro Euthydemus, Cratylus, Lysis, Laches, Charmides, Meno, Gorgias, Protagoras,

(والثلاثة الأخيرة كانت فى ختام الحقبة) .

الحقبة الثانية - (حوالى ٣٨٧ الى حوالى ٣٧٥) :
Phaedo, Symposium:

(مبكرا) و Phaedrus, Republic

الحقبة الثالثة - (حوالى ٣٦٧ الى حوالى ٣٦٠) :

Politicus Sophist . (أو السياسى) Parmenides, Theaetetus,

الحقبة الرابعة - (حوالى ٣٦٠ الى ٣٤٧) :

Critias, Timaeus, Philebus Laws.

و « الجمهورية » هى نقطة التحول عندما بدأ فكر أفلاطون ، الذى كان دائما لا يننى يتحرك ، فى الانتقال الى ما يوالى خطوط فلسفة سقراط ، وفى الديالوجات الأخيرة ، لا يكون سقراط (الا فى فليبيس Philebus) بعد ، المتحدث الرئيسى . وعن الموضوع برمته راجع بورنت Thales to Plato وتذكرة ١ § ١٦ . ورسائل أفلاطون اما أنها أصلية واما أنها على أية حال وثائق معاصرة عظيمة القيمة .

المتقاربة ، بمصاولة العقل للعقل في السعى وراء الحق المطلق^(١) . ومن بين هذه الكتابات تقدم « الجمهورية » التي وضعها بعد عودته الى أثينا ، وعندما بلغ نضج عبقريته مداه ، أفضل مدخل الى دراسة فلسفة أفلاطون^(٢) . ولقد أوجزت أعظم ايجاز في مدى جميع الديالوجات وتستهل بالسؤال ماهي العدالة ؟ وهي تضع صورة للمجتمع المثالي ولتقدم الروح صوب الحكمة الفلسفية وتختتم بصورة للحياة فيما يلي القبر . ويعالج مسائل علم الأخلاق والسياسة وعلم النفس والتعليم والأدب والفن والدين والعلم في وحدة حية كموامل في مسألة الكون الموحدة ، مفكر كان موضع فخاره الذي يزهو به أن يكون « المتفرج على الزمن كله وعلى الوجود كله »^(٣) . ولكن جاء الإلهام لأفلاطون ليس فقط بدافع الفلسفة ليعرف الحق ، ولكن أيضا عن عاطفة منحمسة للإصلاح العملي . ومنذ حدائته عندما كان يتطلع الى ولوج الحياة العامة في أثينا وطنه حتى رحلته الأخيرة ، في شيخوخته الى صقلية التي كانت على غير طائل ، كانت تستبد به رغبة مستعرة لكي يخلص أرواح الناس وأن يقيم ، على قدر ما كانت تسمح به الأحوال الدنيوية ، مدينة الله ، على التربة الهلينية وعنده ، كما كان عند أستاذه سقراط ، كانت الفلسفة أبدا « نهجا في الحياة » وكان قد تعلم من سقراط أيضا أن الخير كان المعرفة وأن الأساس الوحيد الوطيد للسلوك العملي كان الإدراك الذي يقوم على الاستدلال العقلي ، لمبدأ الخير . وعلى هذا فان المسألتين ، التفكيرية والعلمية أوجدتا لأفلاطون حلها المشترك في الفلسفة ، في معرفة يجب أن تكشف حقيقة العالم الداخلية ، كخير مثالي وتكون الهدف لعمل الفرد والمجتمع . ما كنه هذه المعرفة ، وكيف يستطيع الانسان الوصول إليها ؟ هذه هي الاسئلة الاصلية في فلسفة أفلاطون .

٢٠ - ولم يخامر أفلاطون ريب قط في أن المعرفة يجب أن تكون معرفة ما هو كائن وموضوعها يجب أن يكون له وجود حقيقي . وعنده أن الحقيقة

(١) ان تعبير أفلاطون عن الفلسفة ، كعلم وكنهج على السواء هو dialectic وهو مستمد من الفعل dialegesthai (= يتحدث) ويرتبط بلفظ « ديالوج » . ويقول أفلاطون ان الروح ، حتى عندما يكون الانسان مشغولا في تفكير منعزل ، تنساجي نفسها في ديالوج (Theaet., 189, Soph., 263) . وكان أفلاطون نفسه يفضل التعليم الشفوي على العبارة المكتوبة راجع - Phaedr. : ٢٧٥ وما يليها .

(٢) ربما أكملت الجمهورية في الوقت الذي كان فيه أفلاطون مشغولا بتأسيس الأكاديمية بين حوالي ٣٨٧ وحوالي ٣٧٨ . وكان حينئذ بين الأربعين والخمسين من عمره .

(٣) "Rep." الجمهورية : ٦ - ٤٨٦ .

لا يجب أن تكون قابلة للمعرفة وحسب ، ولكن المعرفة يمكن فقط أن تكون بما هو حقيقي . إذن أين يوجد الموجود الحقيقي ؟ اعتقد هرقليطس أن كل ما يوجد في عالم الحس هو في تغير لا ينقطع يصير أبدا الى وجود وينقطع عن أن يكون موجودا ، ولا يظل ثابتا في وجود . وطبق أتباع فروطغراس هذا المبدأ لئيبنوا كيف أن كل مظهر عابر ، على الأقل في مجال الحس ، كان حقيقيا بالنسبة للفرد القادر على الإدراك الحسي في لحظة ادراكه الحسي ، ولقد جردت هذه الآراء الحقيقة من كل معناها ولم يستطع أفلاطون أن يظل قانعا بها وعلى ذلك ، سيق مثل سقراط قبله الى أن يلتمس الموجود في مكان آخر غير عالم الحس . وبين التأمل في تفكيرنا الواقعي أنه يشمل مواضيع من نوع جد مختلف عن معطيات - الحس لأن هذه يمكن معرفتها فقط بمعاونة التصورات العامة التي تدرك ليس بالحواس ولكن بالفكر . وهذا جلي على الأخص في أحكام علم الرياضة وتلك التي تعبر عن القيم الخلقية والجمالية . ولا توجد خطوط أو دوائر تدرك بالحس ، تتعادل تعادلا تاما وإطلاق « خير » على عمل و « جميلة » على صورة يتضمن ميزانا واحدا من الخير أو الجمال ، وتكون الحالات الفردية بالنسبة له تقريبا ناقصا (١) . وعلى هذا اهتدى أفلاطون الى الاعتقاد بعالم يمكن أن يدرك بالتفكير فقط حيث تكون فيه الصور أو الأفكار في « وجود » لا يتغير كحقائق مادية ، وهي الأنواع الأولى في درجة الكمال « يسهم فيها » أو « يحاكيها » نماذجها العديدة المتغيرة ، في عالم الحس . وهذه الصور وحدها كانت «واضيع » المعرفة « العلمية وأمثلتها المعينة » في عالم الحس ، من الجهة الأخرى ، كانت مواضيع « الظن » المعرض للخطأ والتقلب ومصدر الخطأ التفكيري والهدعة الخلقية . وذلك الذي يفكر ويعيش في عبودية لجسده وأشياء الحواس فإنه على الرغم من بصيرته النفاذة في الظروف الخاصة التي تحيط به يشبه شخصا يسير وسط أطراف حلم في نومه ، والفيلسوف بعين عقله وقد حددها في الحقائق التي يمكن أن تدرك بالتفكير فقط ، هو دون سواه الذي له رؤيا يقظة (٢) . ولقد نادى أفلاطون بسبدا عالمين وربما لأول مرة في تاريخ الفكر الغربي ، ينسب الوجود الحقيقي للجواهر غير المادية . وبالإضافة الى هذا ، فإن الصور ليست ذرات روحية

(١) راجع Phaedo التي توضح كيف وصل أفلاطون (سقراط ؟) الى مبدأ الصور (أو الأفكار) بدراسة الأحكام الرياضية والخلقية والجمالية .
(٢) راجع الجمهورية : ٥ ، ٤٧١ وما يليها ٦ و ٧ . من المحتمل جدا أن مبدأ الصور (ويستخدم أفلاطون اللفظين Eidos (صورة) و Idea فكر - واللفظ الأخير غامض في الإنجليزية) ، قال به سقراط وأنه استمده من التفكير الفيثاغوري . وقد وضع أفلاطون النظرية ، كما قدمت في Phaedo و « الجمهورية » ، موضع النقد والتعديل الأساسي في الديالوجات الأخيرة (وخاصة Parmenides) .

منعزلة ولكنها تكون اقتصادا أو نظاما يمكن ادراكه بالتفكير فقط ومهمة الفيلسوف الأساسية هي في تقصيه . وفي أسنى مكانة فى هذا النظام التدرجى الذى يقع فوق ما يدرك بالحس ، تملو صورة الخير ، أصل القدرة على المعرفة وعلى الموجود ، على السواء فى جميع الصور الأخرى وهو فى ذاته « يسمو فوق المعرفة والموجود » (١) . وفى « الجمهورية » يعبر أفلاطون عن ضيقه فى أن يفسر تفسيراً مباشراً « موضوع المعرفة الأعلى » هذا ولاياتى بتكملة النقص فى أى مكان فى كتابته ، وفى الواقع فإنه يذكر بإيضاح فى خطاب « لا توجد كتابة لى عن الموضوع ولن توجد أبداً . لا توجد القدرة على التعبير عنه كغيره من فروع الدراسة ولكن نتيجة للتواصل الطويل وحياسة عامة أنفقت فيه ، فإن نورا يشتمل كشرارة تقفز وعندما تصل الى الروح نجد تغذبة لنفسها » (٢) . ومع هذا فإننا نعلم أن الخير كان يكون المرمى لكل مسعى أفلاطون العقلى وأنه كان يلقى محاضرات عن الموضوع فى الأكاديمية حتى ختام حياته (٣) . لقد أعطى وحدة ومذهبا للعالم الذى يمكن أن يدرك بالتفكير فقط ، وجاء بالانسجام على الصور فى عرض عام واحد وله مكان السيادة .

وكما فى عالم الحس تكون الشمس مصدر النور والحياة لكل المخلوقات فهكذا الحال فى عالم الفكر ، تستمد الصور قدرتها العقلية ووجودها من صورة الخير (٤) . كان هذا مجمل جواب أفلاطون على السؤالين : ما هى المعرفة؟ وما هو الموجود؟ وهما اللذان يكونان عيب الميثافزيقيا (ماوراء الطبيعة) فى جميع العصور وحله عرضة لاساءة التفسير وفى ثلاثة اتجاهات: (١) ان الصور ولو أنها تدرك بالذهن عن طريق التصورات العامة ، ليست معنويات فكرية ولكنها جواهر توجد مستقلة عن ذهن أى مفكر ، فى عالم روحى موضوعى (٥) . (٢) وصورة الخير لا يربط أفلاطون هويتها بالله . ان الله ليس صورة ولكنه روح نشيط حتى - المصدر - المتحرك بذاته - لحركة السموات وكما يسرد أفلاطون فى لغة شبه أسطورية فى « طمايوس » ، فإنه خالق الكون الذى يدرك بالحس . (أى الكون المحسوس) ، نقلا عن نماذج الصور ووفقا لقانون

- (١) الجمهورية ٦ ، ٥٠٩ هذا التعبير كان النص الذى استمدت منه ، بعد ذلك ، الأفلاطونية الحديثة فكرة الواحد ، الذات الأعلى = الخير وهو أعلى عضو فى ثالوث فلوطينس Plotinus الروحى (راجع المجلد الثانى فصل ٩ § ١٢) (٢) Epp. : ٧ - ٣٤١ (ترجمة بورنت) .
 (٣) لقد نشر ارستطاليس تذكراته على محاضرات أفلاطون عن الخير ولكن هذه لسوء الحظ لم يحتفظ بها .
 (٤) « الجمهورية » : ٦ ، ٥٠٤ وما يليها .
 (٥) فى Parmenides : ١٣٢ ، رفض فى ايجاز الرأى الذى يقول ان الصور هى تصورات فى العقل .

رياضي . ان المبادئ، القائلة ان الله هو بذاته الخير الاعظم وان الصور هي أفكاره الأبدية ووجودها كائن في العقل الالهي ، لم تكن مبادئ أفلاطون ولكن تعديلات لنظرية أفلاطون أوحمت ، بطبيعة الحال بذاتها للأفلاطونية الحديثة ولمفكرى العصور الوسطى ^(١) . وأخيرا (٣) يجب ألا يذهب الظن الى أنه بانكار المعرفة العلمية لأشياء الحس ، فقد نبذها أفلاطون على أنها خدعة أو لا قيمة لها . ليس لأن عالم الحس لا حقيقة له ، ولكن لأن حقيقته الجزئية يمكن أن يراها فقط الذهن الذي يدرك اعتمادها على الصور - هو ما يدعو أفلاطون الى أن يصر على أن الصور هي في ذاتها موضوعات الدراسة العلمية الحقة . وفي الواقع تصور أفلاطون عالم الحس بأن الله صاغه في الفراغ من أشكال هندسية وهي نظرية لا تبعد كثيرا عن ارجاع ديكارت للنسجم المادى الى حدود امتداد له شكل . ولقد كان أفلاطون باحثا متمقنا في العلوم الرياضية التي كان يعتقد أنها المدخل المناسب للفلسفة . وتوجد أسطورة تقول انه كتب على بوابات الاكاديمية هذه الكلمات « لا تدع أى شخص لا يلم بالهندسة يدخل هنا» . وفي رأيه ، كانت الرياضيات تهيء التفسير للطبيعة المادية ونظريته التي جاءت بعد ذلك، عن الصور، كانت على ما يرجح كثيرا مبدأ من مبادئ النسب الرياضية ، قريبا من مبدأ علم الطبيعة الحديث ، الا أنه في اعتبار أفلاطون ، يتطلب التفسير الرياضى أساسا له - وهو أبعد من أن يعزل الشرح عن حدود الغرض - صورة الخير الذاتية ^(٢) .

٢١ - وفي طبيعة الانسان ، يظهر التمييز بين النظام الذى يمكن ادراكه بالتفكير فقط ، والمحسوس ، كالتمييز بين الروح والجسد والروح psyche

(١) وهب الله العالم المحسوس روح -عالم حتى يمكنه، الى أبعد حد ممكن، أن يشبه غيره هو . ولقد كان لهذا التصور تأثير على التفكير اللاحق . وكان فيلو Philo (القرن الأول الميلادى) اليهودى المتأهلا ، فى الاسكندرية أول من عالج الصور على أنها أفكار الله . ويذهب بورنت «ثاليس الى أفلاطون» الفصل ١٧ الى أن أفلاطون كان أول فيلسوف يضع الألوهية على أساس علمي .

(٢) عن العلوم الرياضية راجع الجمهورية : ٧ ، ٥٣٢ وما يليها . وكانت فلسفة أفلاطون ، كفلسفة سقراط ، فى جميع مناحيها ، تنتهج بحث العلة الغائية ، ويرجع الموجود أو الحقيقة لكل جزء فى الطبيعة الى وظيفته أى فى علاقته بغاية أو خير . ويكون أحسن فكرة لصورة الخير كغاية عليا ، وحدة ، تجمع كل الغايات الفردية والجزئية فى وحدة ذات مذهب . وكل قوانين الموجود لأجزاء العالم الخاصة يمكن الاستدلال عليها من هذه الغاية العليا الوحيدة . ان مبدأ أفلاطون يبعد بعدا عظيما عن مبدأ الحتمية الميكانيكية ، وأينما يجد قانونا وهو يجده فى كل مكان ، فانه يجد العقل والخير .

عند أفلاطون ، كما كانت عند أرسنتطاليس بعده هي أصل الحياة والحركة وعلى هذا ، فأينما توجد الحياة والحركة ، توجد روح والروح الانسانية وهي أبعد من أن تكون التعبير الوحيد أو الرئيسي للروح ، ليست الا صورة واحدة من مظاهرها . والفلسفة الاغريقية تتناقض تناقضا تاما مع النزعة الحديثة في اعتبار الذهن الانساني الواقعة المحورية للتجربة . وبجانب الروح البشرية وما دون الروح البشرية . يوجد في كون أفلاطون روح الله وروح العالم والأرواح الالهية التي تحرك النجوم . وفي شدة اعتقاد عنيفة ، كان أفلاطون يؤمن بأن الأرواح خالدة خلودا ملازما ، وبرهانه القاطع الذي ذكر في فيدرس ومرة أخرى في آخر ديالوج له « القوانين » يقيم الدليل من واقعة الحركة على ضرورة سبب للحركة التي تتحرك ذاتيا وعلى ذلك لا يمكن أن تبدأ أبدا أو تنقطع عن الحركة (١) . وتبعاً لهذا فإن الروح البشرية كغيرها من الأرواح كافة ، كانت توجد قبل حلولها في الجسم وستبقى بعد موت الجسم . وبهذا يشرح أفلاطون كيف أن نسخ الصور ، غير الكاملة ، في عالم الحس تورد للذهن ، الأنواع الأولى الكاملة التي كانت تعرفها قبل الحلول في الجسد وتوجد حلاً للتساؤل الصعب وهو « كيف يتاح للانسان معرفة تتعالى عن حدود الاختبار الحسي » (٢) . وتساعده أيضا على معرفة السبب في أن الألم الحاضر هو تكفير عن شر ارتكب في تجسد سابق وعلى أن ينشئ المبادئ الخلقية الصادقة عن الثواب أو العقاب بعد الموت وفي التطهير الاطرادي في سلسلة من الحياة (٣) . وهنا يقيم أفلاطون البناء على تربة التعليم الأورفي الذي وصل إليه عن طريق الفيثاغوريين وسقراط . ان الجسم هو سجن وقبر الروح وموته هو تحرير الروح وحياة الفلسفة التي تعلق فكر الذهن على صور ما وراء الحس هو التمهيد لهذا التحرر وفي الحقيقة البحتة ، دراسة الموت (٤) . وتظهر الروح البشرية وهي في اتحادها الموقوت بالجسد ، ليس في نقاوتها الطبيعية ، ولكن كاله البحر غلوقس Glaucus في القصة ، « تتغشاها الأصداف والأعشاب البحرية » ، حتى ان طبيعتها الذاتية ، «العقل» يكون مستخفيا عن الرؤية الخارجية (٥) . وفي تجاربنا الواقعية تكون الروح

(١) Phaedrus ٢٤٥ ج القوانين : ٨٩٣ ب وما يليها . وقد أهملت الأدلة الأولى في Phaedo و « الجمهورية » في الديالوجات التي جاءت بعد ذلك ومن المرجح أنها كانت أدلة سقراط خاصة ، بمعزل عن حجج أفلاطون .

(٢) راجع Meno ، ٨١ وما يليها عن مبدأ التذكر anamnésis ، هذا .
(٣) راجع الأساطير في Republic, X, Phaedo, Gorgias, Phaedrus
وأساطير أفلاطون لاستوارت Stewart

(٤) راجع Phaedo ، ٦٤ وما يليها .

(٥) Rep. ١ : ٦١١ .

وحدة مركبة من ثلاث قوى : العقل وهو الموهبة الفلسفية والسلطة العدل
 فى اقتصاد الروح الذى يضمن حكمه الانسجام فى الداخلى وكذلك مع العقل
 القريب له فى الأرواح الأخرى وفى الكون ، ثم الموهبة « النشيطة »
 أو العاطفة المندفعة ، المشاغبة وهى الخادم الطبع للعقل ولكنها عرضة اذا لم
 توجه ، لأن تقود الروح الى الانحراف فى طريق التوكيد الذاتى والشهوات
 التى ترتبط بالمتع الجسدية ، بعضها مشروع والبعض الآخر غير مشروع
 ولكنها جميعا لا يشفى لتعطشها للرضى غلة واذا لم يقومها العقل فى صرامة
 فانها تهوى بالروح فى مضطرب من الفوضى والتفكك . ويمكننا أن نتصور
 وراء مظهر الرجل ، الخارجى ، مخلوقا يتركب من ثلاث طبائع - تلك التى
 لرجل (العقل) ولأسد (العاطفة) والعداء hydra^(١) ذى الرؤوس العديدة
 (الشهوات)^(٢) . ومنهاج « الجمهورية » الحلقى والتعليمى يستند فى معظمه
 على هذه التفرقة النفسية مثلثة العرى ، فمثلا صورة ثلاثة أنواع من الحياة ،
 ألهم بها على التعاقب ، حب المتعة وحب الشرف وحب الحكمة وتحليل الفضيلة
 الخلقية الى ثلاث الصور المعينة ، الحكمة والشجاعة والاعتدال ، التى ترجع
 الى أصل واحد وهو العدالة والمبدأ الذى يعاون كل قسم فى النفس على القيام
 بعمله المناسب ، فى اقتصاد المجموع ويضمن انسجاما أو « موسيقى » فى
 الروح بأجمعها وتقسيم التعليم الى موسيقى وألعاب بدنية وأنواع تقويم
 الشهوات و « المزاج » ، التى تكون الأساس الحلقى المطلوب لاستخدام العقل
 فى الأعوام الأكثر نضجا وأخيرا تصور الفلسفة على أنها تحويل الروح من
 ظلمة عالم الحس الى نور عالم الصور وعلى أنها استعداد يستمر مدى الحياة ،
 لمراس العقل مراسا لا يعوقه عائق فى عالم ما وراء القبر^(٣) .

٢٢ - وعلى النقيض من أولئك الذين كانوا يعتقدون أن الأخلاق ما هى
 الا مجرد عرف وأن الفرد يجد سعادته الحقيقية فى حياة توكيد الذات ، بين

(١) العدار هو فى أساطير اليونان حية عظيمة قتلها هرقل وزعموا أنه
 كان لها تسعة رؤوس كلما قطع رأس منها نبت آخر . وفى أساطير العرب دابة
 فى اليمن لها شئ أعظم من رؤوس عدار اليونان - المترجم عن معجم الحيوان
 لأمين المعلوف .

(٢) « الجمهورية » : ٩ ، ٥٨٨ - ٩ قابل تشبيهه مركبة الروح
 Phaedrus ، ٢٤٦ وما يليها .

(٣) عن علم النفس عند أفلاطون وتطبيقه على علم الأخلاق وتعليم
 الصغار راجع « الجمهورية » : ٢ - ٤ ولتدريب العقل تدريبا عاليا -
 « الجمهورية » : ٧ (وخاصة القصة الرمزية عن المسجونين فى الكهف)
 وكذلك عجالة نلتشب Nettleship عن نظرية التعليم فى « جمهورية
 أفلاطون » فى المجلد بعنوان Hellenica

أفلاطون كيف أن الانسان فى صميم كيانه ، عينه ، تميز بالتعاون الاجتماعى وقد صاغ موقفين لهما ارتباط وثيق وهما أن كل فرد له بطبعه قدرة فريدة تحدد وظيفته الخاصة فى المجتمع وأن هذه الوظيفة يمكن فقط القيام بها على الوجه الأتم ، حتى تجلب السعادة للقائم بها ، عندما يكون المنظم لهما ، « الخير العام » (١) . ان «اقتصاد» الدولة يتوقف على نفسية المواطنين ، وهذا التماثل بين دولة - المدينة والفرد يتحكم فى صورة طرزهما ، الخيرة والسيئة خلال « الجمهورية » بأجمعها . ويلزم تقسيم الوظائف الاجتماعية على أساس خصال المواطنين الفردية ، فأولئك الذين تغلب فى نفوسهم الشهوة يؤدون العمل البدنى بأن يمدوا المجتمع بحاجاته المادية كالصناع والزراع ، والنفوس « النشيطة » تكون الطبقة العسكرية ، والنفوس « الفلسفية » التى برهنت فى اختبارات متكررة على قدرتها على حياة العقل ، يوكل اليها أعلى مهمة وهى الحكم . وبهذا يخلص أفلاطون ، فى خلال خطوات منطقية ، الى نقيضته المشهورة « الى أن يصبح الفلاسفة ملوكا والملوك فلاسفة فلن يكون خلاص للدول أو لأرواح الناس » (٢) . ولن يكون خلاص للدولة بما أن العقل هو القوة الكامنة فى الروح ، التى تدعو الى الوحدة . وتحقيق العقل فى الحياة الفلسفية هو الضمان الوحيد من الفوضى الاجتماعية ولا يكون خلاص لروح الفرد لأنه اذا لم يكن للعقل السيادة فى المجتمع ، فلن يستطيع أى فرد مقاومة ما للرأى العام وغوايات العالم (٣) من تأثير مفسد . ولما كان يعتقد أنه فى مقدور الفيلسوف أن يصل فى مدرجة حياته الدنيوية الى قصارى المعرفة التفكيرية فى رؤية الخير المطلق فقد استخلص النتيجة اللازمة الطبيعية فى أن الفشل فى التوافق فى السلوك مع تلك الرؤية ، كان مما لا يمكن تصوره وكانت المعرفة فى هذا المستوى الرفيع تتطلب توافق السلوك . وكان من المستحيل ارتكاب الخطيئة ضد النور . ولقد آذرت المسيحية فى الحال المبدأ الأفلاطونى وأدخلت عليه التعديل . فمن جهة كان للمفتدين فى النعيم الذين يستمتعون برؤية الله رؤية مباشرة ، الخير المطلق non posse peccare

ومن جهة أخرى لم يكن فى مقدور الناس فى هذه الحياة الوصول الى تلك الرؤية المباشرة حتى فى المستوى الأعلى من التأمل التألهى . والقديس ، على الرغم من كل قداسته ، يظل خاطئا . انه يرى الله فقط « من خلال

(١) راجع الجمهورية : ٢ ، ٣٦٩ وما يليها ويعبر عن مطالب التوكيد الذاتى فى الفرد ثراسومخس Thrasymachus فى الكتاب الاول ، وغلقون Glaucon وأديمنطس Adimantus فى بداية الكتاب الثانى وقليقلس Calicles فى غرغياس Gorgias

(٢) الجمهورية ٥ ، ٤٧٣ .

(٣) الجمهورية : ٦ ، ٤٩٢ .

زجاج ، فى ظلام « per speciem in aenigmate » وليس « وجها لوجه »
وصورة الخير عند أفلاطون لم تكن هويتها الله (الذى كان « روحا » وليس
« صورة ») ولكن كان يمكن للفيلسوف معرفتها « وجها لوجه » وعلى هذا
وقد واثاه بعض الالهام من الاعتقاد بأنه فى مجتمع كامل يجب أن تكون كل
الأشياء مشتركة ويشعر كل عضو بالفرح والحزن فى فرح وحزن كل واحد
غيره ، وبعض الالهام الآخر من شعور بالخطر ، حتى على القلة المختارة ، من
لعنة المصالح الخاصة فان أفلاطون كان ينكر على الطبقات الحاكمة الاستحواذ
على الممتلكات الخاصة واستبدال بالمنزل الخاص أسرة - دولة واحدة ينظمها
الملوك والفلاسفة فى حزم لا هوادة فيه . وفى هذه الشروط نرى على الفور
شوق أفلاطون العارم للوحدة وإدراكه الواضح لعوامل الشر التى هى أبدا على
أهبة لأن تؤكد مطالبها فى حياة الفرد والمجتمع . ولقد تألفت مثاليتها
الصارمة ومنطقه الذى لا هوادة فيه ليؤدىا به ، فى مزاج مؤسس نسيك بأن
يقضى عنه كل المفريات ، كالممتلكات الخاصة والفن الفاجعى ، التى قد يرجح
أن تثير الإباحية الخلقية - وهو ينحى على عالم زمنه وعلى الأخص نغمة أثينا
القرن الرابع ، السياسية والخلقية ، باللائمة ، فى «الجمهورية» دون تحفظ .
وكان يظهر له أن الفرد الأثينى قد قذف به بعيدا عن اتجاهه السوى فى
طوفان من الفساد العاطفى وأن الدولة الأثينية قد مزقتها اربا التشيع الحزبى
والتعاطف الذاتى فى قادتها . وإذا كانت نفوس الناس أو المجتمعات الانسانية
لتتظفر بالخلاص ، فيجب أن يكون هذا عن طريق تغير أساسى فى القلب ،
تغير يحمل معه تقويم الذات تقويما عنيقا وثورة فى مبادئ الحياة والحكومة .

وتذكرنا بصيرة أفلاطون النفاذة ، فى شر طبيعة الانسان واحساسه
المزير بأن المجتمع الواقعى لا رجاء فيه ، مرارا كثيرة ، بتولستوى ولكنه كان
يختلف عن تولستوى فى أنه كان أيضا على الدوام فيلسوفا . وكان علاجه
لمساوىء العالم هو أن توضع السلطة فى أيدي أولئك الذين يعلمون ، فانهم
دون سواهم ، الذين وصلوا ، كشمرة لتدريب عقلى وخلقى مديد ، الى معرفة
ووجب الخير الأعظم ، هم المؤهلون لتكليف خليقة المواطن وتوجيه سياسة
الدولة . وعلى النقيض من المثل الأعلى عند الديموقراطية البركليسية فان
أفلاطون يبشر باشتراكية الأساتذة .

وفى تشبيهه شهير جاء فى الكتاب السادس من « الجمهورية » ، يمثل
الشعب الأثينى برهان سفينة دمت الطبع غير أنه متكاسل ، سهل التأثر
بتملق النوتية الدهاة الذين يتنافسون الواحد منهم مع الآخر فى التزلف
إليه ليوكل سكان السفينة لواحد منهم ، ولم يكن واحد منهم قد
تعلم قط فن الربان أو أوتى المعرفة الحقة التى يكون فيها صالحا لقيادة
السفينة على الطريق الآقوم . وطوال الزمن يظل الربان الحقيقى الذى اتقن
مهنته مهملا ووحدا وعلى هذا ، فى رأى أفلاطون وقع الشعب الأثينى فى أيدي

مغامرين لا يقيمون وزناً لشيء وليسوا بأكفاء ، بينما الفيلسوف بحقه الطبيعي ، الحاكم ، الخليق بالحكم بنشأته ، يحكم عليه بخمود حياته الخاصة (١) .

٢٣ - ولا حاجة للقول ان أفلاطون فشل في اقناع مواطنيه وواصلت أئينا سيرها حتى مجيء المغير المقدوني . ولما كان لا يعتريه كلال في جهوده في القيام بالاصلاح العبدى فقد زار ، ثلاث مرات ، سيراكوز الصقلية والأمل يحدوه في أنه كناصر لطاغية ، قد ينجح في انشاء الدولة التي تقوم على أساس فلسفى ولكن كان قد وصل في « الجمهورية » الى الرأى بأن المدينة المثالية كانت « أنموذجا أقيم في السماء » لا يمكن تحقيقها تحقيقا كاملا على الأرض (٢) . وفى اثنين من الديالوجات الأخيرة « السياسى » و « القوانين » عبر عن مزاج أكثر اعتدالا نحو الصور الموجودة للحكومة وفى مصنفه الأخير وضع تخطيطا مجملا لسياسة فى المستوى الثانى تكون مجالا للمثل الأعلى الذى يتكافأ مع حقائق الحياة ولكن وظيفته الحققة فى خلال الأربعين سنة الأخيرة من حياته كانت فى الأكاديمية كلية البحوث العلمية والفلسفية التى أسسها ومنحها الهبات . ويمكن أن تقيم الأكاديمية وهى على حق ، الدعوى فى اعتبارها أقدم جامعة فى التاريخ . وكان الطلاب يهرعون الى هناك من جميع أنحاء العالم الهلينى وخاصة أدكسس Eudoxus (٣) وهو رياضى وفلكى من كوزكس Cyzicus وأرسبتاليس الشاب من ستاجيرا ، على الساحل المقدونى . وكان أعضاء المدرسة يسهمون فى حياة مشتركة ويقيمون فى الأكاديمية وينهمكون لا فى الدراسات الفلسفية الخالصة فحسب ، ولكن فى البحوث ، فى الرياضيات وعلم الحياة ومسائل الأخلاق والقضاء . وكان من بين جلائل أعمالها وضع الهندسة المجسمة ، ولقد نادى أفلاطون عند وضع تخطيطه مجمل ، لمنهجه فى الدراسات العليا ، فى « الجمهورية » بمعاونة الدولة لهذا العلم الجديد (٤) . ويرجع أساس النهج الذى سار عليه بعد ذلك الفكر والمراس التعليمى فى العصر الاغريقى - الرومانى وفى المصنوع الوسطى على السواء ، الى انشاء أفلاطون للأكاديمية ولقد جرت العادة فى البحث عن المصلحين فى التشريع من بين صفوف المدرسة . وآخر مصنوعات

(١) الجمهورية : ٦ ، ٤٨٨ ، ٤٩٦ .

(٢) الجمهورية : ٩ ، ٥٩٢ .

(٣) عن أدكسس راجع هيث Heath فى « تراث اليونان » الصفحات ١١٧ وما يليها وقد كشف عن نظرية التناسب التى جاء شرحها فى اقليدس الكتاب الخامس وكذلك منهج الفناء فى قياس المساحات والمجسّمات منحنية الأضلاع ، الذى أفاض فيه بعد ذلك ، أرخميدس .

(٤) الجمهورية : ٧ ، ٥٢٨ .

أفلاطون «القوانين» هو مثل لهذا الفرع من بحوثها (١) . وللأكاديمية تاريخ طويل باقى الذكرى . لقد كانت النموذج للمؤسسات التي جاءت بعد ذلك مثل كلية أرسططاليس في اللسيوم Lyceum «المعبد الرياضى» وكليات الرواقيين والأبيقوريين واستمرت قائمة كموطن مركزى للتعليم الأفلاطونى طوال ألف سنة الى أن قطع الاعانة نهائيا عن المدارس الوثنية وألغى نظامها ، الامبراطور المسيحي جوستينيان (٥٢٩ م) .

٢٤ . - لقد ظهرت فلسفة أفلاطون ، بسبب اعراضها عن الدينويات ومثالياتها الكاملة، التي لاتقبل انتقاصا، لعقول كثيرة، أكثر قربا لروح المسيحية منها لروح اليونان التي كانت تتطلع الى هذه الحياة وفرصها لارضاءمطامح الانسان العقلية والخلقية . وفى هذا التوكيد صدق ، ولو أن للاختلافات أهمية حيوية أكثر من التشابه . ان مبادئ أفلاطون عن خلاص النفس عن طريق تقويم العقل تقويما شاقا وقيام أرسطقراطية علمية بالتوجيه الروحى للمجتمع ، تقصينا فى شوط بعيد ، عن المثل الأعلى لحكومة روحية يكون دخولها ليس للحكيم والمتعلم ولكن بروح الطفل الصغير . وعلاوة على هذا ، فقد قام الدليل على أن أصول التصورات فى فكر أفلاطون ، أتت بالثبارة فوق ما كان يتوقع ، فى صوغ المثل الأعلى الهليني فى الحياة . وظل الاعتقاد الذى عبر عنه فى «الجمهورية» بأن أسعى حياة ليست حياة المتعة أو السلطان ، ولكن حياة التأمل ، المثل الأعلى الذى كان له السيطرة على الفكر القديم . وعندما فقدت دولة - المدينة استقلالها وأوصدت الحياة العملية للنشاط العام أمام المواطن الاغريقى فان أحسن العقول شغلت نفسها ، فى زيادة مطردة ، بالسعى وراء المعرفة . ان أرسططاليس ولو أنه كان على نقيض أفلاطون ، فى الكثير الغالب ، فانه مع هذا يقيم البناء فى كل مرحلة ، على أسس استناذه ويمكن بالحرى أن يعتبر أول أفلاطونى عظيم أسهم فى اعتقاده بأن حياة الفيلسفة هى الحياة التي تجد فيها الروح أتم رضى وتقرب قربا عظيما مما هو الهى . وفى القرون التي ترادفت بعد ذلك ، كانت نفس العقيدة يشترك فيها على السواء الأفلاطونيون والأرسططاليون والرواقيون والأبيقوريون (٢) ولم

(١) ان وضعه لمدونة القانون الاغريقى وخاصة الأثيني ، كما تطور فيما بعد ، كان له تأثير عظيم على القانون الهليني وعن طريق القانون الهليني ، على القانون الرومانى ، راجع ما يلى فصل ٦ § ٧ تذكرة ٢ .

(٢) وخاصة اشباع الأفلاطونية الحديثة راجع السفر الثانى فصل ٩

تكن محصورة فى العالم الوثنى • ولما انتزع عنها التفسير العقلى الخاص بها ، بصفتها حياة الفلسفة فان المثل الأعلى لنشاط التأمل ، أصبح يسيطر على مسيحية القرون الوسطى (١) واصبحت مريم ومرثا اللتان ذكرهما الانجيل تمثلا نوعين من الحياة ، الحياة النظرية وحياة العمل والنشاط وقد اختارت الأولى النصيب الأفضل • ان قيام الرهبنة وكتابات دانتي وفنون النحت التى تزدان بها كاتدرائيات العصور الوسطى كلها شواهد على السيطرة التى ظفرت بها هذه الفكرة ، وهى نتاج العبقرية الهلينية والعبقرية المسيحية مجتمعتين ، على مطامح البشرية ، الروحية • ان أفلاطون مثل جميع عظماء الاغريق ، سواء أكانوا فى الأدب أم فى الفلسفة ، له اعتبار شئ ذى نفع عام • وكلما تعرض روح الانسان عن عالم الحس والتغير وتوجه صوب ما هو أبدى ولا يتغير وله وحدانية ، سواء أكان فى التأمل العقلى أم الدينى ، فانها تكون قد أقامت دعوى القوابة بروح أفلاطون •

تذكرة إضافية

من بين الاسئلة الخلقية التي كان المفكرون في عهد الاستنارة في القرن الخامس في اليونان يلقونها على أنفسهم ، كان يوجد سؤالان يتنشق اليهما القارى. في عصرنا ، بصفة خاصة وهما (أ) مسألة مركز النساء في المجتمع (ب) مسألة الرق .

١ - مركز النساء (١) :

في الخطبة الجنازية كما أوردها ثفوديديس ، خاطب بركلييس الناضحات من النسوة بكلماته المعروفة تمام المعرفة : « اذا كان لزاما على أن أتحدث عن الفضائل النسوية الى أولئك من بينكن اللواتى سيصبحن أرامل منذ الآن فاسمحن أن أجملها في نصيحة واحدة وجيزة : انه لمجد عظيم الا تظهر المرأة ضعفا أكثر مما هو من طبيعة جنسها وألا يتناولها الحديث بالخير أو بالشر بين الرجال» (٢) . وهذه العاطفة التي لا يمكن تصورها على شففتى رجل سياسة معاصر يقدم تعزية علنية لشكال الحرب ، لا بد أنها كانت تظهر مناسبة للمقام تماما لدى غالبية مستمعي بركلييس من الجنسين . ومنذ قرن قبل ذلك ، كان ثيوجنس قد كتب « اننى أمقت المرأة التي تملكها نزعة الاندفاع هنا وهناك » وبعد ذلك بقرن ، أعلن مناندر Menander « ان باب المنزل هو حد المرأة الحرة» ولم يكن للنساء دور في حياة أتينا العامة المدونة . ومع هذا ، ففي الفن والشعر كما في الدين ، فانهن حضرات في كل مكان . وقد يكن حيناً موضوع شفقة وحيناً آخر موضوع رعب وقد يصفى عليهن المثل الأعلى في فزع ، أو يؤنى عليهن بالتحليل في تدبر دبيق ، ولكن لا يهمل شأنهن أبدا . كانت بطلات هودر يستمتعن بوفار وحرية يتنافضان مع خضوعهن وانعزالهن في الأزمنة اللاحقة ولو أنه من الجائز أن فروسية الاخائين ، كفروسية العصور الوسطى ألقمت على زوجات وبنات الرؤساء هالة من الرومانسية « الابداعية » أنكرت على النسوة من أصل

(١) راجع بالاضافة الى المراجع الموضحة فيما بعد ، أكسنوفون Oeconomicus (ترجمة دكينس Dakyns) ، وبنسكي Benecke «النساء في الشعر الاغريقي» Women in Greek Poetry وزمرن Zimmern الجزء الثالث فصل ١٢ .

(٢) ثفود : ٢ ، ٤٥ ترجمة جوت Jowett .

وضيغ^(١) . ولا يوجد أدب فاجعى فيه مثل هذه الوثرة من صور النساء كما فى الأدب الاغريقى ، الذى لم يهمل أى مظهر من مظاهر البشرية النسوية - الا (حتى الأزمن الهلينيستية) الحب الذى يقع بين فتى وفتاة ، بغير أن يرتاد^(٢) . ان كلتمنسترا Clytaemnestra و أنتيجون Antigone وميديا Medea وفيدرا Phaedra والسستس Alcestis يقفن فى مستوى بطلات مآسى شكسبير ، العظيمات . وفى حياة الاغريق الواقعية ، لا تتبين الا القليل الذى ينطبق على هذا الاهتمام . والمرأة الوحيدة التى كان لها شأن يذكر فى التاريخ الاثينى اسفزيا Aspasia كانت أجنبية وارتبطت ببركليس فى رابطة ليس فيها تكافؤ^(٣) . وفى أثينا كانت دائرة المرأة المنزل . أما دائرة الرجل ، من الناحية الأخرى ، فكانت المدينة ولم يكن للمنزل الا شأن يسير فى حياته . وفى اسبارطة ، لأسباب عسكرية ، كان يسمح للنساء بحرية أعظم وقد كن يتدربن على التمرينات العلنية حتى يشببن أمهات جنود ، قويات - ولقد أثبتنا أن النتيجة هى أنهن كن ، على ملاحظتهن ، سرعات الحركة ، يملن الى الترف والبخل والعصيان وينزعن الى الدسائس السياسية^(٤) . ولقد أثار إبعاد النساء عن الحياة العامة الاغريقية الكثير من

(٢) ومن المرجح أيضا ، كما يذكر الاستاذ مرى Murray (نهوض الملحمة الاغريقية صفحة ٧٥ 75 p. Rise of the Greek Epic) ، ان تقليد نظام الأمومة الذى كان حيننا من الزمان سائدا فى العالم الايجى ، بقى بعد الغزو الأثانى . ويشير نفس الكاتب (ص ١٢٤) الى أنه فى الياذة ، كملحمة حرب ، لا نسمع الا القليل عن النساء (الا فى نصين عظيمين الياذة ٣ و٦ ، ٢٣٧ حتى النهاية) فى طروادة . ويظن أنه فى الحملات العسكرية ، كانت النساء معظورات . ولقد كان صموئيل بتلر يصدق النقيضة الشيقة أن امرأة كتبت الاوديسيا وربما كانت نوسيكيا Nausicaa (انظر كتابه « مؤلفة الاوديسيا ») .

(٢) ان الاستثناء الوحيد فى رواية باقية لدينا من العصر الاتباعى هو حب هيمن Haemon وانطيجون فى « انطيجون Antigone » لسفوكلس . وفى « المسلاة الجديدة » فى القرن الرابع يكون الحب بين فتى وفتاة ، الذى ينتهى بالزواج موضوعا شائعا .

(٣) بعد قانون عام ٤٥١ ، الذى كان ينص على أن كلا للوالدين يجب أن يكونا مواطنين ، اذا كان الأطفال ليعتبروا شرعيين ، أصبح هذا الزواج الثانى من النسوة غير المواطنين ، أمرا ذائعا ولم يكن يلحق به شين .

(٤) رفى زمن لاحق ، أصبحن يملكن جزءا عظيما من الأراضي الامبرطوية . وعن النسوة الاسبارطيات ، راجع أرسططاليس « السياسة Politics ٢ ، ٩ وكذلك افلاطون : القوانين ٧٨٠ وما يليها و Protag. : ٣٤٢ و Euripides ، 'Andromache' ، ٥٩٥ وما بعدها .

الاعتراضات في القرنين الخامس والرابع . ومما يدل على أن خطط الإصلاح كان يدور التفكير فيها ، المسلاتان ليسستراتا Lysistrata (٤١١) وبرلمان النساء Ecclesiazousae (٣٩٢ أو ٣٨٩) وفيهما نال أرسطوفانس مطالبهن في التحرر ، بالتقريع . وكان يوجد بين الكليين نسوة مبعوثات ، ولقد كانت تجيش في يوريبيدس عاطفة من الاشفاق والاشمئزاز لمصير النسوة اللواتي كان يفرض عليهن عند الوضع تحمل آلام أشد قسوة من تلك التي يلاقها الرجال في معمة القتال (١) . ولقد تأثر أفلاطون من ضياع مادة طيبة لخدمة الدولة . وكان يعتقد أن الاختلاف بين الجنسين لم يكن اختلافا في النوع ولكن في الدرجة . كانت النساء في الواقع أضعف من الرجال ولكن لسن أقل قدرة على أن يسهمن في وظائف المدينة بما فيها وظيفة السيادة الفلسفية ويمكن أن يكون للنساء مكان في كل من الطبقات الثلاث في مدينته المثالية . وكما يسهمن في الوظائف فكذلك يسهمن أيضا في تعليم الرجال ولا يوجد تفكير هنا في « حقوق المرأة » وكان لزاما أن يتبع في تعليمهن المناهج الموضوعية للرجال ، ليس لصالح جنسهن ولكن لصالح المجتمع ويسير النص بأجمعه الذي جاء في الكتاب الخامس من « الجمهورية » على مذهب المنفعة الى حد عظيم . وعلاوة على هذا ، فإن أفلاطون يقترح إلغاء البيت الخاص وادماج جميع المواطنين من كلا الجنسين في أسرة - دولة واحدة والارتباطات الزوجية وتربية (أو التخلي عن) الأطفال والتغذية في بواكير الطفولة يجب أن تسيطر عليها ، بصفة شاملة ، الحكومة (٢) . وكانت الدوافع التي جهر بها :

(أ) تحسين النسل للمحافظة على نوع الطبقة الحاكمة .

(ب) الخوف من التفرق والتشيع المدني (Stasis) اللذين ترجع نشأتهما الى المصالح والممتلكات الخاصة .

(ج) مطمح مثال الى مجتمع لا يعرف تفرقة بين «مالي» و «مالك» ، ولكن يدق في نبض واحد ينتظم جميع الأعضاء (٣) .

(١) "Medea", Eur. : ٢٤٨ وما يليها ومناجاة السستس Alcestis

لنفسها في الرواية التي تحمل اسمها يستفاد منها أمور كثيرة عند موتها سيصيب طفلها الابن حظه ولكن ما سيكون من أمر البنت ؟

(٢) ان وأد الأطفال ، الذي يرجح أن أفلاطون أقره في بعض الحالات ،

كان شائعا في كثير من المجتمعات القديمة ولو في غير أثينا على ما يحتمل .

ان خطب اسأوس Isaeus تقدم الأدلة على ما يناقض هذا . لقد كان ، على

وجه عام ، الأطفال من الاناث هم الذين يلاقون هذا المصير .

(٣) انظر الجمهورية : ٥ .

وأخيرا وطن أرسططاليس نفسه على حصر مشروعات المصلحين من الأحرار المتطرفين في داخل حدود الحس المشترك : واعتقد ، على عكس أفلاطون ، أن النساء يختلفن عن الرجال في النوع وعندهن نقص في القدرة العقلية والقدرة الخلقية ولو أنهن لا يفتقرن كلية اليهما . وعلى هذا فبينما يحال بينهن وبين حق المواطنين الكامل ، يجب أن يحكمهن الرجال حكما دستوريا لا حكم طفاة ، كالعبيد . ويجب أن يستمتعن بحرية محدودة ويلقن تعليما ، جعل بحيث يتناسب مع وظيفتهن الثانوية في دولة - المدينة ، وما يظهر أنه كان متأثرا به هو عدم وجود فطنة علمية لديهن وخصيصة العقل الذى يكون له السلطان (١) . ويمكننا أن نسمعه يردد صدى صوت تفوق الذكور في كل عصر : « كوني طيبة . أيتها الفتاة الحلوة ، ودعى من له القدرة » - والرجال - « كونوا مجتهدين » وظل على اتصال وثيق بالفكر الاغريقي السائد وهو يضع فيه خيرة من بهار التحرر ولكن في معالجته للقيم المثالية وحقائق الطبيعة البشرية ، على السواء ، فانه كان يتخلف عن أفلاطون شوطا بعيدا .

ب - الرق (٢) :

كان الرق بين الاغريق ، كما كان على وجه عام خلال الأزمنة القديمة جزءا من نظام تقليدى وبهذه الصفة كان يقبل دون سؤال . ونقرأ فى هومر وخاصة فى الأودسيا عن عبيد - قليلي العدد نسبيا - يؤسرون فى القرصنة أو الحرب . لقد كان مصيرا يمكن أن يلاقيه أى انسان . كان يومايوس Eumaeus ويوروكليا Eurycleia عريقي النسب ولو أنه كان يشطر عن الضحية « نصف رجولته » فلم يكن يترتب عليه أى عار . كان يومايوس يستمتع « بحياة طيبة » كملحق بالأسيرة ، مكرم ويتحدث الى أسرة سيده كما يتحدث رجل الى رجل . وكانت خطوط الفواصل الاجتماعية أقل حدة فى تلك الأزمن الأكثر بساطة (٣) .

ويظهر فى العصر التالى مع الغزو الدورى نوع من الرق جديد . ان الرقيق كانوا أهلين مقهورين يرتبطون بالأرض كالعبيد فى اسبرطة Helots Penstae فى ثساليا ، وبعد ذلك أيضا ، جلب انتشار الصناعة والتجارة فى أعقابها تجارة الرقيق فى العالم الابجى ، والمناطق الرئيسية التى كانوا يؤخذون منها كانت بين همج آسيا الصغرى وتراقيا والأراضى التى تقع

(١) راجع على الأخص « السياسة » : ١ ، الفصلين ١٢ ، ١٣ وما وجه من نقد الى « الجمهورية » فى ٢ الفصول من ٢ - ٤ .

(٢) راجع عن الموضوع زمون فصل ١٥ وقاموس سمث عن الآثار والفن Smith's Dictionary of Antiquities, Art.

(٣) عن يومايوس Eumaeus راجع الأودسيا : ١٥ ، ٣٨٠ وما يليها .

حول أكسين ، وكانت الأسواق الهامة ، في الولايات البحرية التي كانت تسيطر على تجارة النقل مثل خيوس وبعد ذلك أثينا . وفي أثينا ، كان يستخدم العبيد : (أ) في البيوت للأعمال المنزلية وليس كما كانت الحال بعد ذلك في روما ، للمتعة (ب) في الصناعات العظيمة وخاصة في مناجم الفضة في لوريون Laurion (ج) كرقيق دولة ألخ ، كمجدفين في السفن الحربية^(١) . وقد أوردت قائمة الاحصاء عن سنة ٣٠٩ ، عددا من العبيد يبلغ ٤٠٠.٠٠٠ في أتيكا . وكانت الغالبية العظمى همجا أما الأسرى الاغريق فكان المجال مفتوحا أمامهم للقدية . وكان يوجد ما يخفف من مصير الرقيق الاثيني العادي ويمكن مقابله بمقابلة موفقة بمصيره في عصر لاحق في روما أو في مزارع ملاك الرقيق المسيحيين في زمننا الحاضر . وكان القانون الاثيني يبسط حمايته على الرقيق ولم تكن حياته رهن مشيئة سيده . وكان تعذيب الرقيق محصورا داخل حدود محكمة ، ولم يكن يوجد تمييز في الملابس بين الرقيق والاحرار ولو أنهم كانوا ممنوعين عن ارتياد المعابد وميادين وأبنية الرياضة والحديث Gymnasia ، والجمعية العمومية ، فانهم في الكثير الغالب كان يسمح لهم بحرية الكلام والعمل . ويدعو اكستونون الرقيق « الزميل العامل » للمواطن ، الذي يجب أن يحكم بالحق وليس بالعنف ويوعز اليه بأن يعمل عن طيب خاطر على أهل التحرر . وهو يأتي بالتعليق على اللين الذي يعامل به العبيد في أثينا وحكمه تؤيده الصور المرسومة في « المسلاة الجديدة » وتقريع أفلاطون الساخر للاباحية التي يتصف بها الرقيق في الدولة الديموقراطية^(٢) . ولقد أصبحت عادة شائعة أن يمنح السيد رقيق منزله العنق اما في حياته ، واما في وصية عند موته . ودون ريب ، كان يختلف مصير الرقيق اختلافا عظيما تبعا لمركزه كخدام أسرة أو صبي مهنة في التجارة أو مرة أخرى، بما فيه عشور جده، كمستخدم في المناجم . والحقيقة البشعة كانت ماثلة خلال التاريخ الاغريقي كله . ولكن التوكيد بأن المدنية الاغريقية كانت تعتمد على الرق كأساس لها ، يصدق فقط بتحفظات والأمران لا يختلف الواحد منهما عن الآخر اختلافا فيه تناسب . كان الرق على مجال واسع قد جاء لاحقا لقيام الفن والعلم الهليني

(١) كان الرجل الفقير يمتلك عبدا واحدا لمنزله وقد يقتني الغنى عددا قد يصل الى الخمسين . وكانت مساويء الرق أكثر وضوحا في المناجم . وقد كان نسياس Nicias يمتلك ألفا من الرقيق في لوريون . قابل ثقبو : ٧ ، ٨٧ عن محن الأسرى الاثينيين في محاجر سيراكوز . ولقد أورد بروننج Browning في قصيدته مغامرة بلاوستيون Balaustion's Adventure قصة ظفر بعض هؤلاء الرقيق بحريتهم بتلاوة يوربيدس . (٢) Mem. ، Xen. : ٢ ، ٣ ، ٣ والجمهورية Ath. : ١ ، ١٠ ، ١٢

وازداد كلما سار ذلك الفن وذلك العلم الى تدهور . ان الأمم الأخرى مثل مصر وأشور التي كانت تستخدم الرقيق في اعداد أكثر وفرة عجزت عن أن تحقق ثقافة يمكن مقابلتها بثقافة اليونان . وعلى ذلك فلا يمكن تفسير الصفة الفريدة التي اقتصت بها المدنية الاغريقية ، على أنها ترجع الى الرق . وفوق كل شيء كان الاغريق أول من ناقش المبرر الخلقى له (١) . حتى لو أن ثقافتهم كانت ترجع الى الرق ، فكذلك كان أيضا فكر أولئك الذين وصلوا ، مثل السفسطائيين ، الى أصول هذا الشر . لقد كان موضوعا عاما بين شعراء وفلاسفة القرنين الخامس والرابع ، أن الرق لا يقوم على أسس طبيعية ولكن على العرف . ولقد كان الكلبيون ينادون في جسارة بالتحجير . وكان السفسطائي الكيداماس Alcidas يبرر في أرجاء اليونان بأن « الاله خلق جميع الناس أحرارا وأن الطبيعة لم تستعبد أى انسان (٢) . وقد نعى أفلاطون استعباد الاغريقي للاغريقي (٣) . وعلى هذا المثال فعل أرسططاليس الذى عالج الموضوع فى « السياسة » كالمهد به ، بروح مصلح محافظ (٤) . وكان يعتقد أن العبيد بالطبيعة كانوا ، مثل معظم الهمج ، أولئك فقط الذين بسبب قصور فى العقل والقدرة الخلقية فقدوا أهليتهم للاشتراك فى حياة دولة - المدينة . ومثل هؤلاء الرقيق « الطبيعيين » كان مقضيا عليهم بالعبودية كأدوات لازمة للحياة الحيرة ، للمواطن الهليني الحر . لقد كانوا وسائط لغايات آخر ، ولم يكونوا غايات فى أنفسهم وفى لغة زمن جاء بعد ذلك كانوا « متاعا » ولم يكونوا « أشخاصا » ويجب أن يحكم الرقيق حكما استبداديا ، لصالح سيده ، وليس لصالح الرقيق ذاته الا أن يكون ذلك بصفة عارضة . وكان يجب حقا أن يعامل بروح انسانية ولقد ذهب أرسططاليس ابعد من هذا حتى صرح أن الرقيق ، بهذه الصفة ولو أنه لا قدرة له على حياة العقل ولا يستطيع أن يكون له أية علاقة صداقة (philia - رابطة الاتحاد الاجتماعى) مع سيده ، فان مثل هذا الارتباط قد يكون ميسورا له بصفته انسان . ان منحاها يتناقض تناقضا ظاهرا مع المثل الأعلى المسيحى للروح الانسانية . وعند أرسططاليس لا يكون للفرد من الناس ، على شاكلة هذا ، قيمة جوهرية ولم يخطر له على بال أبدا ان

(١) راجع مري ، نهوض الملحمة الاغريقية الصفحات ١٦ وما يليها .

(٢) وهكذا يوربيديس Ion : ٨٥٤ - ٦

« الاسم فقط هو الذى يرى فيه العبد عارا
وفى كل الأمور الأخرى ، فان رجلا كريما استعبد
لا يقل مستوى عن طبيعة الحر » .

(٣) « الجمهورية » : ٥ ، ٤٦٩ . يظهر أنه لا يوجد رقيق فى « الجمهورية »

وفى « القوانين » حيث يعترف بالرق ، توجد نصوص لتخفيف مساوئته .

(٤) راجع على الأخص « السياسة » : ١ ، الفصول ٣ - ٧ و ١٣ .

السلالات المتخلفة يمكن أن تدرب حتى تصل الى القدرة على حياة أتم وتقرر مصيرها نسبيا . وكان أرفع وظيفة لهم هي القيام على خدمة حاجات المواطنين الهليني المادية . ان طرق الحصر هذه طليقة في ظاهرها . لقد أدت عند الاغريق كما عند غيرهم ، الى مساوية خلقية لا يرغب أى شخص فى التخفيف من خطورتها . وان ما حدث من أن المفكرين الاغريق أدركوا وجود المشكل وحاولوا ايجاد حل له ، يدل على تقدم عظيم على كل ما تحقق حتى ذلك الحين فى التاريخ . وفى قصر الرق على أولئك الذين لم يكن لهم قدرة على الحياة الحرة فانهم صاغوا مبدأ يمكن أن يتوسع فى تطبيقه فى نطاق لا حد له ويشال ذلك ما فعله الرواقيون . وتوجد مشاكل مماثلة فى العالم الحديث ولو أن حالة الرق وطرازه قد عفا عليهما الزمن . وعلى سبيل المثال : كيف يمكن تحقيق مستوى من الثقافة ، رفيع دون التضحية بالكثرة فى سبيل قلة تاح لها وقت فراغ وكيف تذاق المعرفة بين الجماهير دون المجازفة باستقرار المجتمع (١) . ان ما تسير عليه الامور فى عصرنا الحاضر كما يقوم عليه الدليل فى معاملة السلالات المتخلفة والسير الرتيب وبشاعة الاحوال الصناعية فى البلاد المتقدمة ، على السواء ، هو على نقيض صارخ مع المثل الأعلى الذى جهر به . وليس من اللائق لناقد أن يقذف حجرا على الاغريق القدامى ، لأن ما قاموا به فعلا كان دون مستوى وصايا أعظم مفكريهم .

(١) ان قراء روايات هنرى جيمس Henry James لهم أن يعجبوا ، كيف يمكن للعالم المثقف الرائع الذى صور فيها أن يحتفظ بكيانه وهو بمعزل عن الرق الموجود افتراضا وليس فعلا ، فى الجالين لراحته غير المثقفين .

الفصل السادس

الثقافة اليونانية المقدونية

١ - الاسكندر

١ - بانبلج فجر القرن الرابع نلج علما جرى عليه التغيير . ولم تعد السلطة السياسية تتركز بورتها في أثينا واسبارطة ، ولكن مكانها انتقل الى مراكز جديدة في الشمال ، وبدأت أحلام حكم عالمي في مجال لم يسبق له مثيل في التاريخ الاغريقي تثير مطامح رجال السياسة والقادة العسكريين . ولم تكن لسيادة اسبرطة - قصيرة الأمد ، تلك التي أعقبت سقوط الامبراطورية الاثينية - الا أهمية يسيرة أو لا أهمية للمدنية ، وسرعان ما أيقنت المدن البحرية خواء دعوى اسبرطة الظاهرة في أن تكون محررتهم من نير الاثينيين ، وأن أصبح طغيانها الصغير أغلظ من حقوق أثينا . وكان العالم الاغريقي يتحرق خجلا وسخطا عندما أعادت في صلح أنتالسيدياس Antalcidas (٣٨٧) المدن الآسيوية الى ملك فارس ، ومما كان له مغزى أبعد في خطورته ، اتجاه مركز الثقل السياسي صوب الشمال ، أولا الى طيبة في بويوثيا عندما حطمت تشكيلاتها المتكتلة المتراصة مشاة الاسبرطيين الذين كانوا مرة ، أولى منعة ، في لوكترا (٣٧١) ثم عن طريق ثساليا الى مقدونيا . ان قيام مملكة مقدونيا هو الواقعة الأساسية في تاريخ يونان القرن الرابع^(١) . وكانت تربط المقدونيين أسرة قرابة مع الاغريق في السلالة واللغة . ولما كانوا من سكان الجبال الاصلاب ومحاربين بنشاطهم ، ويملؤهم نشاط مضطرم ويخلصون الى رؤساء عشائرتهم فقد حافظوا على عاداتهم البدائية التي كانت لغزاة العالم الايجي الأولين . على الرغم من قسرة الثقافة التي تحيط ببلاط كان قد رحب بمؤلفي الفاجعة يوريبيدس وأغاثون Agathon . ان ملكا قويا داهية يستطيع أن يظفر ويستحوذ على اخلاص النبلاء الجامحين وأتباعهم ، كان ليجد في هذا الشعب أداة رائعة لسياسة عسكرية عظيمة .

(١) سمح للمقدونيين الذين كانوا قد حاربوا مع الاغريق ضد فارس بدخول الألعاب الأولمبية ، عام ٤٧٦ .

وفى الواقع كان مثل ذلك الملك ، فيليب الذى ارتقى عرش مقدونيا عام ٣٥٦ وهو فى سن الثانية والعشرين . وفى شبابه كانت تنشئته فى طيبة حتى يقدر الثقافة الهلينية ، وما كان أقرب لغرضه ، أن يتقن تنظيم المحاربين ، للمشاة المتكتلين المتقاربين (phalanx) . وعلى غرار بطرس الأعظم الروسى الذى استخدم المدنية الغربية لتوثيق شمل امبراطورية شبه همجية فقد نقل فيليب حاضرة ملكه من الداخل الى موقع ضاح على مقربة من الساحل وأعاد تنظيم مملكته ودرب المحاربين من رعاياه على فن الحرب . وبهذا السلاح الذى صنعه فتح تراقيا الى الشرق وأفاد من التفرق الدائم بين الدول الاغريقية فى اخضاع مدن ايجا الشمالية وأمكنه أحيانا بالقوة وأحيانا بأعمال السياسة التى كان فيها أستاذا لا يجارى أمكنه بهذا كله الظفر بالسيطرة على تساليا واليونان الوسطى . وحاز ذروة النصر فى خايرونيا Chaeronea (٣٣٨) على جيشى طيبة وأثينا مجتمعين فغدت اليونان كلها تحت قدميه . وكانت خايرونيا - التى تتجلى فيها البطولة ، تعنى أكثر من فعمل جهود ديمستينس Demosthenes خطيب أثينا الوطنى ، لانقاذ دعوة الحرية الهلينية . لقد دق فى ذلك الميدان المشئوم ناقوس موت دولة - المدينة المستقلة . ومنذ ذلك الحين ، أصبح تاريخ اليونان السياسى تاريخ غزاتها المقدونيين .

٢ - وكان اخضاع اليونان فى اعتبار فيليب مجرد الخطوة الأساسية لتحقيق مشروع امبراطورية ، كان يعتمل فى عقول رجال السياسة والمفكرين فى اليونان خلال نصف قرن ونيف . وقد بينت هزيمة الغزاة الفرس عام ٤٨٠ تفوق جيش من المواطنين مدرب ، يدقعه الولاء لدولة - المدينة الحرة فى الحرب على الوفرة الهائلة من المجندين سيئى النظام والتقويم ، الذين كانت رابطتهم الوحيدة فى الاتحاد ، خضوعهم المشترك لطاغية شرقى - وتعلمت فارس أن تعترف بهذا التفوق ، وقبل ختام القرن الخامس رحبت بزعماء العصابات المرتزقة من المغامرين العسكريين condottieri فى خدمتها بينما تمكنت بأربها السياسى وذهبها من بث الفرقة فى الوطن الاغريقى . ولقد أوضح ارتداد ١٠ر٠٠٠ من المرتزقة الاغريق من قلب الامبراطورية الفارسية حتى الاكسين عبر أرض وعرة وبين أهلين معادين يناوئهم جيش من الاعداء - أن اليونان لا يمكن التغلب عليها حتى لو كانت الحرب على غير تربتها .

ومنذ تلك اللحظة (٤٠١ - ٤٠٠) خامرت فكرة حرب انتقام ، غزو يونانى لفارسن ، عقول القادة الاغريق^(١) . ولقد رأى الفلاسفة وأصحاب

(١) مثل الملك أجسيلاوس Agesilaus الاسبرطى وجيسون Jason من فراى Pherae الزعيم التسالى القوى .

المثل العليا من السياسيين من أمثال أفلاطون واستقراطس في حملة صليبية فومية ضد الهمج الفرصة للاتحاد الهليني وعلاج الصراع الداخلي (١) . ولكن دول - المدينة في اليونان كانت تحرص على استقلالها حرصا جاوز الحد ، دعاهم ألا يتسامحوا في قيام تكتل سياسي . ولقد فرض الاتحاد من الخارج ، الملك المقدوني . ولما دانت السيادة لقيليب بعد خايرونيا بقوة عتاده ، أعلن عن المغامرة التي طال وضع الحطة لها . وكان جيشه قد نظم وأخذ أهبطه للحرب عندما مات بيد سفاح (٣٣٦) . ووقع عبء تحقيق المهمة على عاتق ابنه الاسكندر .

٣ - ان الاسكندر يجيء في ختام فصل قديم في تاريخ العالم وبداية آخر جديد . كان غزو خنسيارشاي لليونان قد استهل ناحية جديدة في المباراة العتيدة بين الشرق والغرب . وكان اجتياح الاسكندر للامبراطورية الفارسية ختام هذه القصة في الفاجعة التاريخية . وكانت الكارثة تعشى البصر في سرعتها . ففي ربيع عام ٣٣٤ عبر الاسكندر السبنتس وسحق حرس الفرس الامامي على جرانيفس Granicus واجتاح الاراضي الساحلية في آسيا الصغرى واستوثق التحكم في الطريق العام العظيم التي نيسر عبر جبال الداخل حتى بوابات كيليكية . وفي السنة التالية ، ظفر بأول نصر له عظيم على الملك دارا بشخصه في اسوس Issus في الركن الشمالي الشرقي من أرض المشرق وقد عرض عليه الملك المغلوب الشطر الغربي من امبراطوريته حتى الفرات غير أنه رفض في استعلاء تصالحا فيه مساومة .

ان الاستيلاء على صور في عام ٣٣٢ بعد مقاومة تنبىء سلفا عن مقاومة قرطاجنة أو اورشليم - كان الساميون مروعين عندما يحاصرون - جعل الاسكندر يملك زمام القوة البحرية في شرق البحر المتوسط وأعقب هذا اجتياح كنعان ومصر .

وفي عام ٣٣١ واصل السير الى قلب الامبراطورية الفارسية وظفر بالغبلة في ذروتها على دارا في جوجميلا ، في وادي دجلة . وقد كشف موت الملك الهارب ، في الصيف التالي للعالم عن غرض الاسكندر الحقيقي الذي كان الى ذلك الحين ، ملكا مقدونيا وفائدا عاما للاغريق ، وهو الآن يبرز للامام كوارث للمملكة الفارسية ، « كملك المملوك » ، بدلا عن دارا . ولقد شهدت السنوات الخمس التالية سلسلة من الحملات الرائعة والتقدم دون عائق وأخضع فيها الاسكندر الولايات الشرقية حتى أكسس

(١) يظهر أن هذا ما ينطوي عليه ما جاء في جمهورية أفلاطون

جاكسرتس Jaxartes وإلى ما وراء الهندوكوش ، واخترق ممر خيبر وفتح البنجاب واجتاز وادي السند حتى مصبه . وعندما رفض جيشه السير صوب الشرق الى الكنج Ganges عاد الأسطول عن طريق الخليج الفارسي والقوات البرية عبر صحراء مقران المروعة ، ورجع الاسكندر الى سوس حاضرة فارس القديمة في ربيع ٣٢٤ وقد خصصت شهور قليلة لتنظيم الامبراطورية واسعة الأرجاء . وقبيل يونيو من عام ٣٢٣ كان قد جمع في بابل جيشا لجبا لغزو بلاد العرب . وهناك اخذته فجأة حمى ووافته المنية بعد مرض دام عشرة أيام ، وله من العمر اثنان وثلاثون عاما .

٤ - وقد فتحت غزوات الاسكندر عالما جديدا أمام اليونان ، وبتوسيع مدى المعرفة أنت بنتائج هامة على الفكر العلمي . ولكن أعظم جلائل أعماله كان نشر الهلينية على العالم الشرقي . وتظهر عبقرية الاسكندر السياسية في أعظم بيان فيما انتواه عن تدبر ، من صهر الروح الهلينية والروح الشرقية في كتلة واحدة .

فمن جهة تبني الوسيلة الفارسية في العيش واللبوس الفارسي والعادات الفارسية - ومارس وشجع التزاوج المتبادل واعترف بديانات الشعوب المغلوبة وصار في جميع الأمور شرقيا أمام الشرقيين . ومن الجهة الأخرى أدمج في نظام المشاة المتكتلين المتقاربين ، الفرس وربى شبابهم على الثقافة الهلينية ورقى أشرافهم في خدمته . ولما كان يدرك في وضوح أن سياسة المزج هذه يجب أن تقوم على أساس اقتصادي ، جهد في أن يخلق مذهبا للتجارة العالمية يربط النيل ودجلة والسند ، بالبحر المتوسط^(١) . ان قلة من أتباعه المقدونيين كانوا قادرين على أن يسهموا في هذه الأفكار العظيمة وانا لنقرأ عن سخط وعصيان بين حين وآخر في الأعوام التي تلت عام ٣٣٠ مما كان يدفع الاسكندر الى ندرة من أفعال القسوة هي على نقيض بين من ديدنه في السماحة وانسانية طبعه . وكانت أدواته الهامة في العمل على تلاحم الشرق بالغرب ، تأسيس المدن على النموذج الهليني وكانت مدن الامبراطورية

(١) كان الاسكندر يقدم نفسه في كل مكان على أنه نصير الأديان والعادات الوطنية . وقد أظهر مجاملات خاصة ، على سبيل المثال ، لليهود ومن المحتمل أن اليهود كانوا منتشرين في جماعات عظيمة في أرجاء الامبراطورية الفارسية وكانوا يحافظون على طرق المواصلات الداخلية (وخاصة مع بيت المقدس) ، قدموا له خدمة عظيمة كمرشدين في سيره في بلاد لا بد أنها كانت ، في الواقع ، غير معروفة . ويتحدث مهافي Mahaffy عنهم في « امبراطورية البطالمة » صفحة ٨٥ ، على أنهم « ادارة مخبراته الطبيعية » .

الفارسية قليلة العدد وهي حقيقة تفسر نهائية انتصاراته الحاسمة في الميدان .

وكان الاسكندر يقيم المدائن في كل مكان أثناء تقدمه

الاسكندرية وهي أشهرها جميعا ، في مصر ، وفي وادي الغرات ، وفي أقصى شمال شرقي التركستان ، وعلى ضفاف السند ، وعلى تسواطيء الخليج الفارسي . وهذه المدائن بمستعمراتها من المقيمين المقدونيين والهليينيين كانت تكون المراكز الدائمة للثقافة الاغريقية . وكانت نتيجة هذه السياسة ، التي اتبعها خلفه ، ان حياة الاقليم الشاسع من ايجا الى السند ومن القزوين الى الحبشة أتت عليه الروح الهلينية بالتحويل ، في درجة تعظم أو تصغر ، وقد تأصل العلم الاغريقي في بابل وتأثر فن ودين وحكم الهند السياسي ، بطابع العقل الاغريقي . وعندما تمعن الفكر في أن هذا العمل العظيم يمثل جزءا فقط من سياسة الاسكندر أنجزه في سهور الفراغ القليلة بين الغزوات ، تدرك أنه حدث لا يكاد يوجد له مثيل في تاريخ البشر .

٥ - وقد ادعت الأسرة الحاكمة في مقدونيا أنها من سلالة اغريقية وكان الاسكندر في خصائص الخليفة الجوهريّة ، اغريقيا - وفي أوقات ، كانت العواطف الجامحة تحطم حدود ما كان يتجمل به من شمائل انسانية وتقويم نفسى بطبيعته ولو أنه أظهر ، عن أعمال العنف القليلة المدونة ، ما يوازيها من ندم عارم . ولم تكن الثقافة الاغريقية عنده ، كما كانت عنده الكثرة من ضباطه قشرة رقيقة تحجب الطبع الهمجي فيه - ان شعرها وفكرها أثارا اثاره عميقة بطبيعته المتحمسة المستعرة ، وكان لمدة ثلاثة أعوام في حدائنه وهو بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة تلميذا لا رستطاليس أعظم مفكر في عصره ، ولقد تغذى خياله بقصيد هومر ، وفي بلاطه ومعسكره كانت تقام احتفالات الالعاب الرياضية وتمثيليات الفاجعة ، وفي ساعة الانتقام من طيبة عفا عن منزل بندار من أن تلتهمه السنة النيران . وعندما كان يجلس « كملك الملوك » على عرش دارا العظيم أو يتخذ في مصر أنواع التشريف التي كان يتميز بها فرعون ، لم يكن أبدا ضحية مجده الخاص ، ولكن ظل قلبا وعقلا اغريقيا وكانت له قوة بدنية عظيمة وشجاعة ويجازف بحياته في تهور ظاهر في الميدان . وحدث مرة في الهند أنه وثب مع ثلاثة رفاق داخل مدينة محاصرة وأصابته جراح كادت تقضى عليه . وكان لزاما على ملك المقدونيين غلاظ القلوب ، الذين كانوا ينزعون الى الحرب ، أن يملك زمام ولائهم بالبسالة الشخصية . ان قلة من الشخصيات التاريخية العظيمة يتجردون عن ضعة الروح ، كما كان الاسكندر .

ولما كان مكشوف الطوية ، صادقا ، متحمسا في الصداقة الشخصية - ويتسم بصفات الفروسية للأصدقاء والاعداء على السواء ، وتستبد به

كبرياء نبيلة وحب للشرف فانه قسر قواده وجنوده كليهما على خدمته بوشيجة قوية من المغناطيسية الشخصية ، وكانت نقاوة خصاله الخلقية مضرب الامثال ، وأعجوبة زمانه . وبهذه الحصاص في عقله وشخصه كان يأتلف صفاء البصيرة وقدرة على أن يلائم بين الوسائط والغايات وأسمى نفوق في فن الحرب والجمع النادر بين الخيال السياسي وفن ادارة شؤون الدولة ، في ذروته . وكان بطل خياله الابداعي (الرومانسي) أخلوس الالياذة ولكن في الاسكندر ترى وقد ازدوج بالحماس والشجاعة وحب المجد الذي كان للبطل الهومري ، ميراث الثقافة الخلقية والعقلية الزاخر الذي جاءت به السلالة الهلينية في مجرى تاريخها الطويل .

٦ - وقد جاء في الاسطورة أن الاسكندر وهو في النزاع عندهما سأل قواده عن يورثه امبراطوريته ، أجاب « للاقوى » ولمدى عشرين سنة كانوا يتآمرون ويتحاربون من أجل الميراث ، الى أن قررت معركة أفسس في فروجيا (عام ٣٠١) - الحطوط العريضة للتقسيم ، للعصر اللاحق . وقد آلت شمله جزيرة البلقان الى لوسماخس Lysimachus وكونت مملكة مقدونية منفصلة لها السيادة على اليونان الاوربية وكان بطلميوس قد احتل مصر عقب موت الفاتح العظيم مباشرة ، واستمرت أسرته في حكم ذلك القطر الى أن اندمج في الامبراطورية الرومانية . ووقع معظم أملاك الاسكندر ، الاقاليم الآسيوية من ايجا حتى السند ، في يد سلوكس الذي أصبح منذ ذلك الحين ملكا على آسيا . ولا يمكننا أن نتقصى التاريخ المفصل للمشاحنات التي وقعت بين هؤلاء الحكام خلال القرنين التاليين اللذين ثارت فيهما العواصف والتغيرات . لقد كانت سياسة شرق البحر المتوسط في أيدي حكام مستبدين ، هليينيين كثيرا ما كانوا قادة قادرين في الحرب والسياسة ، وكثيرا ما كانوا ابداعيين (رومانسيين) في شخصياتهم وأقدارهم ، ومن الجهة الأخرى ، كثيرا ما كانوا مجرد أوساط ، لعبا للفرص والظروف ، مغامرين محبين لذواتهم أو هاويين فن ، فيهم همولة ، أو عبيدا للفساد والعاطفة التي تنزع للانتقام (١) . وفي عصر كان يتيح فرصا لا حد لها للبعقرية الفردية فاننا لا نجد زعيما للناس من الطراز الاول الا الى تلك اللحظة التي سار فيها في فجر القرن الثاني

(١) ان أول السلوكيين ، وأول البطالمة وحكام فرغاسس الاثاليديين هم أمثلة للحكام ذوي القدرة ، ديمتريوس Demetrius محاصر المدين (Poliorcetes) وفورهس الافيروسي Phyrus of Epirus زعيم عصاة المرتزقة من الجنود المغامرين ، الرومانسي وانطيوخس افيفانيس Antiochus Epiphanes (مظهر الله) من هواة الفن . وتضيف « الأميرة - النمرة » التي ترجع الى أصل مقدوني اضافة عظيمة ، الى الاهتمام بأشخاص العهد (راجع بيغان Bevan - بيت سلوكس House of Selencus) .

شخص البطل القبطاني العظيم الى مصيره ، عبر المنظر العام للعالم الشرقى
يضمير الى النهاية المريرة ، كراهية لروما لا يخمد أوارها .

ولكن هنيبال كان ساميا ومنفيا فى بلاد غريبة ، وكان حكامها
الانتيجونيين والبطالمة والسلوكيين قد صيغوا فى قالب جد مغاير . وأهميتهم
للتاريخ ترجع غالبيتها تقريبا الى توسينغ سياسة الاسكندر فى صبح الشرق
باليهينية . وبخلاف ذلك فقد تابعوا طريقة التعاظم الشخصى او
اتبعوا فى مناهجهم فى الادارة النماذج التى وضعها السلف من حكام مقدونيا
ومصر والامبراطورية الفارسية .

ولما كانوا اغريقيا فى السلالة واللغة والعادات ، فقد كانوا يديرون دفة
الحكم فى القصور الهلينية بمعاونة الجند الهليني والوزراء الهلينيين . وفى نية
مدبرة نشروا المدنية الهلينية وحافظوا عليها ، وسبقوا فى جيلهم رسالة روما
التاريخية فى زمن لاحق ، وكان تأثير هذه السياسة فى الشرق وفى الغرب على
السواء لا يمكن حصره . وكان معظم نجاحها مستقلا عن شخصية الملك الذى
كان . كما لاحظنا لا يعمل شيئا أو فظا جافى الطبع . أن بلوبيوس بوصم اسم
البطالمة فى صراحة بأنهم شخوص لا أهمية لهم (١) . ومع هذا فقد كان
هؤلاء البطالمة عينهم هم الذين درجوا على تأليه الحكام . لقد كان ملوك مصر
القديمة يعبدون على أنهم المظاهر الجسدية لأمون (= رع) وحتى الاسكندر
عبد كاله أثناء حياته . وسرعان ما شاعت العادة ، بين السلوكيين مثلا .
وفى منشأها كانت هلينية دون أن تكون شرقية . ان الدين الالومبى كما
رأينا قد صور الالهة فى شكل الانسان وفى نهج غريب عن ديانات
الشرق ، وكان اختلافهم عن الناس اختلافا فى الدرجة لا فى النوع ، الا فى
واقعة خلودهم . وفى العصر الهليني كانت الحاجة الى الخلاص يحس بها
احساسا ملحا ، والاناجيل الفلسفية (التى سأتحدث عنها قريبا) كانت
عسيرة الفهم عسرا تجاوز الحد ، لتستهوى الخيال الشعبى ، لماذا اذن
لا يجب اعتبار مخلص حى لها ؟ وزيادة على ذلك فان الممالك التى تركز الحكم
فيها والننى أقيمت فى الجليل الذى جاء بعد الاسكندر كانت فى حاجة الى رمز

(١) انه يقابل « عدمهم » (Oudemeia) بقدره السلوكيين العالية ٣٤ ،
١٤ . ولو أن الاسكندرية كانت مركزا هاما للثقافة الهلينية (راجع القسم
الثانى) فقد حكم البطالمة مصر على مناهج الفراعنة القدامى ، واستخدموا
القطر كضبيعة شخصية تأتى بالكسب قاصرين همهم على سبيادتهم ونفهم .
وانا نسمع القليل عن وزراء السلوكيين ولكن يبدو أنه أحسن القيام على
الحكومة حتى تحت حكم ولاة خاملين . ان البيروقراطية كانت قد وطدت
نفسها ، قبيل هذا الوقت ، فى عالم البحر المتوسط .

ظاهري للوحدة والولاء الشخصي للحاكم . وقد حققت عادة التأليه هذه المطالب الجديدة في عهد السيادة المقدونية كما بعد ذلك ، في عهد سيادة الامبراطورية الرومانية ، وانها تظهر للعبريين والمسيحيين الذين ترعرعوا في عبادة اله واحد ، خالصة ، لعنة كفر . ولكن الاغريقي والرومانى كانا ينظران اليها نظرة جد مغايرة . ولم تكن تعنى عندهم أكثر ما يعنى الوضع فى قائمة القديسين ، عند المسيحيين الكاثوليك فى زمننا ، الا قليلا .

لقد كانت طريقة طبيعية للتعبير عن العرفان بالجميل لمنافع الحاصل . ولو كان ما لدينا من سجلات وافيا أكثر مما هو عليه ، لكنا على الأرجح قد وجدنا أن مهمة بسط الهلينية كانت فى أيدى بيروقراطية قديرة ، وأن الأداة الادارية كما حدث بعد ذلك فى عهد الامبراطورية الرومانية حافظت على كفاءتها على الرغم من شطحات الافراد من الحكام . ومثل يسترعى النظر ، لهذه الكفاءة هو تقدم الزراعة المصرية تقدما سار على مذهب منظم ، فى عهد البطالمة وهى مهمة كان قد أهملها الحكام الفرس . ونتيجة لهذا ، أصبحت مصر أهم مخزن للذخائر فى الامبراطورية الرومانية ، وزيادة على هذا - فان المدينة الهلينية وهى أداة السياسة العظيمة كان من شأنها بمجرد أن تؤسس ، أن تزدهر عن طريق حيويتها الخاصة ، العضوية . وستحدث فى قسم ثانى قادم ، من هذا الفصل ، عن طبيعة الثقافة التى نشأت على هذا المنوال فى الاسكندرية عند مصب النيل وفى انطاكية على الاورطط وفى سلوكيا على الدجلة وفى مائة مدينة أخرى كانت تدين بوجودها الى الاسكندر وخلفائه . ولقد كان الملوك السلوكيون فى آسيا ، من بين الأسرات الثلاث الاغريقية المقدونية هم الذين حملوا أثقل عبء ، ومع هذا فقد ساروا قدما فى العمل على نشر الهلينية بما كان له عظيم الأثر . وكانت كل من مقدونية ومصر دولة متضامة متجانسة ومن السهل نسبيا الدفاع عنها ، بينما كانت الامبراطورية الاسيوية يعوقها عدم الوحدة الداخلية والتماسك ، كما كانت الحال عينها فى فارس فى زمن مضى ، وقام الدليل على أن ملوكها كانوا غير أكفاء على أن يصابولوا فى نفس الوقت منافسيهم فى الغرب ، وفى الشرق ، البطالمة والمقدونيين من جانب ، ومن الجانب الآخر الدولة الفارثية التى نهضت فى القرن الثالث فى ايران^(١) . وسرعان ما استعادت البنجاب استقلالها^(٢) ، وآلت الولايات الى الشرق من دجلة ، الى الفارثيين ، وفى

(١) كان الملوك الفارثيون أسرة سقوثية ، واستقروا على الهضبة

الایرانية .

(٢) يجب ألا يغيب عن البال أن مدنا اغريقية بمستعمرات اغريقية أقيمت

فى البنجاب وأن النفوذ الاغريقي فى ذلك الجزء من الهند لم ينته باستعادة الاستقلال . لقد كتب أمير وطنى الى انطيوخس الأول يطلب منه أن يرسل سفبساطيا اغريقيا الى البنجاب ، وأجاب انطيوخس أن السفبساطيين لا يباعون

(بيغان ، ١ ، ٢٩٧) .

بواكير القرن الثاني وجد خلفاء سلوكس أنفسهم محصورين في الأراضى التى تقع بين الفرات والمشرق وقد حبسوا بين فارسيا وروما . وبعد مائة سنة ، توأرى حكمهم حتى من سوريا وواجهت جحافل الرومان الفارثيين على الفرات .

ومع هذا - ففى خلال هذه القرون القلائل حقق بيت سلوكس أمورا عظيمة للمدنية . وبتأسيس طائفة عظيمة من المدن فى سوريا وبلاد بابل وفى آسيا الصغرى والأراضى الواقعة حول القزوين ، فانهم غرسوا الهلينية فى الشرق الأوسط ومهدوا ساحة اجتماع للفكر الاغريقى والشرقى (١) . ولم يكن الدين من جانب واحد وحسب . واذا كانت الثقافة الهلينية قد تأصلت فى آسيا ، فان ديانات الشرق أيضا بدأت تسيطر على عالم البحر المتوسط . وكان الاندماج مشحونا بنتائج هامة . انه كان فى انطاكية الحاضرة السورية للسلوكيين أن تلاميذ الديانة التى قدمها الشرق الى الغرب أطلق عليهم لأول مرة الاسم الاغريقى المسيحون (٢) .

٧ - لقد ذكرنا آنفا أن قيام الدولة المقدونية كان معناه سقوط دولة - المدنية الهلينية ، كوحدة سياسية مستقلة ، وكان هذا الثمن الذى دفعته اليونان للفرصة التى تاحت لها فى بسط الهلينية على الشرق . وكان هذا العمل الجليل ميسورا فقط لدولة عظيمة ، وفى الأزمنة القديمة فى طول مداها ، كان معنى الدولة العظيمة ، الحكم الاستبدادى ، وسنرى كيف أن روما أيضا كفت عن أن تكون جمهورية عندما استحوذت على امبراطورية عالمية . ان الأساليب التى تستخدمها الأمم الحديثة للتوفيق بين ممتلكات فسيحة الأجزاء والاحتفاظ بالحرية السياسية وهى الطباعة والنقل بالبخار وطرق المواصلات بالكهرباء ، وفوق هذا كله الحكومة النيابية ، لم تكن معروفة للاقدمين . ولكن توكيدنا ولو أنه صادق فى معظمه ، يجب أن يقبل بتحفظات معينة . ويرجع أحد الأسباب الى أن المدنية الهلينية ماتت موتا عسيرا ولقد شأهدت

(١) حلت سلوكيا على الدجلة محل بابل التى أصبحت منذ ذلك الحين مجرد مركز دينى . وظلت سلوكيا مدينة اغريقية فى عهد الفارثيين (Tac; Ann. : ٦ ، ٤٢) وقد نسب اسطرابون (١١ ، ٥٠٩) ، الذى عاش فى عهد أغسطس عدم تقدم موارد هورقنيا Hyrcania واقليم القزوين فى زمنه الى ما وقع من أن الاغريق لم يحكماهما اطلاقا . لقد قامت الحكومة الاغريقية المقدونية فى حماس بتسمية التقدم المادى والاقتصادى ، الطرق والرى والمصارف ٠٠ الخ . وعن عاليه ، راجع بيفان ١ ، ٢٨١ وعلى وجه عام الفصول ١١ الى ١٤ من كتابه .

(٢) الأعمال : ١١ و ٢٦ بدأ مذهب مشرا فى الذبوع فى آسيا الغربية فى عهد خلفاء الاسكندر ، راجع السفر الثانى فصل ٩ § ٨ .

الحقبة الاغريقية المقدونية مكافحات متكررة بين القوات التي تناصر النزعة الجمهورية وتلك التي تنزع الى الحكم الاستبدادى ، ولم يكن فى قلة من الحالات أن الجمهوريات كانت قادرة على الاحتفاظ بكيانها . وكان الامر كذلك فيما يوالى حدود امبراطورية الاسكندر فى الغرب حيث ظلت جماعات مثل سيراكوز وطرنم Tarentum ومسيليا Massilia مستقلة الى أن أدمجت تحت حكم روما . وفى جهات أخرى نجد المدن الفردية تحتفظ أو تسترد استقلالها طبقا لظروف الزمان والمكان المتغيرة . وفى اليونان الاوربية فازت أثينا واسبارطة وفاز التحالف الايطولى والتحالف الاثنائى بحكم ذاتى لفترة عابرة ، وشببيه هذا يصدق على بوزنطية ، وهرقليا ، على الاكسين وخيوس وبعض بلدان ايجة ، ولقد استتمعت المدينة الجزرية ، رودس « خاصة » بعهد باهر من الرخاء التجارى تحت حكومة جمهورية ألغت القرصنة وبسطت حمايتها على الولايات الاضصف دون فرض ضريبة وأنشأت مدونة قانون بحرى ، جليلة الشأن وقامت بالوصاية على الدين والثقافة جميعا وحافظت على ابتعادها عن المشاكل الدولية حتى منتصف القرن الثانى (١) .

ومثل آخر : كانت فرغامس Pergamos التي ازدهرت كموطن للفن والثقافة تحت حكم ولاية منها ، بيت أطلس Attalus وكانوا أمراء من التجار ذوى ثراء دافعوا عن دمار الهلينية ببسالة ضد حملات المغول الهمج على آسيا .

ولكن غالبية المدن الهلينية كانت خاضعة سياسيا لاحدى الممالك المقدونية الثلاث ولقد سمح لهذه المدن ، فى معظم الحالات بالحرية التامة فى الحكومة المحلية واعترف بكثير منها مثل أزمير أو المدن الهامة فى كليكية وفينيقية ووادى الاورنط بأنها «مقدسة ومعصومة» ، تقوم خارج مذهب الادارة العادى، وكان مركزها تحت الحكام المقدونيين . كما كان فى عهد روما ، مماثلا لمركز المدن الهانسيية الحرة فى زمن الامبراطورية الرومانية المقدسة . وكان الحكام حريصين على مراعاة صور الاحترام الخليق بتقاليد دولة - المدينة الهلينية ، العليا ، وأن يتحدثوا ليس عن « رعية » ولكن عن « حلفاء » وعن «المساعدات الاختيارية» ، بدلا عن «الجزية» وأن يقووا صالحهم المادى بمنح سخية وخاصة لمعابد المدن وأن يججبوا على وجه عام ، تخت قناع من الحرية المعترف بها ، حقيقة الخضوع القاسية . وكانت المدن فى دورها على استعداد بأن تنزلف الى الطغاة بأنواع التكريم الالهى،

(١) أسست رودس عام ٤٠٨ وكانت تقوم بما يقوم به الوسييط ، بين اسكندرية وسوريا والاكسين والموانى الاوربية .

وهذا علامة على تدهور في مزاج دولة المدينة في القرن الخامس (١) . وفي جميع الأحوال ، كان السلوكيون يحبون الهلينية حبا صادقا ، وكانوا يعلمون تمام العلم أن بسط الصبغة الهلينية كان يمكن انجازه فقط عن طريق متعضى المدينة . ولكن عندما يضع المرء موضع الاعتبار الكلى استتقلال المدن الفردى وتضاعف البلدان الجدد ، في المملكة السلوكية وسياسة التسامح التي جرى عليها حكماها للقديم منها والجديد على السواء فان الحقيقة تظل قائمة بأن سيادة دولة - المدينة الاغريقية ومعها أصل نبع روح الحرية السياسية قد ذهبت عن الوجود . وعلى ذلك يمكننا أن نقدر المقاومة في حماس شديد التي قامت بها أثينا ضد فيليب بزعامة ديموثينس ورفض الولايات الاغريقية من أن تعيها روعة انتصارات الاسكندر التي تأخذ بالأبصار ، عن التضحية الحقيقية التي كانت تترتب على تلك الانتصارات . ولقد شعروا - بالفرجة - أن ضربة قد وقعت على الجذور التي أفرخت منها الهلينية . وفي الواقع كان الأمر كذلك . وفي بطنه ولكن في توكيد فقدت السلالة الاغريقية نشاطها القديم في غضون العشرين الاغريقي - المقدوني والاعريقي - الروماني .

وكان الاغريق « أشبه بمالك أسرة قديمة لا مكوس عليها الا للملك ، رهن وفقد ميراثه ولكن لا يزال يسمح له بأن يعيش في بيته القديم . ولقد ذهب عنهم سحر الملكية الجوهري ، ومعهم كل بهجة الحياة الاجتماعية وفيضها ، ولو أن هذه الكارثة كانت لتعمل على توسيع أفقهم العقلي وتوجد لهم مصالح جددا وعملا آخر يضطلعون به - فان ينبوع جهدهم العقلي ما كان ليجرى مرة أخرى بمثل ذلك الصفاء والقوة كما في أيام الحرية الكاملة لدولة المدينة » (٢) الفردية . ودون ريب ، تفتحت في نفس الوقت امكانيات جديد أمام الهلينية وقد أتت مع تبدل الأحوال الاقتصادية ، نتائج اجتماعية وسياسية بعيدة المدى ، فانه بوجود معظم التجارة الشرقية في يد اليونان ، تقدمت مؤسسات الأعمال في قياس جديد على نطاق واسع . وحلت محل مناهج المصنّاف القديمة مناهج أخرى ، واتسعت مسافة الخلف بين صاحب رأس المال والعامل الصناعي مع النتائج التي لا معدى عنها في أن أمان المدن التجارية الهامة أصبح يهدده الخوف من ثورة وارتفعت الأسعار في كل مكان بحيث خرجت عن كل تناسب مع زيادة الأجور وقد فقدت الدراخمة بين القرنين الرابع والثالث نصف قيمتها وكانت الجماهير في خطر دائم من حدوث مجاعة ولم يكن يوجد طبقة وسطى عظيمة لتكون جسرا للهوة التي كانت تفصل ذوي

(١) لقد منح ديموقراطية مليطوس المعادة الرتب الالهية على انطيوخس الثاني الفاسد (Theos) . وعن تأليه الأمراء ، راجع مري « خمس مراحل » الصفحات ١٣٣ وما بعدها .

(٢) ورد قولر- (Warde Fowler) - دولة المدينة الصفحات ٣٠١ - ٢ .

اليسار العظيم عن الفقراء فقرا مدقما • ولهذا قامت الصيحات لمجموعة الأدوية التي تشفى جميع الأدواء الثورية كالفناء الديون وتقسيم الأرض تقسيما متعادلا ومصادرة الملكية الشخصية وتحرير العبيد - تلك التي وجدت عضدا نظريا من أفكار الرواقين التي كانت تنتشر الآن بين الطبقات المثقفة (١) • وعلاوة على هذا - فان غزوات الاسكندر جلبت عالما أوسع الى داخل مجال نظر الانسان ، أكثر مما كان يتوانق مع الاحتفاظ بوطنية تتصل بالمدينة وحسب • وقد مهد استبداد مقدونيا وروما وهو يحطم الحواجز التي كانت تفصل الاغريق عن الهمج والغربي عن الشرقي ، الطريق للمثل الأعلى للمذهب الكوني الذي كانت تعبر عن فلسفة الرواقين ، وفي القضاء الروماني وأخيرا في الديانة المسيحية • لقد كان يوجد شيء فيما خلقته العبقريّة الاغريقية وفي روحها يتعالى على قصور السلالة التي انتهجتها • كانت الهلينية نورا ليس فقط للهلينيين ، ولكن للبشرية ورأت الساعة التي غابت فيها في سماء موطنها ، فجر طلوعها بين الشعوب غير الهلينية •

« ٢ - الثقافة الهلينية »

٨ - كان البلي الذي أصاب الهلينية جد تدرجي لأن الثقافة الاغريقية احتفظت بنضارتها وتميزها خلال الفترة المستطيلة من التدهور ، لقد غاضت الينابيع ، لكن الجدول كان لا يزال يفيض ولو أن جرمه أصبح أقل وفي ركود أعظم • وكانت الأمواه ، أمواه اليونان •

وغيرضنا هنا أن نضع شكلا مجملا لخصيصة تلك الثقافة العامة لها يطلق عليه العصر الهلينيستي الذي يقع بين حكم الاسكندر وحكم روما (٣٣٠ - ٣٠ ق.م) (٢) • وفي فصل قادم ، سنتحدث عن الهلينية في عهد الامبراطورية الرومانية ، ويجب أن نأتي على ذكر حقيقتين حاسمتين ، في مستهل القول : **أولا :** كان يعني فقدان استقلال المدينة (الاستقلال المدني) أن مهمة الحكم الخطيرة لم تعد بعد من شأن المواطن الفرد ، و منذ ذلك الحين ، يسير الأدب والفكر في جو من المصالح الشخصية وجو الحياة الاجتماعية ، وهي بمنزل عن الحياة العامة •

(١) راجع تارن Tarn ، «العهد الهلينيستي» الصفحات ١٠٨ - ٤٠ عن « المسألة الاجتماعية » بتوضيح مفصل ، من الحركات الثورية في اسبارطة في القرنين الرابع والثالث (Agis, Cleomenes and Nabis)

(٢) ان التعبير « هليينستي » Hellenistic غير واف ولكنه شائع الاستخدام • وأفضل منه التعبير الاغريقي المقدوني Graeco-Macedonian أما « الاسكندري » الذي يستخدم كثيرا ، فانه مفرر جدا • ومغزى التعبير «Hellenistic» أضييق كثيرا من مغزى "Hellenism" •

لانيا : ان اليونان تعي وعيا يطرد ازديادا ماضيها الذي أنجز ، وهي حتى ذلك الحين كانت خالقة الحاضر والمستقبل تصبح الآن تاريخية تنزع الى التأمل . انه عندما يسير الواعز للخلق الى بلي ويبدأ النشاط في الوهن تتحول السلالة صوب جلال أعمالها الماضية لتحلل وتسجل . ان بومة منروا Minerva لا تشرع في طيرانها الى أن تبدأ ظلال المساء تخيم (١) .

٩ - ان الأدب الهليني والفن الهليني هما نتاج أحوال الحياة والفكر التي تغيرت . ان الأدب - بصفة عامة - يتميز بالثقة والعلم وبالنقد والتأمل ومحكاة النماذج القديمة ، وصب الخمر الجديدة في الفوارير العتيقة أو مرة أخرى ، بالرغبة في تقديم التسلية الاجتماعية لمههور منقذ وهو يعتمد اعتمادا وثيقا على رعاية العطاء . وفي هذا المجال ، كما في مجال العمل ، كان العصر عصر رجال ماهرين من الدرجة الثانية ، وكان رجل العلم الشاب حقا ، أرتوستينس Eratosthenes يلقب (بيتا Beta) (أي من الدرجة الثانية) . ولو أن هذا فيما يرجع ، كان التعبير عن الغيرة التي كان يشعر بها اخصائيون نحو زميل له نظرة عقلية أكثر اتساعا من نظرتهم . وانا اذا استثنينا رودس ، وأثينا ، فان مراكز النشاط الأدبي والعلمي الهامة ، كانت قصور الطغاة ، وكان الشعر بالطبع ، أكثر نضارة أيضا كانت الحياة في أعظم حرية ، كما في صقلية فيما يوالي مدى الامبراطورية المقدونية أو في أثينا ، موطن التقاليد العظيمة ، حيث كان مظهر الاستقلال السياسي على الأقل ، يحافظ عليه في حماس .

وكانت أناشيد الرعاة (idylls) لثيوكريتس Theocritus السيراكوزي (حوالي ٢٧٠) آخر الأعمال الجليلية التي قامت بها عبقرية الشعر الاغريقية الجديدة بالذكر ، ولها مرتبة هومر وواضعي الفاجعة الاتيكية (٢) .

لقد خلق ثيوكريتس صورة جديدة من الأدب . وكان مصدر الالهام لشعر المراعي لجميع الأزمنة اللاحقة بما فيها قصيد المراعي ، القصار Eclogues لفرجل ولوسيداس Lycidas الملتون وأدونس Adonis لشلى . وقد ازدهرت في أثينا « المسلاة الجديدة » ، في الإخلاق (٣٣٠ - ٢٥٠) التي كانت تصور أنواع الخصائص والمواقف في الحياة الاجتماعية الاغريقية ، بدلا من الشخصوس الأحياء الذين كان أرسطوفانس ، يهجوهم في تهكم ، ولقيد جلب مناندر Menander وزملاؤه من واضعي الفاجعة ، الى المسرح ، الوالد المشاغب والأبن المسرف والطفيلي ومستودع الأسرار من الاناث ، والمحظية والبخيل ،

(١) هجل Hegal - مقدمة « فلسفة الحق Philosophy of Right »

(٢) ولو أن ثيوكريتس عاش في الاسكندرية في عهد بطليموس الثاني ،

فان روح شعره صقلية .

والمغامر الثرثار ، من أشباه الهرفجونيين Harpagons (١) والدجالد دلجتيين Dugald Dalgettye (٢) في ذلك العصر ، وفي المسلاة والأمثال والملحمة كان أمر الحب بين الرجل والمرأة ، الذي كان يخلو منه بصفة ظاهرة ، الشعر الاغريقي ، الأسبق قد صار موضوعا سائدا (٣) . وعلى سبيل المثال كتب افولونيس ، الشاعر الرودسي ، وهو يقلد صورة الملحمة ، في عهد أسبق ، في أبيات من ستة مقاطع قصة الأزرغنونوط Argonauts وحب ميديا ليسون Jason ولقد عبر عن روح الرومانسية (الابداعية) أجمل تعبير في شعر المراثي الذي كان موطنه الاسكندرية .

وكانت المدنية نفسها ، تحت رعاية البطالة ، مركز العلم الهليني وكانت تقوم مكتبتان ، تضم أحدهما ٧٠٠٠٠٠ مخطوط ، وهما يدلان على الحماس الذي كان فيه يجمع الأمراء والعلماء ، عيون مصنفات الماضي ، وكانت مدارس من النقاد والشراح تكدح في مهام التحرير والتفسير . وإلى جانب العالم كان يوجد الطفيلي والمتفقه . وكان العصر يجمع بين الثقافة العامة وبحث المتخصص . وبفضل البردي أصبح يوجد جمهور مثقف يعكف على القراءة وقد ازدهر النقد اللغوي والنقد الجمالي في الاسكندرية ، وسهارت فروع العلم قدما الى الأمام بمعاونة الرسائل والمعطيات الجدد . ومن بين العلماء الذين كان موطنهم المتحف كان رجل الهندسة أقليد Euclid وأرشميدس الذي كشف مبدأ الرافعة والجغرافي ارطوستينس Eratosthenes القورينوي أول من قاس درجة عرض على سطح الأرض والعالم الهومري أرسطرخس (Aristarchus) السمثراقيوي (Samothrace) .

ولقد كان تقدير ارطوستينس لمحيط الأرض بشمانية وعشرين ألفاً من الأميال قريبا من الحقيقة قرابة تدعو الى الدهش حقا ، وكان ارطوستينس أيضا هو الذي أدمج في مصورته الجغرافية ثمرات الرحلة ذائعة الصيت التي

(١) شخصية في مسلاة مولير «البخيل L'avare» مأخوذة عن Euelis لفلاوطس Plautus كان يمتلك خيولا لا يطعمها جيدا وخبدا لا يكسوهم ، أما تجويعه الفيران فليس محققا . (المترجم) .
(٢) دلجتيين . . «كابتن دجالد Capt. Dugald» ، شخصية في رواية «سكوت» Sir. W. Scott ، «Legend of Montrose» كان طالب لاهوت وأصبح من الجنود المرتزقة وهو شجاع ويمكن وضع الثقة فيه اذا دفع له مرتب حسن . (المترجم)

(٣) كان يوربييدس أول واضعي الفاجعة الاغريق ، في اتخاذ حب الجنس من موضوعا أساسيا . ومع هذا ، فإن الحب في معناه الحديث المثالي نادر في الأدب الاغريقي . (راجع انطماخس القلوفوني Antimachus of Colophon ومركز المرأة في الشعر الاغريقي تأليف (ي . ف . بنيكي E.F.M. Benecke

قام بها فوثياس (Pytheas) المرسيلى (أواخر القرن الرابع) فى محاذة ساحل أوروبا الأطلانطى حتى بريطانيا وسواحل بحر الشمال الى مصب الالب .
 وفى الواقع يمكن أن يعد اغريق القرنين الرابع والثالث خالقى علم الجغرافيا .
 وفى منتصف القرن الثالث وضح الرياضى والفلكى العظيم أرسطرخس الساموسى (حوالى ٣١٠ - ٢٣٠) نظرية مركزية الشمس ، وهو يقتفى آثار العلم الفيثاغورى والأفلاطونى^(١) . وفى الاسكندرية أيضا أصبح علم التشريح لأول مرة أساسى علم الطب (هاروفلس Herophilus حوالى ٣٠٠ ق م) . وفى المستعمرة العبرية فى الاسكندرية التى كانت تتمتع بميزات خاصة ، أتى اتصال الثقافة الشرقية والثقافة الغربية بالشار فى اصدار الترجمة السبعينية Septugint ، النسخة الاغريقية لاسفار العهد القديم^(٢) .

ان هذه الحقبة تسترعى النظر أيضا بمصنفاتها التاريخية وأشهرها مؤلف بلوبيوس (القرن الثانى) وهو رجل سياسة جمهورى اغريقى حمل كرهينة الى روما فى زمن فتح مقدونيا واستمتع بصحبة الرهط الاسقيفيونى ، ذائع الصيت .

ولقد سجل فى لغته الأصلية توسع الدولة الرومانية وقد ألهم بذلك - وهو اعتراف نادر من مؤلف اغريقى - الاعتقاد فى صلاحية السلالة الرومانية لحكم العالم . ومن الامور ذات المغزى عن نجاح سياسة بسط الهلينية كان تاريخ مصر الذى وضعه الكاهن الوطنى مانيثون وتاريخ بابل كذلك الذى وضعه الكاهن الوطنى بروسس (Berosus) وكان عالما بابليا ، يحمل الاسم الاغريقى سيليوكس هو الذى ناصر النظرية الجديدة لمركزية الشمس فى السموات ، فى القرن الثانى . ولقد أوجد الجو السياسى الذى كانت تتوفر فيه حرية أعظم فى أثينا ورودس دافعا لقيام مدارس الفصاحة ذائعة الصيت . وستحدث فى قسم قادم عن فلسفة العصر . وكان العهد أيضا عهد تنظيم

(١) راجع بورنت El.Gk. Ph. صفحة ٢٢٩ و Heath ، أرسطرخس الساموسى Aristarchus of Samos . ويذكر « بورنت » أن كبرنيكس صرح فى خطاب للبابا بول الثالث أن دراساته للعلم الفيثاغورى هى التى أوجدت لديه الدافع لاعادة الكشف عن نظرية مركزية الشمس . وقد عاش اقليد فى عهد بطليموس الأول وينتمى أرشميدس وأرطوستينس الى القرن الثالث وأرسطرخس السمثراقيوى للنصف الاول من القرن الثانى .
 (٢) أصدرت الترجمة السبعينية (LXX). وقد أطلقت عليها هذه التسمية لأنه كان يظن أن سبعين مترجما قاموا بوضعها ، فى القرنين الثالث والثانى . وقد عرفت الكنيسة المسيحية الباكرة « العهد القديم » عن طريق هذه النسخة على الأخص .

المعرفة في المدارس والمكتبات . ولقد قامت مراكز للجامعات ، على أنموذج أثينا ، في العالم الهليني ، كما في رودس ، وفرغامس وطرسوس في كيليكية وفي ختام تاريخها ، فنيت الثقافة الاغريقية اعياء من فرط التعب في أكاديميات العلم ، ولكن كان في أكاديميات العلم أنها نهضت مرة أخرى وسرت فيها الحياة ، في ايطاليا في عصر النهضة . ومظهر آخر من مظاهر الادب الهلينستي جدير بالملاحظة . لم يعد المؤلفون بعد يكتبون كما كان يكتب واضعو الفاجعة الاثينيون ، لاجل مواطنيهم ولكن وفقا للنظرة العالمية الجديدة لجمهور كان عالميا ، وفي الوقت ذاته تدرب على ثقافة الماضي .

١٠ - وكان الفن في ذلك العهد كذلك ، منذ بداية القرن الرابع فصاعدا يعبر عن النظرة الى الحياة التي تبدلت ، واذا كان فن العمارة وفن النحت في عصر فيليب والاسكندر بعوزهما استقرار وعظمة الطراز السابق فانه يوجد كسب يعوض عن الحسارة ، في اتقان الصنعة اتقاناً متزايدا وتصوير العواطف الانسانية في حرية أعظم وقدرة عجيبة على ابراز الخصائص الفردية . وكلما تقدم الزمن أصبحت آيات التدهور ظاهرة للعيان في حب للناقاة التي تفيض زخرفا ، وما يبذل من جهد واع لمحاكاة المذاهب العتيقة .

ومن بين أروع آثار القرن الرابع التذكارية ، يمكن دراسة عمليتين منحوتين، في المتحف البريطاني « الضريح Mausoleum » وهو القبر الذي أقيم في هلقرناسس Halicarnassus لماوسلس Mausolus ملك كاريا Caria (حوالي ٣٥٠) وهو عمل ، حمل سسقوفس Scopas الفارسي عبء القيام بجزء منه و « محراب نريد Nereid » من اكسنثس في لوقيا ، والاثنتان يقومان شاهدين على ما ظفرت به الثقافة الاغريقية من طول باع بين السلالات غير الهلينية في آسيا الصغرى . وفي الومبيا لا يزال يمكن رؤية هرمص لافراكسيطيلى Praxiteles وهو نحات من المدرسة الاثينية خلقت قنائيله للالهة أفروديت طرازا جديدا. من الجمال النسوي في الفن . وربما كان أعظم تقدم فني اختص به ذلك الزمن قيام التصوير . ولقد جلس الاسكندر مرارا الى النحات لوسيبوس Lysippus والى المصور الاغريقي العظيم أفلس Apelles القلوفوني . ولا توجد صور بين أيدينا ترجع الى ذلك العصر ولكن قسمت زعماء الحكام محفوظة على عدد عظيم من الجواهر والعملة . وفي فن العمارة ، عاين القرن الرابع استخدام تاج الأعمدة الكورنثي ذى الزهور (على سبيل المثال أثر خزجي للوسقراطس - Lysicrates في أثينا ، حوالي ٣٥٥) وفي اليونان الاصلية ، حلول الطراز الدوري الصارم محل الطراز الايوني الزاخر ، وعندما نصل الى القرن الثالث نجد أحسن فن كاحسن شعر ، يزدهر حيث تكون الحياة على أعظم جانب من الحرية . وفي اسكندرية كان يوجد اليسير مما هو جدير بالتسجيل فيما عدا احياء مصطنع للفن

المصرى الوطنى تحت رعاية البطالمة ، ولقد ازدهر بطبيعة الحال تخطيط المدن .

ولما كان تخطيط المدن موضع اهتمام الاغريق منذ أن استخدم بركليس هيبوداموس Hippodamus المليتوسى لرسم موقع ثورى Thurii فى مربعات ، ومنذ أن أعاد ديونوسيوس الأول وضع سيراكوز ، فقد ازدهر ، بطبيعة الحال ، فى عهد حكام مقدونيا وأقيمت الاسكندرية وانطاكيا فى تخطيط محكم يسير فى مذهب منسق . وأعظم كل المدن جمالا ، فى الموقع والبناء ، كانت فرغامس وهى من خلق أمراء بيت أطلس Attalus وكان كل من فرغامس ورودس مركزا للفن الحى فى القرنين الثالث والثانى . وقد نمت الأولى حول حصن ربوة الى أن أصبحت حاضرة الأمراء المثقفين الذى على غرار أسرة مديشى (Medici) فى عصر النهضة ، كانوا يجمعون حولهم الفلاسفة والفنانين . ولقد كانت رسوم فرغامس المنحوتة التى تخلد ذكرى انتصارات أطلس الأول (٢٤١ - ١٩٧) وأمينيس الثانى (Eumenes II) (١٩٧ - ١٥٩) على الغال أجمل ما وصل اليه ذلك العصر (١) . وفى تاريخ معين سابق ، توجت رودس مقاومة البطولة التى قابلت بها قوات الطفيان ، بأقامة التمثال الهائل (Colossus) وهو تمثال لاله الشمس ، يبلغ ارتفاعه ١٠٠ قدم ونيف ومن صنع أحد تلاميذ لوسيبوس ، ولقد شكلت مجموعة لاوقون Leocoon على نهج المدرسة الرودسية وكان فروطغنس (Protogenes) الرودسى أحد عظماء المصورين فى زمنه . ويمثل ما جاء بعد ذلك من تطورات فى فن النحت ، أعمال معروفة جيدا مثل أبولو بلودير Appollo Belvedere وفينوس (أفروديت) ميلوس . وتصوير المناظر المألوفة أو الريفية ، وصور مناظر داخل المنزل ، كأمثال صور عظام الفنانين الهولنديين فى القرن السابع عشر كان له ذبوع ووقبدم تمثيلا لمشاهد الحياة الاجتماعية « فى المسلاة الجديدة » ، وفى عهد السليوكيين ذاع الفن الاغريقى صوب الشرق ، فى القارة الآسيوية . ويؤكد لنا الباحثون المعاصرون أنه كان عن الاغريق الذين حكموا لمدة قصيرة فى البنجاب أن الهنود تعلموا نحت الحجر واقامة الأبنية به . ويجب أن نتذكر أيضا. أيضا أن أدب وفن العصر الهلنستى وضعا طابعهما على أدب وفن روما وعلى هذا ، فعن طريق روما ، أثرا على المدنية الخالفة تأثيرا أكثر عمقا من تأثير الأعمال المثالية العظيمة فى عصر بركليس .

(١) مثل «رجل الغال فى النزاع» المحفوظ فى متحف كابيتولون Capitoline

وكتيرا ما يطلق عليه خطأ (المجالد فى النزاع Dying Gladiator) لقد كان فن فرغامس يتميز بواقعيته الفاجمية وتفوق الصنعة وكانت تشيع فيه الحياة الحقة أكثر من أى فن آخر فى ذلك العصر .

« ٣ - عصر أرسططاليس »

عندما فقد العبريون استقلالهم القومي سعوا الى اللباز بالدين . ولقد ترك تدهور دولة - المدينة الهلينية الاغريق ، دون ذلك المصدر للتعززية . الذين كانوا أعظم السلالة تفكرا وجدا وقد تحول هؤلاء - وهم أرسططاليسية الثقافة - الى الفلسفة لتهدبهم السبيل وتقدم العون . انها فلسفة هذا العصر هي التي أثرت أعمق تأثير في أجيال البشرية اللاحقة .

ولقد كان أعظم تلاميذ أفلاطون ، أرسططاليس - معلم الاسكندر خلال ثلاثة أعوام - وربما كانت هذه أروع آصرة تقوم بين أشخاص في تاريخ البشرية . ان أرسططاليس ، على غرار الاسكندر ، يقف عند مفترق الطرق وتتأصل فلسفته في فلسفة أفلاطون ولا تكاد توجد فكرة من أمهات أفكاره لا توجد جرثومتها في الديالوجات الأفلاطونية (١) . ولقد فاق أفلاطون الذي كان موقفه من حياة عصره موقف الاستنكار دون ترفق ، في أنه يمثل الحياة الاغريقية كنا كانت تشتمل عليها دولة - المدينة . ويبدو أن أرسططاليس لم يكن عليما بأن ناقوس نعي المدينة الحرة قد دق في خايرونيا ، ان ادراكه القوي بالواقعي في الطبيعة والحياة الانسانية واهتمامه بظواهر العالم الهليني الاجتماعية والطبيعية ، هما اللذان جعلتا من فلسفته شرحا موضحا للثقافة الاغريقية .

وكان لأفلاطون نظرة أكثر عمقا ، في نوازع أعمال البشر ، ولكن أرسططاليس كان أكثر قربا من الهليني الذي يمثل النوع .

وكان مثله الأعلى السياسي ، دولة - المدينة الهلينية التي جاء عليها الإصلاح والثورة ومثله الأعلى للفرد ، حياة العقل التي تهيب الصورة كمبدأ للتناسب والقياس ، لمجال واجب المواطن الزاخر المتنوع الذي تقدمه حياة الدولة الاغريقية .

انه هذا الاحساس بقيمة الواقع الذي أدرك ، وضرورة تحقيق الصورة المثالية بين مواد الأحوال الفعلية ، هو الذي يميز أرسططاليس عن أفلاطون .

(١) كان أرسططاليس في الواقع أول أفلاطوني . وتفسير فلسفته على أنها التطور الاصل لفلسفة أفلاطون أدق الى حد بعيد من التنويه بالتناقض بينهما ، كما جرت عليه الحال مرارا كثيرة في الأزمن اللاحقة . وبالطبع كان أرسططاليس تحدوه الرغبة في أن يوضح لجيله المواضع التي انحرف فيها عن المذهب السائد . وكان هذا مدعاة لاساءة التفسير .

وعلى مثال أفلاطون كان يعتقد أن حياة التأمل هي أسمى حياة ، وعلى مثال أفلاطون كان يعتقد أن أعظم ما يكون حقيقيا هو أعظم ما يكون قابلا للمعرفة ، وقد التمس هذه الواقعية في الحقائق الأبدية التي تكون موضوعات الفكر ، لا الحس . ولكن هذه الصور الأبدية لم تكن في اعتباره كائنات عالم ينأى عن عالم التجربة الفعلية ، وإنما كانت المبادئ التي تسيطر على العالم الذي كان يعيش فيه (١) .

١٢ - وبيان مجال وقيمة فلسفة أرسططاليس في نطاق موجز ، هو مهمة غير عملية وخاصة لأنه لا يوجد توليف واحد يرجع إليه ، يهيم ، « كجمهورية » أفلاطون ، أساسا شاملا للدراسة .

لقد كانت أعماله عجالات تخصص كان يحتفظ بها في الغالب ، في صورة تذكرات محاضرة ، هو أو تلاميذه . موجهة الى عقول على المام بالموضوعات العديدة ويفترض فيها سلفا معرفة بأجزاء المذهب الأخرى والعلم كما لاحظنا ، كان قد أخذ طريقه للتفرع الى أقسام متنوعة . وتزخر كتابات أرسططاليس بالصيغ والتعابير الصناعية التي تفصلها هوة واسعة عن لغة التخاطب العادية . وليس الأمر في الواقع أن أرسططاليس يصعب فهمه أكثر من أفلاطون ، ان أفلاطون يصعد بأجنحة قوية نحو الشمس . وقليل هم الذين يمكنهم أن يتتبعوه في طيرانه ، « ان حاملي عصا باخوس thyrsus كثيرون ، ولكن الملهمين قليل » (٢) . ومع هذا فان عبقريته تجتذب القارئ دون مقاومة الى طبقة الهواء العليا ولو أن البهاء غير المعتاد يهرم ويربكه . وليس لأرسططاليس مثل هذه الجاذبية السحرية . وفي دراسة فلسفته يتطلب الأمر من البداية ، جهدا صابرا وكامل قوة تلك « الرغبة في المعرفة » التي يقول لنا عنها انها طبيعة في الانسان (٣) . ولم يكن لدى معرفته ما يعادله في ذلك العصر أو في أى عصر آخر . والعجالات الموجودة لدينا ، تشتمل مصنفات في المنطق والمنهج العلمى وفي الفلسفة الأولى.

(١) فى الرسم التمهيدى Cartoon لرفائيل عن « مدرسة أثينا » . صور أفلاطون وهو يشير الى أعلى ، الى السماء ، وأرسططاليس وهو يشير الى أسفل ، الى الأرض . ويتضح من « أرسططاليس » لجيقر Jaeger تطور أفكاره بعيدا عن « العالم الأفضل » لأفلاطون ، واتجاهها نحو تركيز فى العلم الايجابى .

(٢) Phaed. ، ٦٩ .

(٣) Met. : ١ ، ١ ، الكلمات الافتتاحية .

تراث العالم القديم

أو الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) (١) وفى الطبيعة المادية وفى علم الاخلاق وفى علم النفس ، وفى الفصاحة وفى الشعر ، يضاف اليها عدد وافر من الكتابات جلية الشأن فى علم الحياة • ويمكن أن يعد أرسططاليس واضع علم الحيوان وتلميذه ثيوفراسطس واضع علم النبات • لقد كان هذان العلمان هما اللذان كان يعنيهما شارلس دارون عندما كتب « لقد كان ليناوس Linnaeus وكوفيه Cuvier الهينلى ولو فى طريقين جد مختلفين ولكنهما كانا مجرد صبيى مدرسة بالنسبة الى ارسططاليس العتيد » (٢) • وفى مجال واحد فقط خبا ضوءه أمام غيره فى عصره ، فى علم الرياضسة حيث قام الدليل منذ زمن بعيد على أن نقائصه ، نظرا لما كان له من سلطة على الأزمن التالية ، كانت عقبة فى سبيل تقدم تلك العلوم - كالفلك - التى تعتمد على أسس رياضية • وبالنظر الى استحالة احصاء هذه المجموعة العظيمة من البحوث النظرية فاننا سنختار مسألتين من شأنهما أن يوضحا المبادئ الأصلية فى فلسفة أرسططاليس وكذا اختلافها عن فلسفة أفلاطون ، ونقدم القارىء الى تصورات أثرت تأثيرا عميقا على مدرجة الفكر الهلينى والفكر فى العصور الوسطى ، فيما جاء بعد ذلك من الزمان • وهذا هو مبدؤه عن الموجود ومثله الأعلى عن الخير الأعظم للانسان (٣) •

١٣ - نظرية الموجود : كانت واقعة التغير الظاهرة على السواء فى الحركة المادية وفى نمو المتعضيات الحية Living organisms وفى تقدم الانسان العقلى والخالقى هى التى أوجدت لأرسططاليس مسألة العلم التفكيرى ، الأساسية • ان التغير يتضمن ذلك الذى يتغير أى أن موضوعات التغير الدائمة - الأشياء الجامدة والأشخاص - التى تكون فى آن حارة ، وفى آن باردة وفى آن سالحة وفى آن طالحة وتتخذ صور الحرارة والبرد والفضيلية والرذيلة • ان البرد لا يصير حرا ولا تكون الفضيلة رذيلة - انها ليست الصورة التى تتغير ولكن الفرد الذى يستقبل الصور • وهذه الأفراد الجامدة ،

(١) أطلق تسمية « متافيزيقيا Metaphysics » (أى ما وراء الطبيعة) على هذه العجالة كتاب جاءوا بعد ذلك ، فى الأزمنة القديمة ، لسبب عرضى محض وهو أنها جاءت تالية لفيزيقيا Physics فى ترتيب أعمال أرسططاليس التى نشرت • وعلى هذا استخدم التعبير متافيزيقيا Metaphysics بصفة عامة ليدل على علم الموجود ، وهو مادة هذه العجالة • وقد أطلق أرسططاليس نفسه على هذا العلم « الفلسفة الأولى » أو علم اللاهوت •

(٢) دارون ، حياته ورسائله ، ٣ ، ٢٥٢ •

(٣) عن الأقسام التالية ، على القارىء أن يرجع الى المصنفات التى وضعت عن أرسططاليس ، التى جاء ذكرها فى فهرست قائمة الكتب فى المجلد الثانى •

هذا الحجر أو هذه الشجرة أو سقراط مركبات من المادة (hylé) والصورة (eidos) ولا يمكن ارجاعها الى مجرد صورة لأنه كما قلنا ، لا يمكن للصورة أن تتغير ولا يمكن ارجاعها الى مادة ، لأنه لا يوجد شيء ، الا اذا كان ثمة شيء ، معين ، وهب خصيصة أو صورة كحجر أو شجرة أو رجل . ومجرد مادة ، غير محددة على الاطلاق وخالية من الصورة ، ليست موجودة وجودا فعلياً ولكن تصور محدد ، لازم لشرح الصيرورة والتغير . كيف يمكن فى الحق لأى شيء ، أن يصبغ الى وحود ، من ذلك الذى لم يكن من قبل شيئاً محدداً ؟ والصورة ، مرة أخرى ، لا وجود لها كما كان بظن أفلاطون ، فى سماء ، تسمو على الحس بمعزل تام الانقطاع عن عالم تجاربنا الواقعى لأنه ماذا كان يمكن لمن تلك الصور المنزلة أن تضيف الى وجود عالمنا عالم التغير ، أو الى معرفتنا به ؟ وعلى هذا فقد كان أرسططاليس يذهب الى أن الفرد الجماد وليس مجرد الفرد العام ، هو الذى له وجود جوهرى . وعندما سُئل ماهو الجوهر (ousia) ؟ - أجاب : « هذا الحجر ، هذه الشجرة ، أنت ، وأنا »^(١) . وجميع حالات الموجود الأخرى هى صفات وميول أو علاقات هذه الحالة الأساسية ويمكن أن توجد فقط وهى تعتمد على الموجود الجوهرى . ان « أسود » أو « تعادل » ، يمكن فقط أن يكون لهما وجود اذا كان يوجد شيء أسود أو شيئان متعادلان ، وشأن الفلسفة هو الكشف عن علل هذه الجواهر الفردية وبهذا تشرح التغيرات التى تطرأ عليها ، ويوضح أرسططاليس كيف يتطلب مثل هذا الشرح تعاون أربع صنوف من العلة ، حتى يمكن لأى شيء أن يكون له وجود وافرض تمثالا ، فيكون المطلوب :

- (أ) المادة (hylé) التى ينشأ منها مثل كتلة الرخام .
 (ب) مبدأ للحركة خارجى يستهل عملية التغير النسقية أى العقل واليد والمنحاحات .
 (ج) الصورة (eidos) التى تتحقق فى العملية النسقية وعن طريقها مثل صورة زيوس لفيدياس أو صورة هرمس لافراكسيطيلس .
 (د) هدف وغاية العملية أى التمثال المنجز كهدف لعمل المنحاحات .
- وعلى هذا . يجب أن نفترض علة مادية وملائمة وصورية ونهاية . ومن الواضح أن العلل الثلاث الأخيرة من شأنها أن تتألف . انها صورة (ج) التمثال التى هى غاية المنحاحات و (د) فكرة هذه الغاية فى عقله هى الدافع المحرك (ب) التى تكون بادئة وهادية نسق عمله . وتصور الصورة على أنها غاية أو غرض التقدم ، بالمقابلة مع المادة غير المهيأة هو الفكرة الأساسية فى

(١) فى الواقع ، أدلى أرسططاليس بإجابات متعارضة عن هذا السؤال : ولكن النص يذكر الاتجاه الأساسى فى حله للمسألة .

كل فلسفة أرسططاليس • وكذلك في علم الأحياء وفي علم النفس وفي علم الأخلاق وفي نظرية الفن ، فان شرحه ، كشرح ألاتون ، ينتمى الى مبحث العلة الغائية ، وعملية الكون النسقية في جميع تفصيلاتها تفسر على أنها جعل القدرة على تقبل الصورة واقعية ، في تدرج وفي كل حالة تصل العملية النسقية الى غايتها في تحقيق الصورة المناسبة وعلى ذلك فان الشيء الذي لم تكتمل تهيئته ، يجب أن يفسر في ضوء الشيء المهيأ وليس العكس • ان الرجل يسبق الطفل وشجرة البلوط تسبق ثمرة البلوط - والبدء من البداية هو ببساطة البدء من الطرف الخطأ^(١) • وبهذا يعبر أرسططاليس عن الفرق بين المادة والصورة بما فيه أعظم جدوى في حدود ديناميكية كحد القدرة (dynamis) والواقعية (energeia) فالطفل هو قدرة الرجل وثمره البلوط هي قدرة شجرة البلوط وعندما تجعل صورتا الرجل وشجرة البلوط واقعتين في كلا الفردين على السواء ، فان العملية النسقية تكمل وتحقق الغاية • ولكن يجب أن يلاحظ ، اذا كانت العملية النسقية لتبدأ اطلاقا ، أن الصورة والواقعية سبق افتراضهما ولو أن هذا في فرد آخر من النوع • ويمكن أن يصير الطفل الى وجود ، فقط عن طريق وساطة والد بشرى موجود فعلا • وبهذا النهج في التفكير يصل أرسططاليس الى وجود الله الأبدى كصورة خالصة • وبما أنه فقط في قوة واقعية (صورة) موجودة فعلا - يمكن لقدرة الفرد أن تتحرك صوب الواقعية ، بما أن الانسان فقط يستطيع أن ينجب انسانا ، ويتطلب انتاج التمثال وجود سابق للصورة في فكر النحات • فهكذا الحال أيضا مع واقعة التغير الأولى ، حركة الكون • واذا كنا لتختلص

(١) هذا يبين كم كان تفسير أرسططاليس للطبيعة العضوية - على الرغم من اصراره على فكرة التقدم وعبقريته كعالم أحيائي - يختلف عن تفسير العلم الحديث الذي يقول بالتطور • ولم يطبق فكرة التقدم على الأنواع ، التي كان يعتبرها منعزلة وثابتة • وقد أدى به مبحث العلة الغائية الى أن يرفض في احتقار الآراء عن عملية نسقية تطورية بالانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلىح التي أفضى بها أنبادقليس • « يمكننا أن نفرض أن جميع الأشياء حدثت عرضا كما كان ليحدث لو أنها أنتجت لثمة غاية • لقد بقيت أشياء معينة لا*ها كانت في الوقت نفسه قد حصلت على تكوين مناسب بينما تلك التي لم يتهيا لها ذلك فنيبت وأنها تسير الى فناء» كما يقول أنبادقليس عن الثيران التي لها رهوس بشرية • وهذا ، في رأى أرسططاليس ، من شأنه أن يفسر الطبيعة على أنها وليدة الصدفة بينما الطبيعة لا تعمل عبثا وتحقق الهدف بطريقة عادية «في الكثير الغالب» • راجع « الطبيعة » ٢ : ٨ وبورنت E. Gk. Ph. صفحة ٢٤٣ (عن أنبادقليس) الذي أوردت هنا ترجمته للنص . قابل كذلك (عن انكسيمندر) E. Gr. Ph. صفحة ٧١ •

من الرجوع بالأسباب رجوعا لا نهاية له ، فيجب أن يوجد محرك أول أبدي لايجاد سبب حركة السموات الأولى ، الأبدية ، وبما أن السبب هو دائما شئ آخر غير النتيجة والمحرك غير المحرك فإن المحرك الأول لا يمكن ، كما كان يعتقد أفلاطون أن يكون متحركا بذاته ، ولكن يجب أن يكون هو غير متحرك^(١) . والمحرك الأول الذى لا يتحرك هو صورة خالصة واقعى أبدا والهى . وفى مذهب الألوهية لأرسططاليس ، لا يوجد مكان لحائق ، لأنه ليس للكون بداية فى الزمن وفعل الحلق يتضمن حركة وتغير وقدرة فى الله ، كذلك يرى أرسططاليس الا مكان لعناية ربانية لأن الله يقع خارج الطبيعة ومنعزل عنها ، وحياته ليست حياة نشاط عملى ولكنها حياة تأمل بسيط (theoria) وهو لا يعرف حتى الكون ولكنه ادراك له وعى ذاتى خالص وهو فى نفس الوقت ذات ، وموضوع فكره الذاتى البالغ شأ الكمال . وهو الأحد فى هذا التعالى المطلق ، يجتذب العالم نحوه كهدف رغبته « ان العلة النهائية تنتج حركة كما يفعل موضوع حب » ، وعن طريق ذلك الذى يحركه (الطبقة الخارجية للنجوم الثوابت) تتحرك جميع الأشياء الأخرى ، وعلى مثل هذا المبدأ ، اذن تعتمد ، السموات وعالم الطبيعة ، وحياته تكون كأحسن ما نستمتع به ، ونستمتع به أمدا قصيرا ، لأنه أبدا فى هذه الحالة (التى لا نستطيع أن نكونها) بما أن واقعها هو أيضا متعة . . فإذا كان الله على الدوام فى تلك الحالة الخيرة ، التى نكون فيها أحيانا - فإن هذا يدعو جبيرا الى عجبنا واذا كان فى حالة أفضل - فإن هذا يدعو جبيرا الى المزيد منه . والله بالتوكيد فى حالة أفضل والحياة أيضا ملك الله . لأن واقعية الفكر هى الحياة والله هو تلك الواقعية وواقعية الله الذاتية هى الحياة على أعظم خير ، وأبدية . وعلى ذلك نقول ان الله موجود حتى أبدي ، وهو الخير فى منتهاه ، وان الحياة والبقاء مستمرين وأبديين يملكهما الله . لأن هذا هو الله ،^(٢)

١٤ - الخير الأعظم للانسان . ودليل أرسططاليس على وجود الله من واقعة الحركة ، يهيم الأساس الفلسفى لعلم اللاهوت فى القرون الوسطى . وكان له المكانة الرئيسية بين البراهين التى صاغها أكويناس Aquinas ويمكن تعرفه على أنه المصدر الذى استمد منه دانتى تصوره للمحبة التى

(١) ان تأثير دليل أرسططاليس على أن الله عمل خالص وأنه المحرك غير المتحرك ، للكون ، على فلسفة المسيحية فى القرون الوسطى ، كان عميقا كما يعرف كل قارىء لدانتى .

(٢) « ميتافزيقا » ، ١٢ ، ٧ (ترجمة روس Ross) ؛

تحرك الشمس والنجوم الأخرى»^(١) . والعبارة المقتبسة آنفا من «الميتافزيقا» توحى بجواب أرسططاليس عن المسألة الثانية من مسألتنا ، وهي Summum Bonum أو الخير الأعظم للإنسان . وبينما كان أفلاطون يلح دون هوداة علي أن معرفة الخير المطلق كان أمرا جوهريا للفضيلة الحقة والنعيم وأن هدف طبيعة الانسان كان يمكن فقط تحقيقه في حياة الاخلاص للفلسفة ، فان أرسططاليس يتحول عن البحث عن المطلق الى البحث عن صورة خير الانسان المعينة ، وهي الغاية التي يمكن أن يصل اليها المواطن الخير في دولة - المدينة الهلينية في مدار حياته الأرضية ، انها توجد هنا أو توجد في أي مكان آخر ، لأن الروح الفردية ، كصورة للجسم العضوي ، تعيش في اتحاد مع الجسد ، مادتها ، ولا يمكن أن يكون لها دعوى في الحلود . وتحديد صورة الحياة الخيرة التي فيها يكون النعيم الانساني (eudaimonia) هو موضوع العلم السياسي الذي يعالج تقدم قدرات الانسان الطبيعية نحو تحقيق هذه الغاية ولقد تناوله أرسططاليس في عجالتين (Nicomachean) ، علم الأخلاق والسياسة^(٢) . وعند أفلاطون كان علم السياسة لا ينفصل عن الميتافزيقا (ما وراء الطبيعة) اذ يجب أن يكون الفيلسوف ملكا والملك فيلسوفا ، ومن الوجهة الأخرى يفرق أرسططاليس تفرقة قاطعة بين المعرفة والعمل وبين العلم النظري والعمل . ولقد عنى أرسططاليس بمسائل الأخلاق بروح تجريبية واستقرائية ، وكان الغرض من العملين أن يكونا كتابين يدويين للشارع في مهمته العملية في تعليم المواطن استيعاب الصورة الكاملة للفضيلة الاجتماعية^(٣) . وقد عرف النعيم (eudaimonia) ، الخير الأعظم للإنسان بأنه « نشاط الروح المطابق للفضيلة (areté) والفضيلة بأنها « مزاج الإرادة المستقر وهو ، في معمله ، النسبي ، يحدده المبدأ العقلي وكما يمكن أن يحدده انسان ذو حكمة

(١) أكويناس Summa Theol. ، ١ ، ٩ ، ٢ ، Summa Art. ٣ و

contra Gentiles ١ فصل ١٣ - ودانتى « الفردوس » ٣٣ ، ١٤٥ .

(٢) ينصح الى القارىء ، اذا كان غير ملم بأعمال أرسططاليس ، أن يبدأ دراستها مع « علم الأخلاق » وعن الترجمة الانجليزية ، يراجع فهرست قائمة الكتب في المجلد الثاني .

(٣) وهنا أهمية علم الأخلاق كمعبر عن المثل العليا الاغريقية الشائمة وأنواع السلوك . ويكتب أيكن Eucken « ان مذهب أرسططاليس متأصل تأصلا كليا في العالم الكلاسيكي وتعمل آراؤه الأساسية وقيمها ، دون انقطاع ، فيه . ان مذهب أرسططاليس يبرز جوهر العالم الاغريقي الكلاسيكي في تعبير علمي مكتمل رائع وعلى هذا يسلمه الى البشرية القادمة » (مسألة الحياة الانسانية) .

عملية « (١) . ويجب أن يفهم « المعدل النسبي » على أنه ليس مقياساً للشئ
الوسط ، أو التصالح مع الشر ولكن مراعاة التناسب العدل الذى يقابل
الافراط ونقصان الوجدان والفرض فى كل من المواقف المتنوعة التى تستدعى
العمل . وقوة التعريف تكمن فى نزعتة الى مبدأ عقلى (logos) ويعنى به ليس
صبغة معنوية للسلوك ولكن حكماً صائباً فى جميع الأمور يوجد فى نفس
المواطن التفوق السامى فى الحكمة العملية phronêsis .

ان أرسططاليس يبحث طائفة من المسائل التى تنجم عن هذا التصور
للخير الانسانى كوضع مبدأ خلقى بالنعوذ على السلوك القويم وطبيعة العمل
الاختيارى والمسئولية عما يرتكب من خطأ وصور الفضيلة المعينة وما يقابلها
من رذائل ومقياس العدالة فيما يتعلق بتطبيق القانون لها ، والعلاقة بين
النعيم والمتعة والمثال الأعلى للصدقة الانسانية (٢) . وهو يوجه التفاننا
خاصاً بالنظر الى تعرف سقراط وأفلاطون هوية وإحدة للفضيلة والمعرفة الى
المطالب العقلية للخير والحياة الخيرة . ولو أنه لا يشك فى الحاجة الى التفوق
العقلى كأمر جوهرى للعلاج الخلقى فان واقعة الرجل ذى الإرادة الضعيفة
الذى يعرف ما هو صواب ، ومع هذا يفعل ما هو خطأ يبعد تعرفهم هذه
الهوية الواحدة لهما . وعلاوة على هذا فان الحكمة التى تكون مطلوبة ، ليست
حكمة (Sophia) الفيلسوف النظرية ولكن حكمة السياسى العملية (٣)
(Phronêsis) . انه من الصعب الغلو فى بيان أثر بحث أرسططاليس
لهذه المسائل على الفكر فى الأزمنة اللاحقة . ان المبادئ الأخلاقية عند
الرواقين وأصحاب مذهب الأفلاطونية الحديثة وحتى الأبيقوريين هى الى
حد عظيم تطورات لمبادئ أرسططاليس وقد أثرت معالجته للمسئولية عن
الجرعة على القضاء الرومانى ، والاقسام الخلقية فى "Summae" لأكويناس
وبنه وفحوى منظومة دانتي « الكوميديا الالهية » تبين أثر « علم الأخلاق »
فى كل حيدة (٤) . واذا كان التفكير المسيحى فى قصارى نعيم الانسان
يقتنفى ، بطبيعة الحال طريق « العالم الافضل » لأفلاطون فقد استمد الكثير

(١) علم الأخلاق : ١ ، ٧ ، ٢ ، ٦ .

(٢) التعود - « علم الأخلاق » ٢ - المسئولية « علم الأخلاق » ٣ و ١
صور الفضيلة والرذيلة ، المعينة « علم الأخلاق » ٣ و ٦ وما يليها ٤ و « علم
الأخلاق » ٥ المتعة - « علم الأخلاق » ٧ ، ٦ وما يليها ١٠ ، ١ - ٥
الصدقة « علم الأخلاق » : ٨ و ٩ .

(٣) عن ضعف الإرادة « علم الأخلاق » : ٧ ، ١ - ٥ عن التفوق

العقلى (وخاصة Phronêsis, Sophia) - « علم الأخلاق » : ٦ .

(٤) انظر المجلد الثانى فصل ١١ §§ ١٠ و ١١ و ١٤ .

من تعليم أرسططاليس. الخلقى فى تطبيق ذلك المثل الأعلى على حياة الانسان الأرض .

وأرسططاليس نفسه على الرغم من توكيده للمواضع التى اختلف فيها عن أستاذه يضرب ، فى ختام « علم الأخلاق » ، على نغمة أفلاطونية قوية وبما أن النعيم يكون فى ممارسة أعلى نشاط للروح وبما أنه فى الروح الانسانى يكون للعقل بالطبيعة المكانة العليا وعلى ذلك يتحتم أن تصل صورة وغاية تطور الانسان الى أكمل تعبير لها فى حياة التأمل الفلسفى وفى تلك الحياة يمكنه أن يستمتع ، ولو فى فترات متقطعة ، بنصيب من الرضى الذى يستمتع به الله ، كعقل خالص بصفة أبدية . وعندما يتحدث أرسططاليس عن واجب الانسان بأن يوجه حياته على هدى ذلك الذى فيه ، الذى يغلب أن يكون شبيها بالله والنعيم العجيب الذى يجلبه مثل ذلك الاخلاص ، من مجامع القلب ، ويتعرف هوية هذه الخدمة الحرة فى حياة الدراسة الفلسفية فانه لن نقش فى أن نتعرف فى لغته الانعكاس المباشر لتجربة شخصية « ان الانسان يجب ألا يفكر ، كما يظن أولئك الذين يقولون بذلك ، الأفكار البشرية لأنه انسان أو الأفكار الآدمية لأنه آدمى - ولكن بقدر ما يستنقر فيه يجب أن يرتدى الخلود ويفعل كل شئ لكى يعيش وفقاً لأسمى ما فيه لأنه وان كان صغيراً فى الجرم ، فانه يسمو على كل ما عداه فى القوة والقيمة ، (١) .

١٥ - ولم يكن أرسططاليس مجرد تلميذ أفلاطون ولكنه رسول عهد جديد فى تاريخ الفكر ولقد زيدت المواد الموجودة فى متناول المعرفة زيادة تربو على القياس ، عن طريق حملات الاسكندر وأصبح تحت تصرف أرسططاليس مجموعات هائلة جمعها العلماء الذين رافقوا تلك الحملات . ولقد كانت له الحرية فى استخدامها لأبحاثه التى تتصل بعلم الحياة، وكذلك للمعاونة على إعادة بناء فلسفة يجب أن تربط مختلف العلوم فى مذهب شامل . ان عمليين جليلين يرجعان اليه خاصة ، لقد حدد منهج البحث العلمى ووضع مصوره بأقاليم المعرفة الانسانية . لقد كان أرسططاليس المؤسس الحقيقى للمنطق ليس فى معنى القول المأثور ذائع الصيت الذى يرجع الى جون لوك John Locke « لم يكن الله مقترأ الى هذا الحد على الناس ليجعلهم مجرد حيوان ذى رجلين ، فترك لأرسططاليس أن يجعلهم أولى عقل » (٢) . ولكنه فى ذلك وهو يقيم البناء دائماً على أسس أفلاطون ، نراه يحلل طرق التدليل

(١) « علم الأخلاق » : ١٠ ، ٧ .

(٢) لوك « عمالة عن التفكير الانسانى » : ٤ و ١٧ .

العقلي النسقية ويصوغ المنهج الذى يمكن الوصول به الى الحق المرشد ،
الذى يتميز عن الحق المرجح وحسب .

ولقد أثارت الصورية والاصطناع فى المنطق الأرسطوى الكاذب لدى
رجال المدارس المتأخرة رد فعل طبيعى بين كبار رواد العلم فى القرنين
السادس عشر والسابع عشر ، وهو لا يزال يربك عقول الكثير الذين يجهلون
تاريخ الفكر .

وفى الواقع كان أرسططاليس ، الذى لم يكن قط عبدا للصيغ ، ليتعرف
فى غاليليو وفى ديكارت التحقيق الصادق لمبادئه الخاصة فى المنهج العلمى .
ولقد كان يستهمل كل عصر جديد فى تقدم العلم التفكيرى باصلاح فى المنطق .
وكانت الحال كذلك ، ليس فقط فيما يتصل بالأرغانون Organon
أو « أداة » أرسططاليس المنطقية ، ولكن أيضا بمباحث المنهج
"Discours de la Méthode" لديكارت والأداة الجديدة Novum Organum
لبليكون والمنهج النقدى Critical Method لكانت والمنهج الجدلى
Dialectic Method لهجل . ان الفلسفة والعلم يختلفان عن التفكير
الشعبى ليس لأنهما يعنيان بمواضيع مختلفة ، أكثر من أنهما يعالجان نفس
المواضيع بطريقة مغايرة . ان النبات والحيوان وهما يكونان مادة الموضوع
لعلم النبات وعلم الحيوان كانا قد وضعا فى مجموعات وميزا فهما غامضا
قبل قيام هذان العلمان . وكانت مهمة العلم تصحيح هذه التصنيفات
الشعبية ووضع مذاهب لها ، وأن تحدد فى احكام الخصائص الذاتية للأشياء
وقوانين نموها . ولقد أدرك أرسططاليس فى جيله ، أن مسألة المنهج كان لها
أهمية حاسمة ووطن نفسه على تحليل منطق العلم فى بصر « منقطع النظر » ،
بطبيعة العملية النسقية للفكر البشرى . وثانيا - لقد حدد مختلف أقسام
العلوم كأجزاء فى كل واحد . ولا يوجد فليسوف وازن ، يمثل هذه العدالة ،
التناسب بين الكل والجزء فى المعرفة ، أو استمسك بمثل هذه القبضة الثابتة
على ما يوجد بين الأشياء من فروق مميزة حقيقية بينما أدركها جميعا فى مذهب
موحد . لقد كانت عمقريته فى وضع مذاهب تتألف بالمدى الشامل لبحوثه ،
وتقديره لتنوع المبادئ الأساسية فى عالم تجارينا ونظيره الذى لا يخطئ
فى تبين وجوه الاختلاف والقربا فى النوع فى الكون بأجمعه ودقته المحكمة
فى صوغ المنهج الفلسفى ، هى التى تجيء مصداقا لقول دانتي فى نعت
أرسططاليس بأنه « سيد من يعلمون » (١) . وهى تبين السبب فى أن فلسفة
العالم الغربى سارت مدى ألفى سنة فى معظمها على الخطوط التى رسمها .
وكانت الثقة التى وضعت فيه فى جميع مسائل المعرفة الدنيوية لها أسمى

(١) « الجحيم Inferno » : ٤ و ١٣١ .

مكانة في خلال العصور الوسطى المتأخرة^(١) . وحتى عندما أعلنت روح التعليم الجديد الغاء الثقة ، بالبحث الحر وأنكرت أرسططاليس المدارس فانها اقتفت دون انتباه خطواته . وكمنظم عظيم للمعرفة فان له في مسائل العقل مكانة تائل مكانة الامبراطورية الرومانية في مجال الحكومة والقانون .

٤ - الرواقيون والابيقوريون

١٦ - كانت الفلسفة في اعتبار افلاطون وأرسططاليس « موجة حياة » يستطيع الانسان بها وحدها أن يصل الى معرفة الخير الأعظم الذي يجد فيه الخلاص .

ولكن استهواها كان لدى القلة الذين كانوا يشعرون بالدعوة الى التأمل العقلي ، وحتى لهؤلاء ، كان من شأن الفلسفة أن تدهور الى عدم مبالاة ارتياجي أو الى مذهب صوري ، خواء . ان الرجل العادي المثقف كان يحتاج الى شيء أقل عسرا ، وأكثر أن يكون عمليا بطريقة مباشرة ، مما كان يقدم اليه في الأكاديمية ، وملعب الرياضة والدرس Lyceum . والمعلم القديم ، دولة - المدينة ، لعبادتها الدينية وفروضها الخلقية كان يتوارى سراجا عن النظر ، ولما تقطعت الاسباب بينه وبين مرساه ، فانه التمس عقيدة تنقذ روحه من التحطم وتقوده الى مرفأ يلجأ اليه من شرور الحياة^(٢) .

ولارضاء هذا المطلب ، ظهر في الجيل الذي جاء بعد جيل أرسططاليس والاسكندر ، مذهب الرواقين والابيقورين . وكانا كلاهما يسودهما النهج الخلقى ، في الهدف والمبدأ ونظرية المعرفة (المنطق) ونظرية الطبيعة (الفيزيقيا Physics) كانا يقومان كصقالة وليس كقسم لا يتجزأ من بنائهما الفلسفي ، بينما الميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة) النواة للتفكير الأفلاطوني والأرسططاليسي تراجعت بكيانها الى خلفية الصورة ، وفي مجال علم الاخلاق مرة أخرى ، أقام كل منهما الدعوى لتقديم الهداية لروح الفرد ليبين له كيف يعيش بحكمة ، ويصل الى سكيندة بمعزل عن العالم المضطرب في الخارج وعواصف العواطف في الداخل . وكلاهما صور خليقة الرجل الحكيم كأنموذج

(١) راجع موضوع الثقة في أرسططاليس دأنتي "Convivio" : ٤ و ٦ ولم يكن هذا النفوذ دون عوائق أمام التقدم وخاصة في مجال علم الطبيعة فعلى سبيل المثال ، كان تميز أرسططاليس بين السموات العليا والعالم الأرضي أشبه بحمل على علماء الفلك والطبيعة حتى القرنين السادس عشر والسابع عشر .

(٢) وبطبيعة الحال ، ظلت التصورات الدينية التقليدية ، والعبادة باقياتين بين الجماهير ولكن لم يعد بعد أن يكون لهما تأثير فعال لهداية أرواح الناس ، كما كان توراة العبرانيين .

للمحاكاة ، وكانا يعلمان كيف يمكن الوصول الى هذا الملل الأعلى ولكن هننا ينقطع التشابه وعندما نسأل عن طبيعة الحياة الفلسفية ، تقدم المدرستان أجوبة مختلفة اختلافا عظيما فيذهب الرواقى الى أنها تكون باتباع الفضيلة، تلبية لقانون للطبيعة له السلطان أو العقل الحكيم ، باخضاع العواطف وبالانفصال عن عالم الظروف الذى لا يستقر على حال ، فيقوم روجه لتصل الى الاكتفاء الذاتى والاستقلال الداخلى ، ويذهب الأبيقورى الى أن الحياة الحيرة هى حياة الاستمتاع فى تعقل ، بكل ما يقدمه العالم مما فيه الرضى ، والحكيم يتحكم فى الظروف باستخدامها كوسيلة لدعته - والخير هو المتعة أى لا يكون بارضاء مطالب الحواس ارضاء عابرا . ولكنه ثمار « حب الذات الرصين » . وفوق كل شىء مباحج الدراسة العقلية والتواصل الاجتماعى . وفى أحسن حالتهم ، كانت الرواقية أكثر سموا أما الأبيقورية فكانت أكثر سماحة وروحا انسانيا ، من بين المثالين الأعلى . وكان الرواقى أرصتقراطيا خلقيا ، فيه بعض النزوع الى الزهو بقوة تجلده على الزهد واحتقار اخوانه الأكثر ضعفا ، بينما كانت العقيدة الأبيقورية وخاصة فى اعترافها بتساوى الجنسين واصرارها على متع الصداقة أقل من أن تكون قاصرة على طائفة بعينها، وأكثر ديموقراطية . وفى مستوى أوطى تدهورت الرواقية الى رسميات ممحضين وتصالح افتاء ، مع العالم مما لم يكن يتوافق مع دعاواها الرفيعة ، كما انحدرت الأبيقورية الى رضوخ راض لسد رغبات الحياة الأكثر غلظة . ولكن كان كلاهما على السواء لا يبالي بنهج المجتمع والحكومة . لقد كان ذلك بين أيدي الطاغية وجيشه وموظفيه المدنيين . أما شأن الفرد فكان له وجهة أخرى فى تنظيم مدينة روجه الخاصة تنظيما صائبا .

١٧ - وكان لكلا المدرستين تاريخ طويل امتد الى شوط بعيد فى العهد المسيحى وكان للمذهب الرواقى من بين المدرستين ، التأثير الأبعد مدى فى العهود القديمة ، وفى العالم الحديث ، على السواء . ولقد استهوت مبادئه بطبيعة الحال رجال الأعمال وتبناها وأحيانا تدرس بها ، الحكام ، ورجال السياسة فى العصر الاغريقى المقدونى . ولقد أصبح مألوفاً ، كما سنرى فيما بعد . لدى الأشراف الجمهوريين فى روما . وكان يوجد شىء فى مزاج الرومانى العملى نحتته المذاهب الفلسفية الأخرى ، ولكن كان يتجاوب فى يسر مع العقيدة الرواقية . ولقد ترك طابعه على القضاء الرومانى وعلى الافلاطونية الحديثة الهلينية على السواء ، حيث يمتزج التعليم الرواقى بالتعليم المستمد من افلاطون وأرستطاليس . وقد اجتذب المفكرين المسيحيين بسموه الخلقى ومثاليته التى لا تقبل انتقاصا . وفى الأزمنة الحديثة أثار

اعجاب فلاسفة مختلفين من أمثال ديكارت وبيشوب بنتر ومانويل كانت (١) .
 اذن ، ما السر فى السيطرة التى ظفر بها المذهب الرواقى وحافظ عليها
 هذا الأمد الطويل ، على قلوب الناس ؟ ان الجواب يكمن فيما كان له من وقع
 على قوة ارادة الانسان وفى توكيده الوثيق للحرية البشرية وللناية الالهية
 كليهما . لقد كان الرواقى يعلم أنه ولو أن الانسان عديم الحول ، كما يظهر
 فى مواجهة الظروف المعادية ، من رق وتعذيب ومرض وموت ، فانه فى
 الواقع كان سيد ارادته المطلق وانه غى هذه السيادة على الارادة وحدها
 كانت تتوقف كل قيمة الحياة وخيرها . « لا شئ خير دون تحديد غير الارادة
 الحرة » وهذا القول المأثور الذى نطق به بعد ذلك بعشرين قرنا ونيف
 فيلسوف كنجزبرج "Königsberg" كان يمكن أن يتعرفه الرواقى وكأنه قوله (٢)
 لأنه فى اعتبار الرواقى ، كما فى اعتبار كانت ، تكون الارادة الحرة ، خيرة
 دون تقيد بشرط . ولا توجد درجات من الخير . فاذا كنت على صواب فأنت
 على صواب بصفة مطلقة . واذا كنت على خطأ فانك مخطئ بصفة مطلقة .
 وسواء أكنت على صواب أم كنت على خطأ ، فان هذا يتوقف على الحضيصة
 الداخلية لارادتك دون سواها . وبالإضافة ، فان الارادة خيرة عندما تريد
 الخير ، والخير هو - ما هو كائن . ونظام الكون وصدق كل أحداثه والطبيعة
 (Physis) التى هى طاقته الخالقة هو كامل وهو قانون وعقل والله (٣) .
 وعلى هذا فان الرجل الحكيم ، القديس الرواقى ، يتعرف عن طيب خاطر فى
 أية محنة تصيبه ، كائنة ما كانت ، اتمام غرض العناية الالهية ويؤكد حرينه
 غير المقيدة بشرط فى مواجهتها ، بأن يرضى أن تكون - ما هى كائنة -
 ويسير عقله قدما وهو جذلان ليقابل عقل العالم الذى تجمعه آصرة قرابة -
 وعلى هذا فانه بقوة الحتمية الذاتية الداخلية تكون له الغلبة على العاطفة
 ويظفر بسكينة الروح "e la sua voluntate è nostra pace" (٤) .

(١) عندما سألت الأميرة اليصابات ، عام ١٦٤٥ ديكارت ، الذى لم
 يضع أى تأليف فى علم الأخلاق ، عن آرائه فى الموضوع ، أجاب موصيا
 بعجالة سنيكا ، الرواقية الامتناع الممتع devita beata على أنها تفى
 بالغرض . راجع (أعمال Oeuvres لديكارت) طبعة آدم وتانرى
 Adam and Tannery المجلد الرابع الصفحات ٢٥١ وما يليها ٢٦٣ وما يليها .
 (٢) كانت "Grundlegung zur Metaphysik der Sitten" القسم

الأول (ترجمة أبوت Abbott صفحة ٩) .

(٣) يوازن الاستاذ جلبرت مرى ، فى محاضراته عن المذهب الرواقى
 physis عند الرواقيين و élan vital عند برجسون Bergson ومن بين
 المذاهب الفلسفية الاغريقية كانت الرواقية فقط تقرب من مذهب وحدة الوجود
 Pantheism (أى من يرون الله والعالم واحدا - المترجم) .

(٤) « ارادته سلامنا » دانتي ، الفردوس Par. : ٣ و ٨٥ .

ولذا فان النصائح الرواقية - « اتبع الطبيعة، اتبع العقل، اتبع الفضيلة » هي مجرد طرق متنوعة للتعبير عن الشيء بعينه . . وكان الرواقي يقول أيضا « اتبع الله » : لأنه على الرغم من مادية نظرياته الطبيعية الغليظة الى حد ما ، كان يعتقد أن القانون الذى يتحكم فى نهج الطبيعة لم يكن ميكانيكية عشواء، ولكنه انجاز غرض الهى متواصل ، ينتهج العقل ، وهو خير فى ذاته ، وفى مبحثه القويم عن العلة الغائية ، سار المذهب الرواقي فى توافق مع تقاليد أفلاطون وأرسططاليس^(١) ، وكون هذا المذهب مبتكر كعقيدة خلقية ، يرجع بعضه الى إستهوائية للارادة والبعض الآخر الى استقلاله الكلى عن تقاليد دولة - المدينة التاريخية ورسالاته من البداية الى النهاية توجه الى الفرد وهى تأمره أن يقف متحررا عن جميع الروابط العرفية التى رسمها الانسان ، وجها لوجه ، بما له من قوة ، ضد جميع الرياح التى تهب . وفى وقعه الشخصى هذا ، وكذلك أيضا فى العقيدة الحاسمة التى وجه فيها ، نتعرف روح أول مؤسس للمدرسة . لقد كان زينون Zeno ساميا من كتيوم Citium فى قبرص ، استقر وهو لا يزال فى صدر شبابه فى أثينا (حوالى عام ٣٢٠) وكان يقوم بالتعليم هناك مدى نصف قرن ونيف فى الرواق المدهون (Stoa Poikilé) . وكان كثير من أبعده أتباعه شهرة من أهل الجزر وأراضى المشرق الساحلية . ويمكن تبين طابع العقل السامى على المذهب ، أسفل الوضع الهليني^(١) . ولقد كان المذهب الرواقي فى الحق ، أول الشار العقلية لسياسة الاسكندر فى المزج . ولم يكن يوجد شئ ضئيل فى زينون يورد للذاكرة ، التبنى العبرى ، وعبارة هذا ، « هكذا يقول يهوه » يظهر أن صداها يتردد فى الصورة « وهكذا قال العقل »^(٣) . وكان يجب أن يكون الصوت

(١) كل شئ حتمى فى المذهب الرواقي ، ولكنه أصبح حتما نتيجة عمل متواصل لغرض ينتهج العقل . وقد هيا مبدأ المطابقات فى الطبيعة الذى كان يتلام مع هذا التصور ، أساسا للتوافق بين الفلسفة الرواقية والاعتقاد بالرجم بالغييب ومظاهر أخرى فى الدين الشعبى . ويوضح فلوطرخوس Plutarch (راجع السفر الثانى فصل ٩ § ٧) هذا الميل . وقد استخدم الرواقيون القصة الرمزية والأسطورة استخداما طليقا . وقد أخذت عنهم المسيحية منهجهم فى التفسير بالقصة الرمزية ، لقد كان الرواقيون فى الواقع مهرة فى ايجاد أسباب التلازم .

(٢) كان خروسبس Chrysippus مؤسس الرواقية الثانى (٢٠٦) من أهل صولى فى كيليكية . وقد وضع لمبادئ المدرسة ، الصورة المنظمة التى ظلت قرونا . وقد جاء اقليدشمس (القرن الثالث) من أسوس Assos فى طرواد Troad وكان فنيطيوس Panaetius (القرن الثانى) من أهل رودس وفوسدنيوس Posidonius (بواكير القرن الأول) من سوريا ، وكانت طرسوس ، أهم مدينة فى كيليكية وبها جامعة ، مركزا مزدهرا للتعليم الرواقي

(٣) راجع بيفان Stoics and Sceptics

صوت العقل لأن زينون كان يبشر بانجيله للاغريق ، شعب التاريخ الوحيد الذى كان من العيب توقع استماعه الا اذا وجهت قولك الى فطنته ولكن بمجرد أن يخطر هذه الخطوة ، كان من شأن الوقع أن يضم أكثر من الحكم الخاص للمستمع الفرد ، والعقل كما بين أفلاطون ، هو مجال مشترك ، والتعليم الذى يكون وفقا له ، لا يمكن أن يكون انجيلا لمجرد الخلاص الشخصى الخاص . ولهذا كان الرواقى ، فى نفس الوقت ، يعلن مثلا أعلى ، عالميا ، والمدينة التى كانت تطالب بولاء الرجل العاقل ، كانت مدينة الطبيعة ، مدينة العقل ، مدينة الله . وكان هذا التصور لمجتمع يشمل كل البشرية يتوافق مع نظرة العهد الأكثر اتساعا وقيام دول العالم ، واقعيا ، أولا تحت الحكم المقدونى وبعد ذلك تحت حكم روما .

وقد ساعد على صوغ مبدأ قانون للطبيعة (jus naturae) تقوم عليه التشريعات الايجابية للجماعات المعينة ، التى تمثلها شارعو الرومان ، وعن طريقهم كان لها تأثير بعيد المدى على الأخلاق والقضاء فى العصور الوسطى والحديثة . وقد استخدم القديس بولس وهو من أهل طرسوس أحد مراكز الرواقية المختارة ، لغة تلك المدرسة للتعبير عن المجتمع الروحى الذى ينتظم فيه كل المسيحيين أعضاء . وتتردد باستمرار فى رسائله فكرة رعوية سماوية . وفى عظته فى أثينا ، اقتبس من أنشودة اقليدس Cleanthes الرواقى ، لزيوس وأعلن فى ألفاظ تردد صدئ العقائد الأسامسية فى المذهب الرواقى أن الله « لا يسكن هياكل مصنوعة بالأيدي » ، وأنه « صنع من دم واحد جميع أمم الناس ليسكنوا كل وجه الأرض » (١) .

١٨ - ولقد قيل ان المذهب الرواقى ، انتهى بحماس خلقى وافلاس منطقى (٢) ، ولقد كانت مبادئ الأبيقوريين منذ البداية أقل أهمية من وجهة التفكير ، وكان تأثيرهم على العالم أقل ذيوعا من تأثير الرواقيين ، لقد كان أبيقور Epicurus هيلينيا خالصا ، وربما كان من أهل ساموس قدم الى أثينا بعد زينون بزمن يسير وأسس هناك مجتمعا صغيرا من التلاميذ الشخصيين . ويتميز تاريخ أنصار المذهب فى مداه بالسير فى اخلاص ،

(١) الاقتباس من اقليدس Cleanthes (الأعمال ١٧ ، ٢٨) هو « لاننا أيضا ذريته » ، وازن مع الأفكار الرواقية فى : ٣ ، ٢٠ ، وأفس : ٢ ، ١٩ الخ . والتماثل بين الحكيم المسيحى والحكيم الرواقى كور الأولى : ٤ ، ٨ وكور الثانية : ٦ ، ١٠ وفل : ٤ ، ١٢ ، ١٣ .

(٢) برت Brett تاريخ علم النفس .

وفق ذكرى وتعليم مؤسسه (١) . ولم تكن نظرية أبيقور عن الطبيعة مبتكرة ولذا كان له انجيل خلقى يبشر به ، فقد اتخذ كآساس تفكيرى ، فلسفة دموقرطس الذرية ، أعظم مذهب مادى كامل ومنطقى فى الوجود . وكان دموقرطس يعلم أن الكون وكل ما يوجد فيه ، يمكن ارجاعه الى حدود ذرات متجانسة فى حركة دائمة ، فى الفضاء الفراغ (٢) . والضرورة الميكانيكية تحدد على السواء ، نهج الطبيعة ونهج النشاط الانسانى ، وينجى تنحية صارمة كل أثر للحرية والغاية . وقد أمكن تكييف مثل هذه المبادئ تكييفاً يدعو الى الاعجاب لتكون أساساً للرسالة الخلقية التى تكون دعوى أبيقور الصادقة فى الابتكار .

وكان هدفه الذى تابعه فى حماس اخلاص عنيف ، أن يحطم آخر حصن ، كان لا يزال الدين التقليدى يحتفظ به فى العقل الشعبى ، ان أنواع الرعب فى حياة مستقبلية فى أرض الأرواح المخيفة الاخروية حيث يوقع من يدعون آلهة ارادتهم غير الانسانية ، على أطياف لا حول لها ، كانت فى نظره مصدر كل قلق وألم يقعان على الناس فى الحياة . « انه هو الخوف الذى كان أول صانع للآلهة » .

ومن الوجهة الأخرى ، اذا كان حقاً أن روح الانسان هى مجرد تجمع للذرات وشيك الزوال ، ينحل عند الموت ليكون جزءاً من تجمعات جدد ، مع انقطاع الحياة الشخصية والوعى انقطاعاً كلياً ، فان الخوف يتبدد ويمكن للانسان أن يستخوذ على روحه فى سلام (٣) . والمتعة عند أبيقور يمكن

(١) راجع قصيدة لقرطيس de rerum natura السطور الافتتاحية من الكتب ٣ و ٥ و ٦ عن مديح أبيقور .

(٢) راجع عليه فصل ٤ § ١٥ . ولو أن المذهب الأبيقورى لم يكن له الا القليل من التأثير على الأزمن اللاحقة الا أنه يمكن ملاحظة أنه فى القرن السابع عشر نشر الأب جسندي Father Gassendi وكان صديقا لديكارث مذهباً فى الفلسفة يشتمل على نظرية ذرية طبيعية ومذهب لذة خلقى يماثل مبادئ أبيقور .

(٣) مذهب اللذة Hédonism - مذهب أخلاقى . ويقوم على أن اللذة

الحير الأسمى - المترجم) .

(٣) راجع النص العظيم لقرطيس : ٣ ، ٨٣٠ - النهاية . لقد كانت الفكرة الشائعة عن الله والخلود أمراً راعياً نلابيتورية ولكن الأبيقورين لم يكونوا كفاراً . لقد كانوا يعتقدون ، لما قام من التجارب النفسانية خارقة العادة ، بأن الآلهة كانوا يوجدون فى منطقة من الكون - قاصية - لا يعيرون بنى الانسان التفاتاً ويستمتعون بحياة مباركة واكتفاء ذاتى يصل الى الكمال . راجع أيضاً الأمثال التى ترجمت فى « مذهب الأبيقورية » لولاس Wallace ، صفحة ١١٠ .

تفسيرها حقا بأنها التحرر من العاطفة والقلق (ataraxis) وهذا الوضع السلبي للتعبير يجعل مثله الأعلى ، على الرغم من مواضع اختلاف عديدة ، يسير على نهج تعبير الرواقيين (١) . وانه لمن التضليل التام أن نعتبر القول « دعنا نأكل ونشرب ، لأن غدا نموت » ، لا يعدو أن يكون محاكاة ساخرة للمبدأ الأبيقورى . لقد كان أبيقور وتلاميذه يعيشون عيش بساطة رائعة يتميز بحب متبادل قوى ، وقد احتذى أتباعهم فى الأجيال اللاحقة ، مثالهم وحاز مبدأهم وعاداتهم اطراء حارا من الكاتب التهكمى لوقيان Lucian فى القرن الثانى بعد الميلاد . ولا يوجد مجال للسؤال بأن المذهب الأبيقورى جلب السكينة فى الكثير من النفوس المضطربة فى الأوقات العاصفة التى جاءت عقب تقسيم امبراطورية الاسكندر . ان قدرته وكذلك قدرة المذهب الرواقى على بعث الالهام والسمو تبيينهما القصيدة الرائعة التى أدمج فيها الشريف الرومانى لقرطيس (Lucretius) (٢) معتقدات المؤسس ، الطبيعة وانجيله الدينى .

الخاتمة

١٩ - سنعود الى الفلسفة الرواقية عندما يحين الوقت للتحدث عن الصراع بين الهلينية كما يعبر عنها تعليم المدارس وروح المسيحية الجديدة . وهنا يجعل بنا فقط أن نذكر بأن كلا المثليين الأعلى للحياة ، الرواقية والمسيحية كان مولدهما فى العالم الجديد الذى فتحه الاسكندر على مصراعيه ، هو وخلفاؤه وهذا فى ذاته يكفى لتكذيب الرأى القائل ان قوة الهلينية خبا أوارها بانهايار استقلال دولة - المدينة ولكن الحال كذلك فى أن الهلينية كانت فى ذلك الوقت قد قاربت على انجاز عملها فى التربة الهلينية البحتة وأنه كان يكيف طاقتها منذ ذلك الحين ، الامتزاج بمدنية البلدان الأخرى وقبيل ختام القرن الرابع ، كان بنى المدنية الهلينية عضويا وكاملا . ولقد حاولنا أن ننقل ثمة فكرة عن خصيصتها وتاريخها فى هذا الفصل وفى الفصلين السابقين . ان أهميتها للتقدم الانسانى فى جوهرها وفى نتائجها واضحة ولا يمكن تقديرها . والعصر الذى شاهد خلقها ، من القرن الثامن الى القرن الثالث قبل الميلاد يعد من أعظم العصور باقية الذكر فى تاريخ البشر ، اذ فى غضون ذلك يقع فقط خلق الهلينية ولكن تحول دين العبريين البدائى الى عقيدة لها قدر عالمى . وكان أول الأنبياء العظام ، عاموس وهوشع معاصرين

(١) راجع لقرطيس : ٢ ، ٢٢ وما بعدها و ٣ ، ٥٩ وما بعدها و ٩٩٥ وما بعدها و ٤ ، ١٠٣٧ وما بعدها و ٥ ، ١١٥٢ وما يليها . وعن المثل الأعلى للرجل الحكيم : ٣ ، ٣٢٢ وما يليها .
(٢) توفى لقرطيس عام ٥٥ ق.م .

لرواد الاستعمار الاغريقي ، في البحر المتوسط - ويتفق السبى البابل
 وكتابات اشعياى الثانى فى الزمان مع ميلاد الفلسفة فى ايونيا ونطور الدولة
 الاثينية فى عهد صولون وبسسراطس (١) . وكان واضعو المزامير يكتبون
 فى اورشليم أثناء الحرب الفارسية وعصر بركليس . ولم يكن الأمر قاصراً على
 هلاس والعبرانيين فى وضع أسس المدنية للزمن القادم على هذا النحو . ولقد
 تقدمنا بقصتنا أكثر من مرة فى هذه الفصول الى المرحلة التى جمعت فيها ثقافة
 البحر المتوسط فى دولة وحدة تحت الحكم الرومانى . ولم « نشيد روما
 فى يوم واحد » . وبعد أن تقدم الاسكندر ليغتم الشرق لليونان ويستهل
 السياسة التى كان من ثمارها الرواقية والمسيحية على السواء بزمن طويل
 كان رجال سياسة وجنود لم تصل اليها أسماؤهم يصيغون أسلحة للحرب
 والحكومة ويبنيان المنظمات والقانون ، مما عاون مدينة ايطالية صغيرة على
 الاستحواذ على السيادة فى البحر المتوسط وتوطيد أساس امبراطورية
 روما العالمية .

(١) مرى - « خمس مراحل » صفحة ٥٧ - يوجد اقتباس عن بيمان بأنه
 حدث فى اليونان وآسيا الدانية (أى فلسطين) والصين والهند فى القرنين
 السادس والخامس ، قيام عهد جديد .

الفصل السابع

الجمهورية الرومانية

- أسس الدولة الرومانية :

على سلسلة من التلال التي تقوم على شاطئ نهر التيبر وعلى بعد أربعة عشر ميلا من مصبه ، كانت تقوم في القرون الأولى من الألف سنة الأولى قبل الميلاد ، مجموعات من الأكواخ الخشنة يحيط بها سياج حيث كان الرعاة يأوون بقطعانهم عندما كان يهبط عليهم الغزاة السابنيين Sabine من التلال السابينية . وبمضى الزمن انحد عدد من هذه القرى الصغار داخل سور دائري واحد ونشأت مدينة^(١) . وكانت تحتل موقعا موفقا كسوق طبيعي لسهل لاتييم حيث كان النهر لا يزال صالحا للملاحة وبعيدا عن متناول القرصان الأترويين Etruscan الذين كانوا يغيرون على الساحل^(٢) . وفي فجر تاريخها كانت هذه المستعمرة أحد أعضاء حلف أيدته مراسم دينية ، عقدت رياسته لألبا وفيه اتحد سكان السيل ، لتبادل التجارة والدفاع ضد قبائل المرتفعات وكان الحلف يدعى الحلف اللاتيني وكانت المدينة الواقعة على ضفاف التيبر ، روما .

(١) توجد آثار واضحة لامتزاج باكرو بين مستعمرتين أحدهما لاتين على التل الفلاتيني Palatine والأخرى للسابنيين على القويرينال Quirinal ويظهر أن السابنيين دانت لهم السيادة وأنهم كانوا أجداد أميرات الأشراف . وكان يطلق على مواطني روما في العهد الملكي قويرييين Quirites وهو اسم ربما يرجع الى أصل سابيني .

(٢) كان موقع روما ملائما للغاية . وفي عبارة لوى Livy كان الموقع « قد وصفت معاملة بصفة فريدة ليسمح بتوسع المدينة ،
(ad incrementum urbis natum unice locum)

: ٥٤ ، ٥٤ ، ٤ . كانت روما تحتل موقعا متوسطا في إيطاليا ، شبه الجزيرة الوسطى في البحر المتوسط ويتعادل بعدها من قانس والاسكندرية ، وتواجه افريقيا وفي نفس الوقت ترتبط بأوروبا الوسطى والغربية والجنوبية ومحمية عنها وكانت ميناء برنديزي تصل إيطاليا بالشرق .

ويمكننا أن نفتق في خطوط عريضة بواكير نمو روما . وأول معلم واضح في نشأتها هو طرد الملوك وتأسيس جمهورية أرسقراطية في ختام الفسرد السادس (٥٠٩ قبل الميلاد) وكانت قد ارتقت قبل ذلك التاريخ الى المكان الرئيسي في التحالف اللاتيني واستحوذت على شاطيء التينر حتى مينس أوسطينا (Ostia) عند مصبه وأقامت منظمات سياسية وجيشا وطنيا منظميا . ويظهر أنه في زمن ما في القرن السادس غدت روما حاضرة أمراء من أصل أجنبي دان لهم الحكم على أتروريا الجنوبية وكل سهم لاتيم (١) . وكان معنى طرد الملوك الاطاحة بهذا الحكم الأجنبي . ومع هذا فإن الاحتلال الأتروري قد غير بصفة دائمة مركز روما فيما يتعلق بجيرانهم اللاتين . ولم تهبط قط الى مكانتها الأولى كواحدة من المدن اللاتينية الكثيرة المتحالفة . ولكن احتفظت بسيادة فعالة وأولا السيطرة الأترورية فكان دستورها قد اتخذ صورة مغايرة . وكان لاتيني ، واذنا من القناصل . وفي الواقع عوضا عن الخضوع لهذا المطلب من جانب اللاتين فقد تاح لروما أن نحو الحلف في النهاية ، وكان الأسياد الأتروريون قد وضعوا أسس مجد روما المستقبل . ولقد بقيت الى اليوم قطع من فنهم المسماري ، كالحائط الحجري الذي ينسب الى ميريوس طليوس . Servius Tullius بقوم شاهدا على مهارتهم وفي عبارة مونتسكيو « كانوا قد بدأوا بناء المدينة الخالدة » (٢) .

٢ - ان الوسيلة التي نهضت بها روما من هذه المصادر الوضعية خلال قرون من النمو ، الى سيادة عالم البحر المتوسط ، هي احدى القصص التي تبقى ذكرها الى ابعد مدى في تاريخ الانسان . ولم تكن امبراطوريتها خلتنا لامعاً أنت به عبقرية فردية ، ولكن الناج البطيء المنزل لنشاط تومي شور شعب من أصل خليط ، ولكن يتحد في الفرض . وكان لهذا السبب ، أن ناح لها البقاء . ان أسسها كانت تنأصل في احكام في خلية الشعب الروماني ولقد كتب فرجل "Tantae molis erat Romanam condere gentem" أي « كان عملاً ذا صعوبة يمكن تأسيس السلالة الرومانية » (فرجل إيناد ١ ، ٢٣) . وكان يعلم جيدا أن « العمل العظيم » لم يكن لخضاع الامبراطورية

(١) الطرقتون Tarquins ، من المحتمل أنهم مستعمرو أتروريا الاغريق الذين غنموا ثراء وسلطانا في صناعة الفخار والتجارة . انهم مماثلون للطغاة الهلنبيين في نفس العصر . راجع « أصل الطغيان » للاستاذ ف . ن . بور ، فصل ٨ .

(٢) عظمة وتدمور الرومان :

"Grandeur et décadence des Romains"

الفصل الأول .

در رومانية ولكن « بناء السلالة الرومانية » (١) . ان سجل تاريخهم الباكر أسطوري في معظمه لأن ما كان قد تدون من حوليات جاءت ، دمر عندما حرق :يقال المدينة عام ٣٩٠ ، ولكن الخليفة القومية تنعكس في جلاء في الأساطير التي حازت الايمان بها .

لقد كانوا سلالة من المحاربين أصلاب القلوب ، ولقد كان الشعب الروماني وليس رميولس Romulus وريموس Remus الأسطوريين ، رضيع الذئبة الخارج من فرع مارس .

وقد قصت الأساطير أيضاً كيف ن الرومانيين الأوائل عاشوا عيش النهب والسلب وكيف أن الدولة والأسرة على السواء ، كان أصلهما القوة (٢) ولقد أوجد أول ملوكهم اتحادهم السياسي وأسس الثاني ، نوما Numa العبادات الدينية التي كانت خلال التاريخ الروماني تقوم كعوامل في السياسة العامة ، ويمكن أن تقتبس أسطورة لها مغزى خاص وهمي تسرد كيف أن ثلاثة هوراطيين Horatii ناصروا روما في عراك مع ثلاثة قورياتيين Curiatii من ألبا Alba وقد ذبح اثنان من الأولين وصمد هراطيوس Horatius الذي لم يصب بجرح في الميدان ضد خصومه الثلاثة . وبإدعاء الهرب ، أودى بهم الواحد بعد الآخر إذ أن الجراح كانت قد أقعدهم . وعندما رجع ان روما يحمل الأسلاب انفجرت أخته ، التي كانت مخطوبة الى واحد من اغورياتيين الذبحاء في العويل ، وذبحها أخوها في الحال . وأدين بجرم القتل ولكن برئت ساحتها بصوت الشعب وذلك لأنه نفذ العدالة في واحدة ناحت على عدو روما .

وبهذا كما اعتقدت العصور اللاحقة ، قام الحق الذي كرمه الزمن ، في أن يستأنف المواطن الروماني الحكم بالاعدام للجمعية العمومية (provocatio) لتندبر مغزى القصة .

ان حظ الشعب الروماني كما لحظ مونتسكيو ، طوال تاريخهم ، ألب أعداءهم عليهم واحدا بعد واحد (٣) . ان حروبهم تستهل على الدوام تقريبا ، بالوبال ولكن تختتم في جميع الأحوال بالنصر .

(١) فرجل، انيد : ١ و ٣٧ « ان تكوين الشعب الروماني كان عملا جبارا » .

(٢) مثال ذلك ، أسطورة اغتصاب النسوة السابينيات . راجع هجل

« فلسفة التاريخ » الجزء ٣ ، قسم ١ ، فصل : ١ ويذكر بلويوس ١ ، ٣٧ كيف

كان «الرومان يستخدمون القوة في جميع مهامهم .

(٣) Gr. et. déc. فصل ٤ .

وفوق كل شيء ، لم يشك الروماني قط في أن مطالب النفع الشخصي يجب أن تكون خاضعة لمطالب الولاء المدني . وكانت غريزة الخضوع وعادة احترام السلطة العامة تتأصلان ناصلا عميقا في طبيعته .

وكان فضيلة ، وذيوع صيت ، أن يفكر وأن يفعل كمواطن وكجندي روماني مثالي ، « أن يفعل في روما كما تفعل روما » (١) . ولقد كان أعلى مطمح له ، أن يعيش وأن يموت لأجل روما . ان روح التضحية هذه في سبيل نفع المصالح المشتركة هي التي تشيخ النبيل في التاريخ الجمهوري الروماني . وكان الفرد من أوساط الرومان يفهم معنى المسئولية العامة والواجب المدني . ان العصور اللوحيق استمسكت بهذه الحصلة في الخليقة الرومانية وعظمتها . وفي زمن متأخر في قصتها ، عندما كانت توشك على الذهاب بددا على أيدي الغزاة الهمج ربي أوغسطين Augustine فيها ما يبرر قيام امبراطورية عالمية تخضع لروما .

وكان الاخلاص الروماني لدولة دنيوية مثلا لمواطني المدينة السماوية . وهويها من مكانها الرائع كان القصاص العدل ، للرجوع عن فضيلتها القديمة .

ولقد ردد صدى مديح أوغسطين ، دانتى بعد ذلك بتسعة قرون ، وفي الملكية « de Monarchia » يقيم الدعوى بأن « الشعب الروماني هيأته الطبيعة للامبراطورية » وذلك أنهم ، باحتقارهم الجشع وتعشقههم السلام مع الحرية فانهم تجاوزوا عن نفهم الخاص لضمان الأمن العام للبشرية . ويشير الى توضيحية المواطن الروماني الفرد ، الذي كان يحتمل « الكدح والفقر والنفي وموت القريب ، وفقدان أعضاء الجسم والحياة وهو يجهد في تنمية الصالح العام » (٢) .

ورأى القديس والشاعر كلاهما الحقائق يضيف عليها المثل الأعلى من خلال ضباب الزمن الفاصل ، ولم تنفذ بصيرتهما الى ما يجاوز حدود تاريخ البحر المتوسط ولكن عندما تستبعد كل أنواع الحذف فان حكمهما يستند الى أساس من الحق . وكما كان يعلم فرجل ، ان في حب أرض الآباء والتعطش الى الشهرة الذي لا يحده قياس ، يكمن سر سيادة روما بين الشعوب (٣) .

(١) Virtus = بسالة ، رجولة من vir = رجل .

(٢) أوغسطين de Civitate Dei الكتاب الخامس (راجع Figgis . المظاهر السياسية لمدينة الله » للقديس أوغسطين : صفحة ١١) ، دانتى : de Mon. : ٢ و ٥ .

انيد : ٦ و ٨٢٣

(٣) "Vincet amor patrioe laudumque immensa cupido"

٣ - ان مثل هذا الشعب كان مقدرًا له أن يتفوق في مهام القانون والحكومة ، وكان قد وضع في العهد الملكي أسس الدولة الرومانية وضعا محكما صادقًا . وبفضل الروح المحافظ الفطرى في خليفة الرومان فقد حافظت خلال جميع التطورات على المبادئ، التي ابتدعت في صمت في أزمنة ما قبل التاريخ كمادات للسلافة ، غير المكتوبة ، ونفس الصور والمناهج للإجراءات التي كانت تنظم حياة المجتمع المدني في القرن السابع قبل الميلاد ، ظلت باقية - ولو أن القضاء الإغريقي وعلم الأخلاق المسيحي عدلاها وجعلها مطابقة للعقل - في مجموعة القوانين المختارة التي صنفها بعد ذلك بالف ومائتى عام جوستينيان . وبذلك أصبح في قدرتنا أن نعيد بناء ، ليس أفعال الأفراد أو حوادث التاريخ السياسى المفصلة ولكن المظاهر العامة للمجتمع الرومانى في عهد الملكية . وكانت الدولة الرومانية ، الأمرة المكبرة ، وكان الرومانيون يفهمون معنى وقدر الحياة المنزلية وعبروا عن ذلك في أدبهم وقد أوجدت عبادة آلهة الأسرة (لارس وبناتس) Lares and Penates مذهبا دينيا . وقد اقترح أفلاطون في جمهوريته إلغاء البيت الخاص ، لهذا السبب ضمن غيره من الأسباب وهو أنه كان يجزئ إخلاص المواطنين للدولة (١) . ولكن الأسرة الرومانية كانت في وقت واحد المرأة وميدان التدريب لنزعة حب الوطن المدنية وبنفس الكلمة (رع) pietas كانت تدل على الإخلاص الذى يرجع للضمير ، الذى يكنه الابن نحو أبيه والمواطن للحاكم والانسان للآلهة . وشخصية الرومانى المدنية كانت تتألف من ثلاثة عوامل جوهرية : الحرية وصفته كمواطن وعضوية أسرة . والطراز الرومانى فى الأسرة فريد فى نوعه عندما يوازن ليس فقط بالأسرة الحديثة ولكن بالأسرة فى المجتمعات الأخرى القديمة وفى توكيده البالغ أقصى حد ، للسلطة الأبوية (٢) . وكانت تتحقق أفكاره الأساسية عن الوحدة والقوة فى شخص رئيسها بصفة قاصرة عليه وكان للآب (pater familias) طوال حياته السلطان المطلق (patria potestas) على الزوجة والأبناء والبنات غير المتزوجات والوكلاء والعبيد شخوصهم وممتلكاتهم ، وفى داخل الأسرة كان المالك الأوحد للمتاع والكاهن الأوحد والحارس لمقدسات sacra الأسرة والقاضى الأوحد . وكان من حقه اعدام زوجته أو طفله . وفى يده فقط كانت تنشئة أو اهمال شأن نسله حديث المولد . وكانت أوامر الأسرة يعترف بها عن

(١) الجمهورية ، الكتاب الخامس .

(٢) كان للرومان وعى تام بهذا . ونقرأ فى وصايا جوستينيان : ١ ، ٩ «ان حق السلطة التي نتولاها على أطفالنا هو الميزة الخاصة للمواطنين الرومان» .

طريق فرع الذكور ولم يكن القانون يعتبر الابن نسيبا لأقارب الأم وقربته حتى لأمه كانت عن طريق الأب^(١).

ولم يكن القانون الروماني يعترف بالأبوة عن طريق السفاح كنيء يفترق عن الأبوة الشرعية ، والابن المتبنى شرعيا كان يعدا ابنا تاما . والابن الذي ولد عن غير رابطة الزواج الشرعية ليس ابنا على الإطلاق . وعند موت أبي الأسرة يصبح الأبناء على التو ، أرباب أسرته بينما تخضع الزوجة والبنات غير المتزوجات « لعدم ثبات مزاج المرأة » على حد قول جايوس Gaius لوصاية الأبناء . وعلى هذا فإن المرأة الرومانية ، المواطنة الحرة بالمولد ، كانت اما تحت سلطان أبيها potestas أو (بعد الزواج) تحت سلطان زوجها ، أو « فى حالة الترميل » تحت وصاية قريب من الذكور . وفى عبارة مجموعة القوانين المختارة (Digest) « المرأة هى بداية ونهاية أسرتها » لان القانون لم يكن يعترف بأمومتها ، ولم يكن لديها أية سلطة على أبنائها^(٢) . والوالد وحده ،

(١) كانت سلطة الوالد بالطبع مقصورة على المواطنين . وكان الابن عند موت أبيه ، يصبح « والد الأسرة » حتى لو كان غير متزوج ويكتسب «سلطة الوالد » فقط عند الزواج . والزوجة اذا كان زوجها مطابقا بدقة الصورة القانونية ، تصبح فى « يد » (manus) زوجها وتكون خاضعة لسلطته potestas فى مرتبة الابنة (loco filiae) . وكانت الابنة تحت سلطة أبيها (أو اذا كان ميتا ، فتتحت سلطة قريب من الذكور) حتى تتزوج وعند ذلك تصبح فى عداد أسرة زوجها . وخاصية ظاهرة فى الأسرة الرومانية كانت حصر القريب المعترف به شرعا فى agnati أى أولئك الذين كان يمكن أن ينضوا تحت سلطة سلف من الذكور ، واحد لو أنه بقى حيا . فعلى سبيل المثال ، ابن « أ » كان « agnati » لأخ « أ » أو ابن أخ وليس لأب الأم أو أخيها . وقد اعترفت القوانين اللاحقة فى ازدياد مطرد بقراءة cognati أى قرابة الدم سواء أكانت عن طريق الذكور أم الاناث . وعن الموضوع بأجمعه ، راجع مين Maine « القانون القديم » فصل ٥ . وأهم الذنوب من جانب الزوجة التى تستحق الاعدام كانت الزنى والسكر ونسج عن أم رومانية نفذ فيها الاعدام لأنها سرقت مفتاح قبو الحمر .

(٢) المرجع الى جايوس هو ١ ، ١٤٤ ، الى مجموعة القوانين المختارة Digest هو ١ ، ١٦ ، ١٩٥ ، « mulier familiae suae et caput et finis est » كانت أسرة المرأة تبدأ بها لأنه عند موت أبيها تصبح sui juris « مستقلة بحقها » وكانت تنتهى بها لانه بمجرد أن تحاول مواصلتها بالزواج ، فانها تتحول الى « حق jus » زوجها وأسرته . وكانت تستطيع بالطبع أن تكون sui juris « مستقلة بحقها » ومع هذا تكون تحت الوصاية أى وصاية ابن أو أخ .

هو الذى كان يمثل الأسرة وكانت علاقته بالافراد الآخرين من جانب واحد، فان كل الحقوق كانت الى جانبه ، وكل الواجبات الى جانبهم ، وفى نظر القانون ، كانت سلطة الوالد *patria potestas* مطابقة فى الأسرة كما كانت سلطة *imperium* الموظف فى الدولة^(١) . ولكننا نسيء تصور نظام المجتمع الرومانى كل الاساءة اذا توهمنا أن سيره كان يحدده فقط ، او حتى فى معظمه اعتبارات الحق النظرى فى حالة الوالد ، كما فى حالة الموظف ، كانت النظرية القانونية عند التمرس بها عمليا تأتي بالتعديل فيها ، فى كل مرحلة تقريبا عادات السلف . وأعظم ما كان يوجد من قيود على سلطة الوالد، كان التقليد المعتاد انه فى حالات عمل تأديبى خطير داخل الأسرة ، كان على الوالد أن يستدعى الأعضاء الذكور البالغين ، للمشورة . وعندما كان يقع الاتهام على الزوجة كان يستدعى أيضا ذوو قرباها من الذكور . وفى بواكير عصر الجمهورية نجد الرقيب يحط من مكانة شيخ (سيناتور) لانه طلق زوجته دون أن يطلب نصيحة مجلس الأسرة^(٢) . وكان مراسم السلطة فى التخلي عن طفل محدودا فى شدة صارمة . ومراس السلطة فى بيع زوجة ممنوعا منعاً باتا وفقا لما جرت عليه العادة الدينية . وكان يسمح للابناء وحتى الرقيق وفقا للعادة بأن يكذبوا تحت اسم *peculium* ما أصبح بمرور الزمن، افتراضا ، ولو لم يكن فى نظر القانون ، يعادل الملك الخاص . وكان الواقع فعلا أن يقوم الوالد فى المعتاد على ادارة ثروة الأسرة بروح القيم ، وليس بروح المالك الخاص . وكذلك - مرة أخرى - كانت الفروض الأدبية التى تقنع على الوالد نحو زوجته وولده ، معترفا بها اعترافا تاما من الوجهة العملية . ولقد كان كاتو *Cato* الرقيب ، وهو النصير الذى لا تلين قناته للتقاليد المحافظة ، يشعر بأن الواجب عليه كل صباح أن يرى طفله وقد اغتسل على الوجه المناسب . وكانت الأم الرومانية تستمتع بمكانة تكريم ، أنكرت على الأمهات فى أثينا وفى معظم البلدان الأخرى ، وكانت مكانة زاداها ثباتا أنها كانت تستند الى عادة ، لا يمكن انتهاكها ، وبمرور الزمن ، تضافر تقدم الرأى العام ، والتخلي تدريجا عن صور الزواج القديمة التى كانت تضع الزوجة تحت يد *Manus* زوجها وادخال مناهج جديدة للتملص من قانون الوصاية -

(١) كان الابن ، ولو تحت سلطان أبيه ، يستطيع القيام بصفة المواطن كما لو كان والد أسرة ، أى كان يمكنه القيام بمهمة وظيفية وفى تلك الصفة تكون له السلطة العامة على أبيه . ان سلطة الأب لم تمتد الى *jus publicum* السلطة العامة .

(٢) لم يكن يفرض على الأب شرعا بأن يتبع نصيحة مجلس الأسرة أكثر من أن يكون مفروضا على الموظف شرعا اتباع نصيحة مجلس الشيوخ . ولكن السلطة (*auctoritas*) فى كلتا الحالتين ، كان لها شأن عظيم .

فى ضمان حرية واستقلال للمرأة الرومانية - يكاد لا يوجد لهما مثيل فى المجتمع القديم أو الحديث (١) . ومن وجهة واحدة فى الواقع ، ظلت سلطة الوالد *Patria potestas* لا تتغير ، وسواء أكانت دون قيد ، كما كانت الحال من الوجهة النظرية ، أو محدودة كما كان الأمر عمليا ، فانها كانت تظل باقية طوال حياة المالك لزامها . ولكن حتى فى الأزمنة الباكرة ، ولو أنها كانت صارمة فقد كانت فى النادر استبدادية . وكانت القسوة البالغة هى الاستثناء وليست القاعدة . وعلاوة على هذا ، فيجب ألا يغيب عن البال أن معايير الطهارة المنزلية ، والاحلاص لواجبات الأسرة التى كانت تلقن بمثل هذه الشدة ، ظلت المحافظة عليهما أمدا طويلا فى البيت الرومانى وقام الدليل على أنهما أديا خدمة لا تقدر للثبات الخلقى فى الدولة الرومانية (٢) .

٤ - لقد كانت روما دولة - مدينة ، وكانت منظماتها الباكرة ، الملك والمجلس الاستشارى ومجلس الشعب هى تلك المألوفة فى غيرها من فروع الأسرة الهندية - الأوربية وقبيل فجر تاريخهم المدون ، كان الرومان قد تدرجوا ببنور التنظيم الاجتماعى ، هذه ، الى مجموعة من عناصر ومبادئ حكومة مدنية ، محددة تحديدا واضحا - وكان الملك (*rex*) كموظف أعلى يملك كحق له ، سلطة تنفيذية مطلقة *imperium* وعلى مدى التسارىخ الرومانى ، تظل سلطة الموظف التنفيذى كمحور للتقدم الدستورى .

ولما كانت هذه السلطة قد منحت بتصويت رسمى من المجتمع على واحد من أعضائه عينه الملك فى حضورهم (أو اذا لم يكن يوجد ملك ، فنائب الملك المعين من قبل مجلس الشيوخ) وصدق عليها بموافقة مجلس الشيوخ فان السلطة *imperium* كانت مطلقة شرعا فى السلم ، وفى الحرب جميعا وكانت

(١) كان الاعتراف بصور الزواج التى فيها لا تصبح الزوجة ، كما فى الصور القديمة ، فى يد *manus* زوجها ، أول انهيار خطير لسلطة الوالد . ويرجع تاريخه الى ما قبل القرن الثالث ق م .

(٢) لقد عبر عن هذا فى بيتى فرجل (*Aen* : ٩ و ٤٤٨ - ٩)

*Dum domus Aeneae Capitoli immobile saxum
Accolet, imperiumque pater Romanus habebit*

بينما يظل منزل انياس قائما الى جوار صخرة الكابيتول

التي لا تتزحزح ، ويظل الأب الرومانى يحمل سيادته .

(ترجمة مكيل (Mackail))

المصدر الذى منه تستمد كل سلطة تنفيذية أخرى بطريق النذب (١) ، وكان الملك - فى نفس الوقت - القائد فى الحرب والقاضى الأعلى ورئيس دين الدولة . وكان القضاء الجنائى يتركز فى يديه . والنشابه الوثيق مع مركز الوالد فى الأسرة يتجلى واضحا فى نظره ، ولكن فى الدولة ، كما فى الأسرة ، كانت العادة تهيىء حدا لمراهن السلطة المطلقة ، ولقد كانت قاعدة أساسية عند الرومان أن القابض على زمام السلطة يجب أن يقوى نفسه بالتضحية . ان مجلس الشيوخ من رؤساء الأمر ، وهو نظريا جماعة استشارية يعقدون اجتماعهم فقط بدعوة من الموظف لبيحثوا ما كان الموظف يريد أن يعرضه عليهم ، أصبح عمليا ، مجلسا ذا مهابة فى الدولة . ويمكن تجاهل رأيه فقط بعمل من أعمال ثورة ، افتراضا ، وكانت توازى سلطة الملك (imperium) سلطة مجلس الشيوخ الأدبية (٢) Auctoritas وأخيرا عندما كان يطرأ فى حياة المجتمع حدث يستلزم خروجا على السوابق المقررة مثل اعلان الحرب

(١) كانت السلطة (imperium) ، فى العهد الملكى ، تمنح بالاجراء الآتى الذى يوضح توضيحا رائعا ، النهج الرسمى للاجراء الدستورى الرومانى . عند موت الملك (rex) كان مجلس الشيوخ (آباء العشائر الموكلون اليهم مهمة فرائض المجتمع الدينية) يعين رافدا interrex وهذا فى دوره يعين رافدا آخر لأن السلطة كان يمكن فقط نقلها الى الملك الجديد ، بتنصيب شخص كان قد تملكها (وأحيانا كان يعين رافد ثالث أو رابع لوضع قناع على انقطاع الاستمرار ، بخرافة محسوسة) . وكان آخر رافد فى السلسلة ينتخب ملكا بالتشاور مع مجلس الشيوخ ، وعندئذ يعلن الرافد اسم المرشح للملك للمجلس لقبوله وإذا قبل ، كان مجلس الشيوخ يصدق على تعيينه بصفة نهائية . وعلى هذا كان التعيين الشخصى وتعاون مجلس الشيوخ والانتخاب الشعبى تتألف كلها فى العملية النسقية . وكان هذا الاجراء عينه يتبع فى عهد الجمهورية فى حالة الموظفين المخولة لهم السلطة أى القنصلية والبريتورية فقط . (أ) لم تكن الحاجة الى رافد موجودة فى المعتاد ، حيث أصبح يوجد موظفون لهم السلطة لتعيين المرشح الجديد . و (ب) بعد عام ٣٣٦ ، كان يجب الحصول على موافقة مجلس الشيوخ قبل الانتخاب الشعبى ، وعلى هذا فقد أصبحت صورية خالصة ، كالموافقة الملكية على مرسوم تشريعى فى بريطانيا فى الزمن الحاضر ، وكانت الحال كان الموافقة الملكية تصدر عن كل مشروع قانون يعرض على البرلمان قبل قبوله أو رفضه من المجلسين .

(٢) ان معنى auctoritas هو « النفوذ الأدبى » والكلمة الانجليزية authority بمعنى السلطة التنفيذية كان يعبر عنها فى اللاتينية بلفظ imperium أو potestas .

وتبنى أسرة جديدة آخر فرد من الذكور بقى على قيد الحياة من أسرة قديمة ،
أو انتخاب خليفة للعرش كان من الأمور الجبرية الحصول على موافقة الشعب
ذى السيادة (١) .

وكانوا يجتمعون لهذا الغرض فى جماعات Curies للتصويت على ما كان
يعرضه عليهم الموظف الذى يتولى الرياسة ، دون تعديل أو مناقشة وعلى هذا
كانت الحكومة الذاتية الاستثناء لا القاعدة ، فى روما الباكورة ، وكانت
العناصر الملكية والارستقراطية فى الدستور تربو الى حد بعيد على العناصر
الشعبية . ولكن على الرغم من كل الظواهر المتناقضة فانه كان يوجد اعتقاد
واحد يتأصل فى تقاليد المجتمع الأصلية ولم تعد بناتاً عواذى النسيان عليها ،
بكليتها أن لفيف المواطنين كان المصدر النهائى . الذى له السيادة ، لكل
سلطة قانونية .

١١ - قيام الجمهورية

٥ - رأت فاتحة القرن الخامس قبل الميلاد روما جمهورية وكان آخر
الملوك الأترويين Etruscan قد تجاوزوا الحدود التى رسمتها العادة لمراس
السلطة Imperium وكان أن طردهم رعاياهم اللاتين (حوالى ٥٠٩ ق م)
ولم يترتب على هذه الثورة ، اذا كنا لنطلق عليها هذه التسمية ، أى تغيير
فى مبادئ الدستور الأساسية ، ومنحت السلطة ، التى كانت الى الآن
مخولة للملك وحده مدى الحياة ، لموظفين أعلىين متعادلين ينتخبهما سنويا
الشعب بتصديق مجلس الشيوخ (٢) . وكان الحكم الثنائى من شأنه أن يضع
حدا فعلا للسلطة ، ذلك بأنه ولو أن كل قنصل كان يستحوذ عليها فى كامل
نطاقها ، الا أن هذه الواقعة بعينها كانت تعاون الواحد على نقض عمل
الآخر ، وفى روما كما يكون بين موظفين متعادلين ، كانت الغلبة دائما للصوت

(١) كان التبنى أمرا شائع الحدوث فى روما ، لأن هم الرومانى - الاول -
كان أن يترك خلفا من الذكور ، يعقبونه وعلى هذا يحتفظ بقيام أسرته ، فاذا
لم يكن له ابن من صلبه ، فقد كان يستطيع أن يتبنى ابنا ، ليصبح من كافة
الوجوه مساويا لذاك الذى ينجب عن طريق زواج شرعى ، ولكن اذا كان الابن
المتبنى أباً لأسرة فان انتقاله الى أسرة أبيه الجديد ، كان يترتب عليه انقطاع
أسرة ومقدساتها sacra وهو مسألة دينية جد خطيرة تتطلب تصاميقا
خاصا من المجتمع .

(٢) كان يطلق على الموظفين فى الأصل لفظ "praetors" ثم بعد ذلك
"consuls" وأصبحت البريتورية وظيفة منفصلة .

السلبى . وزيادة على ذلك فان من المحتمل أن القنصل لم يكن لينغلب على ارادة مجلس الشيوخ الذى صدق على انتخابه . والذى كان مآله أن يرجع الى صفوفه عند انقضاء عام ولايته ، لبقية حياته . وعلى هذا كانت فترة التحول الى الجمهورية تعنى أن حكومة روما آلت الى أيدي حكومة قلة من أسر الأشراف . ولقد توارى لقب ملك ، المقوت ولو أنه نص على اعادة الحكم الملكى مؤقتا فى وقت الأزمة ، فى شخص دكتاتور . وفى خلال القرنين التاليين (٥٠٩ - ٢٨٧) كانت الجمهورية الصغيرة يتألب عليها الأعداء من اخترايع وتمزقها المشاحنات السياسية . وكان من أهم هذه المشاحنات ، التمزيق الطويل بين المواطنين من الدهماء ، للمساواة فى الحقوق الاجتماعية والسياسية والدينية مع الأشراف ، الذى انتهى قبيل نهاية القرن الرابع بانتصار الاولين على طول الخط . وقد يكون منشأ التمييز بين الطبقتين ، على الراجح ، الاختلافات السلالية كتلك التى كانت بين الأشراف النورمانيين والسيامة المسكسون فى التاريخ الانجليزى (١) . وكانت المعالم الباكرة فى الصراخ : (٤) القانون الذى ينص على أنه ليس لأى موظف أن ينفذ حكما بالاعدام على أى مواطن دون التصديق عليه من المجلس (ب) اقامة عشرة من الضباط (تريبونيين Tribunes) الشعبيين ، نتيجة لاضراب عام قام به ليفف الدهماء ضد الدولة (٤٩٤) ، للحماية من الموظفين الأشراف وكذلك مجلس من العامة (ج) نشر الاثنى عشر لوحا فى منتصف القرن الخامس (٤٥٢ - ٤٥٠) وهى أقدم مدونة للقانون المدنى الرومانى . ولقد كان لنظام التريبونية نتائج بعيدة الأثر على التساريخ الدستورى اللاحق ولم يكن التريبونيون موظفين وذكمتهم كانوا ضباطا من العامة وكانت أشخاصهم معصومة (مخطورة، محصنة دينيا) ولهم السلطة فى ادخال النقض intercessio على أى عمل من أعمال الظلم يرتكبه الموظفون داخل حدود المدينة (٢) . وبترادف الزمن ، اتسع سلطانهم فأصبحوا أولا ، القادة السياسيين الشعبيين ، المعترف بهم وبعد ذلك السادة ، افتراضا ، لما لهم من حق نقض كل أداة الدولة . ولقد

(١) لا يمكننا أن نناقش هنا المسألة المرتبكة عن أصل هذا التمييز . لقد كان الأشراف والعامة كلاهما أعضاء لفيف المواطنين . ولكن لما كان الاولون السادة الأوحدين فى الدين فان الآخرين كانوا فى واقع الأمر ، يقصون عن الامتيازات التى تتصل بشعائر الدين مثل الزواج ، فى مركز متعادل وعضوية مجلس الشيوخ وولاية الوظائف التى كانت تلازمها السلطة imperium

(٢) لم يكن نقض التريبون أو حق الاستئناف الى الشعب عن تهمة اعدام مجديا تجاه .مراس السلطة imperium عسكريا . وعندما كان يعين دكتاتور ، كانت كل القيود تتوارى وكان التعيين يعادل اعلان الأحكام العرفية .

ترتب على توسيع نطاق الوظائف التدرجى ، بزيادة تعدد واجبات الادارة وتفقدتها ، تقسيم جرت عليه العادة ، لدوائر السلطة provincia ونتيجة لهذا ، مراجعة متبادلة يقوم بها زملاء ، الواحد للآخر . ولقد أزاح القانون القانونى Canulesian (٤٤٥) الفوارق الاجتماعية بين الطبقات بأن أباح شرعا ، التزاوج بين العامة والخاصة .

ورأى القرن التالى (٣٦٧) خاتمة المناظرة الطويلة لتولى عليا الوظائف ، بصدور القانون الذى ينص على أن يكون قنصل ، منذ ذلك الحين ، من العامة . وقد فتح الطريق للوظائف الأخرى فى تتابع سريع ، ووصل انتصار العامة الى ذروته عندما استولوا على الجمعيات الدينية (٣٠٠) وفى عام ٣٣٦ تمكن دكتاتور من العامة من خفض رقابة مجلس الشيوخ على الانتخابات الشعبية حتى صارت من الرسميات الحاوية (قانون فيليبا lex publilia) وفعل دكتاتور آخر فى عام ٢٨٧ (قانون هرطنسيا lex Hortensia) مثل هذا الصنيع فيما يتصل بالفوانين التى أصدرها المجلس الشعبى والتى أصبحت منذ ذلك الحين مفروضة (٢٣٦) ipso facto على المجتمع كله ^(١) وبهذا جرد التمييز بين العامة والأشراف من أى مغزى عملى . وزيادة على ذلك ، فقد كان يترتب على هذه الاصلاحات عينها ، على ما كان يظهر جليا للعيان ، أن الدولة الرومانية ، مرت من صورة حكم القلة الى صورة الحكم الديموقراطى . ولقد ثبت أن ما وقع كان بخلاف هذا ، ويرجع ذلك الى أسباب كان مصدرها يتأصل فى الحياة الخارجية للمجتمع وسننظر فيها فى قسم آت . ولكن الصراع السياسى الذى أجملناه آنفا كان أبعد من أن يكون الدافع الوحيد لهيجان داخلى فى العصر الجمهورى الباكر . وانا لنقرأ أيضا عن المطلب الدائم من جانب فقراء العامة فى أنصبه فى أراضى الأعداء المغلوبين وفى الخلاص من ضغط الدين المائل على الدوام . ولقد كان الرومانى فى الأزمنة الباكرة مواطننا وجنديا وزارعا فى نفس الوقت ، وكان مركزه الاجتماعى ومركزه السياسى ، كلاهما يعتمدان على التزام تملك الأرض .

لقد كانت قوة الدولة العسكرية والسياسية تتأصل فى الثربة ،

(١) لقد أهملنا عن عمد التفاصيل عن مختلف المجالس فى الدولة الرومانية . ويكفى القول ان أقدم مجلس "Curies" زالت أهميته بعد العهد الملكى ، وان مجلس "centuries" (فى الأصل مجلس عسكري كان فيه للطبقات أصحاب الأملاك النفوذ الراجح) ، كان ينتخب القناصل والموظفين ذوى السلطة imperium بينما أصبح مجلس القبائل المنظم بطريقة ديموقراطية ، فى العصر الذى نتحدث عنه ، أهم جماعة تشريعية .

ولموضوع الزراعة الأهمية الأولى خلال التاريخ الروماني كله . لقد كانت نزعة المواطنين الأكثر ثراء - الأشراف والعامّة على السواء - التي تطرد ازديادا ، للاستحواذ على مساحات عظيمة من الأراضى التي تم فتحها - بما كان فيه الضرر على السياسة الحكيمة فى تخصيص مثل هذه الأرض ، كتمتلكات حرة للفقراء من الأهلين - هى التي أثارت الاضطرابات المتكررة التي قام بها العامة . ولم ينجم عن قانون لقينيوس سكسطينيان *Lioinio - Sextian* الصادر عام ٣٦٧ الذى حدد مساحة أمثال هذه الأراضى « المحتلة » لتكون ملكا لا سرة واحدة ، أكثر من ايجاد خلاص جزئى مؤقت من مساوىء سنجدها ، تتكرر فى صورة حادة حدة بالغة ، فى مرحلة متأخرة من التاريخ الجمهورى . أما عن مسألة الدين ، فقد كان القانون الروماني شديدا شدة رابعة ، اذ كان يترتب عليه أسر شخص المدين فى حجرات سجن الدائن ، وهنا أيضا أتى تشريع عام ٣٦٧ ببعض الانصاف ، فعلى مر الزمن تعدلت صرامة القانون ليفى بالحاجة الى معاملة أكثر نزوعا للروح الانسانية ، بينما جعل رخاء الدولة التجارى ، المتزايد ، المواطن أقل عرضة للافلاس .

٦ - ومن بين هذه الوسائل ، تبرز وسيلة مفعمة بمغزى خاص للمدنية الرومانية . لقد كانت مدونة الاثنى عشر لوجا التي وضعتها لجنة العشرة موظفين ، التشريعية *decemvirs* فى عام ٤٥١ و ٤٥٠ ، أول قانون مكتوب فى روما ، وبهذه الصفة كانت تعتبر خلال تاريخ الجمهورية والامبراطورية الأساس للقانون المدنى *jus civile* أى القانون الذى ينظم علاقات المواطنين الرومان (*Cives*)^(١) . عندما كان شيشيون صيبيا ، كان صبية المدارس ما زالوا يتعلمون عن ظهر القلب جملها الايقاعية بما يقرب كثيرا مما كان يجرى عليه الصبية الانجليز فى تعلم

(١) لما كان *jus civile* هو القانون المحلى لدولة - المدينة (*jus proprium civitatis, Gaius*) ، فانه لم يكن ينطبق على أحد سوى المواطنين . وكان يلزم صفة المواطن الكاملة ، الحقوق العامة (*publica jura*) كالخدمة فى الجيش ، والتصويت فى المجلس والأهلية للوظائف العامة وكذلك الحقوق الخاصة (*privata jura*) كالتزاوج والتجارة مع المواطنين الرومان . وفى عهد الجمهورية ، أصبحت توجد درجات من صفة المواطن يترتب عليها بعض هذه الحقوق بمعزل عن البعض الآخر (راجع مايلى § ١٠ و ١٧) ومرة أخرى ، كانت الحقوق « اللاتينية » تعاون مالكها على المساهمة فى القانون المدنى . ويصدق هذا عندما منح حسق كالتجارة مع المواطنين الرومان لاعضاء مجتمع آخر ، بمهادة خاصة . وعن *jus gentium* راجع § ٢٠ فيما يلى .

« أصول الإيمان » ولو أنه بعد ذلك بجيل ، كانت قد بدأت تخلى المكان للصيغ البريتورية . ولا توجد ناحية استبانة فيها ، فى أعظم جلاء ، قدرة الرومان الطبيعية على الحكم الصائب فى المسائل العملية ، أكثر من مجال القانون وهو أعظم ما قدموا من إضافة باقية على الزمن ، لمدينة العالم . وفى غيره من المناحي (١) ، كانت وظائفهم ، تلك التى تكون للشرطى والوسيط ، أن يحافظوا على النظام فى منطقة البحر المتوسط وأن يسلموا ثقافة الشعوب الأخرى للزمن القادم . ان فلسفتهم كما كانت عليه حالها وشعرهم ، ولو أنه كانت تشيع فيهما روح الأخلاق الرومانية والتاريخ القومى ، كان الحافز والملم لهم التماذج الهلينية ولكن قانونهم كان فى معظمه من خلقهم الخاص . لقد اكمل اطار القانون الاغريقى بالصيغ البريتورية ، وقانون القضايا الرومانى . وعلى ذلك ، فمنذ عهد باكر وضعت أسس البناء الرائع الذى قام حجرا على حجر فى استمرار لا انقطاع لثلاثة آلاف سنة من الصنعة الى أن استوفى كماله فى مجموعة القوانين Corpus juris فى عهد الامبراطور جوستينيان فى القرن السادس بعد الميلاد . لقد كان يوجد تطور زاخر لقانون العادة الأسبق الذى تكتل فى صورة محددة فى عهد الملوك . وكان الرومان يعتبرون العادة دائما مصدرا للقانون الموثوق به . وتمثل الألواح الاثنى عشر نفسها منتخبات من العادة المعترف بها وتجعل تركزها فى المواضع التى كانت عرضة لاساءة استخدامها اجتماعيا أو كانت مشار جدل ، ولو أن لوى Livy كان ما زال يمكنه اعتبار الألواح الاثنى عشر ينبوع لكل قانون عام أو خاص ، فإن القانون الرومانى كقانوننا ، لم يكن نتاج قوانين تشريع وضعية أكثر من أن يكون العادة التى لم يوضع لها سنن ، فسرته وصاغتها تقاليد ثابتة لطبقة علماء من محامين محترفين prudentia وكذلك المراسيم البريتورية . ولو أن النفوذ الاغريقى موجود من البداية ولا يننى يتزايد فى غضون عهد الجمهورية ، فإن المنهج القانونى prudentia هو نتاج العبقرية الرومانية (٢) الذى تتميز به . ففى كثير من التفصيلات ، على سبيل المثال ، كان يفضل قانون العادة عند العامة على نظيره عند الأشراف وكان الهدف دائما تنازع الطبقات فى المجتمع المدنى . وعلى هذا ، كانت قوانين المدونة تفرض سلفا قانون دولة منظم على أن له وجودا . ولقد توارى منذ زمن طوبس فى روما الكثير من العادات البدائية المألوفة لدى القانون

(١) تسجل التقاليد أن الأعضاء العشرة درسوا نماذج اغريقية . وقد يكون الأمر كذلك ولو أن أثره لا يتجلى فى الألواح الاثنى عشر . وسنرى حالا كيف وضعت الهلينية طابعها على القضاء الرومانى ، فيما بعد .
(٢) راجع de Zulueta فى « تراث روما » الصفحات ١٨٦ وما يليها وشيشرون De Oratore : ٤٤١ و١٩٧ الذى اقتبس فيه (صفحة ١٨٧) .

الباكر الهليني والألماني والسكندناوى ، ويكاد لا يبقى أثر لانتقام الدم لو شراء الزوجة أو الصراع بين قضاء العشيرة وقضاء الدولة ، وعلو على هذا فان الرومان كانوا منذ زمن باكر قد وضعوا فاصلا بين fas وهو القانون الدينى الذى ينظم أوامر الناس بالآلهة و Jus القانون الدينى للمجتمع الانسانى . ومع الصلة الوثيقة التى كانت تقوم بين اتحاد الأداة السياسية والأداة الدينية فى المدينة ، فان الخروج على القانون الدينى fas كان يندر أن تعاقب عليه ، السلطة الدينىة . وفى احكام متعادل فرقوا بين (١) القانون العام الذى يحدد دستور الدولة وتنظيم السلطة العامة ، والقانون الخاص الذى يحدد العلاقات المتبادلة بين الأفراد من المواطنين ، ونتيجة لهذا (٢) فانه فى الذنوب ، فرقوا بين الأضرار التى تقع على الصالح العام بما فيها جريمة القتل حيث تكون الدعوى من مهام الموظف التنفيذى ، والأضرار التى تقع على الأفراد العاديين حيث يتدخل القانون فقط بنسبته على شكوى الطرف المتظلم . وفى الحالة الأولى ، لم تكن الدولة فى حاجة الى استخدام الاجراء القانونى ، ولكن تنتصف فى الحال عما وقع عليها من مظالم . فعلى سبيل المثال ، كان يمكن لموظف المالية التسطور Questor أن يصادر السلع التى تكون من حق الحكومة ، دون اذن قضائى ، وعلى هذا فان الاقتصاد العام ، كان ينفذ من تلقاء نفسه ، ولم يكن للفرد حقوق قبل المجتمع ولا يمكنه اقامة دعوى قانونية .

وبين القانون الذى يتعلق بالذنوب الخاصة كما تفصح عنه الألواح الاثنى عشر ، التقدم التدرجى من :

(أ) عادة الانتقام الشخصى البدائية خلال مراحل (ب) التعويض الاختيارى بالدفع النقدي ، متوقفا على ارادة كلا الطرفين و (ج) التعويض الجبرى الذى يقرره القانون الى (د) منع الانتصاف الشخصى على الاطلاق وادماج جميع الأضرار الشخصية فى درجة الأضرار العامة باعتراف قانون الدولة وفى الألواح الاثنى عشر ، يجىء القتل وحده تحت الباب الأخير . وفى غير هذا من المواضع يسمح بالانتصاف الشخصى حيث لا يوجد ما يمنعه صراحة ويسمح بالتعويض الاختيارى عن السرقة الجسدية وإلضرار البالغه التى تقسح على الشخص .

أما عن الذنوب الصغرى فان الغرامة يحددها القانون ، وبضرب الجرائم مثل سرقة معاملة الأبناء للآباء ونقل أحجار التخوم واتلاف المنطة التى تنسجى على سموتها . كان القانون الدينى كفيلا بهذا ، ولكن فيما عدا حالات خاصة

تراث العالم القديم

قليلة ، لم تكن توجد محاكم نظامية للقضاء الجنائي . وكان يجب أن يساق مرتكب الذنب شخصيا أمام الموظف الذي كان يحيل القضية الى مواطن عادى ، القاضى judex لوضع قرار عن نتيجة الواقعة (١) . وهنا ، مرة أخرى نجد مثلا للاحاساس الرومانى بالتفاريق البينة ، فقد وكلوا حكم القانون للموظف بصفته القائم على المحافظة على قانون الدولة ، وسماع الوقائع ، للقاضى (٢) judex . وكان هذا الاجراء ينطبق كذلك على القضايا المدنية ، التى كان للثنى عشر لوحا الشأن الأول فيها .

وكان القانون المدنى ينظم مجموعة العلاقات بأكملها بين المواطنين ، الزواج والأسرة والوصاية وتحرير الابن أو العبد والتركة بوصية والملكية والعقود ، فى أوضاع ضيقة فى الواقع ولكن فى دقة وبعد عن الغموض ، وهو ما كان خصيصة لروما من بين جميع المجتمعات الباكرة المعروفة للتاريخ . ولو أن كل ملكية كانت تعتبر أنها مستمدة عن طريق الانتقال المفهوم ضمنا ، من المجتمع ، وعلى ذلك يمكن أن يستحوز عليها المواطنون فقط فان الملك الخاص ، كان منذ أمد طويل واقعة مقررة . وكان المواطن بمجرد أن يستوثق من حقه ، يترك فيما يقرب أن يكون حرية كاملة للقيام عليه والتصرف فيه كيفما شاء .

وكان قانون الوراثة الرومانى قد قطع شوطا بعيدا فى التقدم على غيره من مدونات القوانين الهندية - أوربية الباكرة فى أن النص على عدم وجود وصية كان خاضعا للاعتراف بالميراث الذى ترك بوصية اذ كان للرومانى

(١) لم يكن حتى قيام دكتاتورية صولا (٨٠ ق م) أن أنشئت محاكم جنائية دائمة (quaestiones perpetuae) بطريقة منتظمة . وفى حالة الجرائم العامة حيث تكون فيها عقوبة الاعدام أو غرامة تتجاوز مبلغا معيناً ، كان حق الاستئناف الى الشعب (provocatio) مسموحا به . وكانت معظم الجرائم تعتبر مظالم خاصة ولا تتدخل الدولة الا عند التماس الفرد الذى وقع عليه الجرم وتمثل فى اجراءاتها مناهج الانتصاف الشخصى .

(٢) كان لا يستطيع الموظف النطق بحكم (sententia) فى قضية متنازع فيها . كان يمكنه فقط أن يحيل القضية الى قاض judex وفى احوالها يقرر طبيغة الدعوى . وكان يترتب على هذا سماعها قانونا in jure ثم يلى هذا سماع الوقائع بالسير فى القضية in iudicio أمام القاضى judex الذى كان يصدر حكمه . و فقط عندما يعترف المدعى عليه أو يوافق على دعوى المدعى أن الاحالة الى القاضى يستغنى عنها ويصدر الموظف قرارا فى القضية على التو وتنتهى الاجراءات القضائية (in jure cessio)

الحرية في اختيار وريثه وتحديد ما يورثه وإقامة أوصياء على أبنائه الباقين على قيد الحياة^(١) . وفي حدود مرسومة ، في عناية ، كانت حياة المواطن ومملكه حماية القانون الذي كان يعنى بإقامة معلم tutor للطفل وقيم Curator على المعتوه ، كما كان لا يتسامح في تنفيذ دعوى الدائن الكاملة ضد شخص المدين المفلس^(٢) . وكانت الألواح الاثني عشر تنص على عقاب الربا وتحدد نسبة قانونية للربح ، ثابتة . وقد أقروا أيضا وسائل الاجراءات القضائية في روح قويمة ونهج عملي صارم .

ولقد سار احترام الأوضاع القضائية جنبا الى جنب مع التخلص من التأخير الذي لا تدعو الحاجة اليه والرسميات المربكة . وكان تعذيب المواطنين شرعا ، غير معروف في ذلك الحين وفي خلال تاريخ القانون الروماني . وكانت تفصيلات الاجراءات ، حتى ذلك الحين ، في أيدي لجان الكهنة وكان الجمهور يستطيع قراءة مدونة القوانين ولكن كان يحال بينه وبين معرفة تفسيرها .

(١) قبل عام ٤٥٠ كانت الوراثة دون وصية ، القاعدة وكانت الوصية تتطلب موافقة الشعب بقانون خاص وكانت خاضعة لرقابة جمعية الكهنة (pontifices) . وبعد عام ٤٥٠ ، أصبحت هذه الرقابة مجرد شكل صوري . ومرة ، كانت الملكية الجماعية دون شك سائدة في روما ، وكانت الملكية الخاصة قاصرة على رقعة صغيرة من الأرض يقوم عليها بيت المواطن ، ولكن الملكية الجماعية توارثت قبل وضع الألواح الاثني عشر بزمن طويل . وكانت القيود الوحيدة على حرية المواطن في استخدام ممتلكاته والتصرف فيها ، ثمة ضمانات صغار لحفظ حقوق الجيران وصالح المجتمع . ويذكر جبون (فصل ٤٥) أنه عند الرومان « كان الحق المجحف لتأريث أول مولود ، غير معروف » .

(٢) كان يسمح للنساء باقتناء الأملاك بمقتضى الألواح الاثني عشر . وكان قانون الدين صارما الى أبعد حد . وكانت الصورة القانونية الوحيدة للتعاقد في روما الباكرة هي nexum أو القرض (معناه الحرفي ، الرباط القاسر) . فاذا قصر المدين عن الدفع خلال ثلاثين يوما من الموعد المذكور في العقد ، كان في مكنة الدائن استخدام القوة للحصول على مطلبه دون اجراءات قانونية أخرى بالقبض على المدين وسوقه الى سجنه الخاص . وكانت الألواح الاثني عشر تنص على وجوب حجزه هناك زمنا آخر يبلغ مداه ستين يوما ، ثم اذا لم يتوصل الى اتفاق فانه كان يحضر أمام الموظف ثلاث مرات وكان يستطيع الدائن (اذا لم يتقدم طرف ثالث كنصير ، تحت مسؤوليته) ان يقتله أو يبيعه كرقيق . وفي أية لحظة سابقة كان سداد الدين يعنى اطلاق سراح المدين . وقد خففت صرامة هذا القانون في بواكير عهد الجمهورية .

ومن المعقول أن هذه المجموعة الأولى من القانون المنسور كانت تنسم بالتصلب والضيق اللذين يعبران عن تقاليد مجتمع صغير بسيط . ولقد رأت القرون التي تعاقبت تعديلها التدرجى وتوسعها حتى لم يحتفظ بند ، قبيل ختام عصر الجمهورية بعزاه الأصيل . ولكن الاثنى عشر لوحا لم تلغ قط .

وبينما استمسك الشعب الرومانى بتقاليده كما يستمسك بصخرة ، فإن ذكاه العملى ابتكر وسائل عديدة للتوفيق بين القانون القديم والحاجات المتشعبة لمجتمع يتزايد بسرعة ولايجاد انسجام بين التغيرات الأساسية فى التفصيل بنهج محافظ وثيق ، فيما يتعلق بيرات الماضى القانونى (١)

٧ - اننا نعرف القليل أو لا نعرف شيئا عن الرجال الذين وضعوا أنظمة وقانون روما على هذا النمط . لقد صاغ العمل ، ليس أفراد أولو عبقرية استثنائية ولكن الشعب . والأسماء التى تجيء فى صفحات التاريخ الرومانى الباكر هي أسماء رومانين أو ساط ، أسماء جنود مواطنين لا تتميز حياة الواحد منهم عن حياة الآخر وتكون سلسلة رتيبة ، فيما عدا حالة يظهر فيها ثم أبيوس قلوديس Appius Claudius أحد الموظفين العشرة Decemvir أو رقيب Censor على السرح .

ان التاريخ الرومانى الباكر هو سجل للقوانين والسياسة المدنية واقامة المستعمرات واتشاء الطرق العسكرية . ولا يعيننا قانليوس Canuleius أو لقينيوس Licinius ، ولكن الخطط التى تحمل أسماءهم . وعادة على هذا فان خصيصة هذه الوسائل ، لم يحددها تفكير سابق مدبر يقدر ما كان يحددها الواقع الموجود . ولم يضع الرومان قط خطة لمستورهم الذى كان ينمو على شاكلة قانونهم كلما تطلبت الفرصة . ونتيجة لهذا ، فاند بعرضى

(١) كان استخدام الأساليب القانونية الصورية استخداما طليما وسديلة شائعة للتوفيق فى القانون الرومانى والقانون الانجليزى ، وكان التبرير مثالا مبكرا وظاهرا ، وكذلك كان القبول المضمور ، الذى يلاحظ بعد ذلك ، للتعديلات التى أدخلتها على القانون اجابات علماء القانون التبريرى . كان بدعى طوال الوقت أنها تفسيرات دقيقة لدونة القوانين التقاليدية . راجع من « القانون القديم فصل ٢ » . ان الأسلوب القانونى الصورى ، « هو ابتكار طبيعى للجمع بين النهج المحافظ وتواصل التطور القانونى وبين التكرير الذى تتطلبه التجاريف الجديدة .

صورة (١) لا تشير على مذهب ، فريدة في ذاتها . ويتضح عدم وجود خطة منطقية من الوضع الذي كان الحجر الأساسى فى البناء إذ أننا نجد فى صميم نواة الحكومة الجمهورية ، السلطة imperium المطلقة التى لا تقبل قسمة فى حيازة قنصلين ، كموظفين تنفيذيين ، أعلىين متعادلين . ولصاحب النظريات السياسية ، تكون مثل هذه الثنائية فى السلطة العليا ، نذيرا أكيدا بوقوع الخطب . ولكن هذه الوسيلة التى لا يمكن تصورهما كما تظهر فى أطوار الأوراق ، سارت سيرا يدعو الى الاعجاب فى التمرس بها ، لأنها كانت وليدة التجربة ومؤسسة على الصخرة التى يقوم عليها الواقع .

لقد تعاطف طغيان عبء سلطة الموظف فى مجموعة المصالح الرومانية حتى أصبحت الحاجة لفرض الحدود على اساءة استخدامها ، أكثر إلحاحا من وضع شروط لاستخدامها دون قيد . وكانت الرقابة الثنائية اللياذ الذى يمكن اللجوء اليه لتحاىى الحكم الاستبدادى ، وقد كانت نشأتها فى عهد الجمهورية وظلت قائمة طوال خمسة قرون ، وعندما قام الدليل فى النهاية على أن لا حول لها فى مواجهة الحكام الاستبداديين العسكريين ، أعيدت فى صورة بعدلة كتنظيرة للامبراطورية الباكرا (٢) وفى هذا ، وفى كثير غيره فى خصيصة الدولة الرومانية ترد الى ذاكرتنا مزاج ومراس نضعنا نحن . ان تاريخ روما الدستورى وتاريخ انجلترا الدستورى يعرضان نفس المظاهر العريضة للتقدم التدرجى على أساس التقاليد السلالية ، والاحترام الذى لا حد له للشكل والسابقة ، ومرونة التطبيق العملى وتقيد العرف والعادة للسلطة النظرية . وظل كلاهما قائما مدى قرون فى استمرار لا انقطاع فيه ، بفضل قدرتهما على التكيف وفق الظروف المتغيرة . وكلاهما يكون مجموعة من ابتكارات غير منطقية ، وخرافات غريبة وبقايا متهالكة ، وهى الثمن السهل الذى يكون غرما عن نظم ليست من عمل شارع فرد ولكن التعبير الرضى للتجارب القومية . وينسحب التشبيه كذلك على مسلكهما فى الحرب ، كانت الحرب فى الغالب تجرد الرومانيين غير متأهبين وهو آية أكيدة على أن سياستهم لم تكن تنزع للحرب بل للسلم . وكانوا فى جميع الحالات تقريبا ، يلاقون صدمات جساما فى مراحل القتال الأولى ولكن يخرجون دائما مظفرين فى

(١) يذكر بليريبوس (٦ ، ١١) كيفة ، صاغ الرومان دستورهم ليس وفقا لنظرية ، ولكن عن طريق الكثير من المشاحنات والأزمات العملية ، وكانوا يختارون أقوم سبيل فى كل موقف فور حدوثه . وفى (٦ ، ٤٣) يقابل عظمة روما بعظمة أثينا فى أن الأولى كانت ترجع أصلا الى طراز دستورها أما الأخرى فالى عبقرية الأفراد .

(٢) راجع المجلد الأول فصل ٨ § ٧ فى الرقابة الثنائية للزعماة principes ومجلس الشيوخ فى مشروع أوغسطس لاعادة التنظيم .

الحنام • وكانوا يتلقون دروسهم خلال الصراع وما كانوا قط ليرضخوا للهزيمة وسنأتي فيما بعد على ذكر التشابه بين المناهج التي كانت روما وبريطانيا يكيان بها مبادئهما في الحكومة حتى نحقق المطالب المتغيرة لامبراطورية فسيحة. وكانت مهمة كل منهما حراسة العالم داخل نطاق نفوذها وكان الهادى لها فى منح الحقوق وفى المحافظة على السلام على السواء ، دوافع المنفعة وليس الخيال • لكن بالرغم من أوجه التشابه هذه ، الظاهرة ، فإنه يوجد اختلاف واحد عظيم فى حياة الشعبين ، الدستورية • فبينما فى انجلترا ينحصر ،ركز التقل السياسى فى البرلمان فان مثيله فى روما كان يوجد ، ليس فى التشريع • ولكن فى السلطة التنفيذية • ولقد قال ادموند بيرك Edmund Burke « ان المباريات العظيمة لأجل الحرية فى هذا البلد ، كانت منذ أقدم العهود ، على الأخص عن مسألة فرض الضرائب وأغلب المباريات فى مجموعة مصالح الأمم القديمة كانت تدور - أصلا - على حق انتخاب الحكام أو عن توازن طبقات الدولة ، العديدة • ولم يكن موضوع المال لديهم يمثل هذا الالحاح » (١) •

والتاريخ الانجليزى السياسى يزخر بموضوعات مثل حق التاج فى فرض ضريبة على المراكب وحق البرلمان فى فرض ضريبة على أمريكا أو حق مجلس اللوردات فى رفض الميزانية • وفى روما الباكرا لم يكن لموضوع فرض الضرائب وجود • وهناك كان الصراع كله من أجل الحرية يهدف الى تحديد سلطة imperium الموظف الأول •

٣ - توسع روما

٨ - ان العملية النسقية فى توسع روما تقع فى ثلاثة عصور (أ) فتح شبه الجزيرة الايطالية (ب) الصراع مع قرطاجنة للسيادة على البحر المتوسط الغربى و (ج) الاستحواذ على سيادة مماثلة على الشرق الهليني •

(١) خطاب عن الصلح مع أمريكا • فى روما ، لم تكن توجد ضريبة مباشرة وكانت توجد ضريبة غير مباشرة ، يسيرة • • وبعد ذلك كانت الأقاليم تدفع جزية ثابتة (stipendium) للخرينة الرومانية • وكانت الانصبية تدفع الى موظفى المالية quaestors جباة الضرائب فى الأقاليم أو (كما فى صقلية و الشرق) تجبى بنظام يجلب الكسب الوفير للراسماليين الرومان •

١ - توسع روما في إيطاليا : (١)

ان الفترة (٤٥٠ - ٢٧٠) التي طالعت نهوض روما لتكون سيادة إيطاليا كانت تتفق في الزمن مع المساحات السياسية التي انتهت بصدور القانون الهرتسنوسى Hortensia (٢٨٧) ولمدة قرن ونصف قرن بعد ابعاد الملوك ، شنت روما حروبا لا تنقطع على جيرانها الأقربين . وفى الخمسين سنة الأولى من الصراع ، كان وجودها ذاته كدولة مدنية مستقلة ، مهددا بالزوال كل سنة ، على التقريب وبدأت روما بعد عام ٤٥٠ نسير قدما الى الامام وقبيل عام ٣٥٠ دانت لها السيادة على اتروريا الجنوبية وسهل لانيوم وحتى هجوم الغالين المظفر وتدميرهم المدينة عام (٣٩٠) أوقف فقط ، لعدد قليل من السنين نسير تقدمها المنتظم . وعندما استقر أمرها فى لانيوم زال الحلف اللاتينى القديم عن الوجود الا فى الرسميات المدنية فقد عاون روما فى هاتيك الأيام الباكرة عدم وجود أى شعور قوى بالوحدة بين أعدائها الايطاليين . وانا نجد أثرا يسيرا لوعى ايطالى مشترك يمكن مقابلته بذلك الذى نجم عنه فى الاغريق الباكرة أحلاف مدن والألعاب الالومسية . لقد قام دون ريب فى تاريخ لاحق ولكنه فقط بعد أن أدمجت إيطاليا سياسيا فى الدولة الرومانية ، وقد ترتب على غزو لانيوم أن أصبح لروما أواصر مباشرة بالمدن الاغريقية على الساحل القمبانيوى وبذلك دخلت فى صراع مع القبائل الجبلية القوية فى إيطاليا الوسطى . وبرزت روما كصير للنظام والتجارة والثقافة الهلينية ضد عصابات السلب والنهب التى وجدت ميدان تصيد هانئا بين الاغريق أول السراء الذين لاينزعون الى الحرب ، وأعقب ذلك الكفاح الطويل الشاق مع السامنيين (٣٤٣ - ٢٩٠) الذى ترك روما الدولة الوحيدة التى تمتد صوب الشمال حتى سفح الابنين وصوب الشرق حتى شواطئ الادرياتيک وأخيرا فى بواكير القرن الثالث أحضر فورهمس Pyrrhus ملك ابيروس Epirus أول قائد نى عصره ، محاربيه من سكان الهضاب وفيلته عبر البحر بحجة حماية اغريق طرنظم Tarentum من تقدم روما صوب الجنوب . ولما كان جنديا بالمهنة من مدرسة الاسكندر فقد كانت تراوده أحلام جامحة فى أن يحقق فى الغرب انتصارات شبيهة بانتصارات الاسكندر فى الشرق ، ولكن كان ينقصه أرب الاسكندر السياسى ، وبرهنت روما وهى دولة حرة موحدة على أنها خصم من نوع يختلف اختلافا بعيدا عن فارس .

(١) كانت إيطاليا ، عند رومان الجمهورية ، تحد شمالا ليس بجبال الألب ولكن بالابنين وكان يطلق على المنطقة الواقعة بين الابنين والألب Cisalpine Gaul أى الغال على هذا الجانب من الألب . وكان يسكنها كلتيون بنتمون بالقرابة الى القبائل التى كانت تستوطن Transalpine Gaul أى الغال على الجانب الأبعد من الألب فرنسا وبلجيكا الحاليين .

وعندما فشل فورهس ، وقع اغريق الجنوب فريسة سهلة للكنايب الرومانية واصبحت روما تحكم دون منازع من سهل لومبارديا الى مضايق مسينا .

٩ - والقول ان « روما لم تبين في يوم » ، يصدق ليس فقط على خصيصة وانظمة المدينة ذات السيادة ولكن على امبراطوريتها العالمية أيضا واستغرقت هذه الجهود الأولى للسيادة في ايطاليا مدة تبلغ في مداها ضعف المدة التي تمكنت فيها من الاستيلاء على منطقة البحر المتوسط بأجمعها . ويمكن أن نفتى فيها المناهج التي تمكنت بها بعد ذلك من السيطرة على العالم وحكمه . انا نلاحظ أولا ، كفاءة تنظيمها العسكري . ولقد أبدى أحد الكتاب اللاتين الراى بأن الكنايب كانت الهاما من اله (١) . وكانت تجمع بين ثقل صفوف المشاة المتراصة المتقاربة Phalanx المقدونية والتفوق في الحركة كما قام عليه الدليل في الحرب ضد فورهس . وفي التسليح ومناهج القتال كان الرومان ايدا على استعداد لأن يتعلموا من أعدائهم وكانت الهزيمة اشارة بالقيام بالاصلاح الذى كان يعاونهم على الخروج من الحرب وقد عقد لهم لواء النصر . وعلى هذا فقد استعاروا الرمح الثقيل من السامنيين كما تعلموا بعد ذلك تشييد السفن الحربية العظيمة من القرطاجنيين وفى نهاية الحرب الفونية الثانية ، أوقفوا الهزيمة بهنيبال بالخيالة التي كانت الأداة التي استخدمها في انتصاراته الأولى . وعلى غرار الانجليز فانهم كانوا يقومون بحروبهم وقد أخذ منهم التخييط "Muddled through" وهي عبارة عامية تشير الى انتصار المثابرة السلالية والقدرة على استخدام الهزيمة كوسيلة الى النصر وكان أيضا يحدوهم التواضع فيما يتصل بسبب انتصاراتهم وكانوا ينسبونهم الى « حفن الشعب الرومانى » . وما له أعظم وقع فى النفس هو الوثوق من الذات الذى لا يعتريه وهن . لم تعقد روما قط، صلحا بينما كان يوجد على التربة الرومانية فرد من الأعداء . انها غلطة عظيمة أن نطن بأن الرومان كانوا شعبا يجنح الى العدوان ، يحدوهم الميل الى اخضاع ايطاليا أولا ثم بعد ذلك العالم . ان أعظم من هذا صدقا القول ان حروبهم جاءتهم بما لا معدى عنه فى ترتيب الأمور . وفى كل مرحلة فى تاريخهم كانوا يواجهون بالاحتمالين ، السير الى الأمام او النكوص الى الخلف . ولم تنكص روما الى الخلف بناتا ولما كان يتألب عليها جيران يسودهم الشغب فقد أوقعتها مهمة حراسة تخومها ، فى حرب دائمة وكان معنى الحرب على مدى الزمن ، توسيع الامبراطورية

(١) واغيطيس Vegetius ، كما اقتبس عنه منتسكيو فصل ٢ . وفى واقع الأمر ، شككت ولكن بتحسينات ، طبقا لتنظيم الاغريق العسكري . وعن تنظيم الكتيبة وتفوقها على المشاة المتراصة ثقيلة التسليح ، phalanx راجع بلوبيوس : ١٨ ، ١١ - ١٥ .

وكانت مجبرة على التدخل لكي تهدى النيران وكان يترتب على التدخل الاحتلال فى النهاية .

وكانت توجد فلسفة كلية فى سياسة روما وكان الهادى لسياستها دائما مبدا المصلحة الذاتية ولكنها لم تتعطش قط الى الفتح ، وقصة امبراطوريتها هى أن تجد هوية المصلحة الذاتية فى دعوى القانون والنظام والمدنية .

١٠ - ويوضح تاريخ توسع روما فى ايطاليا بطريقة أكثر استدعاء للنظر عبقريتها فى الادارة المتناصلة ، وفى كل مرحلة كانت تلاحم فتوحاتها بمتاريس من حديد من الطرق العسكرية والمستعمرات . والقول « ان كل الطرق تؤدى الى روما ، صدق ، ليس فقط فى مجال استعارة الطرق العامة للمدنية ولكن حرفيا بالنسبة لطرق المرور العظيمة التى كانت تشع من روما أولا عبر لاتيوم و اتروريا الجنوبية ثم فى ايطاليا وأخيرا فى أقطار منطقة البحر المتوسط (١) . ولم تكن المستعمرة الرومانية على غرار المستعمرة الاغريقية دولة - مدينة مستقلة ولكن مستعمرة عسكرية للجنود الزراع فى وسط أعداء مغلوبين . وطالما ظلت هذه المستعمرات باقية على اخلاصها فقد يحتمل أن تقع الهزيمة بالكثائب الرومانية فى الميدان ولكن الدولة الرومانية تظل ثابتة الدعائم . وفى معاملتها للمهزومين كان المبدأ الرومانى فرق واحكم (divide et impera) . ولم يكن يتسامح فى قيام أية رابطة من التكتاف - فى الا زمن الأولى حتى فى حقوق التجارة والنزواج - بين المجتمعات الخاضعة . وقد حلت الاتحادات القديمة فى كل مكان . ولقد حافظت روما على هذا

(١) كانت أقدم هذه الطرق فى ايطاليا ، طريق أيبيا Via Appia وقد بدأها أبىؤس قلوديس Appius Claudius الرقيب ، عام ٣١٢ . وكانت تسير عبر لاتيوم فى خط مستقيم الى الساحل . ثم أكملت بعد ذلك مجتازة سمنيوم Samnium بجوار بنيونظم Beneventum الى ونوسيا Venusia (فى أفوليا Apulia) وبرنديزيم Brundisium (برنديزى الحالية) . وكانت طريق لاطينا Via Latina تسير أبعد الى المداخل ، من روما الى قفوا Capua وطريق افلامنيا Via Flaminia صوب الشمال عبر الأبنين الى أريمينيم Ariminum (ريمينى) على الأدرياتيك ومدت عام ١٨٧ الى افلاقنطيا Placentia (فيا قنزا) على البحر باسم طريق أميليا Via Aemilia . وفى القرن الثانى أنشئت طريق دماتيا Domatia بمحاذاة خليج ليون Golfe du Lion لربط روما بأسبانيا وطريق اغناطيا Via Egnatia عبر شبه جزيرة البلقان من دوراشيوم Dyrrachium (دورازو) الى تسالونيقا Thessalonica (سالونيكاً) والسينطس .

المبدأ الأصلي دون أن تشوبه شائبة ، خلال تاريخها . ونفس التوجس من الجمعيات الخاضعة الذي أدى بها إلى إلغاء الحلف اللاتيني ، كان في عهد الامبراطورية الدافع لها على إلغاء فرقة مطائفي محلية في نقومدية Nicomedia^(١) . وعلى اضطهادها الكنيسة المسيحية كطائفة غير مصرح بها ومن الجهة الأخرى . كانت كل المجتمعات الإيطالية على السواء تربطها مع روما أوامر تختلف قوتها . ومنذ ذلك الحين كانت إيطاليا تكون دولة واحدة تحت السيادة الرومانية . وكان الحرب والسلام والعلاقات الخارجية والعملية من شأن المدينة الحاكمة ، القاصر عليها . وأما ما خلا ذلك فكانت توجد تفرقة بين الأراضي التي تديرها روما مباشرة وتلك التي يستوطنها « أصدقاؤها وحلفاؤها الإيطاليون » على شبه تلك الموجودة في الهند اليوم بين الولايات الوطنية والأقاليم التي يحكمها الموظفون المدنيون البريطانيون ، وكانت تشمل الأولى ثلث إيطاليا تقريبا ، بما فيها روما والمستعمرات التي تضم المواطنين الرومان ذوي الحقوق الكاملة وبلدانا أخرى لها حقوق المواطنين الكاملة أو الجزئية (municipia) وهذه المستعمرات والبلدان municipia كانت تستمتع بقسط وافر من الحكم الذاتي ولو أن روما احتفظت بحق التدخل وكان يرسل الرؤساء perfects سنويا من العاصمة للقيام على القضاء .

ومن بين « الحلفاء » الإيطاليين من الجهة الأخرى ، كانت تحتل المستعمرات « اللاتينية » مكانة ممتازة ولها كامل الحقوق في التجارة والتزاوج مع المواطنين الرومان . وحتى منتصف القرن الثالث ، احتفظ سكان المستعمرات بحق استعادة صفة المواطنين الرومان في حالة عودتهم إلى العاصمة ولكن جمهرة « الحلفاء » كان يحدد مركزهم معاهدة خاصة ففي حالة المدن الهلينية كانت الشروط على وجه عام سمحة ، بينما هوت المجتمعات الأخرى في المناطق الأقل تمدينا ، إلى عبودية مفترضة وكان الكل عرضة للخدمة مع الجيش الروماني في الميدان^(٢) . ولا يمكن أن يقول مثال أوضح بيانا عن مرونة المذهب

(١) راجع خطابات بلني إلى الامبراطور طريان (بواكير القرن الثماني الميلادي) الكتاب ١٠ الرسالتين ٣٣ و ٣٤ (فرقة الحسراتق) و ٩٦ و ٩٧ (المسيحيين) .

(٢) ان التقسيم إلى مواطنين (صفة تامة وصفة جزئية) وحلفاء يرجع تاريخه إلى القرن الرابع . وصفة المواطن الجزئية كان معناها استحواذة على الحقوق الخاصة دون العامة . وكانت الحقوق الخاصة المنوّه عنها ، حقوق التجارة والتزاوج أما العامة فكانت حق التصويت والأهلية للوظائف . وقد منحت الحقوق اللاتينية إلى المجتمعات خارج لاتيوم في إيطاليا (وبعد ذلك) في الأقاليم وكان للحلفاء حكم ذاتي فيما يتصل بالحكومة المحلية وكانوا خارج دائرة التشريع الروماني والحكومة التنفيذية .

الادارى الرومانى وقدرته على التكيف مع الأحوال المحلية المتغيرة من الصورة التى يستعرضها حكمهم فى إيطاليا فى الفترة التى تقع بين الفزو الغالى (٣٩٠) ونشوب أول حرب فونوية (٢٦٤) .

ب - الحروب مع قرطاجنة :

١١ - تدور القصة كيف أن فورسس هتف عند تركه المدن الاغريقية فى إيطاليا الجنوبية الى مصيرها « يا له من ميدان قتال ذاك الذى نخلفه للرومان والقرطاجنيين » . ولعدة قرون كان الاغريق الصقليون يكافحون ضد قرطاجنة من أجل جزيرتهم والآن أصبح لا يفصل صقلية عن روما سوى المضائق الضيقة . وكانت سيادة القرطاجنيين فى البحار الغربية حتى ذلك الحين ، لا يوجد من يتحداها ولو أن روما كانت قد بدأت فى حراسة ساحل إيطاليا بأسطولها ومنذ القرن السادس كانت تمارس التجارة مع صقلية وسردينيا وقرطاجنة وأصبح لها المام تام بالعادات الهلينية والفينيقية . وكان الصراع بين الدولتين الغربيتين العظيمةتين ، اعظم صراع مروع فى التاريخ القديم وقد بدأ فى عام ٢٦٤ واستمر ، مع انقطاع عشرين عاما لكى يتمكن المحاربون من استرداد قوتهم (٢٤١ - ٢١٩) ، حتى الانتصار النهائى الذى حازه اسقفيون على هنيبال فى زاما ، عام ٢٠٢ . ويقع خارج مجالنا الاستطالة فى الحديث عن تاريخه . وقد اكسبت الحرب الفونوية (الفينيقية) الأولى (٢٦٤ - ٢٤١) روما أول اقاليمها ، صقلية وسردينيا وقرسيقا والسيطرة البحرية على البحر المتوسط الغربى . وفى الفترة التالية ، أخضعت الغالبين بين الابنين الشمالية واللب . واختتمت الحرب الثانية (٢١٩ - ٢٠١) ، التى جعلها غزو هنيبال العظيم لإيطاليا باقية الذكر على الدوام ، بفتح اصبانيا والنزول بقرطاجنة الى منزلة ولاية مقطعة . ولم يحدث فى تاريخها الطويل أن تجلت للعيان البطولة فى حب الوطن التى نهض بها الرومان أكثر مما كان فى الساعات الحوالك ، عندما كانت شرآذم الكتائب المحطمة تلم شعثها فى استبسال حول المغير . وعندما اقترب القنصل وارو Varro من المدينة بعد نكبة كاناي Cannae (٢١٦) المروعة - فان أعضاء مجلس الشيوخ - أعداء السياسيين تقدموا لمقابلته حاملين له الشكر لأنه لم ييأس من الجمهورية . وبعد ذلك بأعوام قليلة عندما اقترب هنيبال من أبواب روما ، بيعت الأرض التى كان معسكره مقاما عليها فى المدينة بثمانها الكامل فى السوق ، فى زمن السلم . والمغزى الأديبى لنتيجة هذا الصراع التاريخى واضح كالشمس فى رابعة النهار . ان حكومة قلة تجارية - كالبندقية فى زمن متأخر ، تملكها الغيرة من عظماء مواطنيها وتعتمد على الجنود المرتزقة - لا يمكن أن تغلب بالسلاح على

جمهورية حرة (١) . ولم تكن عبقرية أعظم القادة العسكريين مجددية في تقويض بنيان المستعمرات الرومانية المتين . ولما تفررت النتيجة تصيدت روما عدوها وأردته موارد الهلاك في قسوة لا رحمة فيها فانترزعت أولا المنفى (٢) ثم قتل هنيبال ، الفرد الوحيد الذى عن لها اطلاقا ، أن ترهب جانبه ، واخيرا عندما نهضت قرطاجنة بعد نصف قرن من حشرجة موتها ، فى جهد بالغ لاستعادة حريتها فانها بعد مقاومة باسلة ، سويت بالأرض (١٤٧) .

(ج) فتح الشرق

١٢ - خرجت روما من هذا الصراع الهائل وهى سيدة الغرب ، دون منازع . ومنذ ذلك الحين كان المشكل الذى واجهها فى هذه الناحية مشكل التوطيد والحكم . وسنعود فى الفصل التالى الى الوسيلة التى أنجزت بها رسالتها كعامل فى بسط المدنية على اسبانيا وأفريقيا والغال الجنوبية ، ولكن قبل أن تضع يدها على هذه المهمة الجديدة ، وجدت نفسها وقد اشتبك قهرا بسياسة الشرق الهليني . ولم يكن مزاج الحطينة hubris هو الذى دعاها الى التدخل ، ولكن منطق الوقائع الصارم . ولم تكن ، وقد أنهكتها حروب هنيبال وأصبحت تنوء تحت عبء الأقاليم الغربية ، فى حالة تسمح لها بالشروع فى مغامرات جدد ، لم يكن بالمستطاع التنبؤ بنتائجها . وكانت المطامع العسكرية التى تحدد ملوك مقدونيا وآسيا ، الاغريق تجبرها على العمل . والدولة التى لها السلطان فى ايطاليا ما كانت بمسئطعة فى ذلك الحين ، أكثر من استطاعتها الآن ، أن تعين سير الحوادث فى شبه جزيرة البلقان دون مبالاة ، وكدولة تجارية عظيمة ، كان على روما أن تحافظ على السلام فى البحار المحيطة ، ولقد حاربت جنود مقدونيون فى جانب هنيبال، وكان أنطيوخس الثالث (العظيم) من أسرة سليوكس يهدد استقلاله حلفاء روما ، أثينا وروودس وفرغامس ، وكانت النتيجة سريعة ومجتاحة . ولقد سحقت مقدونيا فى عام ١٩٧ وأنطيوخس فى آسيا ، عام ١٩٠ . أما امبراطورية سليوكس ، وقد قطعت روما أوصالها فى الغرب ، ودولة بارتيا الناهضة فى الشرق ، فقد هوت بعد معركة مغنسيا (١٩٢) لتكون ولاية سوريا الصغيرة التابعة . وعلى ذلك ، وفى عشية أو ضحاها أصبحت هيادة أقاليم البحر المتوسط الشرقية فى قبضة روما . ولقد أبدى مونتسكيو

(١) يقر فلوبيس (٥٢،٦) أن تفوق الرومانيين العسكري على القرطاجنيين كان تفوق الجنود - المواطنين الذين تحفزهم الروح الوطنية على المرتزقة وهو يذكر أيضا (٣ ، ١١٨) أن الرومان أنقذتهم بعد كاناي «خصيصة تنظيمهم السياسى التى تتميز عن غيرها وتفوقهم فى تدبير الراى » وينسب توسع امبراطوريتهم السريع الى نفس السببين .

(٢) بلوبيوس - راجع صفحة ٢٧٤ تذكرة (١) - المترجم

ملاحظة مفادها أنه بعد سقوط القرطاجنيين ، حاربت روما حروبا صغيرة فقط ، وكسبت انتصارات عظيمة ، بينما قبل ذلك ، كسبت انتصارات صغيرة وحاربت حروبا عظيمة (١) ، واننا نلاحظ في قصة توسعها الشرقي ، الرائعة ، ثلاث حقائق بارزة أولا تظهر روما في كل مرحلة كنصير للنظام والشرطي الوحيد العامل في خضم العالم الهليني المضطرب اضطرابا مؤلما . وعلى ذلك فقد تحالفت باستمرار مع الدول التجارية المسالمة مثل مصر ورودرس وفرغامس . ثانيا كان يلهم مياستها حماس صادق للهلينية ، وسنتحدث فيما بعد عن تأثير الثقافة الاغريقية التي تنزع الى التغلغل ، في هذا العصر في حياة ومزاج القادة من المواطنين الرومانيين ولقد تجلى مثلهم الأعلى في المشهد الفاجعي الذي أعقب الانتصار على مقدونيا عندما أعلن فلامينيوس Flaminius على الاغريق المجتمعين عند برزخ كورنث أنهم منذ ذلك الحين أحرار ، وربما كان ليتنبأ مقدما نصير للهلينية أقل تحمسا بالنتيجة . لقد التهب سعي الفوضى ، في شبه الجزيرة كلها طوال نصف قرن الى أن اضطرت روما الى ضمها . وثالثا يظهر في أعظم جلاء اعراض الحكومة الرومانية عن توسيع حدود امبراطورتها خلال هذا العصر . ان سياستهم في مقدونيا تقدم المثال لذلك . لقد أيدوا بعد انتصارهم الأول (١٩٧) الملك المهزوم كأمر غير مستقل تحت السيادة الرومانية . وعندما أثار خلفه بعد ذلك بعشرين سنة حربا ثانية خلع وقسمت أملاكه بين أربع سلطات محلية . وفقط - عندما فشلت هذه التجربة - جعل القطر اقليما رومانيا (١٤٦) . وفي آسيا ، لم تأخذ روما شيئا لنفسها ، وقد وكلت الاقاليم التي انتزعت من أنطيوخس الى امراء وكلاء والى خلفائهم الهلنيين . ويمكننا أن نوازن الأساليب المشابهة التي تذرعت بها الحكومة البريطانية في الهند في تأجيل ضم البنجاب من وقت الى آخر .

١٣ - ولو كانت غايتنا وضع تاريخ لروما لكان من اللازم أن نتبع مرحلة بعد مرحلة حوادث هذه المناوشات بالتفصيل وأن نتبين في كل

(١) Gr. 'et déc. فصل ٥ : لقد أثرت السرعة التي استحوذت بها روما على سيادة العالم تأثيرا عميقا في معاصريها . ومنهم ، مثلا ، المؤرخ الاغريقي فلوبيس الذي كان الهدف من مؤلفه هو أن يوضح « بأية خطوات وبأي دستور انضوى العالم بأجمعه تحت حكم روما الوحد في غضون ثلاث وخمسين سنة » (١ ، ١) - ٥ ، بين نشوب الحرب الفونية الثانية (٢١٩) وتقسيم دنانيا (١٦٧) . وهو يذكر أيضا (١ و ٣) كيف أنه في نصف القرن ذلك ، تقابلت تيارات الطواغيت في الشرق والغرب ، المنهزلة ، لتكون مجرى وحدها في الامبراطورية الرومانية وأصبح لتاريخ منطلق البحر المتوسط ، لأول مرة ، وسادة عظيمة .

مرحلة متعاقبة ، تأثيرها المستمر على تكوين حكومتها الداخلية ، فعلى سبيل المثال ، كان ضغط الحرب على أبوابها هو الذى أتى بالنفع على العامة الذين كانوا السلسلة الفقارية للجيش فى كفاحهم مع الأرسطقراطية الأشراف ، وكذلك كان لادماج الشعوب الايطالية وشعوب البحر المتوسط داخل دائرة السيادة الرومانية كما سنرى فيما بعد ، نتائج بعيدة الشأو على مذهبها الإدارى والقانونى . ولكن اهتمامنا الحالى بقصة تكوين الامبراطورية الرومانية لا ينصب على العملية النسقية أكثر مما ينصب على النتائج (١) . وهذه يمكن تلخيصها فى عبارة : قبيل منتصف القرن الثانى ، توطد حكم روما فى أعم خصائصه الجهورية ، على عالم البحر المتوسط ، وفى الغرب كانت تحكم حكما مباشرا أقاليم صقلية وسردينيا وكورسيكا والغال جنوب الألب واسبانيا الدانية والقاصية وأفريقيا . وفى عام ١٢١ أدمجت الأراضى الساحلية الواقعة بين الألب والبرانس فى إقليم الغال النربونزية ، الذى عرفت بأسم « بورفانس » فى زمن لاحق . وفى الشرق كان يوجد فقط اقليمان : مقدونيا مع أخايا « اليونان » ، وآسيا - أى المنطقة الغربية من آسيا الصغرى - التى أرثها للدولة الرومانية عام ١٣٣ آخر أمير اغريقى لفرغامس . والى ما يوالى حدود هذه الأقاليم ، كانت توجد سلسلة من الدويلات مثل نومديا Numidia فى أفريقيا ومصر وسوريا (بقية المملكة السلوقية) ولايات صغرى عديدة تحكمها داخليا حكوماتها الخاصة ولكن تسيطر عليها روما فى جميع ما يتصل بعلاقاتها الخارجية . وكانت اقامة هذه الولايات العميلة ، تحت السيادة الرومانية مظهرا أصليا للسياسة الرومانية فى عهد الجمهورية المتأخرة والامبراطورية الباكرا . وكانت تقوم كولايات حاجزة بين روما ودول من أمثال بارثيا ، ووفرت أقال الاحتلال العسكرى والحكومة ونمت انتشار المدنية خارج تخوم الأقاليم . وطالع القرن التالى تهذيب المذهب الامبراطورى بتكوين أقاليم جديدة ولايات تابعة واصلاح الإدارة الداخلية وقرار التخوم الدائمة للامبراطورية . وفى الزمن الذى وصلنا اليه ، كانت وظيفة روما فى تاريخ العالم قد تحددت معالمها . وكانت تلك الوظيفة مزدوجة وفقا لاختلاف الأحوال التى تواجهها فى الغرب والشرق . وفى الغرب ، كانت رسالتها أن توطد دعائم القانون والمدنية بين الشعوب الهمجية والشبيهة بالهمجية . أما فى الشرق ، من الجهة الأخرى ،

(١) ليست شخصية اسقفىون أفريقانس أو أعماله الباهرة هى التى يعتد بها فى التاريخ ، ولكن النفع الذى حققته روما من فتحه اسبانيا . لقد أطاح هنيبال بفلامنيوس وكتائبه بالقرب من بحيرة اطراسمين ، ولكن اسم ضعيفه لا يزال باقيا كمنشئ للطريق العام الذى عبرت به الجيوش الرومانية الأبنين الى وادى البو وسفوح الألب .

فقد وجدت مدينة قائمة تتفوق الى شواطئ بعيد على مدينتها ، وهناك كانت مهمتها ليس الحلق وانما المحافظة ، أن تنقذ من الفوضى والدمار ببيان الثقافة الهلينية وأن تسير فى النهوض بعمل الاسكندر وخلفائه ببث تلك الثقافة فى شعوب الشرق الأوسط والأدنى .

روما فى القرن الثانى

١ - روما والهلينية :

١٤ - ان قدرة روما على النهوض الى قمة مسئوليتها كانت تعتمد أصلا على خليقة لفيف مواطنيها . وقد تألف فيض الثروة بذبوع الثقافة الهلينية خلال حقبة الحروب العظيمة لايجاد ثورة عميقة فى حياة المجتمع الرومانى الخلقية والاقتصادية . والى زمن الحروب الفونيه ، كانت روما فقيرة نسبيا ، وكان يسود المواطنين مقدار من المساواة الحقيقية . والآن ، وجدت نفسها على حين غرة تقريبا غنية ومركزا لتجارة البحر المتوسط وأسواق الشرق والغرب تحت أقدام تجارها وموليتها .

وكانت النتيجة جلية فى قيام طبقة من الأثرياء الذين جعل لهم ثراؤهم نفوذا فى روما وفى الأقاليم ، وفى ازدياد الترف بين أرسقراطية مجلس الشيوخ ، ذلك الترف الذى حاول عبثا الموظفون المحافظون من أمثال كاتو Cato الرقيب ، أن يضعوا حدا له ، وفى عادة المضاربات المالية ، وفى ظهور ضياع الأرض العظيمة وتدهور الزراع من صغار الملاك واستيراد العمال العبيد على نطاق واسع من الشرق ، ولم يمكن للزراعة فى إيطاليا أن تنافس الحنطة المستوردة من بلدان ما وراء البحار . وكانت النتائج السياسية والنتائج الخلقية متعادلتين فى خطورتها ، وفى الأزمنة الأولى من التوسع فى البحر المتوسط أثار الإداريون والتجار الرومانيون الدهش ، بسبب بساطتهم وحياة الأمانة الصارمة ، فى عالم تعود على الفساد الفونى (الفنىقى) والهلينى . ولكن فى النصف الأول من القرن الثانى كان يمكن لكاتو أن يجار بالشكوى من أن ذاك الذى يسرق من مواطن حر يقضى أيامه مكبلا بالقيود . ولكن من يسرق من المجتمع يقضيتها وهو يرفل فى الذهب والأرجوان (١) . وقد خضعت ملونة قوانين الأخلاق القسبية بسرعة الى

(١) راجع ميسن الكتاب ٣ ، فصل ٢ . تزعم كاتو (قنصل ١٩٥ و رقيب ١٨٤) ، وهو من قدامى الجنود فى الحرب الهنيبالية ، وادارى قدير لاسبانيا ، المعارضة المحافظة للتأثيرات الجدد . ويعقد فلوبيس (٦ و ٥٦) وكان بالذات وطنيا اغريقيا ، موازنة بين أمانة الموظف الرومانى فى النصف الأول من القرن الثانى وبين فساد الاغريقى : « ان أولئك الذين فى أيديهم

الأحوال التي تغيرت، وفشا الجمول والعجز بين الطبقة الحاكمة ، بينما كان الأشراف يعيشون في أبهة على أسلاب المقاطعات واستخدم جباة الضرائب من الزراع والمتعهدون ثراهم في انشاء قوة جديدة منافسة في السياسة ، وتدهورت الجماهير التي أملت بها الفاقة والتي اكتظت بها الحاضرة ، الى طبقة عمال من الكسالى والمؤثرين للمتعة .

وكانت تحمل هذه التغيرات في الحياة الاجتماعية والأخلاق التي نجمت عن نهوض روما السريع الى دولة ذات سيادة ، نتائج تنذر بالشر ، ليس فقط على سياستها الامبراطورية ، ولكن على الاستقرار الداخلي للدولة . وكان أكثر نفاذا وله أثر بعيد المدى ، نتائج تمثيلها الهلينية .

١٥ - لقد كان في قمرانيا Campania في القرن الرابع أن روما اتصلت لأول مرة اتصالا دائما بالمدينة الاغريقية وما وقع من أنها استهلكت تاريخها كدولة - مدينة بأنظمة شبيهة بأنظمة دول - المدينة في اليونان ، كان حلقة اتصال سرعان ما تبينها الرومان والاغريق على السواء . وعندما ظهر الرومان في عام ٢٢٩ للمرة الأولى على شواطئ الادرياتيک الشرقية ، سمح لهم في الحال بالعضوية في الألعاب الهلينية ولم ينظر لهم الاغريق قط على أنهم « همج » . وردا على هذا فان الحكومة الرومانية والأفراد من الرومانيين ، مثل فلانيوس Flaminius اتخذوا في شغف وجهة موالية للهلينية في السياحة الخارجية . وقد شوهدت ثمار هذه القرابة ، الأكثر توثقا ، في غضون القرن الثالث في الوازع الذي أثارته اليونان في الأدب اللاتيني . لقد كان شعر روما الوطني والترانيم والقصيد الغنائي والملمهة الريفية ، خشنة في الصورة والمادة . وكان للشعراء القليل من الاعتبار ، ولا يوجد أساس سليم لما ذهب اليه ماكولي Macaulay من أن المشاحنات السياسية البواكر ألهمت بأدب يزخر بالقصيد الغنائي .

لقد كانت بدايات الشعر الروماني في الترجمات ومحاكاة عيون المؤلفات الاغريقية واستلهموا صيغ أوزان شعرية ترجع الى أصل اغريقي وخاصة الملحمة ذات الست مقاطع^(١) . ولكن يكون من الخطأ الظن بأن الشعراء

تصريف الأموال، العامة من الهلنيين ، حتى لو كان المبلغ مجرد « وزنة » يستخدمون عشرة محاسنين وعشرة أختام وضعف هذا العدد من الشهود ، ومع هذا لا يمكنهم أن يكونوا أمناء على ما عهد اليهم . بينما بين الرومان ، يراعى الرجال الذين يتسلحون ببالغ جسامة كالموظفين والسفراء التزاماتهم ، بضممان قسم بسيط .

(١) كان أقدم شمس من روماني في وزن يطلق عليه Saturnian

يمثله البيت الانجليزي الاتي :

"The Queen was in her parlour eating bread and honey."

الرومان ، فى اتباع النماذج الاغريقية ، كانوا معاكين لأساتذتهم محاكاة عبيد فلقد نفثوا فى أعصالهم ، روح روما . ولقد عبر انيسوس Ennius الذى كان معاصرا للحرب الفونيه النانية ، واتخذ ذلك الصراع التاريخي موضوعا للمحتة ، عن صفات الحد ونشاط الرجولة والكبرياء القيصرى والدكاء السياسى مما كانت تتميز به الخليقة الرومانية . ويصدق هذا القول على مسلاة الأخلاق اللاتينية فى القرن الثانى . وقد أمكن تكييف النماذج الاغريقية للتببير عن مصالح روما وحياتها الاجتماعية .

وكان هناك أسلوب خاص من الشعر يعتبر خصيصة ملازمة للأدب الرومانى وهو « التهكمى » أو الخليط "Satura" وكان أول واضعه لوكليوس Lucilius فى منتصف القرن الثانى ، وكان يصور فى أبيات من ستة مقاطع ، مشاعدا من الحياة الاجتماعية يتناثر فيها النقد الأدبى والسياسى والسيرة التى يضعها الانسان عن نفسه والمغامرة الشخصية وتواصل الأصدقاء . وقد اظهر الكتاب الرومان اشراقا خاصا وروعة فى هذا اللون من الشعر وفى عبارة ناقد حديث . لم يكن هوريس Horace وحده أو كل أصحاب الشعر التهكمى بعده ينتمون الى مدرسة لوكليوس ، ولكن مونتاني Montaigne وبس Pepys أيضا (١) . وكان مولد أدب النثر اللاتينى فى هذه الحقبة ذاتها . ان مصالحي الرومان العملية هدتهم منذ زمن مبكر الى أن يشقوا الطريق فى ميدانى المسابرة القانونية والتاريخ . وهنا أيضا نشعر بأحاسيسهم ، الحاضر أيدا ، بمعظمة روما وعمقيريتها فى القانون والنظام ومصيرها الامبراطورى ، ولكن لا تزال توجد خصيصة أخرى تميز الأدب اللاتينى عن أدب الاغريق . ان أعظم الشعراء الرومان يستبين منهم فهم صادق للطبيعة وحب لها . لقد وضع الاغريق عن الطبيعة شعرا لا يعتريه فناء ، ولكن مع كل أحاسيسهم بجمالها وجلالها ، ظلت بالنسبة لهم قوة غريبة عنهم ، قادرة فى الواقع على اثارة اعجابهم ولكنها شيء لم يكونوا فى الواقع قط يرتاحون اليه كل الارتياح . ان الطبيعة عند اليونانى كانت دائما شيئا خارجا عن ذاته ، شيئا يجب أن يعرف عنه أو يقهر ، وليس شيئا يجب (٢) .

وكان الشعراء الرومان يحبون الطبيعة كأن لها قرابة بهم . وكان اليونانى يعيش فى المدينة ولأجلها ، واذا عن له السفر الى الخارج ، كان

(١) مكيل - « الأدب اللاتينى » - يشتمل Satura ، كما يدل عليه النص ، أكثر مما يشتمل عليه التعبير الانجليزى "Satura" . ويذكر كوتيليان (Inst. Orat. ١٠ فصل ١ § ٩٣) أنه رومانى خالص Satura quidem toto nostra est

(٢) ومع هذا يجب استثناء هزيود والقمايون تراث العالم القديم

الدافع أن يرى مدائن الناس ، وكانت ضياعه مصبدر ايراد وليس موضع اعتكاف مختار . كان الروماني يهرب من المدينة جذلان ، للريف . وكان أول من يقدر بيتا ريفيا ويخلق ماوى لوقت الفراغ بين الجبال أو بجوار البحر ، وعلى هذا فإن كاتولوس Catullus غادر روما الى منفاه على بحيرة جاردا ، وهوريس الى مزرعة السابنية ، وفرجيل Virgil الى خليج نابلي . وكانت الحال كذلك مع رجل الأعمال والمحامي عندما كان كما جاء في تشبيه هوريس ، ذائع الصيت ، يطرح عنه حمل الأعمال العامة ، ويأوى الى حقول فينافرم Venafum أو طرنطم لاكديمونيا (١) . وكان الرومان يحملون فى مناجاتهم مع الطبيعة شيئا من حرارة الود الذى كانت تتميز به أراصرهم الشخصية . وهذا من شأنه أن يجتذب قارىء أدهم الى العطف على حياة الشاعر اليومية . ولقد كانوا أول السلالات جميعا (٢) ، احساننا بالابتهاج بجمال الطبيعة ويعبرون عنه فى أشعارهم ، يقرب من احساس شوسر أو شكسبير .

١٦٤ - وبانتشار الهلينية المعاصرة من الطرازين الهليني . والاسكندرى أصبح المجتمع الروماني أكثر ترفا وأكثر تهديبا ، فى وقت واحد .

وكانت الثقافة الاغريقية لا تعنى ، فى الكثير الغالب ، سوى قشرة رقيقة لا تكاد تحجب الحشونة الطبيعية والوحشية فى الأخلاق الرومانية . ولم يحسن نفوذها على الدهماء من الشعب اطلاقا الا أن يكون ذلك ، فى التأثير التدرجى على الدين الشعبى ، فى تعرف الشعراء هوية واحدة للآلهة الرومان ، ولآلهة الاغريق ، ولقد غدا الآلهة المعنويون فى روما الباكرة ، الى حد ما ، أولى طابع شخصى وذات محددة . ومن الوجهة الأخرى تعلم الرومانيون الأرسقراطيون ، من الاغريق ، أن يقدروا الأدب والفنون (٣) .

(١) هوريس « القصيد الغنائى » ، ٣ ، ٥ و ٢ ، ٥٥ - ٦ .

(٢) لقد سبقهم قدماء المصريين فى هذا المضمار فان الشعر الغنائى المصرى القديم يزخر بالاحساس بجمال الطبيعة والبهجة بروية الأشجار والزهور والطيور (المترجم)

(٣) كانت الجماعة الممتازة التى التفت حول اسقفيون اميليانوس (هازم قرطاجنة فى الحرب الفونية الثالثة) تضم بخلاف أشرف الرومان مؤلف الفاجعة الهزلية طرنس وشاعر الهجاء والتهكم لوكليوس والسياسى الاغريقى المنفى بلوبيوس ، وأعيد بلوبيوس (ولد عام ٢٠٦ وتوفى عام ١٢٤ ، على التقريب) الى اليونان من المنفى عام ١٥٠ ، ورافق اسقفيون فى حملاته فى أفريقيا وغيرها من الأماكن وقام بوظيفة مبعوث روما فى اليونان من عام ١٤٥ . وكان تاريخه يضم ٤٠ كتابا ، الخمسة الأولى منها ، فقط ، هى الموجودة لدينا بأكملها . وقد بقيت من الأخرى مقتبسات ، فيما دونه

ولقد حملت الى روما روائع أمثلة النحت الاغريقي ، لتزخرف بيوت قواد الجيش المظفرين . ويوجد قول لجورج مريدث مفاده أن الفكرة المعنوية الوحيدة التي يستطيع العقل العسكري أن يفقه لها معنى ، هي فكرة الغنيمة ، ودون ريب كان لتعطش الدهماء للسلب شأن كبير في نهب كنوز الهلينية (١) . هذا ، ولكن بمجرد أن استعرضت أعمال الفن في روما ، أتت على ذوق الجمهور بتأثير خفي . وأصبح الرومان يهتمون ليس بمجرد الاحتفاظ بآثار الماضي التذكارية ، ولكن بتشجيع مثل هذه الابتكارات الجدد في الفن والأدب ، كما كانت العبقرية اليونانية لا تزال قادرة على إنتاجها . والفن الحالي يشير الى وجود جمهور . والآن صارت روما تهيب الجمهور ، ولم يصبح الرومان قط فنانيين . والواقع أن رعايتهم قد أوقعت الضربة القاضية على الفن الاغريقي . والفلسفة الاغريقية بدأت أيضا تتصرب الى روما خلال القرن الثاني ، ولو أن الرومان كان لهم القليل من القدرة على التفكير المجرد عن المنفعة وقاوموا التغلغل زمنا طويلا ، وكانت مبادئ الرواقيين والأبيقوريين التي تتركز حول مشكلات الحياة العملية أول مبادئ تاصلت في المجتمع الروماني . ولقد عاونت على تعديل ، وفي النهاية على تقويض القيم الرومانية العتيقة للتورع والفضيلة .

ولقد وجدت علامات الفكر الارتياحي في اشبعار انيوس Ennius وكان الشيوخ من رجال السياسة في القرن الثاني مثل كاتو ، يرتابون من النفوذ الاغريقي . وفي منتصف ذلك القرن وافق مجلس الشيوخ على مرسوم بأن يغادر المدينة جميع الفلاسفة . ولكن مقاومة الأفكار كانت غير عملية كمقاومة الثروة والترف ، وفي ارواد ولكن في يقين ، للخير أو للشر ، فان روح اليونان كما جاء في عبارة هوريسن : « أخذت أسيرا ، قاهرها الجاني » (٢) .

مؤلفون بيزنطيون . وهي تستغرق المدة التي تقع بين عامي ٢١٩ و ١٤٥ . ومصنف بلوبيوس يتميز بعدم التحيز في الحكم والصدق في سرد الوقائع التي يمكن تحقيقها . والمؤلف ولو أنه موال ولا متصلا لليونان وطنه ، فان احساسا بقوة دولة روما التي لا غالب لها ، ونبل وعظمة الخليقة والأنظمة الرومانية كان يلهمه باستمرار . ان الصدفة تتحكم الى حد عظيم ، في شئون البشر (١ ، ٤) . ولكن لم يكن يوجد مصادفة في نظر بلوبيوس في استحواذ روما على امبراطورية عالمية (١ ، ٦٣) . والتأملات الفلسفية التي تنهال على القارئ وهي عسيرة الفهم، هي - على وجه عام - على شيء من الابتدال واللغو . (١) ينعي بلوبيوس (٩ و ١٠) على الرومان ما درجوا عليه من سلب المدن المهزومة ، خزائنها الفنية . ويقابل هذا بما كانوا عليه سابقا من ضبط النفس وبساطة العيش .

(٢) هوريسن Epp. : ٢ و ١ و ١٥٦ .

(ب) الدولة الرومانية في القرن الثاني :

١٧ - ان خلق امبراطورية شيء ، ولكن حكمها شيء آخر أكثر عسرا ، والمشكل الذي واجه روما لم يكن مجرد مشكل ايجاد وسائل جدد لادارة أقاليمها ، ولكن أيضا إعادة تنظيم حكومة الوطن المركزية . ان المناهج التي كانت تكفي لبلدة ايطالية كان ما لها أن تقيم الدليل على عدم كفايتها لحاضرة عالم البحر المتوسط ، وكانت خصيصة الدولة الرومانية في عهد الحروب مع قرطاجنة قد أتى عليها تحول أصلي ، ليس بخطة مدبرة ولكن تحت ضغط الوقائع . وقد تركزت السلطة ، ليس كما كان يتوقع ، طبقا للقانون الهرتسي الذي صدر عام ٢٨٧ ، في أيدي الديمقراطيين الوطنيين ولكن في أيدي عصابة من أسرات الأشراف ، قائمة بذاتها وكان لسان حالها (١) مجلس الشيوخ . ولما كان أعضاء مجلس الشيوخ يعينون من الموظفين السابقين ، ويضمون جنودا مجربين ورجال سياسة ، في وقت كان فيه القناصل والمواطنون يؤدون الخدمة في الميدان فان مجلس الشيوخ كان الهيئة الدستورية الوحيدة التي لها الأهمية على ادارة شئون الدولة . وقد ترتب على زيادة عدد الموظفين التنفيذيين لتوسع المسؤوليات العامة ، حتى لم يكن يوجد أقل من عشرين من الموظفين كل سنة في يدهم السلطة على عقد مجلس الشعب وما وقع من أنه يوجد ثلاثة مجالس شعبية للتصديق على قرارات ملزمة ، ان استدعت الحال بصفة ناجزة لرقابة تنظيمية يقوم بها مجلس دائم (٢) . وزيادة على هذا ففي الأيام التي كانت فيها الإلحمة

(١) يصف بلوبيوس الدستور الروماني في هذا العصر ، وهو يكتب عنه ، (٦ ، ١٠) بأنه خليط من الملكية (الموظفين ذوى السيادة imperium) والأرستقراطية (الأسرات التي تحتكر الوظائف) والديمقراطية (comitia) أو المجلس الشعبي) راجع كذلك ممسن الكتاب الأول فصل ٢ .

(٢) كان الموظفون الذين يملكون السلطة imperium في بداية القرن الثاني هم (١) القنصلان ، (٢) الستة برييتوريون ، منهم اثنان كانا يؤديان خدمة القضاء في روما وأربعة يحكمون الأقاليم ، (٣) بروقناصل وبروبريتوريون يطرد عددهم في الزيادة ، أى قناصل وبريتوريون سابقون مدت سلطتهم لهام عسكرية بعد انقضاء العام في القيام بوظائفهم . ومن الوجهة النظرية ، لم تكن السلطة imperium تعرف حدودا . ولكن عمليا ، وضعت فواصل بين السلطة « العظمى » والسلطة « الصغرى » للقناصل والبريتوريين على الولاء وبين مراس السلطة في منطقة روما المدنية (domi) وفي المنطقة العسكرية (militiae) . وكانت سلطة الموظف السابق تنحصر في المجال الأخير . وباستثناء حالة الدكتاتور ، الذي كانت سلطته sine fine (دون حد) فان السلطة كانت تنحصر في نطاق provincia معين (راجع تذكرة ٢ صفحة ٢٥٩) وعلى هذا أصبح للكلب الحارس مقودا .

تكافح من أجل حياتها أقام مجلس الشيوخ الدليل على أنه جدير بحمل السلطة، وكان كما قال مبعوث فوربس لسيد « مجلس ملوك » وعلى هذا حدث أن سلطة imperium الموظفين وسيادة الشعب التشريعية انحنت أمام سلطة مجلس الشيوخ الأدبية . وفي ختام القرن الثالث كان مجلس الشيوخ ، بالإضافة الى سلطته التاريخية فى تقديم النصح الى الموظفين يمتلك زمام رقابة تكاد تكون شاملة ، على الشؤون الخارجية والتنظيم الاقليمي والمالية والدين وجميع الأمور الحيوية فى السياسة العامة . وبعد ذلك بزمن وجيز طالب بحقوق غريبة على التقاليد الدستورية وتنازعها معارضة الشعب ، بوقف الموظفين عن القيام بوظائفهم ومنح القناصل سلطات دكتاتورية افتراضيا ، بموجب المرسوم ، « بأن الموظفين يجب أن يراعوا أن الدولة لا يقع عليها ضرر » (١) . وفى الواقع نجد فى روما موقفا مماثل ذاك الذى كان سائدا فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر ، عندما كانت أشكال الحكومة البرلمانية يدير دفتها ، فى عهد توسع تجارى وامبراطورى ، لقيت من بيوت حزب الأحرار ، العظيمة . وفى روما أيضا أصبح مجلس الشيوخ والوظائف العليسا احتكارا للأسر الشريفة التي تقوم بأعباء الوظائف (٢) ، وهذا الاحتكار المتزايد وهو يتألف بانتشار الثراء والرفاهية بين الأرستقراطية الحاكمة كانت نتيجة التي لا معدى عنها تقشى المرض المزمع فى دولة - المدينة القديمة وهو التشيع الحزبى ، ومنذ عام ١٣٤ وما بعدها شب الصراع المدنى بين مجلس الشيوخ والديمقراطية فى عنف لم يعرف حتى ذلك الحين فى التاريخ الرومانى . وتأزم مماثل كان يعكس فى معاملات الحكومة الرومانية مع شعوب إيطاليا وقد أصبح الخط الفاصل بين المواطنين الرومان والآلهين غير المواطنين أشد تصلبا . لقد أنزلت تلك الجماعات الإيطالية التي كانت قد انضمت الى هنيبال الى حالة رق فعلية . وحتى المدن الموالية ، أى تلك التي لها حقوق لاتينية وجدت أنها تركت وقد نادت تحت أثقال بدلا عن امتيازات . وعندما نعتبر أن الإيطاليين كانوا ينتمون بقرابة الأصل للرومان ، وأنه فى النشاط والحليقة كانوا على الأقل يقفون معهم على قدم المساواة ، وأنهم كانوا يجبرون على حمل وطأة الخدمة العسكرية فى جهات

(١) فى القرن الأول قبل الميلاد ، بدأت قرارات مجلس الشيوخ (senatus consulta) تكسب قوة قانونية عن طريق اغتصاب

فرضى للسلطة ، غريب على روح الدستور .

(٢) كانت لا توجد علاقة اطلاقا بين هؤلاء الاشراف الجدد والتميز القديم بين الخاصة والعامة ، الذى لم يعد له مغزى عملى . واصبحت المرتبة تقاس الآن بعدد الآباء السابقين الذين اضطلعوا بعليا الوظائف واصبح أمرا عسيرا ، عسرا يطرد ازديادا ، دخول « رجل جديد » دائرة الأصرات الشريفة .

من الامبراطورية ، نائية ، يمكننا أن نقدر النتائج المدمرة التي كان ملها ان تنجم عن هذه السياسة ، قصيرة النظر ، المستبدة . وفي الواقع كانت كل الدلائل التي تنبئ بعصر من الانقسام الداخلي موجودة في نطاق واسع في روما وايطاليا قبل ختام القرن الثاني .

١٨ - وطالعت نفس الحقبة قيام روما بوضع أساس مذهبها في الحكومة الاقليمية (١) . وكان تنظيم اقليم جديد يحدده قانون ، يستند الى تقرير من لجنة من مجلس الشيوخ ، ينص على مبادئ الادارة والمالية . وفيما يتعلق بفرض الضرائب فقد جرت العادة على الاحتفاظ - على قدر الامكان - بالمذهب الموجود سابقا (٢) .

ولقد أدخل قانون روما فيما عدا المدن التي لها امتياز « المتحالفة » و « الحرة » التي كان لها الحق ، اذا أرادت ، في الاحتفاظ بقانونها الخاص ، وكانت معفاة من تدخل الحاكم . وحتى فيما يتجاوز هذه الحدود ، كان القانون والعادة المحليان يجدان تسامحا بعيدا . ومرة أخرى ، كانت المستعمرات الرومانية والبلدان Municipia تكون مجتمعات تتمتع بالحكم الذاتي داخل الاقليم . وكانت المدن الهلينية وخاصة في صقليا والشرق تستمتع بقسط عظيم من الحكم الذاتي ، وأدرك الرومان بنظرهم الشاقب في تكييف المناهج وفق المطالب المحلية ، منذ البداية أن الاغريق المتمدينين كانوا في حاجة الى معاملة جد مختلفة عن قبائل أفريقيا الهمجية أو اسبانيا ، ومع هذا ، فحتى في هذه الاقاليم الغربية أنشئت مجتمعات حضرية لها امتيازات كمراكز لنشر الثقافة الرومانية . وفي الاقاليم ، كما في ايطاليا ، حلت في كل مكان ، الاتحادات المحلية القديعة ، وفيما يوالى حدود المدن ذات الامتيازات ، كانت سلطة الحاكم مطلقة الا فيما يتصل بنصوص الدستور الاصلى فقط . وكان كل اقليم يوكل امره لبريتور praetor ، وقد زيد عدد

(١) كان معنى لفظ provincia في الأصل ، مهمة الموظف الخاصة وعندما استولى عام ٢٤١ على أول أملاك خارج ايطاليا وهي صقلية فانها وكلت الى موظف ، كقطاعه الخاص . وقد اتبعوا هذا النهج فيما جاء بعد ذلك من توسع اقليمي . وعلى هذا ، أصبحت الكلمة تعنى منطقة اقليمية تحت حكم موظف ذي سلطة imperium

(٢) وعلى هذا ، استبقى نظام العشور القديم في صقلية وفي آسيا . ولقد أدى هذا الى العادة غير الاقتصادية ، الظالمة في وكول تحصيل العشور صنفا الى محصلى ضرائب كانوا يبيعون المحصول ويدفعون مبلغا ثابتا للدولة محتفظين بأرباح الصفقات .

هؤلاء الموظفين الى ستة بعد الحرب القونية الثانية أو ، بعد ذلك ، الى قنصل سابق أو بريطور سابق ، تبقى له السلطة لهذا الغرض خلال سنة ثانية . وكان يعاونه موظف من وزارة المالية « قسطور » ، Quaestor كادارى مالى وادارة من الموظفين العسكريين والمدنيين . ولما كان الحاكم يبقى فى دست الوظيفة مدة سنة واحدة فقط ، وكان يأتى بموظفيه معه من روما ، فان صعوبة ضمان الاستمرار فى الادارة الاقليمية كانت جد عظيمة . وكانت تواجه الى حد بالدستور الدائم للاقليم ، والى حد آخر الى ما كان يقع من أن كل حاكم يؤول اليه الحكم كالبريتورين فى روما أن يذيع مرسوما بمجرد ولايته للوظيفة يشمل فى العادة فحوى مراسيم سالفه . وطالما كان فى الوظيفة قاهه كان القائد الأوحد للقوات والرئيس الأوحد للسلطة التنفيذية والقاضى الأعلى . وفى الأقاليم التى فيها لم تكن الحاجة تدعو الى عمليات حربية ، كانت الدوائر القضائية ، أهم واجب لديه (١) . ولما كان لا يمكن محاسبة أى موظف روماني فى يده زمام السلطة ، وهو فى دعوت وظيفته بينما كانت التهم التى توجه بعد ذلك تسمع فى روما وأمام محكمة متحيزة ، فان غوايات الجشع كان لا يمكن مقاومتها تقريبا . وفى الأزمنة الأولى كان الحكام يضعون أمانتهم موضع الافتخار ، ولكن كما يلاحظ ممسن Mommsen « لا يمكن من الوجهة العملية ، ولاى مدة من الزمان ، أن يكون المرء فى آن واحد جمهوريا وملكاء » (٢) . وقد كان من جراء انتشار الرفاهية بين الارستقراطية الرومانية أن تعاطت مساوىء الحكم المطلق الاقليمى ، وحتى حاكم عدل كان يجد صعوبة تطرد ازديادا فى التحكم فى جيش من جباة ضرائب الزراع والوكلاء المالىين الذين كانت تغمر جموعهم الأقاليم الأكثر ثراء . وبمرور الزمن أصبح الحكام العبدول قلة وتباعدت المسافة بينهم ، وكان المذهب مقضيا عليه بأوخم عاقبة ، فى النهاية ، لعدم وجود رقابة فعالة على الحاكم الاقليمى المستبد . وكانت الحكومة المركزية على مسافة قاصية ولم يكن يوجد موظفون اداريون ذوى دربة لضمان رقابة دائمة فى

(١) كان الحاكم يباشر القضايا فى المعتاد ، طبقا للقانون الأهلى الذى عنى الرومان بالتصديق عليه . وفى القضايا الجنائية كان مجلس consilium من الرومان اختيروا من بين سكان الاقليم ومن ادارة موظفى الحاكم ، يستدعى للمشاورة . وكان الواجب ان اللذان لا يمكن لأى حاكم أن يهملهما ، الحرب والدورات القضائية . وفى غيرهما من المسائل ، كان يمكن لقائم على الادارة ، متراخ أن يترك اقليما مسلما وشأنه ليحكم نفسه . وكثيرا ما كان هذا يأتى بأوخم العواقب . وعندما كان شيشرون نائب قنصل proconsul فى كليكية ، استعلم عن مناهج الموظفين المحليين ووجد أنهم كانوا ينهبون الخزينة المحلية منذ أعوام .

(٢) ممسن ، الكتاب الثالث فصل ٢ .

مقر أعمالهم . وكانت آيات الانفصال القادم التي لاحظناها في روما وإيطاليا ظاهرة أيضا وفي صورة معظمة في جميع أرجاء الامبراطورية الاقليمية .

١٩ - وقد ترتب على تحول مجتمع زراعى بسيط الى مركز ثراء يعج بالسكان لتجارة عالمية وحكم عالمي ، تغيرات مماثلة في سير القانون ونهجه . وكانت الفترة الواقعة بين وضع تشريع الألواح الاثني عشر وختام القرن الثاني فترة انشائية عظيمة في تاريخ القانون ، وفيها تحطمت صلابة مدونة القانون الباكورة وابتكرت وسائل جدد، وأوجدت مجموعة منسقة من الشرائع عن طريق التفسير والمراجعة والتوسع . والمصدران المعترف بهما (١) العادات التاريخية التي كانت على الدوام خالقة لقوانين جديدة (٢) القوانين الوضعية الايجابية التي زخر بها هذا العصر ، أضيف اليهما في القرن الرابع (٣) المرسوم البريتورى (١) .

وكان كبار الموظفين على الدوام يملكون حق اصدار أوامر للجمهور (edicta) شفوية أو كتابية . وعندما نقلت في عام ٣٦٧ وظائف القناصل القضائية الى موظف خاص ، وهو بريطور المدينة (praetor urbanus) فقد أصبح من المعتاد أن يضع في المحكمة ، ليحيط المتقاضين علما ، ألواحا تشمل صيغ اجراءاته والقواعد التي يسير وفقها فيما ينتويه في تطبيق القانون . والمرسوم ويطلق عليه المرسوم الدائم (edictum perpetuum) لتمييزه عن الأوامر العرضية التي تتصل بمناسبات خاصة ، كان من الوجهة النظرية صالحا فقط ، في خلال السنة التي يكون فيها البريتور (Praetor) قائما بمهام الوظيفة ولكن جرت العادة بأن كل (بريطور) تال يدمج في مرسومه المواد الأساسية التي وضعها سلفه ومعها التعديلات والاضافات التي يرى لزومها . وعلى ذلك فان طائفة من قوانين من صنع القاضى سرعان ما أصبح لها المرتبة التي كانت لقوانين روما الوضعية ، وقوانين العادة .

(١) كان المرسوم البريتورى مصدر القانون الرومانى اللاحق ، في معظمه . وهو لا يمثل عمل المحامين المعترف بهم ولكن عمل أجيال من اداريين عمليين قاموا بتنسيق القانون المدنى وفق مطالب ايطاليا والأقاليم . ويطلق عليه في « مجموعة القوانين المختارة » Digest « صوت القانون المدنى ، الحى » وأساس تقدم العدالة البريتورية يرجع الى ماجرت عليه عادة البريتورين في منح « صيغة » (أى مرسوم بتعيين قاض وارشاده عن مرجع القضية القانونى) كلما رأوا أن دعوى ، حتى ولم يكن ينطبق عليها القانون المدنى الضيق ، كانت معقولة وعادلة وكان المرسوم يبين نوع القضايا التي كان البريتور على استعداد لأن يمنح « صيغة » فيها (أى السماح بالدعوى) وطبيعة الارشادات التي يصدرها للقاضى .

ويلاحظ أن البريتور لم تكن له سلطة التسريع أو الحكم فى قضية ، وكان فى استطاعته عقط أن يمنح أو يرفض دعوى قانونية عن طريق «صيغة» مكتوبة موجهة للقاضى ، المواطن العادى الذى عينه ليضع قرارا عن وقائع القضية ، ولكن هذه المهمة المحددة اتسع اختصاصها بقانون ايوتيا Aebutia حوالى ١٥٠ ، الذى خول البريتور عند انفاذ التعليمات الى القاضى بأن يعدل أو يلغى افتراضا ، المواد الحرفية فى القانون المدنى فى ضوء العدالة والعقل^(١) . ومثال واحد يوضح طبيعة هذا التطور بموجب نصوص القانون المشددة فان تعهدا ارتبط به ، بالصورة القانونية كان ملزما ، حتى ولو أن أحد الطرفين وصل اليه بطريق الغش . والبريتور ولو أنه ملزم بالموافقة على السير فى الدعوى ، فانه يعلن أنه فى منحها سينهى الى القاضى بأن يوقع العقاب على المدعى عليه فقط اذا وجد أن المدعى لم يرتكب أى غش . وهذا الاجراء كان يمكن التوسع فيه الى حد لا نهاية له تقريبا ، وكان يهين ، وهيله فعالة لضمان انتصار روح القانون على حرفيته . وعلاوة على هذا ، فان نفس هذه الفترة طالعت مولد القضاء العلمى . وحتى نهاية القرن الرابع ، ظلت مبادئ التفسير القانونى سرا مختوما فى ايدى لجنة الكهنة . وفى عام ٣٠٤ نشر رجل أعنفه ابيوس فلوديس Appius Claudius الرقيب بعضا من القواعد الحبرية . وبعد نصف قرن استهل أول حبر أعظم pontifex maximus شعبى مراسم تقديم النصح القانونى للمواطنين علنا . ومنذ ذلك الحين كانت المعرفة بالقانون مباحة لكل روما . وكنتيجة طبيعية ، ظهر الى حيز الوجود أدب قانونى ، وقد تبع الكتب القانونية العملية ، شروح ذات منهج لمبادئ القانون المدنى . وفى القرن الأخير للجمهورية ، وضعت الأسس لمذهب العلم القانونى الذى عنى عظام الشارحين فى عصر الامبراطورية الباكر بصياغته^(٢) .

(١) كان القانون الإبوتى Aebutian يضع «الصيغة» البريتورية فى مستوى الدعاوى التى ترفع بمقتضى القانون المدنى . ولما كانت الاجراءات بمقتضى «الصيغة» أبسط وأكثر مرونة فان المناهج القديمة ، ولو أنها لم تلغ قط ، بطل السير عليها الى حد كبير . وزيادة على هذا ، فان التعليمات المعينة ، عن المواضع القانونية التى كانت تتضمنها الصيغ ، جعلت القاضى الذى كانت القضية تعرض عليه أكثر اعتمادا عما جرت عليه الحال فى السابق ، على القرار البريتورى ، ومنذ ذلك الحين تسيطر العدالة البريتورية على تاريخ القانون الرومانى .

(٢) ان الاجابات عن الأسئلة القانونية التى كان يضعها المشاهير من علماء القانون (the responsa prudentium) ، كانت ترجع قوتها الى شهرة الشخص الذى يضعها . ولما كان يعترف بها كشروح للألواح الاثنى عشر ، فانها كانت تتضمن فى الواقع تعديلات وتوسع واعادة تكوين

٢٠ - وأعظم تطور قانونى فى هذه الحقبة ، الى شأو بعيد ، هو وضع قانون الأمم (jus gentium) (١) . لقد كان القانون المدنى قاصرا على المواطنين الرومان - أو على أعضاء مجتمع غير روماني ، ضمننت لهم صسفة قانونية بمعاودة خاصة . وعندما أصبحت روما دولة تجارية عظيمة فقد قامت حاجة واضحة لقانون يكون تطبيقه واجبا على الأجانب فى معاملاتهم مع المواطنين ، وأيضا فى معاملاتهم فيما بينهم . ولقد كان لسد هذه الحاجة ، أن عين بريطور ثان عام ٢٤٢ وله مهمة خاصة فى ولاية القضاء فى الدعاوى التى ينضوى فيها غير المواطنين . ومرسومه السنوى الذى كان يشتغل على التنسيقات اللازمة للقانون المدنى ليطبق على الشعوب الأجنبية . كان أساس قانون الأمم (٢) . ويمكن وصفه على أنه ذلك الجزء من القانون المدنى jus civile الذى كان يتوافق مع القانون المحلى لدى الشعوب الأخرى . عدل بحيث يتناسب مع الأحوال المتغيرة ووسع بتمثيل عناصر هلينية وعناصر أجنبية غيرها ، ليكون مجموعة من المبادئ العادلة التى تصلح للتطبيق فى جميع أرجاء العالم الرومانى .

رلم يكن هذا خلقا مفاجئا . لقد نما فى تدرج بطيء على مر القرون وكان يمثل ما تراكم من تجارب تمرست بها سلالة ، كان لها قدرة فريدة

وقد انشئت مبادئ لم يكن يحلم بها قط أولئك الذين صاغوا مدونة القانون الباكرة . ويذكر مين Maine (القانون القديم فصل ٢) بأن هذا النوع من القانون لم يكن من عمل مجلس قضاة (لأنه لم يكن يوجد فى روما شىء يماثل مجلس القضاة فى انجلترا الحديثة) ولكن من عمل المحامين وكلاء الدعاوى ولو لم يكن علماء القانون يترافعون فى المحكمة . ولم يكن شيشرون عالم قانون prudens . وعلى ذلك فان الفرصة التى أتتحت بهذا للمحامى ، للنظر فى القضايا المرضية وكذلك المسائل الواقعية كان من شأنها أن تسهل التعميم وصوغ المبادئ المتسعة . ويجب ألا يغيب عن البال بأن كل رومانى تقريبا كان يطمح فى وظيفة عامة ، فى أزمى الجمهورية ، كان يتلقن تعليما فى القانون . ولقد كانت المهنة الوحيدة الخطيرة بخلاف مهنة الجندي وكان معظم الطبقة الحاكمة يتمرسون بكليهما .

(١) عن قانون الأمم jus gentium راجع زليوتا فى « تراث روما » .
 (٢) كان يطلق على البريتور الثانى بريطور الأجانب praetor peregrinus لأنه كان يمارس القضاء بين غير المواطنين (peregrini) . وترجع أصول قانون الأمم jus gentium الى زمن سابق لانشاء هذه الوظيفة . ويجب أن يكون مفهوما بأن قانون الأمم لا يعنى « القانون الدولى » ولكن القانون الذى يسرى على أفراد ينتمون الى شعوب غير رومانية . وكان فى غالبيته يعنى بالعمود وكان يقوم على العادات السائدة بين مجتمعات البحر المتوسط راجع مين (القانون القديم فصل ٣) .

فى نوعها على تكييف الوسائل القانونية لتتوافق مع غايات مجتمع سياسى .
وقد كان له فى دوره رد فعل على القانون المدنى - وخاصة عن طريق قانون
العدالة الأدبية (jus honorarium) لبريتور المدينة (١) . وفى النهاية ،
وبفضل ما كان يلزمه من موافقة للنهج العقلى - فانه حل محل مواد القانون
المدنى الضيقة ليكون قانونا للمواطنين الرومان . وعلى ذلك ما عتم أن اعتبر
مدونة القانون العامة ، يصلح للبشرية جمعاء ويقوم على احساس بالعدالة
طبعى فى الانسان كائنسان، ومن بلاط بريتور الأجنب praetor peregrinus
ذاع فى الاقاليم حيث اضيف على القانون المحلى السائد ، قانون الامم
ومراسيم الحكام . وقد حمل الحكام معهم الى روما ما خبروه من القوانين
الأجنبى وساعدوا فى أن يقيموا على أسس واسعة بنيان القضاء الرومانى .
وعلى هذا ، عند اكتمال الزمن ، فان القانون المحلى لدولة مدينة إيطالية
وحده ، وقد نما بإضافات من مصادر أجنبية وحوارته عبقرية الشعب
الرومانى التى لها قدرة على التكليف ، صيغ فى مذهب قانونى يضم عالم
البحر المتوسط بأجمعه (٢).

« ٥ - الخاتمة »

٢٦ - قيل أن يتمكن العالم من جنى ثمار القضاء الرومانى ، قدر
للجمهورية أن تعانى آلام الثورة . وقد حدث فى القرن الثانى أن أصبحت
روما تقف وجها لوجه أمام المشكل . هل تستطيع دولة - مدينة لها أنظمة
جمهورية أن تحكم امبراطورية ؟ هل كان من المحتمل تصديقه . . أنه حيث
فشلت أثينا فى عصر بركليس يقدر لروما النجاح ولم تكن لها الا تجارب
ضئيلة فى الحكومة الذاتية ؟

(١) لقد اتخذ قانون المراسيم البريتورية هذه التسمية لأنه صادر عن
سلطة imperium الموظف (honor = مهمة الموظف) .

(٢) يمكن دراسة تطور القانون الرومانى فى الفترة الواقعة بين
الألواح الاثنى عشر وسقوط الجمهورية على خير وجه ، مرتباً بتاريخ
العقود . راجع مين (القانون القديم فصل ٩) . « ان الواجب الإيجابى الذى
ينتج عن اعتماد رجل على كلمة رجل آخر ، يعد من أبغى غزوات المدينة التى
تسير قدما » . فى المجتمعات الأولى ، حيث لا يخلق الفرد عن طواعية الحقوق
والواجبات ولكن تكون أما (أ) ملازمة للموطن الذى يولد فيه وأما (ب) أوامر
صادرة عن رئيس الأسرة أو القبيلة فانه لا يوجد مجال للعقد . ان العالم
المتحدين يدين بالعقود والوصايا ، كليهما ، لعبقرية روما القديمة ،
القانونية .

وعلى الرغم من قدرتها على الفتح والحراسة ، فانها لم تبرهن قط ، أنها كفاء للقيام بمهمة خلق حياة عامة مشعبة الفروع . ولقد ظل تصورهما للسلطة حتى النهاية ، سطوحيا وتأديبيا . لقد كانت دولة روما تقوم على القوة ، والسلاح كما هو ديدنه ، كان يرتد على من يستخدمه . وسيكون من الواضح ادراك العمق الذى تأصل فيه المرض الذى كان يقوض الكيان الاجتماعى اذا استذكرنا العوارض التى لحظناها فى الصفحات السابقة .

لقد انتزع عصير الحياة من الاستقرار الاقتصادى بسبب الثراء الذى غمر العاصمة من جميع نواحي البحر المتوسط ، ولقيام أرسقراطية المال والفقير المدقع فى آن واحد ، ولانحطاط الزراعة واستبدال زراع الأرض الأحرار بالعمال العبيد . وسياسيا كان من شأن السلطة أن تتركز فى أيدى حكومة أقلية قصير النظر ، لا تواتيهم سعة خيال ، ازدادوا غنى بنهب الأقاليم . كانوا يتاجرون بأعمال أجدادهم الجليدة ولم يكن لهم علم بواجبات عامة الا ما يكون فيها بقاؤهم فى الوظيفة . وكذلك كان يعنى بالمصالح الذاتية مركزا المعارضة لمجلس الشيوخ ، طبقة الفرسان (equites) التى تشمل ذوى الثراء من أصحاب المصارف والتجار ، والحاملون من طبقة العمال فى المدينة ، الذين كانوا يحتشدون فى المجلس ليساوموا فى الحصول على تصويت للشعب ذى السيادة لهم مقابل أنصبه من الحنطة أو بمبالغ تدفع نقدا .

وكانت الطبقة الوسطى الزراعية التى انقذت روما من هنيبال اما توارت واما تعيش على مسافة نائية عن العاصمة ، ليكون لها دور فعال فى الحياة العامة .

ولقد ازدادت هوة الانقسام بين الرومانى والاطالئ اتساعا وأنكرت حرية التصويت . وعومل « حلفاء » روما الذين كان يقع عليهم عبء الخدمة العسكرية كمحكومين غرباء . ومن الوجهة الخلقية ، أصاب البلى المعايير القديمة للورع والفضيلة المدنية . أما الاستقامة وحافظ الضمير اللذان كانا فى وقت ما ، المجد الذى يتميز به الرومانى فقد أصبح الرومانى صفر اليدين منهما .

كان الرومانى قد تعلم كيف يحكم بتعلمه كيف يطيع ، والآن ، حتى فؤء الكنائب أصبح عصيان الجنود المواطنين أمرا يغلب وقوعه . وقد أثرت فيه روح اليونان ، فان عادة التكتل والولاء للجمهورية ، غدت تخضع لمطالب المطمح الشخصى .

هل كان من المستطاع أن مجتمعا ، يزره التشيع الداخلى ، والذى كان قد أبعد ذوى قرباه الايطاليين يظل محتفظا بالسيطرة على امبراطورية اقليمية فسيحة ؟

لقد تكدست الجيوش على الحدود بحث امرة نواب قنصل وأقسمت الجيوش لهم وليس للجمهورية يمين الولاء (١) . هنا كان موضع الخطر أمام الزمن المقبل . الى أى مدى كان يمكن لقائد مظفر ، له سلطة غير محدودة على جنده وموارد اقليمية أن يقنع باظهار ضبط النفس والولاء المدنى ، اللذين كانا طبيعة نانية فى الرومانى فى الازمن الاولى ؟

لقد كان ترابط هذه الأحوال - عدم قدرة المدينة الملازمة على حكم العالم ، والتدهور الخلقى فى مجلس الشيوخ والشعب الرومانى ، وسلطة الحاكم الاقليمي حديثة النشأة - هو الذى أدى فى خلال القرن التالى الى سقوط الجمهورية وخلق الامبراطورية الرومانية .

(١) - (ربما) كان sacramentum أو بيمين الولاء العسكرى فى الازمن القديمة ، اليمين الذى يقسم به - ويترتب على الحنت فيه عقوبة توقعها الالهة - طرفان فى تعامل خاص وكل منهما يعلمان وهو جاد أن توكيده لدعواه كان صادقا ، راجع مسين الكتاب الأول فصل ٢ ودائرة المعارف البريطانية فى موضوع « القانون الرومانى » (الطبعة الحادية عشرة) مجلد ٢٣ الصفحات ٥٤٨ وما بعدها . واستخدم هذا اللفظ للدلالة على الفرائض المقدسة ، المسيحية و « الأسرار » الشرائية والاغريقية يوجد فى طار طليان Tertullian راجع دائرة معارف هيسستنجنس فى الدين والاخلاق ، عن موضوع ' sacraments (المسيحية ، الغربية) .

الفصل الثامن

الإمبراطورية الرومانية

١ - أنظمة الإمبراطورية

١ - سقوط الجمهورية

١ - ان لقصة سقوط الجمهورية أهمية خارقة العادة ، من حيث الحوادث والأشخاص كليهما ولأن لدينا علما وافيا بتلك الحقبة . وهي تستهل بترييونية طبريوس جراكس Tiberius Gracchus عام ١٣٣ ، وتختتم بقيام أوغسطس عام ١٧ ق.م بتأسيس الإمبراطورية نهائيا .

ولقد رأينا في الفصل الأخير كيف أن بذور الثورة كانت تنبت في الدولة الرومانية منذ اللحظة التي أصبحت فيها سيدة عالم البحر المتوسط . والمشكل الذي كان يواجهها هو ذلك الذي كان يناوئ المدينة القديمة خلال تاريخها وهو الجمع بين الحرية المدنية وتوسع الإمبراطورية . وكان يمكن للرومان بقدرتهم على تكييف مبادئ الحكومة طبقا لما يطرأ على المواقف من تغير ، الكشف عن حل لو أنهم استطاعوا ادراك معنى الحكومة الذاتية داخل حدود مجتمعهم المدني الخاص . وكان سبب فشلهم يرجع الى تدهور الحياة العامة . ولقد كانت الجمهورية الرومانية منقسمة على ذاتها وعلى ذلك ، لم تستطع الصمود .

ومن بين فروع الدولة الثلاثة ، الموظفون ومجلس الشيوخ والمجلس الشعبي ، كان الأخيران قد أظهرتا دلائل الذبول وظلت سلطة الموظف فقط تحتفظ بقوتها وعندما أزيحت جميع العوائق ، وطدت نفسها في صورة جديدة وفي قوة طاغية . ولما رأى المظفرون من القواد أن الدولة أصبحت تحت رحمتهم ، استولوا على السيادة التي وضعت هكذا في قبضتهم .

وفي زحمة كل التغيرات وتصاريح مصيرها ، ظلت الفكرة الأساسية في رابطة المصالح المشتركة الرومانية في استمرار لا ينقطع . وكان نداء روما انياس Aeneas والإمبراطورية التاريخية على السواء « السلاح والرجل » .

وكانت السلطة Imperium ، صخرة الأساس لحكم العالم حكما استبداديا ذلك الحكم الذي قام على أنقاض الجمهورية . ولقد برزت عارية دون خجل كالمصدر الأول للسلطان والقانون . وفي ظل العرش ، حيث كان يقوم مرة مجلس الشيوخ (السناتو) والمجلس ، ظهر طبف الجندي والموظف ، الفاتم المنذر بالشؤم .

٢ - وسنأتى بموجز قصير عن مراحل الأزمة ، المتعاقبة :

(١) بدىء بالهجوم على الأرستقراطية الحاكمة عام ١٣٣ ، عندما وضع طبريوس جراكس كزعيم للمعارضة الديمقراطية قانونا لتخصيص مزارع في إيطاليا لزراع أحرار على حساب الأغنياء من معتنى أراضي الدولة . وما له موضع الاعتبار ، هو انه أثار الفوى الكامنة في التربيونية كسلاح ضد الموظفين ومجلس الشيوخ معا وأنه وجد نفسه مجبرا على استخدام تلك القوى بطريفة غير دستورية .

وعندما حاول أن يحتفظ بالوظيفة عاما ثانيا ، قتل في عصيان أوغن به أعداؤه السياسيون . وبعد ذلك بعشر سنوات (١٢٣ - ١٢٢) نهض بالأمر اخوه كايوس Caius بصغته موظفا أعلى (تريبون) أيضا ، على مجال واسع وبعد أن استحوذ على معاونة طبقة موظفي المالية (equites) بمنحهم امتيازات كمحصلى ضرائب من الزراع وكفضاة في المحاكم ومعاونة جمهرة الشعب بانصبه من الخنطة والوعد بمستعمرات عبر البحار ، فانه تاهض رقابة مجلس الشيوخ على الادارة الاقليمية والمالية . وكان رد مجلس الشيوخ القيام بأعمال عنف علنية وأوشك النزاع الحزبي أن يكون حربا أهلية .

(٢) والى الآن كان الصراع محصورا في الميدان السياسي ، ولو أن أسلحة غير دستورية استخدمها كلا الطرفين المتنازعين . وقد تجلّت التربيونية وجاءت على أنها أعظم قوات الدولة منعة . ولقد نهض مجلس الشيوخ من الصراع ظافرا ولكنه كان مزعزا . ومنذ ذلك الحين كان المصلحون لا يفترون ينطلقون الى العون العسكري . ولقد واتتهم الفرصة عندما حدث في سنى القرن الثاني الحثامية أن روما هبت من جراء تهديد من الخارج كان من شأنه أن يجلب التبور على وجودها ذاته . كانت قبائل جرمانية قد عزت الغال وسحقت الجيوش الرومانية في الاقليم الجنوبي واجتاحت أسبانيا وكانت على وشك التوغل في إيطاليا . ولقد نهض جندي قدير ، كايوس ماريوس Caius Marius - وكان يدعى عاما بعد عام لتولى القنصلية تلبية لنداء الشعب - باعادة تشكيل الجيش ، وفي انتصارين فاصلين (١٠٢ و ١٠١) أنقذ الدولة . وقد عملت اصلاحاته العسكرية بالغاء فروق الرتب والثراء في الجيش ، وإحلال الخدمة الاختيارية محل تجنيد

المواطنين بإيجاد جيش محترف ، على فصم الآصرة التي كانت تربط الجندي بالمجتمع المدني ، ومنذ ذلك الحين غدا القائد الناجح ، الحكم في السياسة الداخلية . وفي بكور القرن الأول واجهت الحكومة أزمة ثانية كانت أكثر حدة ، اذ عندما عرض كايوس جراكس بروح الأب السياسي الصادق ، انصاف مظالم الايطاليين بمنحهم حرية التصويت ، هجره ديموقراطيو المدينة^(١) . وفي عامي ٩٠ و ٨٩ ظفر الايطاليون بقوة السلاح بحرية التصويت . وأخذ هذا الصراع صيره ، دون توقف الى حرب أهلية (٨٩ و ٨٨) بين قائدين متنافسين هما ماريوس Marius نصير الحزب الشعبي ، ولوكيس كورنليس سلا Lucius Cornelius Sulla ، نصير مجلس الشيوخ . ان انتصار سلا جعله سيد الدولة ، وكدكتاتور استخدم مضاء السيف لاعادة مجلس الشيوخ الى سيادة لا يكاد يوجد لها ضابط (٨١) . وكانت اعادة سلا في ذاتها ، ثورة ، في أنها تحققت بالسلاح . وبعد أن أنفى خصومه السياسيين دون رحمة ، تولى الحكم كحاكم مطلق التصرف . ولو أنه كان يعمل لصالح النظام القديم وتخلى عن حكمه الاستبدادي عندما أنجز عمله ، فقد كان مما لا معدى عنه ، أن آخرين يترسومون خطاه حيث أراهم السبيل ويستخدمون القوة العسكرية لغايات قد لا تكون غير ذاتية بأجمعها^(٢) .

٣ - (٣) وقد كشفت السنوات العشرون التي جاءت بعد اعادة سلا عن عدم قدرة مجلس الشيوخ على الاحتفاظ بالمكانة التي ظفر بها له . ولقد

(١) كان الايطاليون يمثلون أحسن أرومة في الدولة الرومانية ، ولما كان عليهم أن يضطلعوا بأثقل الأعباء العسكرية ، دون مزايا مقابلة ، فان هذا أعظم الأدلة خطورة على عدم أهلية الحكومة لمعالجة مسائل الدولة . وقد بذلت محاولات عديدة من عام ١٢٥ وما بعده لانصاف مظالمهم ، ولكن دون جدوى .

(٢) ان المجلد الباهر الذي وضعه ممسن عن عمل سلا وشخصيته (الكتاب ٤ فصل ١٠) يجب قراءته ولكن في حذر شديد . لقد أوتى سلا ، دون نزاع ، قدرة عظيمة كجندي ودبلوماسي وسياسي . وقد أظهر أيضا ذوقا أدبيا عظيما وقدم أعمال أرسططاليس في روما وكتب مذكراته الخاصة الخ ، وكانت له موهبة في المجانة الساخرة . ولما كان أرسططاليس عريفا ، فان ترفعه جعله لا يعتد بالنفوذ الشخصي . وكان لا يقيم وزنا للاخلاق على الاطلاق ، وحقق القليل مما كان انشائيا . وأعظم عمل دائم قام به هو تنظيم القانون الجنائي . وأي شخص يريد أن يقيم الدليل على أن الضرورة السياسية هي مرشد عديم الجدوى ، عندما تعزل عن الأغراض المثالية ، سيجد في الانهيار السريع لاعادة سلا لمجلس الشيوخ تأييدا لدعواه ، يسترعى البال .

تراث العالم القديم

جلبت الحرب الخارجية وكانت هذه المرة قد شنت في الشرق ضد مثرادطس Mithradates ملك بنطس في آسيا الصغرى (٨٨ - ٦٤) الى الجبهة قائدا جديدا في شخص بومباي Pompey (قنايس بومبيس Conaenus Pompeius) وفي عامي ٦٧ و٦٦ وكلت اليه سلطات غير عادية ، تنبىء مقدما ، في وضوح ، عن حكم الأباطرة الاستبدادي ، الذي جاء فيما بعد وبمقتضى القوانين الجابينية Gabinian والمنيلية Manilian أصبحت له السلطة Imperium مع الأمبيقية على جميع الحكام الاقليميين في الشرق لمدة ثلاث سنين ، وادارة من المبعوثين legati يبلغ تعدادهم خمسة وعشرين ، وموارد لا حصر لها من الرجال والسفن والتقود . وبعد أن قام باعادة تنظيم الشرق ، عاد الى الحاضرة في سنة ٦١ وهو الشخصية التي لها الأمر في الدولة الرومانية (١) .

(٤) ويتركز تاريخ الاثنى عشر عاما التالية (٦١ - ٤٨) حول ثلاثة نفر كان من بينهم اثنان يدينان بمرکزهما الى معاونة الكتائب . فمن جهة انساق بومباي ، وكان متعطشا للسلطة ولكن أجين من أن يقتنص الجائزة التي كانت في متناوله ، ليقوم في النهاية بدور حامى مجلس الشيوخ والجمهورية . ومن الجهة الأخرى فان الزعيم الديمقراطي جايوس يوليوس قيصر Caius Julius Caesar - ابن عم ماريوس - الذي في صباه نجح من الموت على يدى سلا بشق النفس - استحوذ بتحالف مؤقف مع بومباي

(١) كان مثرادطس أعظم خصم عنيد ، وقد أعقب موته بعد الهزيمة عام ٢٦٣ ، اعادة تشكيل بومباي لآسيا الغربية ، الذي أشير اليه في النص . وقد استغرق هذا الشطر الأعظم من عامين وكان له أهمية دائمة . وأضيف الى اقليمى آسيا وكليكية القديمين ثلاثة أقاليم جدد ، بثونيا وسوريا وكريت . وفي فلسطين ، وضع بومباي القيود على سلطة الكاهن الأعظم اليهودى . الزمنية ، وأبعد عن اختصاصه القضائى المدن الهلينية التي ازداد عددها في عهد السلوكيين . ولقد أظهر بومباي حكمة عظيمة في الاعتراف بالامراء المقطعين والمدن الحرة والاقسام القبلية كوسائل للحكومة ، تحت سلطة روما . وقد ترك آسيا الغربية في مركز يشبه مركز الهند البريطانية في هذا العصر ولكن كان يقوم على ادارة بعضها ادارة مباشرة ، موظفون رومانيون وكان البعض الآخر في صورة حكومات محمية . راجع دكورت Duckworth فى « الأعمال » (المقدمة : مجلد ١ ، الصفحات ١٧٧ وما يليها) لجاكسون وليك ، الذى يقابل ملك كبدوكية بنظام حيدر اباد ومملكة أرمينيا خارج النفوذ الرومانى بمملكة أفغانستان . وكانت روما معنية أشد العناية بالتسامح فى كل مختلف العقائد الدينية والعادات المحلية . وتزول الامارات المقطعة داخل الامبراطورية فى القرن الاول الميلادى .

ورجل المال الغنى كراسس Crassus على قيادة عسكرية فى الغال مماثلة لتلك التى سبق منحها لبومباى فى الشرق^(١) . وفى خلال السنوات التسع التى قام فيها بأعباء القيادة (٥٨ - ٤٩) فإنه لم يصنع فقط السلاح الذى أوقع به الضربة القاضية على الجمهورية ولكن بفتحته الغال ومد الحدود الرومانية الى الراين ، صد لمدى قرون قوادم تيار الغزو الهمجى .

وفى هذه الحادثة ، وفى حوادث كثيرة فى حياته العملية ، أظهر قيصر ، لدرجة خارقة العادة ، القدرة التى يتميز بها كثير من عظماء الناس فى التاريخ بمزجه المطمح الشخصى بالمصالح القومية الحيوية . وبين هذين المتنافسين ، الذى ينظر الواحد الى الآخر فى ريبة متبادلة ، ويسنان سيفيهما للمعركة ، كان يقف شخص الخطيب العظيم ماركس تليوس شيشيرون Marcus Tullius Cicero وهو محافظ حر جاهد فى شدة لينقذ الدستور الجمهورى من الوقوع فريسة للطغيان العسكرى . وعلى غرار دمستينس فى أثينا فى القرن الرابع ، قام بدور آخر نصير لدولة - مدينة حرة . وكانت سياسته سياسة اصلاح مزدوج : أن يوحد مجلس الشيوخ والمرفق المالى (equites) لدعم القانون والنظام ، ضد الفوضى ، وتوسيع أساس الدولة باشتراك الطبقات الوسطى فى البلدان الايطالية ، مع حكومة الدولة الرومانية^(٢) . ولكن التصلب الضيق فى نبلاء مجلس الشيوخ الذين لما كانوا لم يتعلموا شيئا ولم ينسوا شيئا فى أثناء اضطراب دام خمسين عاما ونيف فقد ظلوا متمسكين فى استيئاس بآخرة بقية من احتكارهم للسلطة وكذلك المطمح الشخصى الذى كان يساور القائدين العسكرين العظمين ، جعل كل جهود شيشرون ليؤلف بين الشيوخ والمرفق المالى ، والرومان والايطاليين ، دفاعا عن مبادئ الدستور التاريخية ، تذهب هباء . وحتى هو ولو أنه كان من الأحرار بمولده ، فقد أجبر فى النهاية على أن ينادى بإقامة « منظم للجمهورية » واحد ، يمكنه - وكان يرجو عبثا - أن يحكم فى تعاون

(١) كان قيصر (الذى يرجح أن مولده كان عام ١٠٢) متأخرا فى الصعود الى المرتبة الامامية فى السياسة الرومانية . والى أن تولى القنصلية عام ٥٩ ، لم تكن قدراته معروفة ولو أنه كان قد أظهر استقلالا فى معارضة سلا ، فى شبابه و قدرة ظاهرة كجندى وإدارى عندما كان يقوم بوظيفة برياتور فى اسبانيا عام ٦١ . وعن الغال الرومانية ، راجع مايل § ٥١ . ومن غير المستطاع الحكم الى أى مدى ، وضع قيصر خطة حكمه الاستبدادى فى السنوات السابقة لعام ٤٩ .

(٢) لخصت هذه السياسة المزدوجة فى كلمتى التنبيه Concordia ordinum (« تناسق المراتب ») و Consensus Italiae (« رأى ايطاليا المجمع ») .

ولا مجلس الشيوخ بالفانون وليس بالسيف . ولو كانت الجمهورية جديدة بالانقاذ لقام شيشرون بانقاذها ويصدق كذلك أنه لو أن شيشرون كان فادرا على انقاذها ، لكان قد أدرك أن المهمة مستحيلة . ونفضيل شيشرون الموت في النهاية على أن ينكر المثل الأعلى الجمهورى ، يفسر الى حد بعيد ما استحوذ عليه من احترام الأزمى اللاحقة . وأما ما خلا ذلك ، فان الغرور وعدم الشجاعة أعمياء عن حقائق الموقف الذى جهد فى التحكم فيه (١) .

(٥) وبهذا نجى الى الفصل الأخير من الفاجعة ، عندما عبر قيصر فى ربيع عام ٤٩ على رأس جيشه « الروبيكون » Rubicon ، الجدول الصغير الذى كان الحد الفاصل بين قيادته العسكرية وايطاليا . ولقد دهش الجميع . الذين كانوا يتطلعون وفرائضهم ترتعد لما سيقع على يده من اقتصاص لمذبحة سلا للديمقراطيين حين رأوا تقدمه المظفر يتميز بالاعتدال والرحمة للذين كسب بهما المؤازرة العامة فى روما وايطاليا ، وطالعت السنة التالية (٤٨) بومباى وقد سحق فى فارساليا Pharsalia . لقد كان فوز العبقريه على القدرة . ولقد صمد الجمهوريون فى الغرب طوال أعوام ثلاثة ولكن فى عام ٤٦ ، سقط كاتو رجل الحزب المثالى الذى لا يقبل مساومة فى صلح ، على سيفه فى أوطيقا فى أفريقيا . وفى سنة ٤٥ ، تركت خاتمة الانتصارات فى موندا Munda باسبانيا قيصر سيدا للعالم الرومانى دون منازع (٢) .

(١) خطابات شيشرون (مختارات ترجمها راتعة جينس Jeans - وقام بنشرها ماكيلان) تقدم شرحا ذا قيمة عظيمة عن هذه الفترة . راجع أيضا المقدمات التاريخية فى طبعة تيرل Tyrrell . لرمائل شيشرون . وعن شيشرون كرجل أدب راجع ما يلى § ١٩ .

(٢) كان كاتو محافظا صارما ، صاغ سياسته وفقا لسياسة سالفه رقيب بواكير القرن الثانى . وقامت دعوته التى لا تقبل تصالحا ، لتضييق سياسة مجلس الشيوخ تظاهرها أمانته الشخصية عقبة خطيرة أمام سياسة شيشرون المتحررة . وطبع كاتو الحلقي السامق ، ومثاليته الجمهورية ، وما وقع من ازهاق روحه بنفسه عندما تحقق أنه لا أمل فى مزيد من الكفاح . كل ذلك جعله موضع تجلته الحقب اللاحقة . ولهذا كتب لوكان Lucan فى عهد الامبراطورية الباكورة هذا البيت ذائع الصيت .
"Vicifrix Causa diis placuit, sed victa Catoni" (i, 185)

(ان الدعوة الظافرة كسبت رضى الالهة)

ولكن المهزومة كسبت رضى كاتو)

واختيار دانتي لكاتو ، كأنموذج لفضيلة الوثنية العتيقة ، ليكون حارس الشاطئ الذى يقع أسفل جبل المطهر Purg, Canto i كان مرجعه صورة فرجيل لكاتو وهو يقضى بالعدل للصالحين من الموتى (Aen., VIII, 670, "his dantem jura Catonem")

ب - يوليوس قيصر

٤ - لقد عزز قيصر سيادته بمظهر له صفة قانونية ، وذلك أنه ركز في شخصه طائفة من الوظائف الجمهورية مثل القنصلية والتريبونيه . ولقد تقرر نهائيا عام ٤٥ بمنحه الدكتاتورية مدى الحياة . ان احياء وظيفة بطل العمل بها منذ زمن طويل ، فيما عدا حالة سلا ، وكذلك اتخاذه لقب امبراطور Imperator بين مرة أخرى ككيف كانت السلطة Imperium كما في أيام الملكية السالفة ، المنبع الأوحده للسلطان في الدولة . وكما أن الملكية تحولت الى جمهورية بالتحديد النشائي للاشتراك في الحكم (شريكان قنصليان بدلا من ملك واحد) وبتحديد الزمن (الانتخاب لمدة سنة) فقد نجم الآن عن الغاء هذه القيود التحول من جمهورية الى ملكية . لقد تحققت ثورة ، على الطراز الروماني الحق ، دون الغاء الأوضاع الدستورية الغاء تاما . وبفضل هذه السلطات وغيرها ، عين قيصر موظفين وحكاما اقليميين ووضع عدد الوظائف التنفيذية وسيطر في تحكيم شامل على مسائل الحرب والسلم والشئون الخارجية وادارة الامبراطورية حتى أصبح الانتخاب الشعبي مجرد صورة للتصديق على من يعينهم الدكتاتور . وقد زيد عدد أعضاء مجلس الشيوخ الى ٩٠٠ وكان كثير منهم من الأقاليم لأن قيصر أنشأ السياسة الامبراطورية لرفع مستوى سكان الأقاليم ليكونوا متساوين مع الرومان . ولقد فتح مجال الوظائف العالية في مجتمعات ما وراء البحار للمعتقين . وفي الواقع ، أصبح مجلس الشيوخ أداة لتسجيل مواهبه . وفي التشريع ، وضع مجموعة هائلة من الخطط وكان لكثير منها مجال واسع المدى وتشمل اصلاحات اقتصادية وزراعية وتنظيم دساتير البلدان تنظيميا منسجما وتوسيع حق الانتخاب . وعلى سبيل المثال ، كانت قادس في اسبانيا أول المدن الاقليمية التي نالت هذا الامتياز ، واعادة تنظيم النظام المالي (١) .

(١) لا يزال باقيها قسم عظيم من قانون يوليوس للبلدان Lex Julia municipalis الذي يتعلق بالبلدان الايطالية وأجزاء من قانون ربريوس lex Rubria الذي يتعلق بالتنظيم الحضري في الغال على الجانب الروماني من الألب Cisalpine Gaul وهذه القوانين تفرق بين ولاية قضاء البريتور الروماني وقضاء الموظفين المحليين وتنظم شكل حكومة البلدان ، الذي يقوم به الموظفون ومجلس الشيوخ والمجالس ، والذي نما في الأزمن السابقة . وقد منح قيصر الحقوق المدنية الكاملة للغال على الجانب الروماني من الألب وأدمجها في ايطاليا ، أوغسطس (عندما كان اكتاويا) عام ٤٢ وقد ألغى قيصر نظام ضرائب العشور الرديء ، في صقلية وآسيا وعالج بقسرة عظيمة الموقف الاقتصادي الذي نجم عن الحروب الأهلية . وفي روما وضع قيودا على أنصبة الحنطة والغى المنتديات الشعبية الفاسدة . وقد كان يعترم وضع مدونة للقانون ولكن لم يواته التنفيذ .

ولقد وضعت خطط القيام بالأعمال العامة العظيمة ونفذت في إيطاليا والأقاليم وأسست المستعمرات عبر البحار مثل كورنت وموقع قرطاجنة ، ولا يزال التقويم الذى أصلحه قيصر مقبولا ، مع اليسير من التعديلات ، لدى العالم المتمددين . وكانت السرعة والنشاط اللذان وضع فيهما تصميم إعادة بناء تاريخي ، وتنفيذه يدعو إلى الدهشة كما كانت تدعو إليه حركاته في الميدان . وقد كشف هيجل Hegel بحق في قيصر « المثال لتكييف الوسائط بالغايات عند الرومان ^(١) . وفي الأعوام الخمسة الأخيرة من حياته ، لم ينفق لا ثمانية عشر شهرا في روما وتمثل جلائل أعماله مجرد المراحل الأساسية ، في مشروع شامل لحكومة امبراطورية .

ومع هذا ، فقد حددت الخطوط التي سار عليها حكم العالم الروماني مدى قرون - الحكم الشخصى للملك ، عن طريق ادارة من الموظفين المعينين شخصيا والسيطرة الفعالة على الكنائس والادارة الاقليمية وتوسيع حقوق المواطن في أرجاء الامبراطورية ، والمحافظة على السلام الداخلى وتعادل القانون ، وتحديد التخوم والدفاع عنها ضد المغيرين غير المتمددين . وفي جميع هذه الوجوه ، كان أوغسطس خليفته يعيم البناء على الأسس التي وضعها يوليوس قيصر في مثل تلك السرعة ولكن في بصيرة صادقة .

(٥) وآخر مسألة جاء ذكرها ، مسألة حماية الحدود كانت قد أهملت اضطرارا في خلال حقبة الثورة الأهلية . ولقد تحدثنا عن الخطر الذى كان يهدد إيطاليا في خاتمة القرن الثانى عن طريق تحرك العصابات الهمجية صوب الغرب من مواطنهم في الشمال والشرق عبر الراين والدانوب . وفي ذلك الحين أنقذ ماريوس روما بجيشه الذى أدخل عليه الإصلاح . وبعد ذلك بنصف قرن أمن فتح قيصر للغال تخمها الشمالى بصفة دائمة ^(٢) .

(١) فلسفة التاريخ الجزء الثالث ، القسم الثانى .

(٢) كان قيصر فقط في الوقت المناسب . وفي أول حملة له في الغال (٥٨) ، كان عليه أن يواجه غزوتين ، غزوة هالوطى Helvetii بمحاذاة الرون ، وغزوة الألمان بقيادة أريوسطس Ariovistus عبر خاتق بورغاندى بين الفوج والجورا . وكان أريوسطس على وشك إقامة دولة تيتونية قوية في الغال . ولو أن النصر لم يحالف قيصر ، لاجتاحت القبائل التيتونية الامبراطورية ومعها بناء المدينة الاغريقية الرومانية بأجمعه . ولقد أرجأ فتح قيصر ، الكارثة الى أن تأصلت جذور المدينة ومعها العقيدة المسيحية بين الشعوب المغيرة . وقد ألحقت المنطقة الجديدة أولا بإقليم الغال التربونى القديم وقد أنشأ أوغسطس ثلاثة أقاليم غالية جددا .

وفى أفريقيا أضيفت قورينا (٧٤) ونومديا (٤٦) الى قائمة الأقاليم . ولتند أتمى الخطر الداهم المباشر من الشرق . وكان يومباى (٦٧ - ٦٢) قد أعاد وضع نظام آسيا الغربية السياسى عند ختام الحرب المرادبية (١) . ولقد دالت الأسرة السليوكية وآلت ممتلكاتها الغربية الى روما بينما سار اقليم سوريا الجديد مع الامبراطورية البرنية فى وادى الفرات . وفى عام ٥٤ . شنت البرثيون شمل جيش رومانى فى « قرها » Carrhae ودعت دواعى الشرف والأمان على السواء ، للقيام بالعمل العسكرى الذى كان قد أصر أمدا استتال أكثر مما يجب . وهنا كما فى الفال ، كانت المسألة حقيقية وتتطلب السرعة . ان قيصر لم يصطنع الحروب ، للحروب فى ذاتها ، فى الشرق ، كما فى الغرب ، كان وجود الدولة الرومانية محفوظا بالخطر . ولم يضع قيصر وقتا فى مجابهة الأمر . وفى ربيع عام ٤٤ كانت القوات العسكرية الشرقية تنتظر قائدها ، ولكن فى ١٥ مارت (Ides مارت) ، عشية رحيله من روما هاجمه متآمرون فى مقر مجلس الشيوخ وهلك عند أسفل تمثال يومباى .

٦ - لقد وصف مقتل قيصر بحق على أنه أعظم علطة فى التاريخ لانه لم يأت بشيء سوى ازاحة أعظم رومانى عن المسرح ، وبعد ثلاثة عشر عاما من الحرب الأهلية - حشجة موت الجمهورية - أعاد وريشه الذى تبناه تكوين الامبراطورية . ولم تكن ظروف المسألة تسمح باجراء مغاير . وفى نظرس العصور اللاحقة التى تغذت على تقاليد الامبراطورية الرومانية والتى كانت تعتبر تلك الامبراطورية مقدسة - ليس فقط كمنبع القانون والمدنية - ولكن كأداة دبرتها العناية الالهية لنشر العقيدة المسيحية ، كان يظهر قتل قيصر كأخطك جريمة . وفى أعرق قرار فى جحيم دانتي ، وضع أكبر مذنبى التاريخ الثلاثة ، يهوذا الاسخريوطى الخائن لمؤسس الكنيسة العامة وبروطوس وكاسيوس ، خائنا الامبراطورية العامة . ولم يكن جريمة ولكن كان خطأ شنيعا ، لانه - كمقاومة دمستينس العنيفة لفيليب المقدونى - كان نتاج مثالية فطنة . ولقد لاحظنا مرارا وتكرارا فى هذه الصفحات كم كان بعيد الغور نفع دولة - المدينة للمدينة الاغريقية والرومانية بما كان يسودها من جو المناقشة الحرة والعدالة المدنية . وليس من العجب أن كان خلف الرجال الذين هماغوا ، تحت حمى دولة - المدينة ، الامبراطورية الرومانية بيناها الرائع من القانون والحكومة ، يغارون على الأنظمة التى بعثت العظمة فى روما والرومان .

(١) راجع عليه § ٣ . علاوة على الأقاليم التى ذكرت ، الحق أوغسطس كريت باقليم أفريقيا ، أما قبرص (وقد أدمجت عام ٥٨) فقد الحقت بكلية ولكن أوغسطس جعلها اقليما منفصلا .

ان روائط العرفان بالجميل الشخصى أو ما عجم من ترفق قيصر أو اعجاب بعقريته ، ماكان ذلك كله بقادر على حطم ذلك الاخلاص الشديد للجمهورية التى أوقع عليها الضربة القاضية ^(١) . ولا يمكننا ان نتوقع أن آخر جمهوريين فى روما قد أدركوا ما عجز شيشرون عن ادراكه بأن مصير دولة - المدينة أصبح قضاء مقضيا . ولقد انتقموا من الضربة بوسائل كانت مدونة القانون الخلقى عند اليونان وروما ، على السواء ، تبررها على أنها شريفة عندما تستخدم ضد طاغية وذبحوا قيصر ليس لدوافع انتقام شخصى أو مطمح ولكن من أجل الحرية المدنية وباسم روما .

ج - أوغسطس

٧ - فى عام ٣١ ، أصبح الساب أوكتاويان Octavian حفيد أخت قيصر ووريثه بالتبنى ، بانتصاره فى اقطيوم على أنطونى ، « سيد العالم الأوحده » ^(٢) كما جاء فى عبارة شكسبير . لقد كان أوكتاويان الذى يعرفه التاريخ جيدا بلقب أوغسطس هو الذى وصل بالنظام الامبراطورى بتفصيلاته ، الى درجة الكمال ، ذلك النظام الذى حكم بموجبه العالم قرابة ثلاثمائة عام . والمرسوم الذى أعلن دافع وخصيصة هذا العمل الجليل ، لا يزال موجودا

(١) لقد كان تسامح قيصر نحو مواطنيه مشهورا . لقد امتنع عن ممارسة عقوبة النبد من المجتمع والمصادرة وفى توزيع اراض على قدامى جنوده ، احترام فى عناية ، حقوق المالكين الموجودين . ان اجابته على ما أفصح به شيشرون من عرفان بالجميل لتسامحه نحو خصومه السياسيين الذين وقعوا تحت رحمته عند استسلام قرنينم Corfinium أثرت فى ماكولى تأثيرا عميقا حتى نعتها بأنها « الطف جملة كتبت على الاطلاق » وهى كما يأتى « أحس بالظفر والبهجة بأن ما قمت به نال استحسانكم وانى لا انزعج عندما يطرق سمعى القول ان أولئك الذين صرنتهم أحياء وأحرارا سيعودون الى حمل السلاح ضدى ، لأنه لا يوجد شىء أصيبو اليه أكثر من أكون لنفسى وهم كأنفسهم » (راجع ترفليان « حياة وخطابات ماركولى » فصل ١٦) ولكن قيصر لم يكن شخصية محبوبة ، وعلى ما وصل اليه علمنا ، لم يكن له اصدقاء حقيقيون . ويشهد شيشرون الذى كان يكرهه ولا يثق به على قوة شخصيته . وفى هاتين الناحيتين يرد الى ذاكرتنا مارلبوره ونابليون لا الاسكندر .

(٢) « أنطونى وكليوباترة » فصل ٥ منظر ٢ كان أبو اکتاويان ، جايوس اکتاويان ايطاليا من الطبقة الوسطى وأصبح حاكم مقدونيا وتزوج من ابنة أخت قيصر . وولد ابنه عام ٦٣ وهو العام الذى تولى فيه شيشرون القنصلية فكان عمره تسعة عشر عاما فى الوقت الذى قتل فيه قيصر وواحدا وثلاثين عاما عندما انتصر فى موقعة اکتيوم .

وهو منفوش على حجر (١) وهو يستهل بجملته تقع في آذاننا وقعا غريبا عندما نعلم التفكير في طبيعة عمله الحقيقية : « لقد نقلت الجمهورية من سلطتي الشخصية الى رقابة مجلسي الشيوخ والشعب الروماني » .

ماذا كان مرمى هذه الكلمات ؟ كان معناها اذا كنا لنقتبس من كاتب محدث أن أوغسطس قد تعلم درسه عند قاعدة تمثال بومباي . وما كانت روح يوليوس المتعالية - ويمكننا أن نستذكر الصورة التي وضعها دانتى له بين عظماء العصور القديمة « قيصر بعيني نسر » - لبراودها التفكير في التصالح مع النزعة الجمهورية باتخاذ مظهر المساواة بين المواطنين . وأوغسطس وهو أستاذ صنعة السياسة الذي لا سبيل للعاطفة اليه ، حجب حكما استبداديا مطلقا بقناع من المنهج الدستوري . ولما كان وليد روما القويم في احترامه للصور السطحية والسوابق المقررة ، فقد عقد النية على الاحتفاظ بوجود أنظمة الماضي العزيزة عليهم . ولقد لقب يوليوس بدكتاتور وهو تعبير كان يسيء الى الشعور الجمهوري لتداعي معناه بمعنى القيادة العسكرية وبامبراطور وهو اللقب الذي كان يحيى به الجنود قائدهم المظفر ، ويرضى أوغسطس بأن يكون مجرد زعيم princeps أى الرجل الأول بين زملائه الشيوخ (٢) . وفي مسلكه نحو أشراف الرومان أنبياء العالم الذين لا يملكون من الأمور شيئا ، كان فيأمله بدوره رائعا . لقد كانت حياته بسيطة وصارمة ، مجردة من أى أثر لآداب السلوك ورمزيات البلاط . وقد راعى أن سلطاته تمنح على الطريقة الجمهورية القديمة بتصويت مجلس الشيوخ (السناتو) أو المجلس الشعبي . وقد كان مرجع حكمه الاستبدادي الى أنه جمع في شخصه الوظيفتين الجمهوريتين : التربيونية وهي أعلى رتبة وكانت أساس سلطانه في روما ، والسلطة Imperium القنصلية مع تقدمه على جميع حاملها وهو ما ضمن له السيطرة على الجيش والأقاليم . وكانت هاتان السلطتان ، على التحقيق ، هما اللتان جلب التوسع فيهما انحلال الجمهورية في العصر السابق . ومنذ ذلك الحين كان الجيش يقسم بين الولاء للزعيم princeps وحنه وكجبر أعظم ، كان سيد أداة دين الدولة الذي كان لا يزال عاملا هاما في القانون والسياسة . وكانت هذه الروح المحافظة عينيها ، تلك التي كان يظهرها أوغسطس لتحديد مركزه الشخصي ، حلبة للعيان في

(١) أثر أنقرة التذكاري من أنقرة في آسيا الصغرى . وقد أقيمت نسخ منه في مراكز مختلفة في العالم الروماني . ولقد حدد أوغسطس مكائته كرئيس للدولة عام ٢٧ ومرة أخرى عام ٢٣ . وقد عولج في هذا القسم مجموعتنا الخطط معا .

(٢) حتى زمن ديوقلطيان يكون لقب زعيم princeps خاصا بالامبراطور والزعامة principate بالامبراطورية .

اعادته أوضاع نظام الحكومة . وكانت طبقة عمال المدينة ، فى الواقع ، قد جردت عن سلطاتها التشريعية وتدهورت مجالس الشعب سراعاً الى مهزلة (١) . ومن الجهة الأخرى ، كان يعامل مجلس الشيوخ بمراعاة مدروسة . وقد كان المجلس يمنح السلطة imperium للحاكم الذى يكون قد ظفر بالتصويت من بين قائمة أسماء المرشحين للوظيفة ويوافق على المراسيم التى كانت لها قوة القانون . وكان للزعماء princeps ومجلس الشيوخ مرتبة متعادلة كترتيبين أعلىين . وكان كل منهما يشرف على خزينة منفصلة . وكانت حكومة الامبراطورية مجزأة بين السلطتين . ولكن مما كان له مغزى ان الأقاليم التى وكلت الى مجلس الشيوخ ، كانت الأقسام المسالمة التى تقع فى الداخل . أما تلك التى تقع على الحدود حيث كانت تتركز الكتائب ، فكان الامبراطور يحتفظ بها بين يديه . وكانت مصر ، على الأخص ، بالنسبة الى أهميتها من حيث الخطط العسكرية وكونها مخزن الغلال الرئيسى لروما ، يتولى ادارتها عن طريق رئيس perfect له رتبة الفرسان equestrian وأقل مركزاً من حكام أقاليم الامبراطورية العادية . وكان يطلق على هؤلاء لقب Legates أو معاونين عسكريين ، بينما احتفظ حكام مجلس الشيوخ باللقب الجمهورى بروقنصل (نائب قنصل) proconsuls (٢)

ومن الواضح أن هذا الظل من الرقابة المزدوجة ، كان تجربة مصطنعة دبر أمرها لارضاء الأرستقراطية الرومانية القديمة . وبصفة موقوتة ، أدت الغرض منها ، ولكن فى عهد خليفة أوغسطس أظهر خنوع مجلس الشيوخ أنه على الرغم من الشكوك السطحية ، كانت السلطة الحقيقية تنحصر فى الامبراطور ، وتنحصر فيه وحده (٣) .

(١) يوجد مثالان مدونان ، فقط ، للتشريع الشعبى بعد طبريوس .
(٢) كان المعاونون العسكريون يتولون الوظيفة مدة ثلاثة أعوام وغالباً ما تكون أطول من ذلك . أما نواب القناصل الذين لم تكن لهم قيادة عسكرية ، فلسنة واحدة . وعلاوة على هذا ، كان الامبراطور يؤثر تعيين نواب القناصل عن طريق رقابته على الانتخابات القنصلية ودخول مجلس الشيوخ .

(٣) لقد رأى أوغسطس هذا فى جلاء كما يتضح من آخر أقواله المدونة : « ماذا تظنون فى المسلاة يا أصدقائي ؟ هل أدبت دورى فيها خير تادية ؟ » . وفى خلال حكم دام أربعين عاماً ونييف ، لم ينفذ صبره الذى لا نهى له وتحفظه العميق وبصره الناقد بالرجال والأمور . وكانت كل أفعاله نتاج تفكير سابق ، واع . وتداول القصة بأنه لم يتناقش قط فى شئون الدولة ، حتى مع الامبراطور لويبا Iulia ، دون أن يضع تذكرات ، مقدماً . حقا قد يكون أوغسطس أعظم سياسى فى التاريخ .

٨ - كان هذا مبدئيا ، العهد الذي وطد دعائمه أوغسطس في روما .
وإذا أنسحنا مجال النظر نجد ثلاثة مظاهر للعمل الذي اضطلع به في خلال
حكبه الطويل (٣١ ق م - ١٤ ب م) ، جديرة بملاحظة خاصة . أولا فيما
يختص بإدارة إيطاليا والأقاليم ، جهد أوغسطس في حماسة لتحقيق الأمل
الذي كان يصبو اليه شيشرون ، على غير طائل ، لادماج الإيطاليين ليكونوا
جميعا على قدم المساواة في تكوين الدولة الرومانية . ولقد شجعوا على أن
يعتبروا ماضى روما العظيم ماضيهم وأن ينضوا في كبرياء من حب الوطن ،
في مهمة إعادة بناء الامبراطورية . ومن بين أهل الحضرة وأهل ريف إيطاليا ،
لم يجد أوغسطس فقط الدم الجديد الذي يجب أن يعيد نشاط الخدمة العامة ،
ولكن وجد رجالا أوتوا عبقرية أدبية أمثال فرجل وهوريس ولوى وأوفيد ،
الذين أمكنهم أن يشيدوا بمجد روما وقيصر في آثار تذكارية خالدة ، شعرا
ونثرا . وقد نمي أوغسطس تقدم البلدان والزراعة والأعمال العامة في أرجاء
شبه الجزيرة . واتخذت الخطوات الأولى في عملية حطم الحواجز التي كانت
تفصل روما عن إيطاليا وإيطاليا عن الأقاليم . وقد وضع أحصاء شامل
امبراطوري « احصاء الأراضي وقيمتها وأصحابها Domesday Inquest
عن كل الجمهورية ، وكانت تعتمد السجلات التي اختزنت في محفوظات
البلدة كأسساس نظام عادل للضرائب » . وفي تلك الأيام صدر أمر من
أوغسطس قيصر بأن يكتب كل المسكونة ^(١) . وكانت الأقاليم ، لأول
مرة ، تدار شئونها كمصالح في دولة واحدة . وقد وضعت الرقابة على
سلطة الحكام ووضع حد لظلم أهل الأقاليم بسحب الامتياز الخطير في طلب
امدادات كلما شاءت الإرادة وبتعيين آدارى مالى مستقل مسئول شخصيا أمام
الزعيم princeps وبايجاد أداة فعالة لتقديم الالتماس والاستئناف لروما .
ولو أن عبء الضريبة كان قد خفف فإن الدخل ازداد . وقد ألغيت قيود
التجارة داخل الامبراطورية في كل مكان ووسعت الحكومة المحلية وأعيد
تنظيمها على أسساس منتظم وأنشئت المجالس الإقليمية وخولت سلطات
واسعة . وعندما قام شعب أفسوس بهياج بمناسبة زيارة القديس بولس ،
أمرهم كاتم سر المدينة بأن يتذكروا أنه كان يوجد « حكام لآسيا »
Asiarches . أى هستشارون اقليميون لآسيا يمكنهم أن يتقدموا اليهم

(١) لوقا ٢ ، ١ (النسخة المعدلة) كان يوليوس قد وضع الخطوط
للتعداد والاحصاء الاقليمي . واستغرق انجاز المهمة كلها خمسين عاما ولخصت
نتائجها في « احصائية الامبراطورية » ، وهى سجل يبين موارد الدولة
وميزانيتها وورثة أوغسطس لطبريوس (راجع طاقيطس . An., i, II.) ولقد
واصل أباطرة القرن الثانى وديوقلطيان العمل تباعا ليطلق آخر تاريخ .

بشكائياتهم (١) . وإذا كان أوغسطس أقل سماحا من يوليوس في منح صفة المواطن ، فقد كانت الرغبة في بعث حب الوطن المدني في روما وإيطاليا هي التي جعلته ضئيلا بتوسيع حرية التصويت لتشمل سكان الأقاليم . (٢)

وزيادة على هذا فقد وضع أسس الخدمة المدنية الامبراطورية الدائمة فكان الموظفون يعينون في مبدأ الأمر من طبقة الفرسان (equites) ، ومن الايطاليين ، وبعد ذلك في درجة تضطرد ازديادا من صفوف الرجال المحررين (العبيد المعتقين) . وقد تحولت ادارة الامبراطورية على التدرج من أيدي الأرستقراطية الرومانية ، لا الى أيدي الايطاليين وحسب ، ولكن الى سكان الأقاليم من ذوى الذكاء والمعرفة وخاصة الرجال الذين يرجعون الى أصل اغريقي أو اغريقي شرقي . وعلى هذا كان المجال مفتوحا لحياة عملية مزدهرة بالآمال ، أمام الجميع وضمن خلق بيروقراطية ماهرة الاستمرار لحكومة اقليمية . نانيا ، جهد أوغسطس بالقدرة الشخصية والتشريع العام في أن يضع حدا لفيض الانحلال في الدين والأخلاق عند الرومان . ولقد شجع الشعراء على مناصرة القيم القديمة ، في البساطة الصارمة وعلى الاشادة بأولئك الكرام الذين كان ورعهم وفضيلتهم المدنية ، مجد الجمهورية الباكورة . ولقد أقيمت المعابد وأعيدت الفرائض التاريخية . وكانت توقع العقوبات الشديدة عن الذنوب الخلقية ووضعت القوانين التي تقاوم العزوبة . وذهبت جهود الامبراطور عينا لأن الاخلاق لا يمكن اصلاحها بقانون وأبعد تدهور الطبقات الاكثر ثراء وذيوع الهلينية ، العودة الى القيم البسيطة التي سادت في عصر ولى . (٣)

والاستثناء الوحيد في موجة الفشل الذي منيت به هذه السياسة ، كان عبادة الامبراطور نفسه . ولم تساور أوغسطس أية خدعة في هذه المسألة . وبينما كان يصرح بتأدية أنواع التكريم الالهى ليوليوس ، فقد منع عبادته الخاصة ، في إيطاليا ولكنها ذاعت كأنها النيران الجامحة ، في الأقاليم وتطورت قبل مضي زمن طويل حتى غدت الدين الرسمى للدولة العالمية . ولم يكن يوجد شيء في مراسمه ينجم عنه انتهاك للشعور الرومانى لأن الدين في روما كان على الدوام في معظمه ، سياسيا وكان يمكن أن يوضع رجل السياسة في قائمة القديسين دون اخلال عنيف بالاحترام الذاتى . أما فيما يتعلق بامبراطور على قيد الحياة ، فإن العبادة كانت توجه الى الهه الحارس ،

(١) الأعمال ١٩ : ١٨ .

(٢) في عام ٧٠ ق.م. كان عدد المواطنين الرومان ٤٥٠.٠٠٠ وفى عام ٢٨ ق.م (أول تعداد لأوغسطس) بلغ ٤٠٠.٠٠٠ وفى عام ١٣ م . (التعداد الثانى) وصل الى ٥٠٠.٠٠٠ .

(٣) عن تشريع أوغسطس الاجتماعى والدينى راجع بلهم Pelham « مقالات فى التاريخ الرومانى Essays in Roman History - سياحة أوغسطس الداخلية » .

Genius . والقيام بالعبادة بعد الموت ، لم يكن غير التعبير الطبيعي عن عرفان بالجميل ، ورع . وكانت المجالس الاقليمية التي أشير اليها آنفا ترتبط ارتباطا وثيقا بهذه الخدمة الدينية « للاله الحارس لروما وأوغسطس » ، وهى التى أصبحت فى خلال القرن الأول الميلادى ، الرمز الخارجى لوحدة الامبراطورية السياسية (١) . وأخيرا أتم أوغسطس العمل الذى استهله يوليوس بتحديد تخوم الامبراطورية . ولقد كانت الطبيعة هى التى أقامتها فى الشرق ، الفرات وفى الغرب ، الأطلنطى وفى الجنوب ، صحارى أفريقيا وبلاد العرب وفى الشمال ، الراين والدانوب من القناة الى البحر الأسود . ولقد تألفت الحرب بالسياسة للمحافظة على سوريا من الفارثيين وعادت البنود التى فقدت فى قرها Carrhae الى روما ظافرة . وكان أعظم تهديد يربط على الحدود الشمالية ، وهنا كانت القبائل التيونينية تتراعى أفواجها دون انقطاع على المواقع المحصنة حديثا ، على الدانوب والراين . وفى حملة بعد حملة جهد قواد أوغسطس فى كبيح الألمان الذين كانوا يسكنون بين الراين والألب . ولقد جعلت هزيمة وارس Varus - فى سنة ٩ م . الامبراطور يعقد النية بصفة نهائية على الاقلاع عن سياسة التقدم ، وتكدست على محاذاة الحدود الطبيعية الكنتائج ، ثمانية على الراين وثمانية على الدانوب وثمانية فى سوريا ، بينما كان يقوم الأسطول الرومانى بالحراصة على مياه البحر المتوسط (٢) . وبهذا حفظ السلام الرومانى Pax Romana ولقد ظل مقيما طوال أربعة قرون يقطعه فقط ، بين حين وآخر ، ما كان يحدث عند موت امبراطور ، من سير قواد جيوش الحدود صوب روما وتقاتلهم من أجل العرش الامبراطورى .

٢ - الامبراطورية فى القرون الثلاثة الأوائل (٣)

كان العالم الرومانى يحكم طبقا لمبادئ أوغسطس الى أن اعتلى العرش ديوقلطيان عام ٢٨٤ ولأول مرة وللمرة الفريدة فى التاريخ ، اندمج النوع الانسانى المتصدين فى دولة واحدة وكانت دولة استبدادية عسكرية .

(١) لم يكن يترتب على عبادة الامبراطور أية عقيدة لاهوتية . ولقد تقبل فرجل وهوريس Horace فى يسر تاليه يوليوس . ولم يخامر الأباطرة أنفسهم تصورات كاذبة . وعندما كان واصفاسيان Vespasian ينازع الموت سألته أسدقاؤه عن حاله فأجاب « أخشى أنى أتحوّل الى اله » (Vae, puto deus fio).

(٢) هذا يمثل التوزيع فى عهد طبريوس . وبلغ مجموع القوة زهاء ٣٢٠.٠٠٠ يضم خمسا وعشرين كتبية .

(٣) من هذا الموضع فصاعدا ، تشير جميع التواريخ الى العهد الميلادى الا حيث يذكر خلاف ذلك .

وليس من شأننا أن نتقصى اثر توارى الأقتعة على التدرج ، تلك الأقتعة التي كان مؤسسها يخفى بها حقيقة حكمه الاستبدادى الثابتة وكيف أن المجلس الشعبى ثم الموظفين المدنيين وأخيرا مجلس الشيوخ بطل عملهم أو حيث قدر لهم بقاء ، احتفظوا بقيمة محلية شرفية وحسب (١) . فعلى سبيل المثال ، كانت الدولة لا تزال تعرف رسميا « بالجمهورية » حتى خاتمة القرن الثالث . ولقد سبق أن تحدثنا عن أساس سلطة الامبراطور وكان أهم عامل مزعج فى النظام ، مسألة ولاية العرش . وما كان يجرى عليه الأمر فعلا ، هو أن الامير الذى يتولى الحكم ، كان فى الكثير الغالب يعين ابنا أو قريبا من الذكور خلفا له بأن يعمل على منح السلطة imperium وولاية «التربيونية» والعرف الرومانى فى التبنى كان يعمل به فى كثير من الأحيان وخاصة فى القرن الثانى ، ولم تكن هذه الاحتياطات مجددة فى منع ما كان يحدث بين حين وآخر ، من مشاحنات كما وقع عند موت نيرون عام ٦٦ وكما حدث مرارا عديدة فى القرن الثالث عندما كان يطالب قائد واتاه النجاح ، يظهره أحد جيوش الحدود أو حرس «التربيونية» ، بالعسرس الحاوى . ان الامبراطورية ، كالملكية القديمة ، لم تكن وراثية ولكن انتخابية . والنظرية القائلة ان أى مواطن رومانى كان أهلا للولاية ، ظلت قائمة طوال تاريخها . وهذا يفسر السبب ، كما سيتضح فى فصل قادم ، فى أنه عند اعادةها فى الغرب فى القرن التاسع ، كان يمكن أن يعتبر أحد زعماء الفرنجة ، الخليفة الشرعى لأوغسطس . ولستنا فى حاجة الى اطالة الحديث فى سير أفراد الأباطرة ، مع كل ما فيها من تشويق شخصى (٢) . وعند الكثير من القراء ، تعد قصة الامبراطورية ، قصة حكاهما بينما النظام الذى كانوا

-
- (١) بقى مجلس الشيوخ مدة أطول وله كيان ذو اثر فعال . ومن سلطاته ، ظلت سلطة ولاية القضاء الاستثنائى ، حتى القرن الثالث .
(٢) يمكننا أن نميز مجموعات الأباطرة الآتية فى تسلسل تاريخى :
(أ) أباطرة الفرع اليولى - القلودى : أوغسطس (حتى عام ١٤) ،
طبريوس (حتى ٣٧) ، كاليجولا Caligula (حتى ٤١) ، قلوديس (حتى ٥٤) ، نيرون (حتى ٦٨) .
(ب) أباطرة الفرع أفلاوى Flavian : واسفاميان Vespasian (حتى ٧٩) ، طيطس (حتى ٨١) ، دمطيان (حتى ٩٦) .
(ج) أباطرة بالتبنى : ناروا Nerva (حتى ٩٨) ، طريان (حتى ١١٧) ، هدريان (حتى ١٣٨) ، انطونيس فايوس (حتى ١٦١) ، ماركس أورليوس (حتى ١٨٠) .
(د) أباطرة الشكنات (الذين عين أسماءهم الجيش) : من ١٩٢ الى ٢٨٤ . وكان أقدر هؤلاء سلفطبيوس ساورس Septimius Severus (١٩٣ - ٢١١) ، أورليان (٢٧٠ - ٢٧٥) ، وفرويس (٢٧٥ - ٢٨٢) .

يسيطرون عليه والذي يؤثر في مصير الملايين يظل غير معروف فرضا (١) . وحتى في حالة أولئك الأمراء الذين تظهر قدرتهم في أعظم جلاء ، تعنى المسجلات الأدبية في معظمها بالسخيف من تفصيلات أقاويل البلاط . اننا فقط بجمع القصة التي تسردها النقوش المتناثرة في أرجاء الأقاليم ، نعرف كيف نسبر غور النظام الامبراطوري في نسبه الحقبة ، وعند ذلك يتجلى لنا أن شطحات كاليجولا أو نيرون الجامعة ، التي تتراعى بمثل هذا العظم في صفحات طاقيطس وسوطنيس Suetonius ، كان من شأنها فقط أن تثير هياجاً عابراً في الحاضرة . وكانت الآلة الهائلة تؤدي دوراتها المعينة ، دون أن تلقى بالا الى نزعات صاحبها ، وعندما عرض القديس بولس أمره على المحكمة الامبراطورية فانه كان يتوقع من قيصر ، وليس من نيرون ، العدالة وقد لقيها فعلاً . ويمكن ، من الجهة الأخرى ، أن يظهر عظم التأثير الذي يستطيع حاكم قدير ذو همة أن يحققه في ميادين الدفاع العسكري والادارة الداخلية والقانون ، من مثال وحد .

١٠ - لو أن الحكم الفردي الاستبدادي يستحق المديح اطلاقاً ، فان الامبراطور هديان (١١٧ - ١٣٨) يمكنه أن يقيم دعواه في أن يعد حاكماً استبدادياً أرسلته السماء . ولما كان قد ولد في روما عام ٧٦ - وأبوه ، من أهل اسبانيا ولكن ينحدر من سلالة ايطالية ، وكان ابن عم طريان Trajan فقد تدرب في زمن باكر على الوظيفة . وفي سن الخامسة عشرة كان يخدم في الجيش ، وفي السابعة عشرة كان يقوم بوظيفة قاض في القضايا الخاصة . ولقد تولى ، على التعاقب ، في بريطانيا ومويسيا Moesia وعلى الراين وسار في ركاب قريبه العظيم خلال حملاته المظفرة في داقيا وفي الشرق . وعلى هذا فانه عند موت طريان وارتقائه العرش في سن الحادية والأربعين ، كانت قدراته الطبيعية في أصالة الحكم والخيال وتحسنه للعمل الذي لا يعتبره كلال ، قد أنضجتها التجربة الواسعة في السلم وفي الحرب جميعاً . لقد كان هديان سياسياً أكثر من أن يكون جندياً واعتاد أن يزهو بأنه كسب بعدة السياسة أكثر مما كسب بعدة السلاح . وفي حكمه الذي دام إحدى وعشرين سنة وضع طابعه ، أصلاً وتفصيلاً ، على تكوين الادارة الرومانية والقانون ، بأجمعه ولقد نظم مجلس الدولة الامبراطوري ووظائف كتمة أسر

(١) الانستان ماريا وجوليا برترام Misses Maria and Julia Bertram في رواية جين أوستن « منزه منسفيلد Mansfield Park » (فصل ٢) ولهما من العمر ١٣ و ١٢ عاماً على الولاة كان يمكنهما أن يتلوا « في الترتيب الزمني ٠٠٠ مع تواريخ اعتلائهم العرش ٠٠٠ الأباطرة الرومان نزولا حتى ساورس » .

الامبراطورية ونظام مواصلات البريد (١) الامبراطورى . وقامت الأعمال العامة والأنظمة الخيرية الى حيز الوجود بابتكاره . ولقد سَجعت الزراعة ورصدت الاعانات للجامعات ومنحت صفة المواطن والحقوق اللاتينية فى سخاء وقد كتب واضع سيرته « لقد كانت لديه معرفة شاملة شمولاً تاماً بالمسائل المالية العامة كآى رب بيت يحسن القيام على شئونه الخاصة ولم يوجد أمر تفصيلي تجاوزت دقته حدا لا يسترعى انتباهه ، وقد كشف لوح فى جنوبي البرتغال يظهر فيه وهو ينظم حياة قرية تعدين عاكفا على ارساء قواعد لصانع الأحذية المحلي والحلاق ووضع الخطة لتنظيف الغلايات فى الحمام العام ، كل شهر ، ومعافاة (وياله من نص رحيم!) أساتذة المدارس من دفع الضرائب . (٢) وكانت جهود الامبراطور أكثر ظهوراً وأثبتت على الزمن فى مجالى القانون والحكومة الاقليمية . ولقد استهل عصر القضاء الرومانى ، الاتباعى ويرجع الى واعز شخصى صادر عنه ، ما جرت عليه الحال من اصدار فتاوى امبراطورية ترتبط بها المحاكم ووضع المرسوم الدائم (٣) والاعتراف بأن يكون لآراء عظام الشارعيين قوة القانون . ولقد أصبح الامبراطور الآن القاضى الأعلى لكل دعاوى الاستئناف الجنائية . وقد خفف من قسوة سلطة الوالد ومنح النساء حق وضع الوصايا وألغى الضحايا البشرية وفرض قيوداً شديدة على تعذيب العبيد : وكان الشعور الانسانى أهم ظاهرة فى خليقة هديران وأفعاله . (٤) وكان أحد الرموز المحببة على نقوده ، منظر امرأة تبكى ، يرفعها الامبراطور عن الأرض . ولقد أنفق أكثر من نصف عمره فى تجولات سريعة خلال الأقاليم . ولقد قيل انه قطع ٢٠.٠٠٠ ميل سيراً على القدم وهو يرتدي عدته العسكرية الكاملة . (٥) وفى المدة التى تقع بين عامى ١٢١ - ١٢٦ ، زار كل صقخ فى الامبراطورية من اسبانيا الى سموريا ومن بريطانيا الى أفريقيا وهو يأتى بالاصلاح على الادارة العسكرية

(١) كان معدل السفر فى خدمة البريد خمسة أميال فى الساعة . وكانت رحلة يوم عادية تبلغ من ثلاثين الى خمسين ميلاً ولكن كان يمكن قطع مائة ، اذا استدعت الحال .

(٢) راجع هـ . س . جونسن H. S. Jones فى « تراث روما »
The Legacy of Rome

(٣) عن المرسوم الدائم ، راجع ما يلى § ١٧ .

(٤) لقد رفض التصديق على تهمة الخيانة العظمى (Majestas) أو قبول تآريث الا من أصحابه الشخصيين ، ومن أولئك فقط اذا ماتوا بغير خلف . وبهذا أزال اثنتين من أشنع المساوىء العرضية فى الامبراطورية . (٥) كان هديران صيادا عظيماً كما كان مشاء عظيماً ، وكان له قدرة خارقة العادة على تحمل المشاق البدنية ويعيش فى المعتاد عيشاً بسيطاً وكان شديد الشكسية فى المحافظة على النظام .

ويحصن الحدود ويزور الجنود المرضى في المستشفى ، ويعيش وهو في المعسكر على ما يقدم لرجال الكتائب من غذاء ، ويقوم بالتفتيش على الصناعات . وفوق هذا كله ينهض بإنشاء الأعمال العامة ويعيد بناء المدائن . وبعد أقل من سنة في روما ، قام برحلة ثانية وأمضى ست سنوات (١٢٨ - ١٣٤) في الشرق الذي كان مزاج عقله يستجيب لدعوته القاسرة بطريقة فريدة . وما يجعل هديران مشوقاً الى حد عظيم ، هو حبه للاستطلاع الذي لا تشفى له غلة والحماسة العقلية التي كانت تلقى بريفاً من الإبداعية (الرومانسية) على نهوضه ، الذي لا يكل ، بواجبه الرسمي . « قلق في كل أمر ، طوال حياته » هو حكم واضح سيرته اسفرتيانوس Spartianus . ولقد كان الشغف بمشاهدة المناظر متأسلاً فيه . وقد صعد جبل قاسيس Casius ليرى مطلع الشمس وأطناً لمشاهدة غروبها ، وأعاد دفن عظام أياكس Ajax في طروادة وزار حظائر الخراف في بريطانيا وقبر بومباي في مصر ، وقبر افيمننداس Epaminondas في منطيا وتلقن أسرار اليونسس Eleusis وحفر اسمه على تمثال ممنون . وفي أثينا حيث أعاد إقامة الأبنية على نطاق مسرف ، تولى الرياسة كأحد الموظفين التسعة في عيد ديونوسوس العظيم وقد كان محباً للهلينية من صميم القلب ولقب وهو صبي بغرايقولس Graeculus (الاغريقي الصغير) ، ووجه عنايته الى مصاحبة رجال الأدب . وكان يزهو كثيراً بمعرفته بالموسيقى وفنون النحت وفي جهوده الخاصة في الشعر والشعر (١) . وكان ذوقه كذوق أتباع هلاس في تدهوره ، بعيداً عن أن يكون نقياً . لقد كان يتعشق ما كان غريباً ، بالغ الاسراف ويفضل انطيماخس على هومر وانيوس على فرجل . وكان يضع تصميم المعابد وواحد منها ، أقيم تكريماً لفينوس وروما ، كان على موقع الجلجثة Golgotha - الذي فيه ، كما ذكر النقاد الهازلون لم تكن الآلهات يستطعن الوقوف منتصبات . وقد وضع المقرب اليه ، انطينوس Antinous ، وهو اغريقي آسيوي ، الطراز لثالث عصره لجمال الذكور الاباحي . وكان القرن الثاني عهد انتعاشات دينية ، وكلما أمعنت العبادة في أن تكون غريبة وأجنبية ، كان استغواؤها للعالم الروماني أقوى . وكان هديران يكلف أيضاً بالرجوع الى الأحلام واستيحاء مهبط الوحي ويضع الحطة لحياته كل سنة على التعاقب ، وأله انطينوس وسمى نجماً باسمه تكريماً له ، بعد موته . ولو أن القصص المدونة في التلمود عن أحاديثه مع شراح الشريعة العبرية ، خرافية ، فانها تدل على التأثير الذي تركه في العقل العبري . ولقد دفعت محاولته الغناء فريضة الحثان واقامة مستعمرة اغريقية رومانية

(١) لقد كان على وفاق مع العبد الروائي افقطيوس Epictetus والمؤرخ الاغريقي فاورينوس Favorinus ، من أهل مرسليا .

(Aelia Capitalina) على موقع المدينة المقدسة المهدم ، اليهود الى القيام بآخر ثورة لهم وأشدّها رعباً (١٣٤ - ٦) . ولقد أظهر الامبراطور للمسيحيين تسامحاً يتسم بالاحتقار . وفي هذا كله كان طراز ثقافة القرن الثاني من حيث شيوعها وقدمها ، ومغالاتها في التأنق وانحلالها . ويكتب ريسان « كان الشرق على الأخص يجتذبه ، ولقد كان يشاهد فيه المداجاة والتهريج ، وكان يتسلى بهما » . ولكن هديران لم يكن مجرد غاو للفن الجميل ، فقد ظل في قلبه ابناً لروما الوثنية . ويقول اسفريطيانس « لقد كان يعنى أشد العناية بمراعاة العبادات الرومانية ويحقر عبادات البلدان الأخرى » . ولم تكن لديه أوهام ولم تعق نزواته اطلاقاً سير حكمه المتزن وفي شخصه ، كان الموظف المدني المثالي يرتدى الأرجوان الامبراطوري ولتوضيح هذا بأمنلة حديثة ، كان هديران أكثر قرابة بلورد ملنر Milner أو سر روبرت مورانت Sir Robert Morant منه الى أومسكار وايلد Oscar Wilde . والشهرة ، كما جاءنا النبأ ، كان يسعى اليها في حماسة ولكن بمسالك أخرى غير هذه . وكان يعلم جيداً أنها كانت الطرق العسكرية البريطانية والألمانية (١) والمدائن التي ابتناها والقوانين التي وضعها ، هي التي جعلت منه واحداً من صفوفة عظام الاداريين الذين ظهروا في الوجود . وآخر أعماله المدونة وهو طريح الفراش ، ينازع الموت في روما ، تعبر عن شخصية متعددة النواحي : تهكماته من أطباء البلاط « ان أطباء أكثر مما يجب هم الموت لأمر » ، والسطور التي وجهها لروحه الراحلة التي تعكس باللاتينية صورة الجمال الذي يستأنى في آخر عهد للهلينية (٢) . وما كان يشغله عن كل شيء آخر وهو تعيين خلف ذي جدارة ، في شخص انطونينس

(١) عن الطرق العسكرية ، راجع ما يلي § ١٣ ، تذكرة ٢ .

Animula, vagula. blandula, (٢)
Hospes comesque corporis;
Quae nunc abibis in loca ?
Pallidula, rigida, nudula,
Nec ut soles dabis iocos.

وقد ترجمها « الى الانجليزية » ماركس س. ديمسديل Marcus S. Dimsale
(*الأدب اللاتيني صفحة ٥٢٦)

« ياروحي الغامضة ، حسنة السميت والحلق

ضيفة هذا الجسيد وصديقته

اذكري ، الى أين المسير الآن ؟

وأنت شاحبة ، ومتصلبة وعارية

وأيتها الروح الصغيرة .

كل دعاباتك قد أنت الى نهاية » .

فايوس Antoninus Pius يؤول اليه العرش الامبراطورى .

١١ - واذا تحولنا من الامبراطور الى الامبراطورية ، نجد أن حكومة العالم فى القرن الثانى تقع فى ايدى بيروقراطية عظيمة . وكان رؤساء المصالح فى روما فى الاصل ، أعضاء فى حاشية الامبراطور وكانوا لا يزالون يعتبرون معاونين شخصيين يشبهون فى ذلك كاتى السر ومدبرى الضياع لدى شريف من الافراد . وكان اهم هؤلاء الأربعة مراتبين procurators وهم مراقب المالية والمستشار القضائى ومستلم الشكاوى وكاتم السر الامبراطورى (١) . وطبقا للمبدا التاريخى بأنه يجب على الموظف بأن يشد أزره بالنصيحة ، فان الأعمال الهامة كانت فى المعتاد تناقش فى مجلس الدولة الامبراطورى . وكانت ادارة روما وايطاليا موكلة الى اربعة رؤساء ، رئيس المدينة ورئيس الحرس (البريتورى) ورئيس تموين الخنطة ورئيس الحراسة وكانوا كلهم ينهضون ايضا بأعباء وظائف قضائية عالية (٢) . وفى المحاكم الامبراطورية التى أمحت بالتدرج محاكم الشيوخ ، كان استئناف الدعاوى يعرض من جميع أنحاء العالم الرومانى . أما محاكم الأقاليم التى ازدادت فى القرن الثانى حتى اربى عددها على الثلاثين ، فقد كانت محاكم الامبراطورية ضعف محاكم الشيوخ (٣) . وكانت الرقابة الحازمة الفعالة

(١) كان يطلق عليهم ، على الولا .

a rationibus, a cognitionibus, a libellis ab epistulis.

ومن عهد هديران فصاعدا ، لم يعد يشغل هذه الوظائف معتقون ولكن مواطنون من مرتبة الفرسان .

(٢) كان يطلق عليهم على الولا urbi, praetorio, annonae, regilum

وكان الرئيس البريتورى يراعى ، من عهد هديران ، مجلس الدولة ومحكمة الجنائيات العليا .

(٣) عن مادة هذا القسم ، راجع و.ت.أرنولد W. T. Arnold و الإدارة

الاقليمية الرومانية ، وخاصة الفصول ٤ و٦ و٧ وقد أدرجت قائمة بالأقاليم ومعها تذكرات شارحة فى الملحق ١ . وهاهى ذى القائمة فى عهد أوغسطس:

صقلية (لمجلس الشيوخ) ، سردينيا وقورسيفيا والغال (٤ : اقليم

لمجلس الشيوخ) ، اسبانيا (٣ : اقليم لمجلس الشيوخ) ، أفريقيا (اقليم

لمجلس الشيوخ) ، قورينا وكريت (لمجلس الشيوخ) ، سموريا وغلاطية

وبتونيا (لمجلس الشيوخ) ، وبنطس (لمجلس الشيوخ) ، وآسيا

(لمجلس الشيوخ) ، ومقدونيا (لمجلس الشيوخ) ، وأخائيس (لمجلس

الشيوخ) ، ومويسيا ونوريقم ورائطيا واللوريقم ومراكز الألب . وكانت

مصر يديرها على قواعد خاصة رئيس من مرتبة الفرسان .

تقوم بها الحكومة المركزية . وكان حكام الأقاليم ينتخبون لا مانتهم وقدراتهم وتدفع لهم الدولة مرتباتهم ويعاونهم موظفون ماليون مستقلون وإدارة دائمة من موظفين إداريين متمرنين (١) . وفي عهد الأباطرة الإفلاويين Flavian والباطرة الأنطونيين كان أفراد من طبقة الفرسان يحلون في أطراد يأخذ في التزايد ، محل المعتقين ، في الخدمة الإمبراطورية . ولم يعد الرومان الأحرار بعد غير راضين عن شغل مناصب في « حاشية قيصر » . وكان يمكن الحصول على عدالة وفيرة ، في المحاكم الإمبراطورية في كل أنحاء الإمبراطورية . وكانت الضرائب ، على فداحتها ، تجبي على أساس عادل منتظم تهيئه سجلات التعداد التي كانت تعبدل في أوقات منتظمة لتتطبق آخر تاريخ . وكان أهم مصدر للدخل المباشر ضريبة الأرض تضاف إليها ضريبة عينية للقيام بتكاليف الجيش في أقاليم معينة ، وضريبة دخل على مهن وحرف خاصة وضريبة ميراث تبلغ خمسة في المائة كانت تجبي من الطبقات الأكثر ثراء وإيراد أملاك الدولة والمنساجم وأراضي الإمبراطور الخاصة (patrimonium Caesaris) . أما الضرائب غير المباشرة فكان أهمها رسوم الجمارك التي كانت تختلف باختلاف الأقاليم . وسنرى في فصل قادم كيف أن نقل الضريبة ازداد خلال القرن الثالث حتى كاد لا يحتمل مما أتى بنتائج وخيمة على رخاء الإمبراطورية الاقتصادية . ولكن قبل ذلك التاريخ ، أظهرت

وقد أضيفت الأقاليم الآتية بعد موت أغسطس ، ألمانيا (٢) ، في عام ١٧ م) . ومورطانيا (٢) وبريطانيا وطراقيا (هذان بين ٤٠ و٤٦) ، بلاد العرب ووداقيا وأرمينيا وما بين النهرين وأشور (هذه بين ١٠٥ و١٤١ في عهد طريان) .

ومن وقت إلى آخر كانت الأقاليم يعاد توزيعها بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ . وتتوارى الأقاليم التابعة لمجلس الشيوخ في ختام القرن الثاني . وعلاوة على هذا ، كانت بعض المناطق يقوم بالإدارة عليها مراقبون procurators تحت إشراف حاكم إقليمي مجاور . وعندما تقدمت عملية بسط النفوذ الروماني ، فقد جعلت هذه المناطق في الغالب أقاليم . وكانت اليهودية تحت حكم مراقب يشرف عليه المعاون العسكري (Legate) الإمبراطوري لسوريا (راجع لوقا ٢ : ١) . وعندما كان بطليموس Vitellius ، الذي أصبح إمبراطورا فيما بعد Legate لسوريا فإنه تمكن من خلع المراقب بنطيس بلاطس .

(١) يحوى الكتاب العاشر من خطابات بلني الأصغر (ترجم في المجلد الثاني من طبعة لويب Loeb) الرسائل التي كان يتداولها بلني والإمبراطور طريان أثناء قيام الأول بحكم بثونيا عام ١١١ وقد جعل طريان بثونيا إقليما إمبراطوريا . وتقدم هذه الرسائل أيضا راجعا لما كانت عليه الإدارة الإقليمية في عهد الإمبراطورية الباكر .

الحكومة كرما منقطع النظر في استخدام الدخل فكانت الاعانات تمنح في يسر في حالات الوباء والمجاعة وغيرهما من الكوارث غير العادية والغيت القيود على التجارة في كل مكان . وقد نهض بالأعمال العامة مثل المرافق والطرق والجسور والرى واسترداد الأراضى البور في جميع أرجاء الامبراطورية بنشاط . ومما يسترعى النظر بصفة خاصة « السياسة التى أنشأها ناروا Nerva وتوسع فيها خلفاؤه فى القرن الثانى ، فى اقامة منظمات فى ايطاليا وغيرها لاعانة الأرامل واليتامى ورصد منح للعلماء وشئون التعليم الأخرى ومصارف للأراضى لتشجيع الزراعة وكانت تخصص أرباحها للقيام بأود الأطفال الفقراء وتعليمهم .

١٢ - وكانت المدينة كما كان العهد بها سابقا ، أهم أداة للمدينة استخدمتها الحكومة الامبراطورية للمحافظة على الثقافة الهلينية فى الشرق وغرس الثقافة الرومانية فى الشمال والغرب (١) . وفى عهد الامبراطورية الباكورة ، كانت بلاد الاقليم تشمل (١) المدن المتحالفة والحررة التى تدين بانستقلالها فى حالة ، لمساهمة رسمية وفى غيرها منحة من روما (٢) المستعمرات الرومانية والبلدان Municipia التى كانت تختلف فى المكانة الموقرة أكثر من اختلافها فى الامتيازات و (٣) كتلة البلاد التى لا تستمتع بامتيازات وتدفع الضريبة ، تلك التى حافظت على منظماتها المحلية القسبية تحت رقابة الحاكم الاقليمى . وهذه ، تحولت غالبيتها على مر الزمان الى بلدان Municipia بمنحها الحقوق المدنية او الحقوق اللاتينية . ومن القرن الثالث ، قل عدد المدن المتحالفة والمدن الحررة ووضعت قيود على امتيازاتها . ولقد أورد بلنى Pliny قائمة بمائة وخمس وسبعين مدينة فى اقليم بيطيقا Baetica الأسباني عند ختام القرن الأول : يوجد ثلاث مدن متحالفة وصت مدن حررة وتسع مستعمرات وثمانى بلدان Municipia وتسع وعشرون مدينة لها حقوق لاتينية ومائة وعشرون مدينة تدفع الضريبة . وكانت حكومة البلدة فى كل مكان على التقريب ، أرسنقراطية وقد نظمت طبقا لشكل روما التاريخى . وكان يقوم بالرقابة على المستعمرات والبلدان Municipia موظفون ينتخبهم كل عام المجلس الشعبى من مواطنين ذوى أهلية عالية ، بما لديهم من أملاك ومجلس شيوخ يتكون معظمه من موظفين ، وموظفين

(١) فى مبدأ الأمر ، كانت السياسة الرومانية هى استخدام الأداة الموجودة حتى أقصى مدى ممكن ، فعلى سبيل المثال ، اعترفوا برؤساء القبائل ومجالسها كوسائل للحكومة المحلية . وعندما ظهر عدم كفاية هذا النظام ، فانهم أقاموا مجتمعات المدن ، يعيش أفرادها من ايطاليا ، ويحلون بين السكان الوطنيين . وحيث وجدوا مدنا قائمة ، كما كانت الحال فى الشرق ، فانهم استخدموها .

سابقين . وعلى مر الزمن أصبح يوجد ميل ملحوظ فى اتجاه التدخل من قبل الموظفين الامبراطوريين . وقد بطل الانتخاب الشعبى وغدا من العسير بدرجة تطرد ازديادا حث المرشحين على مواجهة التكاليف الباهظة التى تلازم القيام بوظيفة البلدية . وقد شاهدت بواكير قرون بعد الميلاد قيام عدد جم من المدن.بقى الكثير منها امدا طويلا بعد سقوط الامبراطورية ولا تزال تزدهر حتى زمننا الحاضر . وقد هيات مواقع كتائب الحدود ، العسكرية نواة البلدان الجدد ويمكننا ان نتبع الحصن فى نموه الى قرية والقرية الى بلدة . ويحتفظ اسم ليون Leon فى اسبانيا واسم قايرليون Caerleon على اليوسك Usk فى بريطانيا بسجل مثل هذا الاصل (Legionis كتائب و Castra Legionis معسكر الكتائب) . وكانت كل بلدة تقوم على ادارة مساحة عظيمة من الريف المجاور ويحدث أحيانا أن مدينة عظيمة تقوم بالسيطرة على عدد من البلاد التابعة لها ، وبذلك تنهض حكومة مقدسة (hierarchy) لبلدة . وهكذا كانت حال الغال فى عهد أوغسطس إذ كانت لغدونم Lugdunum (Lyon - ليون) المركز الادارى لأربعة وستين مجتمعا ، لكل منها بلدته الرئيسية (وكانت أميان Amiens و نانت Nantes اثنتين من هذه البلدان) بينما كان لمارسليا ونيم Nimes السيطرة على البلدان الأخرى القريبة منهما . وكانت البلدان الاقليمية أيضا تنتخب مندوبيها لحضور المجالس الاقليمية التى كانت اجتماعاتها ، وهى ترتبط بعبادة الامبراطور ، تقوم بدور هام فى الادارة المحلية وتقدم أقرب مثال فى الأزمنة القديسة لنظام الحكومة النيابية .

١٣ - وكانت أعظم مسئولية ملحة ، خلال القرون الثلاثة الاولى ، المحافظة على الحدود . ان نصيحة أوغسطس بالبقاء داخل الحدود التى وضعها ، راعاها بأمانة خلفاؤه . وأهم استثناءات كانت ضم بريطانيا فى عهد كلوديس Claudius (٤١ - ٥٤) وداقيا Dacia (= هنغاريا قبل ١٩١٤ - ٨) وأرمينيا وأقاليم الدجلة والفرات فى عهد طريان (٩٨ - ١١٧) . وكانت حملات طريان المظفرة فى الشرق قمة السياسة النشيطة التى جرى عليها أباطرة القرن الأول . ولم تعد فارثيا بعد منيعة ، وظل تخم الفرات لا يسوده اضطراب حتى قيام المملكة الفارسية فى منتصف القرن الثالث . وفى الشمال والغرب ، من الجهة الأخرى ، طغى موج هجرة الهمج طغيانا يطرد ازديادا . أما القبائل التيوننية - وقد كانت مصدر تهديد لاطاليا منذ زمن ماريوس Marius - التى صدها قيصر للوراء عن الغال ، وثبتت جهد أوغسطس فى بسط السيادة الرومانية حتى الالب ، فانها كانت فى ذلك

الحين تحارب دون انقطاع ضد الحاجز الحصين بمحاذاة الراين والدانوب . (١)
 وكان قد عمل على تقوية الخط ، بسياج أقامه هدریان فيما يلي كبلنز الى
 ما يقرب من رجنسبرج على الدانوب ويحصر الغابة السوداء داخل
 الامبراطورية (١) . وقد صمد زهاء قرنين ولكن القتال كان لا ينقطع على امتداد
 الحدود بأكملها ، وسرعان ما كان يلقى أى تهاون فى قبضة روما الجزء الوفاق .
 وقد أثارت الانقسامات داخل الامبراطورية وتجاوز القبائل فى تجوالها
 دائرتها ، الأزمات التى تقع بين حين وآخر فى شدة منقطعة النظر
 وتعقبها فترات من الهدوء النسبى . ولهذا فانه بعد الحروب المروعة التى
 شنها ماركس أورليوس ضد المرقمانى Marcomanni والقواضى Quadi
 على الدانوب الأعلى ، ساد الهدوء طوال جيلين ، الى أن تحول مركز العاصفة
 الى مجرى النهر الأدنى حيث كان يهدد غوط من الاكسين ، أقاليم البلقان
 فى منتصف القرن الثالث (٢٥٠ - ٧٠) . وقد أمنت الهزيمة التى أوقعتها
 قلوديس بهم خط الدانوب مائة سنة أخرى . وفى نفس الزمن الذى نشبت
 فيه الحرب الغوطية ، حطم الأليمانى والفرنجة (حوالى ٢٥٨) (٢) حاجز
 الراين ، وبعد جهاد استثناس استمر فى حظوظ متباينة ، من حكم غلينوس
 Gallienus حتى حكم ديوقلطيان ، أعيد السلام مرة أخرى فى الشمال
 الغربى . وفى خلال هذه المناوشات ، أصبحت العادة التى استهلها قيصر
 فى منح الأراضى للمستعمرين التيتون داخل الامبراطورية جزءا من سياسة
 الحكومة العامة . ولقد قدم الذين كانوا أعداء فى جيل ، مجندين لكتائب
 دفاع الجيل التالى . وكانت الجيوش الرومانية تجند لمدة خدمة طويلة وكلها

(١) كان موطن التيتوتون الأصلي فى أراضى غربى البلطيق أى جنوب
 السويد وجتلند وبومانيا . ومن هناك ، بين عامى ٦٠٠ و ٢٠٠ ق م ،
 ساروا صوب الغرب والجنوب الغربى طاردين القبائل الكلتية من الأراضى
 الواقعة شرق الراين وفى نفس الوقت ، تشبعوا بالكثير من الثقافة الكلتية
 المتفوقة التى كانوا على اتصال بها . وفى القرن الثانى قبل الميلاد ، عبر
 التيتوتون الراين لأول مرة وغزوا الغال .

(٢) داخل السياج من القضيان ، كانت تسير الطرق العسكرية . وفى
 تاريخ لاحق استبدله السياج جزئيا بحائط من الحجر . وقد أقيمت حصون
 على مسافات تتراوح بين ميلين ونصف ميل ، وتسعة أميال بمحاذاة الطرق
 العسكرية . وقد امتد هذا الحاجز الحصين بضع مئات من الأميال .

(٣) كان الأليمانى ، كما يدل اسمهم (= كل الناس) تحالفا من
 قبائل كما كان الفرنجة (= رجال أحرار) . واسم الأولين لا يزال باقيا
 فى اللفظ الفرنسى Allemagne واسم الآخرى فى France (وكذلك
 Franconia و Franche-Comité و Frankfurt) وكان الأليمانى على
 اتصال بروما سن ٢١٣ والفرنجة من ٢٥٢ .

تقريبا من سكان الأقاليم . وقد يعسكر جنود من قماغين Commagene بآسيا الصغرى ، فى ألمانيا أو بريطانيا ويستقرون عند رقتهم ، بمنحة وقطعة من الأرض ، فى الأقطار التى كانوا يخدمون فيها ، وكانت بلدان شهيرة مثل كولونى (Colonia Agrippinensis) وكلشستر Colchester (Camulodunum) تدين بنشأتها الى مستعمرات الجنود القدامى الذين انقضت مدة خدمتهم ، هذه . وما كانت الصبغة العالمية للجيش الا أحد مظاهر الصبغة العالمية للنظام الامبراطورى . وكان الموظفون المدنيون أيضا يؤخذون من سكان الأقاليم . ولقد أصبحت الخطوط الفاصلة ، القسدية ، بين الرومانى والايطالى وبين الايطالى والاقليمى لا وجود لها . وعندما منح الامبراطور قرقلا فى عام ٢١٢ بموجب دستور انطونينا Constitutio Antonina صفة المواطن الرومانى لكل مواطن حر المولد فى الامبراطورية . فربما كان الواعز المباشر لديه أن يزيد الدخل ، ولكن الاجراء كان الاتمام المنطقى لسياسة القرنين السابقين (١) . وبفضل الحكومة الامبراطورية الأبوية ، تأسلت الأفكار والانظمة التى تمثلها روما فى التاريخ ، تأسلا ثابت الدعائم فى جميع أرجاء عالم البحر المتوسط .

١٤ - ويتجلى مغزى هذه الحقيقة وما كان لها من نتائج فى المستقبل ، اذا أوضحنا الوسيلة التى نهضت بها روما بجهتها فى الحكم فى أقاليم أوروبا الغربية - اسبانيا والغال وبريطانيا (١) كانت اسبانيا أحد الأقاليم الرومانية الباكورة . وقد فتحها ونظمها فى القرن الثالث ق.م . القرطاجنى العظيم هملقار بارقا ، Hamilcar Barca ثم آلت فى ختام الحرب الفونية الثانية الى روما . وكانت السيطرة على قبائل الداخل مهمة طويلة شاقة أنهكت الى أقصى حد همم الحكام الرومان المتعاقبين ومن بينهم كان كاتو الرقيب وطبريوس سيمبرنيوس جراكس Tiberius Sempronius Gracchus والد المصلح الزراعى ، بارزين لقدرتهما .

وكانت الأحوال الطبيعية تعاون حرب العصابات التى كان فيها الاستبان على الدوام متفوقين واحتمرت. متاعب الحرب والتنظيم ، دون انقطاع خلال القرن الثانى . وقد نهض كاتو بالمناجم التى كان الفينيقيون يستخدمونها

(١) كان الدافع المباشر لمرسوم قرقلا هو توسيع مدى تطبيق ضريبة الخمسة فى المائة على موارث المواطنين . وقد قصر منح صفة المواطن على الأهلين الأحرار الموجودين فعلا فى الامبراطورية ، عام ٢١٢ أما المعتقون والأشخاص الذين لهم حقوق لاتينية وأولئك الذين استقروا على أراض داخل الامبراطورية وحازوا مكانتهم فى تاريخ لاحق فانهم لم يصبحوا بذلك *ipso facto* ، مواطنين . وقد مذ يوسطنيان صفة المواطن لتشمل هؤلاء .

قبل ذلك بقرون كثيرة وغرس الكرم والزيتون . وبين عامي ٨٠ و ٧٢ ق م .
عكف الزعيم الديموقراطي سرطريوس Sertorius - وقد وجد في اسبانيا
ملجأ من انقلاب سلا - على تدريب القبائل الوطنية على فنون الحرب والسلم ،
وأسس الكليات العسكرية لتعليم شباب نبلائهم . وقد شجع يوليوس
وأوغسطس سياسة صبغهم بالصبغة الرومانية بحماسة ونالت خمسون مدينة
اسبانية صفة المواطن الكاملة . وكانت قادس وطراقو (Tarraco)
مركزين للتجارة والحكومة ، على الولاة : ولا تزال سرغسا Saragossa
وأسطرغا Astorga تحتفظان باسم أوغسطس .^(١) وقد مد الطريق العسكرى
والتجارى العظيم ، الذى كان يسير من ايطاليا حول خليج ليونس Lions
الى الأقاليم التى تقع فيما يوالى البرانيس ، بمحاذاة ساحل اسبانيا الشرقى
ومنه اخترقت الداخل حتى الوادى الكبير وميناء قادس . وما حان
الزمن الذى مات فيه أوغسطس حتى كانت اللغة والملابس والعادات الرومانية
قد عمّت شطرا عظيما من شبه الجزيرة . وقد قسمت اسبانيا الى ثلاثة
أقاليم ، ومن الثلاث كتائب التى وضعها أوغسطس هناك ، كان يمكن سحب
اثنيتين قبل ختام القرن الأول . وقد نشر السلم ونشر الصبغة
الرومانية جنبا الى جنب . وكان كاتم سر يوليوس قيصر وأمين مكتبة
أوغسطس مواطنين اسبانيين . وقد قدمت اسبانيا الى الأدب الرومانى ،
ويرجع ذلك الى القرن الأول ، عالم الأخلاق سنقا Seneca والشاعر
الجمهورى لوكان Lucan وعالم الجغرافيا مالا Mela والكاتب الزراعى قولملا
Columella وأحسن واضع للأراجيز ومأثور القول ، فى روما ، مرطيال
Martial وأعظم ناقدى الأدب فيها كونتليان ^(٢) Quintilian . وفى بواكير
القرن التالى قدمت الى روما واحدا من أنبل أباطرتها هو تراجان وفى النهاية
عندما انهالت غزوات الهمج على الغرب ، وجدوا اسبانيا قد اصطبغت تماما
بالصبغة الرومانية ، حتى ان استمرار ثقافتها لم يكن يهدده خطر جدى .
وكانت العقيدة المسيحية متأصلة كل التأصل فى قطر ربما يرجع أنه كان
مشهدا لجهود القديس بولس الأخيرة ، الرسالية . ومنذ ذلك الحين ،
قامت بدور هام فى حياة الكنيسة الغربية . ولقد مثلت سبع وثلاثون
كنيسة منفصلة فى مجمع الويرا Elvira فى القرن الثالث . وكان هسيوس
Hosius أسقف قرطبة Cordova المستشار الذى انتخبه قيسطنطين فى

(١) فى عام ١٨٦١ ، كشفت أجزاء من قوانين ملقا (ملغا) وسلبتسا
وفى عام ١٨٧٠ أجزاء من قوانين أسبونا ، تلقى ضوءا عظيما على حكومة
البلدان فى اسبانيا فى عهد الامبراطورية الباكر .
(٢) عن سنقا وكونتليان راجع ما يلى § ٢١ و ٢٢ . لقد قيل كتوضيح
لعمل روما فى بسط المدينة أن جنودا وموظفين من الرومان كانوا يعلمون
الأجانب ، مثل سنقا وكونتليان أن يكتبوا اللاتينية الصحيحة .

مجمع نيقيا Nicaea . وكان القوط الغربيون ، على خلاف الوندل ، قد قبلوا بالترحاب الثقافة الرومانية قبل أن ييسطوا سلطانهم في اسبانيا . وكان أزيدور Isidore السفيلي ، واحدا من العلماء القلائل في أيام التدهور في القرن السابع وهو الذي استطاع أن يحول شذرات من العلم القديم والأساطير القانونية الى مفكرى العصر الوسيط الباكر . وحتى غزو المشاركة الذى حدث في القرن الثامن لم يجد فى محو كل آثار الماضى وقد حفظ الزعماء القوط ضوء التقاليد الرومانية والمسيحية لا تخفت خفقاته فى حصونهم الجبلية . ويمكن تقصى أثر مجرى النفوذ الرومانى دون انقطاع من أيام اسقفىون حتى قيام مملكتى البرتغال واسبانيا الحديثتين (١) .

١٥ - (٢) « كل الغال تنقسم الى ثلاثة أقسام » هذه ، كما يعلم كل تلميذ مدرسة ، هى الكلمات التى يفتتح بها قيصر « تذكراته » . وقد أعاد أوغسطس ، فى تقسيم القطر الى أقاليم ، تنظيم المناطق الثلاث فأصبحت بلجيكا (شمال شرق) ، لقدمينسس Lugdunensis (شمال غرب ووسط) واكوطانيا Aquitania (غرب وجنوب غرب) وهى أسماء لا تزال باقية فى « بلجيكا » و « ليون » و « أكوطين » . وفى الجنوب بمحاذاة ساحل البحر المتوسط ، كان يوجد إقليم الغال النربونى Narbonese Gaul الذى كان يخترقه الطريق العظيم من روما الى اسبانيا ، وكان مركزه فى زمن الجمهورية مستعمرة ماسليا (مارصليا) الاغريقية ، القديمة وهى مدينة متحالفة مع روما ، وتحكم بدستور حكومة أقلية أثارت اعجاب شيشرون وبعد سقوطها أمام جيش قيصر فى الحرب الأهلية (٢) انتزعتها منشئات أكثر حداثة مثل فورم (منتدى والأصل سوق) يولى Forum Julii (فريس Fréjus ، محطة الأسطول كطولون فى ايامنا) وأزليط Arelate (ارلس Arles) ، عند مصب الرون ، الميناء العظيم للتجارة الداخلية . وقد صبغ هذا الإقليم الجنوبى ، « البروفانس Provence » كما تعرفه الأزمنة التى جاءت بعد ذلك ، بالصبغة الرومانية بطبيعة الحال ، قبل أقاليم الداخل حديثة العهد بالفتح ، بأمد طويل . وظل الاختلاف قائما فى زمن متأخر ، فى مجال اللغة يمثله الفارق بين لغة الك Langued' Oc ولغة أوى Langued' Oil فى بقية فرنسا . ولقد نظمت أقاليم أوغسطس الثلاثة الجدد الى أقسام فرعية cantons ، قبلية يحكمها موظفون كلتيون ، لديهم

(١) فى أفريقيا معا المشاركة كل آثار النفوذ الرومانى . وكان أمراء المشاركة فى قرطبة ، من الجهة الأخرى ، حكاما متنورين حافظوا على الكثير من مخلفات الماضى .

(٢) دانتى « المطهر : ١٨ ، ١٠٢ » - « لاختضاع الردا Ilerda ، طعن قيصر مارصليا ثم أسرع الى اسبانيا . »

جنود غير نظاميين (مليشيا) . وكانت لـ Lugdunum (ليون) المركز الرئيسي للحكومة والتجارة . وهي مستعمرة أسست عام ٤٣ واستوطنها مواطنون رومانيون عند الموقع الذي ينتشعب فيه الطريق الصاعد في وادي الرون ، الى فروع تؤدي الى مختلف المعسكرات على التخم الألماني . وهناك كان يعقد مجلس الأقاليم الغالية الذي كان يتعاون مع الحكومة الرومانية في الضرائب وفي جمع شمل القبائل الكلتيية حول عبادة روما وأوغسطس (١) . وقد تقدمت الحياة الحضرية في الأقسام Cantons بسرعة . ومن بين المدن الأولى التي أصبح لها شأن كانت ريمس وترير Trier في إقليم بلجيكا وصارت الأخيرة منهما عاصمة الغال والغرب في مستهل القرن الثالث . وقد كان شرق الغال أسرع اصطباغا بالصبغة الرومانية من الغرب . وكلما نهضت جماعات حضرية ، كانت الحقوق الرومانية تنسحب عليها ، وقد سمح قيصر للغاليين بدخول مجلس الشيوخ ووصلت إلينا خطبة كلوديس التي منح فيها حق تقلد الوظائف للغاليين الذين منحوا الحقوق السياسية (٢) . ولقد كتب قيصر عن هذا الشعب « كل مجتمع ينقسم الى حزبين » وقد استخدمت السلطات الرومانية هذه الانقسامات ، أتم استخدام ، لتوثيق حكمهم ضد الثورة . وقد ألغى الدين الدرويدى Druidic بقانون . ولم يقاوم طويلا وكان قد أوشك على التوارى عندما انتشرت المسيحية في الأقاليم الشمالية . وكان القطر غنيا بالموارد المادية . ولقد كتب يوسيفوس « في الغال ، يوجد موطن موارد الثروة وتغمر الأرض بفيضها » وكانت الزراعة أساس رخائه بينما في الشمال الشرقي ، هيات تربية الأغنام قيام صناعة المنسوجات مما جلب ، في زمن مبكر لمدينتي اراس وطورناى شيئا من شهرتهما في العصور الوسطى والحديثة . وكان الكلتيون رجال صيد عظام وقدموا فرقا كبيرة من المحاربين لحيالة جيوش روما . وكان لهم ميل نادر للتعلم وكانت أوطان Aulun (أغسطسودونم Augustodunum) وبردو (بردغالا Burdigala) مقرى جامعات ومدارس شهيرة ، وقد عادت البديهة الحاضرة وهواهب الكلام لدى الكلتيين ، عليهم بصيت بعيد في الخطابة والتعليم

(١) لم يكن كل سكان الغال من الكلتيين ، ولكن كانوا يضمون قبائل برية وجرمانية . وقد أنزلت الحكومة الرومانية الجرمانيين المهزومين في أرض غالية .

(٢) يلخص طاقيطس (في الحوليات : ١١ ، الفصول ٢٣ - ٢٥) الخطبة . وفي زمن مبكر في القرن السادس عشر ، وجدت أقسام منها في ليون . راجع أرنولد الصفحات ١٤٥ وما بعدها ، عن التفاصيل .

يرجع مبكرا ، الى القرن الاول (١) .

وقد قامت فنون النحت وخاصة ما كان يعالج مناظر من الحياة اليومية ، تلك التي كانت تنبىء مقدما بالنقوش البارزة التي تزخر الكانديديات الغوطية في فرنسا في العصور الوسطى ، حول ترير . وفي القرن الرابع ، كان أوسنيوس Ausonius البردوى ، أحد عظام الشعراء اللاتين المتأخرين المبدعين ، يتغنى بالقصيد ذى المقاطع الستة ، بحاسن مناظر موزل الرائعة . ولقد قدمت كنائس الغال ، منذ القرن الثاني وما بعده الكثير من قادة العالم المسيحي الغربي . وكان الأساقفة من بريطانيا ، يرحلون الى أربلس لحضور مجالسها . وقصارى القول ، انه قبيل الوقت الذي انهال فيه القوط الغربيون والبرغنديون والفرنجة على سهول ووديان أنهار الغال ، كانت الغال قد تهيأت لمهمة بسط الرومانية والمسيحية على غزاتها وفي زمن لاحق ، في القرن التاسع ، كانت مدارسها الموطن المختار لعلم العصور الوسطى (٢) .

١٦ - (٣) وكانت بريطانيا تقع في أرباض العالم الروماني ، القاصية وكان احتلالها في عهد قلوديس هو الاستثناء الوحيد الدائم للمبدأ القائل ان الامبراطورية يجب ألا تمتد فيما يلي الحدود التي أقرها أوغسطس . وكانت تحكم كجزء من الامبراطورية قرابة أربعمائة عام . ولقد اتخذت ثلاث كتائب (أكثر من ١٥٠٠٠ جندي) جندت غالبيتهم من الوطنيين الذين اصطبغوا بالرومانية ، مراكزها باستمرار في الجزيرة . وكان نفوذ المدينة الرومانية ينحصر ، فيما عدا فترة وجيزة ، في المناطق التي تقع في الجنوب من السور الذي أقامه ساورس من ولسند ، الى الشرق من نيوكاسل ، حتى كرسلي ولا يزال جزء كبير منه باقيا (٣) . وقد ظلت كرنول وحدها ، داخل

(١) كانت مدرسة أطلون لتعليم شباب نبله الغال موجودة في عهد طبريوس وسابقة له .

(٢) يجب ألا يغيب عن البال انه بين الأقاليم الغالية والحدود ، كان يمتد اقليمان (الأعلى والأسفل) يتكونان من شريط ضيق من الأرض تحرسه حاميات عسكرية أمامية ومعسكرات كتائب الراين العظيمة . كانت ألمانيا العليا أعرض الاقليمين اذ كانت تشمل رقعة عظيمة من الأرض ابور المتنازع عليها بما فيها الغابة السوداء . وقد عزلها واسفاسيان وجعلها موطن Coloni Caesaris ، وهم زراع مرتبطون بالأرض . ولقد امتدت الثقافة الرومانية هنا ، بين القبائل الجرمانية الى حد أبعد مما كانت عليه الحال في ألمانيا السفلى فوق كبلنز .

(٣) كان هديان قد أنشأ طريقا (limes) في محاذاة هذا الخط . وقد أقيم في مكان أبعد الى الشمال ، حفرة وجسر من التراب وطريق ، من خليج

هذه المنطقة ، لم تقسمها روما على الاطلاق . وفي الشمال كانت توجد مستعمرات عسكرية فسيحة ، تكسدت على الأخص في محاذاة السور وفي مدينة يورك . ولكن في الجنوب وخاصة في جلوستر وشرقي سومرست وهمبشر وبورنميتنشر كان يوجد ، كما يدل الكثير من بقايا المنازل الرومانية المنعزلة ، عدد وفير من السكان المدنيين المصطبغين بالرومانية وهناك على الأخص وضعت روما طابعها على السكان الكلتيين وكما جرت عليه الحال في جميع أصقاع الامبراطورية ، كان حكم روما يعنى قيام مستعمرات وطرق عسكرية . ولقد كانت لولنستر ولنكولن ويورك وجلوستر مستعمرات رومانية وكانت فرو ليم (سانت البانس) تستمتع بالتكريم باعتبارها بلدة Municipium . وكانت يورك مشهد تنويج الامبراطور قسطنطين ومنوى الامبراطور ساورس . ومن الطرق العظيمة كان شارع واطلنچ يتجه الى الشمال الغربى ، من لندن الى روكستر ويسير شارع ارمين من كولشستر بجوار هنتنجدون ولنكلن الى يورك وكان الطريق من لندن بجوار استينس ، يتفرع عند سلنستر الى شعاب تنجه صوب سوثمبتن وسالسبورى والجنوب الغربى ، وجلوستر . وكان طريق فوس يسير بانحراف من لنكولن بجوار ليستر الى كيرنسترواث . وقد اخلت أرض الغابات للزراعة وكانت بريطانيا قد كتائب الراين بالحنطة . وكان الهنأون البريطانيون معروفين في أوروبا الغربية . وكانت المنسوجات البريطانية تصدر للخارج . وكان محار كنت يزداد الطلب عليه في روما ، وأصبحت مرافىء الجنوب الشرقى مراكز تجارة رائجة . ولم يكن نفوذ روما على الدوام خيرا ، ففي الأدوات التى يعم استخدامها كالأوعية ، أقسدت طرز الزخرفة التى اتخذت طابعا ثابتا ، حرية التخطيط القومية الكلتية . وذاعت اللغة الرومانية أولا بين اشراف الكلتيين ثم بين المجموع الأكبر من السكان الوطنيين فى الجنوب والشرق . وكان القانون الرومانى ومناهج الحكومة عوامل للمدنية قوية المفعول . ويقص فلوطرخوس حديثه مع معلم اغريقى عائد من بريطانيا الى وطنه على شواطئ المشرق . وتوسع المسيحية دخلت بريطانيا نطاق الكنيسة . ولقد كشف عن أسس كنيسة مسيحية فى سلستر وامتدت العقيدة الجديدة الى ويلز وفيما يلى تخوم الامبراطورية الى ايرلنده . وفى بداية القرن الخامس أدى الضغط على تخم الامبراطورية القارى ، الى تخلى الحكومة الامبراطورية عن بريطانيا (١) . وعند انهيار الحكم الرومانى استعاد العنصر الكلتى فى الاقليم مكانته . وتمثل

فورث الى خليج كلايد . ونهض بذلك انطونيس فايوس وأتمه سساورس فى ختام القرن الثانى .

(١) عندما التمس البريطانيون الحماية من الامبراطور أنوريوس Honorius ، فانه أمر مدتهم أن تحمى نفسها على أحسن ما يستطيعون .

فى شخص أرتو وهو زعيم كلتى كان يحمل اسما رومانيا وشطره تاريخى والشطر الآخر أسطورى ، مقاومة الكلتيين للسكسون ، وباحثل السكسون ، زال معظم آثار نفوذ روما ، ولم يكن القانون الأنجلوسكسونى يدين بشئ من محتوياته لقانون روما ، ولقد تراحت المسيحية أمام الوثنية الا فى إيرلنده والحصون التى لم تغلب ، فى ويلز ، وأتى الغزاة على المدن الرومانية بالتحريب ، ان ما تبقى من آثار الحياة الاقلية القديمة فى بريطانيا السكسونية ، كان كلتنا ولم يكن على الأخص رومانيا (١) . وفى لندن وهى أعظم المدن الرومانية ، لا يوجد شارع واحد باق الى الآن يمكن أن يبرهن على أنه يسير فى خط رومانى (٢) . ويمكن فى الواقع أن يقتصر أثر بقية من السكان الكلتيين تحت حكم أسياذ سكسون فى كنت ووسكس وقد حفظت المساحات التى أخلت من القابات لزراعة الحنطة ، والطرق العظام سجل سياسة روما ، ومن بين متنوع الأشكال الزاخرة التى تظهر على أقدم عملة انجليزية ، يمكن الرجوع بالكثير منها الى أصول رومانية . ولا تزال أكثر من ثلاثين مدينة وقرية تحمل أسماء مشتقة من تلك التى كانت متداولة خلال الاحتلال الرومانى (٣) - سواء اكانت كلتية أم لاتينية - ولكن فيما عدا هذه الاستثناءات القليلة ، لم تترك روما أية علامة باقية على الزمن ، فى تاريخ حياة بريطانيا (٤) .

(١) فى كل أنحاء انجلترا ، تسلم الغزاة السكسون أسماء الأنهار التى كانت كلتية فى آخر أمرها ، دون تغيير .

(٢) مثال ذلك ، تقع أسس الأبنية الرومانية وهى تتقاطع مع خط تشيبسايد Cheapside . وتسير كثير من الطرق الرومانية على مسافة قصيرة من المدينة مثل شارع Clapham High Street ، (شارع استين) و Mile End Road (طريق لندن - كلنيسستر) و Kingsland Road (شارع ارمين Erminé Street) وشارع أكسفورد Oxford Street (الطريق الى سلنيسستر وتفرع شارع واتلنج صوب الشمال عند Marble Arch)

(٣) مثال ذلك ، Lichfield (Letocétum) و Manchester (ربما Mamium) و Winchester (Venta) و Richborough (Rutupiac Repata Caestir) و Mancetter فى Warwickshire

(٤) عن بريطانيا الرومانية - راجع طاقيطس « حياة أغريولا » زوج أمه الذى كان القائد فى انجلترا فى عهد طيطس ودمطيان . وفى هذا القسم كنت مدينا بصفة خاصة الى معاونة زميلى السابق الأستاذ F. N. Stenton فى استنتون (المؤلف) .

٣ - القانون والأدب

١٧ - كانت الفترة التي تقع بين أوغسطس وديوقليان العصر الذهبي للقضاء الروماني الذي نما ووصل إلى الكمال على أيدي نابهي الشراخ الذين كانوا يعملون كأعوان للزعامة الملكية . ولقد فصل القانون المدني القديم عن الزيادات الرجعية والبقايا المهالكة . وعلى سبيل المثال ، فقدت سلطة الوالد patria potestas الكثير من صلابتها التقليدية . ولقد مهد توسيع قرولا لصفة المواطن الروماني حتى تنسحب على كل سكان الأقاليم الأحرار ، الطريق لدماج قانون الأمم (jus gentium) في قانون روما المدني jus civile . وأهم مظاهر التاريخ القانوني في القرون الثلاثة التي نستعرضها ، كانت :

١ - تكملة القانون البريتوري بالمرسوم الدائم .

٢ - نهوض التشريع الإمبراطوري .

٣ - انشاء قضاء علمي .

(١) بلغ النشاط البريتوري في مجال وضع القوانين ذراه في آخر قرن للجمهورية . وقد جرت العادة في عهد الأباطرة الأوائل بأن يتخذ الموظفون البريتوريون مرسوم سالفهم دون تعديل إلا في النادر . وقد اعترف هدريان بهذه العادة عندما وكل إلى محام جليل وهو سالويس يوليانس Salvius Julianus مهمة مراجعة مراسيم بريتوري الأجانب والمدن واصدار النتيجة التي وضعت في مدونة قانون ، كمرسوم دائم edictum perpetuum ملزم . ومنذ ذلك الحين ، لم يكن في الاستطاعة ، ادخال اضافات أو تعديلات . وقد أجرى أيضا ما يماثل هذا على مراسيم الموظفين في الأقاليم . وهكذا أكمل مرسوم يوليانس ، على هذا النحو واختتم مجموعة القوانين البريتورية . وبهذا كان العلامة على توطيد السيادة الإمبراطورية على سلطة الموظفين الجمهوريين نهائيا ، في مجال القانون .

(٢) وكانت سلطة التشريع في عهد الجمهورية هي مجلس (Comitia) الشعب الروماني . وكان أوغسطس لا يزال يعرض المشاريع الهامة التي تحصل بالأصلاحات الحلقية وعتق العبيد ومركز المعتقين والأجراءات القضائية ، على المجلس للتصديق عليها رسميا ولكن منذ حكم طبريوس فصاعدا ، تحولت مهامه التشريعية إلى مجلس الشيوخ وكان من بين أعضاء هذا اللغيف كثير من نابهي المحامين وأدت مراسيمه Senatus Consulta دورا عظيما في تقدم القانون في القرنين الأولين . وبينما كان الأباطرة يقومون برقابة

لا تنى تتزايد ، على مداوات مجلس الشيوخ ، فانهم كانوا يترددون حتى ذلك الحين فى وضع تشريع بموجب سلطتهم الخالصة . ولكن قبل القرن الثالث ، كان قد أصبح « للدساتير » الامبراطورية قوة القانون ، وبعد ذلك التاريخ غدت الأداة الوحيدة للتشريع . وكانت تشمل : (أ) المراسيم أو الأوامر العامة التى تفسر القانون والتى كان الامبراطور بما له من سلطة imperium يعلنها على لافتات كما كان يفعل البريتوريون فيما مضى من الزمان . (ب) الفتاوى أو الأحكام المكتوبة عن الالتماسات التى يوجهها اليه الأفراد العاديون والموظفون (ج) المراسيم أو القواعد التى توضع عن الاستثناءات القضائية و (د) الوصايات أى التعليمات التى تكون لها فى الغالب صفة إدارية والتى ترسل الى حكام الأقاليم (١) . ويجب أن نوجز شرح أداة سير القانون الجنائى الذى كان قد نظم لأول مرة ، تنظيماً فعالاً ، فى آخر عصر للجمهورية عندما وسع سلا نظام المحاكم الدائمة (quaestiones perpetuae) التى يرأسها رؤساء بريتوريون وتضم قضاة من طبقة الفرسان equestrian وبتوارى هؤلاء فى ختام القرن الثانى . وكذلك ولاية مجلس الشيوخ للقضاء الجنائى التى منحها أوغسطس لهذه الجماعة . وهنا ، مرة أخرى ، كان الامبراطور وهو يعمل عن طريق مندوبيه وخاصة الرؤساء البريتوريين ، يجمع كل سلطة قضائية . وعلى هذا ففى الدعاوى المدنية والجنائية ، أصبحت منصبه القضائية ، المحكمة العليا للاستئناف ، للعالم الرومانى .

(٣) لقد صيغ القانون الرومانى ، ليس على مذهب سبق تصوره ولكن عن طريق الاستقراء على أساس التجربة العملية وكان يشتمل على مجموعة عظيمة من الأحكام والقواعد المرعية التى ترجع الى العادات القديمة أو توضع لسد مطالب خاصة . وكانت مبادئه تجيء ضمناً فى تكوينه ، أكثر من أن تكون مصاغة فى وضوح . وكان أول شارع حاول استخلاص هذه المبادئ وتنظيم هذه المجموعة العظيمة من القوانين الخاصة وفقاً لطبيعتها محتوياتها هو كيننتس مكيبوس سكاولا Quintus Mucius Scaevola الأصغر ، الذى كان حبراً أعظم Pontifex Maximus جوالى عام ١٠٠ ق م . ويمكن أن يقيم سكاولا دعواه بحق ، فى اعتباره مؤسس القضاء الرومانى . ومنذ عهد

(١) من الوجهة النظرية ، كانت المراسيم تفقد صحتها عند موت الزعماء princeps ولو أن خلفاءهم كانوا ، فى الكثير الغالب يجددونها . وكانت الفتاوى ، تعليمات ملزمة للقاضى فى المادة الخاصة بالقضية المتنازع عليها بينما كانت المراسيم ، قواعد لها أهمية عامة والوصايا ، عندما كانت تعنى بنقاط قانونية ، كان لها قوة الفتاوى وفى حالات كثيرة ، كانت تعالج مواد سياسية مؤقتة . وفى معنى أدق ، لم تكن تعد « دساتير » .

فصاعدا تقدمت دراسة القانون دراسة علمية ، تقديما سريعا • وقد أصدر أوغسطس اعترافا رسميا بعمل الشارعين بأن قرر أن يكون لطائفة منهم • ينتخبون لتفوقهم ، حث الإدلاء بآراء يكون لها سلطة امبراطورية (jus respondendi ex auctoritate principis) • وكانت اجاباتهم المكتوبة عن مسائل القانون التي تعرض عليهم والتي تسلم للمحكمة مختومة ، يلتزم بها منذ ذلك الحين ، الموظفون والمواطنون العاديون ، الذين غالبنا ما يكونون غير متفهمين في القانون ، وكانوا يؤدون وظائف القضاة Judices ومن عهد أوغسطس فصاعدا ، كان لمدارس القضاة التي نظمت في جمعيات متحدة ، تأثير على تقدم القضاء ، يطرد ازديادا^(١) • وهي لم تصغ القانون في مذهب وحسب ، ولكن خمرته بآراء نظرية من طراز لم يخطر على بال في أزمان الجمهورية • وقد تجلت بواكير ثمار هذه الجهود للبيان في مرسوم يوليانيوس سالف الذكر وفي العجالات المنظمة التي كان يضعها المحامون في عصر هدریان والأنطونيين ، من أمثال كالسس (Celsus) وكيكليوس Caecilius وأفريقانس Afrecanus وجايوس Gaius • وقد تبع هؤلاء بين عامي ١٧٠ و ٢٣٠ كينتس كروديس سكاولا وتلميذه بابنيان Papinian ، أعظم الشارعين الرومان • وكان كلاهما من سلالة هليئية • وكان من خصائص هذا العصر ذي النهج العلمي أن عقل اليونان وضع طابعه على القانون الروماني • وفي عهد ساورس الكسندر (٢٢٢ - ٢٥) كان يعيش أولبيان Ulpian وبول Paul وقدم أولهما ويرجع أصله الى صور ، المواد لنصف مجموعة قوانين جوستينيان المختارة^(٢) Justinian's Digest وكان خاتمة الشارعين العظام في منتصف القرون الثالث تلميذ أولبيان Ulpian ، الاغريقي هرنيوس مدسطينوس Herennius Modestinus ولم يمض كبير زمن بعد ذلك ، حتى حلت الفتاوى الامبراطورية محل استفتاءات علماء القانون responsa prudentium وفي التفسير كما في التشريع ، يظل الامبراطور معين القانون الأوحده •

(١) في القرن الأول وبواكير القرن الثاني ، كانت توجد مدرستان عظيمتان في روما أسسهما ، على الولاء ، لابن Laben وأطيبوس كابتو Atteius Capito ، من رجال التشريع في عهد أوغسطس • وكان يطلق عليهما اسمى أتباع المؤسسين ، المدرسة البروكيولية Proculian والمدرسة السابنية Sabinian راجع سوهم Sohm «أنظمة القانون الروماني» § ١٥ • (٢) كان سكاولا Scaevola عضوا في مجلس دولة ماركس أورليس • وكان بابنيان Papinian الرئيس البريتوري في عهد ساورس ، زميله القديم في التلمذة ، وقتل بأمر قرقلا (٢١٢) • وتولى ألبيان Ulpian وبول Paul الرياسة البريتورية في عهد ساورس الكسندر وكان امبراطورا من السلالة الهليئية •

١٨ - ولقد بعث أساتذة القضاء العظام اولئك روحا جديدة فى قانون روما ويتجلى نشاطهم العقلى فيما بذل من جهد لتقصى النية التى ترجع اليها المعاملات بين المتعاملين وصياغتها فى مبدأ منظم لجميع الحالات التى يمكن تصور قيامها . فعلى سبيل المثال ، فى معالجتهم لقانون الالتزامات فانهم قلبوا كثيرا وجوه الرأى فى العقود التى يجب أن تقدر فيها النية غير المفصوح عنها bona fides . ويقول أحد الثقات المحدثين « ان قانون الالتزامات ، وهو دون سواه ، يتكون منه ، فى اصدق وأدق معنى ، القسم الذى لا يغنى ، من القانون الرومانى . وهو لا يمكن الغاؤه . ان نية الشارى والمؤجر الخ هى يعينها فى جميع العصور وهى هذه النية التى جلاها القانون الرومانى . . . انه هذا التمييز العجيب ، هذا البصر الصافى فى التوفيق بين المبادئ المتعارضة ، تهديه قدرة لا يعترىها فتور أبدا ، على تبين العناصر المشتركة وهذه المهبة الفريدة فى وضع تعبير ظاهرى عن قانون ملازم لحالات معينة وهو القانون الذى اذا وجد ، فانه يأتى بالقاعدة التى تنسحب - مع تغيرات عملية كثيرة بطبيعة الحال - على جميع الحالات الأخرى من هذا النوع ، هى المظاهر التى تدين لها كتابات الشارحين الرومان بروعتها التى لا تضارع ، والعمل الذى حققوه بقوته التى لا تقنى» (١) . وفى نفس الوقت ، كان هؤلاء المفكرون يبعثون فى القضاء الرومانى بأفكار مستمدة من الفلسفة الاغريقية ، تلك التى قدر لها ، فى هذا الوسط الجديد ، أن تؤثر على فكر العهود اللاحقة ، الحلقى والتشريعى . وأعظم مثال يسترعى النظر هو تصور قانون الطبيعة (jus naturale or naturae) . ويرجع مصدره الى الرواقية ، المذهب الهليني الوحيد الذى أثار استجابة واسعة النطاق من العقل الرومانى العملى والذى كان لا يزال فى القرن الثانى مدرسة الاغريق الفلسفية التى لها المنزلة الأولى . وكان البيان المسئول أصلا عن ادماج هذا التصور ، فى تكوين القضاء الرومانى . وكان يشمل القواعد العامة للأخلاق ، التى تفيض من طبيعة الانسان ككائن عاقل ، بغض النظر عن السلالة أو الزمن كذلك التى تأمر بالاعتراف بأصرة القرابة واحترام التعهدات والتقسيم العدل للكسب أو الخسارة واستعلاء النية على الألفاظ التى عبرت عنها تعبيرا غير مكتمل . وعلى هذا ، فان الرقيق له بموجب قانون الطبيعة ، حقوق ينكرها عليه القانون المدنى وقانون الأمم jus gentium وسنرجع الى هذا التصور لقانون الطبيعة jus naturae فى فصل قادم (٢) . لقد كان له تاريخ طويل

(١) سوهم § ١٥ الصفحتان ٧٣ - ٧٤ .

(٢) راجع فصل ١١ § ١٥ وما يليه . كان من العسير تحديد الخط

الفاصل بين قانون الطبيعة (jus naturae) وقانون الأمم (jus gentium)

قد حل البيان المسألة بتعريف أولهما بأنه القانون الذى تشترك فيه جميع

الكائنات الحية وثانيهما بأنه ذاك الذى يشترك فيه كل البشر . ولم يأخذ

لا يفيب عن الأذهان وقدم مبدأ سيطر على الفكر الخلقى والسياسى فى أوربا الغربية خلال ألف وخمسمائة عام ونيف .

ب - الأدب

١٩ - ان أدب الحقبة يرتبط ارتباطا وثيقا بالحياة العامة دائمة التغير فى الدولة الرومانية .

(أ) أنجب آخر جيل فى الجمهورية شاعرين عظيمين . لقرطيس الذى عبر فى شعره من ستة مقاطع عن مبادئ أبيقور الفلسفية ، وكاتولوس الذى تضارع قصائده الغنائية قصائد برنز Burns أو هين Hene بينما يذكرنا فى مداه وشخصيته ببيرون (١) . وبين كتاب النشر ، يبرز اتمان بروزا ظاهرا . لقد كانت عبقرية قيصر فى الأدب تلى فقط عبقريته فى الحرب والسياسة . وكانت خطبه ورسائله ذائعة الصيت ، كنماذج عليا للأسلوب .

أحد من شاعرى ذلك العصر بهذا الرأى ، ولو أنه يظهر فى مجموعة جوستينيان المختارة Digest وفى كتابات القرون الوسطى . وجايوس ، وهو روماني خالص ويسبق عهده عظام الشارعيين الاغريق والاغريق الشرقيين ، هو دون سواء الذى يتعرف هوية واحدة لقانون الطبيعة وقانون الأمم وقد عرف الأخير بأنه « القانون الذى يخصه العقل الطبيعى بجميع البشر » وقد احتذى جوستينيان مثاله فى هذا . وتبين حالة الرقيق التى أشير إليها فى النص وجه الاختلاف . ان الحرب والرق كليهما يناقضان قانون الطبيعة الذى بمقتضاه يولد جميع الناس أحرارا ، وهما والعقود يصدران عن قانون الأمم . قابل « أنظمة » lib. i و Iit, ٢ و٣

Servitus autem est constitutio juris gentium, qua quis domino alieno contra naturam subiicitur

« ان الرق هو من وضع قانون الأمم ، بمقتضاه يصبح الرجل خاضعا لسيد غريب بما يناقض الطبيعة » . وكان jus gentium يتضمن jus inter gentes وهو أقرب ما وصلت إليه الأزمن القديمة للقانون الدولى راجع دائرة المعارف البريطانية المجلد ١١ فى موضوع القانون الرومانى ، الصفحتين ٥٦١ و٥٦٢ .

(١) عن « أبيقورية لقرطيس » راجع عليه فصل ٦ § ١٨ . لم ينل الا اليسير من التقدير فى الأزمن القدية ، الا من فرجل الذى يكشف فكره وشعره على السواء ، عن نفوذه . ويضعه كونتليان فى مصف شاعر من الطبقة الثالثة فى عهد أوغسطس وينحيه على أنه أتقى فى مجاله ولكنه عسير الفهم (Inst. Orat. ١٠ فصل ١ § ٨٧) ولقد ترك للقرن التاسع عشر تعرف عبقريته الشعرية .

وكتابه عن الحرب الغالية لا يبارى كسررد تاريخي عظيم ، كما يبعث اخفساء المؤلف لشخصه ، تأثرا فريدا بعمله العظيم الرائع (١) . ولكن أصدق ممثل للعصر كان شيشرون الخطيب والسياسي الجمهوري ، الذي كانت كتاباته النظرية - خطبه ورسائله وعجالاته عن الخطابة والفلسفة - يعترف بها كنماذج للغة اللاتينية بالغة أعلى ذروة في زمنه وفي كل زمن لاحق . واللاتيني الاتباعي (الكلاسيكي) هو اللاتيني كما كان يكتبه شيشرون . ولقد استخدمه شيشرون ليحوى صنفين عظيمين من الآراء - عظمة روما والمثل الأعلى للثقافة الانسانية . أما عن الأول فيمكننا أن نقفيس ألفاظ نيومن : « لقد أدرك شيشرون في جلاء مكانة غصو الشيوخ والسياسي الروماني و «منزلة الفخار» التي كانت لروما في كل السماحة والعظمة اللتين اتسمت بهما ، ولقد امتنع ما كان يعجب به وصار من خصاله . وكما أن مغامرات اسقفيون أو بومباي هي التعبير عن هذه العظمة في الأفعال ، كذلك كانت لغة شيشرون في التعبير عنها بالالفاظ . وكما أن أفعال الحاكم أو الجندي الروماني تمثل لنا ، بطريقة خاصة بها ، العظمة التي اختص بها سادة العالم فهكذا توردها خطب أو عجالات خطيبها مكتمل الثقافة الى خيالنا بما لا يمكن لكتابة أخسرى أن تفعل » .

وما كان لوي أو طاقيطس أو طرنس أو سنقا أو بلني أو كونتليان بالمتحدث عن المدينة الخالدة ، الكفيل بذلك . انهم يكتبون اللاتينية أما شيشرون فيكتب الرومانية (٢) . وقد كانت الخطابة منذ البداية الفن الذي يمارسه الرومان وله عندهم أعظم احترام . ومنذ زمن شيشرون فصاعدا أصبح الموضوع الرئيسي في الأدب وفي التعليم . وكانت قيمة الشعر والتاريخ ، والفلسفة وحتى العلم تنحصر في أنها عوامل للفصاحة . وكان مطمح الشباب القدير في ايطاليا والأقاليم أن يكون خطيبا . وكانت جميع دراساتهم في المدرسة وفي الجامعة تنظم كترويض لبلوغ هذه الغاية . واستمر تأثير شيشرون ، وهو يعمل عملا مباشرا ، على هذا النحو في جيله

(١) في تقدير كونتليان ، أنه لو أن قيصر تاح له وقت فراغ ، لتعادت خطابته مع خطابة شيشرون . وقد كانت تتميز بالقوة وتوخي القصد والحماسة ، الصفات التي كانت تنجلى في ادارته رحي الحرب (Inst. Orat ١ ، ١٠ . (١١٤) .

(٢) « فكرة جامعة » (محاضرة في الأدب) الصفحتان ٢٨١ و ٢٨٢ . ان معنى العبارة الأخيرة ، بطبيعة الحال ، ليس أن أسلوب شيشرون كان أسلوب الروماني النموذجي ولكنه يعبر تعبيرا بالغا عن فخر وجمالة الدولة الامبراطورية . وقد اتهمه بعض المعاصرين بأنه « متبجح وآسوي وامتغال بنير حق » (خطابة شيشرون ، طبعة ساندر Sandys ، المقدمة صفحة ٦٠) .

والأجيال المتعاقبة ، دون انقطاع خلال القرون الوسطى حتى الأزمنة الحديثة .
 وبينما قدر لشيثرون الجمهورى أن يلهم الثورة الفرنسية ، فان شيثرون ،
 الباحث فى طبيعة الانسان أثر تأثيرا عميقا فى ثقافة عصر النهضة . وقد
 ينعدم فى عادة كتاباته الفلسفية الابتكار وقوة التفكير ، ولكن شهرة شيثرون
 كأعظم رجال الأدب الذين عاشوا أبدا ترجع أكثر ما ترجع الى أنه وحيد
 فى شخصه الرجل المفكر ورجل الأعمال وفوق كل شيء الى أنه استوعب
 وعبر عن الروح الحضريّة والمعرفة بالطبيعة الانسانية وهو ما يّتميز بهما عصر
 المدنية الإغريقية الرومانية .

وبفضل المحافظة على رسائله ، فان لدينا معرفة به أفضل من معرفتنا
 بأية شخصية تاريخية أخرى فى الزمن القديم .

٢٠ - (٢) وكما أن الحرب مع قرطاجنة هيأت موضوعا لأنبوس وهيا
 غزو الغال موضوعا لقيصر - فهكذا كان لم شمل العالم المتحدين فى عهد
 أوغسطس ، معين الالهام الأساسى لكتاب عهد أوغسطس . ولما كان قد ربأ
 ازدهار هذا العهد فى كل مجال تقريبا فى الشعر والنثر على السواء ، فقد
 كان كما يدل اسمه ، عصرا للرعاية الأدبية المباشرة من جانب الامبراطور
 ووزراء دولته ، وانا لا نزال نتحدث فى شيء من السطحية عن عهود كأمثال
 عهدى لويس الرابع عشر أو آن Anne بأنها عهود « أوغسطية » فى الأدب
 الفرنسى والانجليزى . وكان حذب أوغسطس حرا وسخيا وعمل دون ريب
 كحافظ لرجال الأدب للاشادة بالامبراطورية وحاكمها . ولكن أهم مصدر
 للالهام كانت الامبراطورية نفسها - العصر الذهبى للقانون والسلام - الذى
 كان يظهر بأنه يضم البشرية المتمدنية كلها ، وأنه وضع حدا ، الى الأبد
 لفوضى واضطراب الحروب الأهلية . وقد صنف لوى ، وقد تملكه احساس
 بهذا العمل الجليل ، تاريخ روما من بداياته الأسطورية الى قمة البنيان الذى
 وصل اليه أوغسطس ، وحتى هوريس الذى كان جمهوريا فيما سبق ، تحول
 عن مباحج مزرعته السابنية الوداعة ليمجد عمل الامبراطور وواجب حب
 الوطن فى طائفة نبيلة من القصيد الغنائى (١) . ولكن القصيدة التى تظل الى
 الأبد التعبير الرائع عن بهاء وعظمة روما هى الانبياد لفرجل . ولقد ألهم بكل

(١) توجد القصائد الغنائية المشار اليها فى الكتاب الثالث Odes ٦-١ و
 Odes (١) ، ١٢ ، ٢١ ، ٣٥ ، ٣٧ ، (٣) ، ١٤ و (٤) ، ٢ ، ٤ - ٥ ، ١٤ ، ١٥
 و Carmen Seculare تعالج نفس الموضوع . وينصح الى القارىء الذى
 لا يلم بالآداب القديمة (الكلاسيكية) ألا يحمل نفسه مشقة قراءة لوى
 حتى ولو كان مترجما وهو كمؤرخ ، أقل مرتبة من الاغريق ومن قيصر
 وطايطس بين الرومان .

سطر تقريبا احساس بالمصير الالهى للمدينة الامبراطورية التى غدت فى ذلك الوقت سيدة العالم *nunc maxima rerum* . لقد رسم القدر أن يساق انياس Aeneas ليضرب فى الاتفاق برا وبحرا بعد سقوط طروادة الى أن أوجدت له عناية السماء مستقرا على التربة اللاتينية كجد لمؤسسى روما . (١) وكان التقى - الولاء الجنوى للالهة - هو الدافع لكل أعماله ، لهجرانه ديدو Dido ، مؤسسة قرطاجنة ، عدوة روما التاريخية ولرحلته فى العالم السفلى حيث شاهد أشكال عظماء الرومان الذين سيتمخض عنهم المستقبل ولتحالفه مع أمير لاتينى وتأسيسه مدينة لاتينية (٢) . ومن البداية الى النهاية يداخلنا الوعي بغرض الشاعر وهو أن يخبر عن مبلغ الجهد الذى بذل لوضع أساس سلالة روما (٣) .

٢١ - ان أدب ما بعد العصر الأوغسطى يختلف جدا فى نعمته . لم يكن الا للحظة أن أمكن لنبيع الخيال الخالق أن يجد الرضى فى واقعة قيام الامبراطورية وما كان باستطاعته أن يعقد اتفاقا دائما مع ما كان فى نهاية الأمر حكما استبداديا عسكريا . وانا نرى آيات التغيير بادية فى أوفيد آخر شاعر فى العهد الأوغسطى . ولما كان أوفيد رجل متعة لا يأبه لشيء ولا يقيم وزنا لمسئولية والمحبة للمجتمع وعالم العاصمة البهيج . فانه كان يملك مهارة عجيبة فى القريض والصنعة الشعرية ومما له دلالة أعظم ، فى وضع القصص الابداعى (الرومانتيكى) . ولم يكن أوفيد شاعرا من الطراز الأعلى ولكن واحدا من أحسن شعراء الطبقة الثانية فى الأدب (٤) ، وهو جدير بتنويه خاص فى هذا المقام لأن أحسن عمل له ، «التحول» "Metamorphoses"

(١) انياد : ١ ، ٣٢ (acti fati) - قابل ١ ، ٢٠٨ - ١٠ .

(٢) انياد : ١٢ ، ٨٣٨ - ٩ . كانت كهرياء الرومان تتميز تميز تقواهم (انياد : ٦ ، ٧٨١ ، ٨٢٣) . ولقد أدرك فرجل أن المزاج الرومانى كان مسالما وليس محاربا (انياد : ١ ، ٢٨٦ *Romanos verum dominos gentemque togatam* » ان الرومان ، أسياد العالم ، السلالة التى ترتدى ثوب السلام) .

(٣) انياد : ١ ، ٣٧ - قابل ١ ، ١ - ٣٠٠ ، ٦ ، ٧٦٩ - الى النهاية و ٧ ، ١ - ٢٨٥ و ٨ ، ٦٠٨ - الى النهاية و ١٢ ، ٧٩١ - ٨٤٢ وهى نصوص تتضمن فكرة روما الامبراطورية . وقد دفع فرجل الى كتابة مؤلفه الأسبق *Georgics* - « أعمال الزراعة » - أصلا ، حبه لحياة الريف ، ولكن أيضا رغبة أوغسطس الصريحة فى اجتذاب الأريستقراطية الرومانية للعناية بالزراعة .

(٤) لقد كان « شاعرا تعشق الشعر عشقا جارفا » ، اذا كنا لنقتبس تقدير الأستاذ جليبرت مري أوفيد فى « مقالات وخطابات » .

حيث تنعكس شخصيات الأساطير الإغريقية من خلال جو إبداعي غريب ، كان له تأثير عميق على العصور الوسطى وعلى عصر النهضة كليهما ، وكان دانتى يستمد منه معرفته بالأسطورة الإغريقية . وكان المرجع الكلاسيكى المحبوب لمونتيني Montaigne عالم الآداب القديمة . وأوسع من ذلك فى مداه هو ديبن العصور اللاحقة لسنقا القرطبي وزير نيرون ، الأول وضحيته ، والرجل الذى يجيء فى مقدمة أدباء زمنه .

ولقد وضع سننا مصنفاً هائلة وفى أسلوب زاهى الألوان ومؤلفة فى الطبيعة ، ولو أنه يخلو من قيمة علمية فإنه قوبل على أنه من الأسانيد ، فى العصور الوسطى ، وماسيه وهى تزخر بالثرثرة المضنية كان يضعها بن جنسون Ben Jonson فى مصاف مآسى كتاب الفاجعة الأنبيكية (١) . أما العجالات الأخلاقية ، من الناحية الأخرى ، فإنها فى الأسلوب والمادة على السواء أكثر استحقاتاً ، لما كان لها من صيت عظيم فى الزمن السابق . ولقد عاجلت عقائد المذهب الرواقى فى صورة أنيقة وجذابة وكانت تتميز بالاخلاص فى العقيدة . وبالبحيرة النافذة فى طبيعة البشر ، وبأدراك صاف للمبادئ الفلسفية . وكانت فى نظر علماء الدراسات القديمة فى القرن السادس عشر وحتى لديكارت فى القرن السابع عشر ، تعتبر القول الفصل فى موضوع الأخلاق ، ان هذا واحداً فقط من أمثلة كثيرة للقيمة التى لا تناسب فيها تلك التى كانت تضيفى فى القرون الوسطى وفى عصر النهضة على كتاب ما بعد العصر الأوغسطى الذين نقلوا تراث الزمن القديم الاتباعى النبيل . وفى الواقع ، لم يكن سننقا بالسياسى العظيم أو المفكر العظيم ، وكانت أهميته كرجل يقوم بالوساطة فى الثقافة تربو على مزاياه الحقيقية (٢) . وفى عطفه على ضعف الإنسان وترحه ، فإنه كان يضرب على

(١) مكيل : « الأدب اللاتينى » فى السطور التى كتبها بن جونسون على أول طبعة من الحجم الكبير لشكسبير ، نقرأ :
ولو أنك حصلت على القليل من اللاتينى ، والأقل من الأغرريقى
ولهذا فانى لا أبحث ، لتكريمك عن أسماء
ولكن استدعى اسخولس الراعد
ويوربييدس وسفوكلس ألينا
وباكوفيووس Pacuvius وأتيوس ، وذاك القرطبي ، الموتى ،
الى الحياة مرة أخرى ليسمعوا حذاءك الثقيل يخطو
ويهز مسرحاً .

(٢) ان كونتليان الذى كان يقدر مزاياه بينما يشعر بالأسى لتأثيرات أخطائه الضارة على الذوق المعاصر ، يختتم نقده بهذه العبارة : « لقد حقق الهدف الذى نصبه أمامه ومع هذا فإن طبعه كان يهينه لأغراض أسمى »
(Inst. Orat. : ١٠ ، ١ § ١٣١) .

نعمة غربية على تقاليد الرواقية الصادقة ، وكان يعلن مقدما عن المشروعات الحيرة التي نهض بها أباطرة القرن الثاني . وكان وجود هذه الروح الجديدة في كتابات سنقا ، هو الذي سبب قيام الأسطورة المسيحية عن صداقته الشخصية للقديس بولس . كذلك لا ينبغي أن نتجاهل الدور الذي قام به في العملية النسقية التي تغير بها صوغ اللاتينى الاتباعى الى ذلك الذى كان فى القرون الوسطى (١) . واعتبار آخر مماثل يرتبط باثنين آخرين من معاصريه وكلاهما لاقى المصير الذى لاقاه على يدى نيزون هما لوكان Lucan ابن عم سنقا الذى تغنى بالحروب الأهلية بشعر الملحمة وبمواطف جمهورية ، وترونيوس أربتر الذى وصلتنا قصته وهى تصف مغامرات معتق اغريقى فى ايطاليا ، وهى لا تعطينا صورة رائعة للأخلاق الاجتماعية فحسب ، بل ان الشذرات الفريدة الباقية منها تعد النموذج الوحيد للكلام الشعبى فى عهد الامبراطورية الباكرا (٢) .

(١) فى روايات سنقا الفاجعية تصلب وزهو ولكن لسنقا أهمية حقيقية فى « ديالوجاته ورسائله » لأنها تعرض اللاتينية فى مرحلة تكون فيها قد اكتسبت مرونة اللغات الحديثة التى انحدرت من اللاتينية الدارجة (الرومانسية) . ويستبين منه حرية مستحدثة فى استخدام المصادر والصفات كاسماء وفى التوسع فى استخدام حروف الجر التى يمكن أن تحمل فى دقة ، معناها فى الفرنسية . وكان مجددا فى اختراع الألفاظ أو على أية حال فى تقديم الكثير منها فى الكتابة المحترمة . وعلى سبيل المثال تلك الأصول اللاتينية للألفاظ

“Inspector”, “favourable”, “vulnerable”, temporary”

ومن العسير تقدير الى أى مدى كان حديث الأشخاص العاديين أو المثقفين يختلف عن أسلوب اللاتينية الذى فرضه على العالم تفوق شيشرون ، ولكن من الجلي أن سنقا أدخل الكثير من الألفاظ النافعة التى كانت حتى ذلك الحين تعتبر عامية ، فى النشر الجيد . ان الكسب الذى جلاه فى مرونة اللغة ملحوظ . ولو أنه يغلو فى الرغبة فى تحديد النقاط ، فانه يكتب فى أحسن ما يستطيع فى حرية ونهج طبيعى ، كما فى العصر الحديث تماما . وكما فى العصر الحديث أيضا تمكنه من وضع الجمل القصار وفضحه ضعفاته الصغيرة الخاصة به ومظهره الواثق بأن القارىء يعنى بالصغائر التى تتصل به . ويرجع اهمال كتاباته الى القرن التاسع عشر وهو ليس حقيقا به . لقد تعلم مونتاني استناذ المقالة الحديثة الكثير منه (عن هذه التذكرة ، أقر بانى مدين لعطفت السيد فرنون رندال (Mr. Vernon Rendall) .

(٢) لقد نشأت الرواية لتبقى . ويرجع أصلها الى الاغريق فى العهد الهليني ولكن كتابة « التهكم » Satura الرومانية اضافت عنصرا جديدا . وفى منتصف القرن الثانى كان أفولاييس Apuleius أهم كاتب روايات =

٢٢ - وتعرف الفترة الواقعة بين واسفاسيان وهديان بالعصر النضى فى الأدب اللاتينى . ومن بين طائفة من الكتاب ، يبرز ثلاثة ، لما كان لهم من نقوذا على الازمن اللاحقة وهم استاتىوس Statius وكونتليان اللذان عاشا فى عهددميطان ، وطاقيطس الذى عاش فى عهد ناروا وطريان . ان استاتىوس يلم به جميع قارئى ملحمة دانتي الكوميديا الالهية Divina Commedia على أنه الشاعر الذى صحبت روحه الحجاج فى المطهر وبعد رحيل فرجل ، سعد مع دانتي وبيترس Beatrice الى الفردوس ويرجع بعض ظفره بهذا التكريم الى صفته كشاعر ملحمة ، اقتفى ولو من مسافة بعيدة خطى فرجل . ولكن يرجع معظمه للأسطورة الغريبة التى سجلت تحوله للدين المسيحى . وكانت لكتابات كونتليان قيمة ذاتية عظيمة وأتت بتأثير أوسع نطاقا . وكان على مثال سنقا ، اسباني المولد ، وقام فى روما بمهنة التعليم والمحاماة . وكان يسهم الى أتم حد فى التحمس الرومانى للخطابة ونشر فى عام ٩٣ أهم أعماله «شغف الخطابة» Institutio Oratoria . وكان لاعادة الكشف عنه فى القرن السادس عشر ما ميز عصرنا فى تاريخ احياء الآداب القديمة وفى الاثنى عشر كتابا التى كان يضمها مع كثير من المواد الأخرى التى تتصل بدراسة الفصاحة . أدمجت مراجعة لكل نطاق الأدب الاغريقى والأدب اللاتينى لا يضارها شىء فى العصور القديمة فى سعة النظر والحكم التقديرى ، ومبحثان عن تعليم صفار الأطفال وأولئك الذين بلغوا سن النضوج . وكان هذان الاخيران هما اللذان أثارا بصفة خاصة ، عقول علماء القرن السادس عشر الذين وجهوا تفكيرنا جديا لمشاريع الاصلاح التعليمى . ولقد حملت العجالات عن التعليم فى جميع الأزمنة ، فى معظمها ، طابع الوسط من الجودة ، ولكن عجلة كونتليان هى استثناء مكرم . وفى أسلوب يتسم بالوقار والصقل ويتجرد من الحشو والادعاء على السواء وضع خطة مجملية للتعليم الذى يناسب رجل الامبراطورية الرومانى فى مبادئه تصلح لكل عصر (١) . وزيادة على

== نثرية ، لاتينى وأشهر أعماله قصة Cupid و Psyché فى الكتب ٤ - ٦ من Metamorphoses (أوالحمار الذهبى) . وقد قام ولتر باتر Walter Pater . بترجمة القصة فى « ماريوس الأبيفورى » وفى ترجمة لويب Loeb لافوليس وفى طبعة أندور لنج Andrew Lang لنسخة أدلنجتون Adlington وروبرت جريفيس Robert Graves فى Penguin Classics . راجع مكيل « الأدب اللاتينى » .

(١) لقد ترجم بتلر Butler كونتليان فى سلسلة لويب Loeb . يوجد عرض الأدب الكلاسيكى (الاتباعى) فى الكتاب العاشر فصل ١ ومعالجة موضوع التعليم فى الكتابين ١ و ١٢ . كان كونتليان يذهب الى أن مساوىء العصر الحلقية ترجع الى التنشئة الناقصة ومن بين أشياء كثيرة ، كان يلج فى اظهار قيمة الأدب فى التعليم وضرورة دراسة أحسن المؤلفين ، فى سن

هذا فان كونتليان وهو يحتذى بدقة مثال شيشرون ، حدد ، للخير أو للضر ، تصور الفصاحة الذي ظهر بمثل هذا الكبر ، فى التعليم الرومانى المتأخر وتعليم القرون الوسطى . والاسم الثالث الذى يستدعى التنويه ، ليس على الأكثر لعظمته التى لا يرقى اليها تساؤل ، ككاتب ولكن لما كان له من تأثير على حكم الخلف ، هو اسم طاقيطس ، وفى الجو المنسجم الوداع الذى ساد حكم طربان « وهو زمن تاح للناس فيه أن يفكروا فيما يشاءون وينطقوا بما يفكرون » ، كان يتطلع الى الوراء الى تلك الأيام التى كانت ترتعد فيها فرائص المجتمع تحت وقع شكوك طبريوس المشنومة ، ونزعات نيرون الجائحة . وعندما عملت جيوش المطالبين بالعرش المتنازعة تخريبا فى العالم الرومانى

الشباب وفيما يسببه حشو الذاكرة من ضرر وكذلك الكتب المدرسية التى يتخفف مستواها وعن الحاجة الى أفضل المدرسين ، للبدائين وأضرار العقوبة البدنية وقيمة الحركات الايقاعية الجيدة والتمارين الرياضية . وعن التعليم فى عهد الامبراطورية الباكر راجع هاتش Hatch « محاضرات هببرت Hibbert Lectures » (١٨٨٨) . وعن تأثير الآراء والعادات الاغريقية على الكنيسة المسيحية ، محاضرة : ٢ . ولقد كانت توجد مدارس ثانوية فى البلدان وجامعات فى أهم المدائن فى جميع أرجاء العالم الرومانى . وكانت تدفع الى الأساتذة رواتب عالية من المنح التى تصرفها الدولة وبالاعفاء من أثقال البلدان وهى ميزة كان نفعها يطرد ازيدادا . وكان لدى معلمى الجامعات أجازات ويختارهم : اما الامبراطور (وازن أستاذة رجيوس Regius عندنا) واما المجالس المحلية واما لجان خاصة ، من الناخبين . وكان المعلمون والطلاب يرتدون ملابس الاكاديمية . ويرجع تاريخ لفظى "professor" و "faculty" الى هذا العصر . وفى الواقع يكون المذهب الرومانى مرحلة فى تطور «الجامعة» وهى فترة انتقال تقع بين الاكاديمية الاغريقية وما أعقبها من أكاديميات اغريقية ، من جهة ، وجامعات العصور الوسطى والحديثة من الجهة الأخرى . وكانت فروع التعليم الأساسية فى عهد الامبراطورية (أ) النحو أى دراسة أساليب الحديث والأدب الاثنيق . (ب) الفصاحة أى دراسة وممارسة التعبير الأدبى والجدل ويشمل الانشاء المبتكرة وكذلك المنطق . وهو ماكان يصل بهم الى (ج) الفلسفة . ويقص ديوجنيس كزوستوم Diogenes Chrysostom كيف وجد فى مستعمرة اغريقية شمال الأوكسين أن كل واحد من السكان على التقريب كان يعرف الايذاة عن ظهر القلب . ولقد أصبحت عادة الفناء المحاضرات العامة ذات شأن عظيم أضافت (كما فعلت رعاية الدولة) الى تدهور الحياة العقلية بايجاد تعطش فى المحاضرين الى العرض الشعبى وحب استطلاع سطحى فى المستمعين . ووجود رغبة صادقة فى المعرفة ، أيضا ، توضحه قصة أونفيس Eunapius عن طالبين فى كلية ، لم يكن لهما الا رداء واحد فكان على أحدهما أن يلازم فراشه ، بينما كان الثانى يختلف الى المحاضرات .

عند موت نيرون ، وفى « الحوليات » و « التواريخ » ، وسم حكام القرن الأول سمة لا تمحى من تهكمه ومقته . وطاقيطس ، إذا لم يكن أعظم المؤرخين الرومان فإنه كان أعظم كاتب روماني للتاريخ وبقوة أسلوبه ، واتفقانه للنوادير والأراجيز وضروب الإيعاز واللمز ودهائه فى تحليل الدوافع فإنه وضع لمدى خمسة عشر قرنا قرار العالم المتمدنين على الامبراطورية الباكرة . انه أحد انتصارات البحث التاريخى الحديث ، انه قلب ذلك الحكم أو على الأقل عدله تعديلا عميقا . ولم يعد بعد طاقيطس أو تهكم وسخرية معاصره يونان Juvenal كاثنيين لهداية تقديرينا لروما الامبراطورية . ولكن ما وجهه من تهمة مروعة عن انحطاط الحياة والاخلاق الرومانية واحساسهما بالاصطدام بالواقع المرير بيرزان على نقض فاجسى ، مع الآمال التى حيا بها فرجل ، قبل ذلك بقرن مؤسس الامبراطورية ، كرسول عصر ذهبى .

٢٣ - وبين طاقيطس وأوغسطين لا توجد شخصية من الطراز الأول فى الأدب اللاتينى . ولقد وصلت الينا مجموعة عظيمة من الكتابات من القرون الثلاثة التى تقع بينهما معظمها من وضع مؤلفين مسيحيين ، وتباين فى أغراضها ويكز للعالم بآفة اللغة ، على سبيل المثال ، أن يتقصى التغير المنوه عنه آنفا ، من اللاتينى الاتباعى (الكلاسيكى) الى لاتينى القرون الوسطى . والقصيدة الجميلة Pervigilium Veneris فى استخدامهما الموشحة والمرجع (المصراع) تعلن مقدما عن شعر البروفانس فى بواكير العصور الوسطى .^(١) وفى بداية القرن الخامس ، وضع جيروم Jerome فى غرفة سجنه فى فلسطين الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس (Vulgate) التى كان لها تأثير على مستقبل اللغة يبلغ فى عمقه تقريبا ، ما كان لترجمة لوثر من أثر على اللغة الألمانية أو الترجمة المعتمدة فى ١٦١١ ، على اللغة الانجليزية ، وكان أوغسطين معاصر جيروم فى الغرب ، آخر مؤلف لاتينى ذى عبقورية أصيلة . ولما كان يقف على الحط الفاصل بين العصور القديمة والعصور الوسطى فإنه يمثل امتزاج الثقافة اليونانية الرومانية التى أصبحت الآن فى حشجة الانحلال وروح المسيحية المظفر . أما عن عمله كمفكر وعالم لاهوت ونفوذ الذى لا يمكن حصره ، كثقة ، على العالم المسيحى الغربى ، فإننا سنتحدث فى فصل قادم . وننوه هنا فقط باحترامه لروما والقانون الرومانى وبالحماس الذى استوعب فيه فكر وأدب الماضى . ولو أنه قرأ حكم السماء فى تدمير الأرق Alaric لروما ، لقد برر دعوى الامبراطورية الحققة فى حكم العالم على أنها الجائزة الجديرة بها فضيلة روما . ولقد استمدت أدلة الكتاب الثانى لدانتى de Monarchia من كتاب أوغسطين ، « مدينة الله » (Civitas Dei) .

(١) راجع مكيل ص ٢٤٣ - ٦ . واضع القصيدة غير معروف وتاريخها غير محقق ولو أنها دون نزاع تنتمى الى هذه الفترة المتوسطة .

وقد بقيت رابطة الأدب اللاتيني الوثيقة ، بحياء الدولة الامبراطورية محفوظة في هذه المقالة الأخيرة العظيمة لروما القديمة . وعند بويثيس وثير ثيودرق ملك القوط الغربيين ، في القرن السادس ، وهو كاتب جليل بالنسبة لتأثيره على علم القرون الوسطى أكثر من وجود ابتكار عقلي لديه ، وصل الأدب اللاتيني الى ختامه (١) .-

٢٤ - وفي الوقت نفسه ، في الأقاليم الشرقية احتفظت اللغة ، والأدب الاغريقيين على ما لهما من مركز . وقد خلق ذيوخ الهلينية في الغرب للمؤلفات الاغريقية جمهورا أعظم انتشارا وكان كل روماني مثقف في استطاعته أن يقرأها في مظانها الأصلية .

وقد وضع مؤلفون اغريق كتباً لا عد لها في التاريخ والسير والعلوم الطبيعية والرياضية والنقد الأدبي والفلسفة في القرن الذي يقع قبل وبعد ميلاد المسيح . ويرجع تاريخ مصنف جالن Galen في الطب وهو فاتحة عصر ، الى النصف الأخير من القرن الثاني . وسنعالج في الفصل التالي نهج الفكر الفلسفي وقيام علم اللاهوت المسيحي . ويجب أن نذكر اسم فلوطرخوس من خايرونيا الذي أحيا كمواطن وككاتب ، شيئاً من أفضل روح سادات أزمنا اليونان العظام . وقد كتب كثيراً وعن موضوعات عديدة من بينها علم الأخلاق والدين (٢) . ولكن يرجع صيته لدى الخلف على الأخص الى سيره التي لا تضارع لمشاهير اغريق ورومان الماضي ، ولم يكن فلوطرخوس مؤرخاً عظيماً ، ويرجع بعض السبب في كتابته الى النهوض بالمعرفة والبعض الآخر لتمحس عارم للخليقة النبيلة والهبل النبيل . وربما كان تأثير « سيره » على الأدب والتاريخ ، أوسع نطاقاً من تأثير أى مصنف وحد آخر من العصور القديمة الاتباعية . لقد هيأت لسكسبير مادة فاجعائه وقطعت شوطاً بعيداً في بعث المثالية الجمهورية في زعماء الثورة الفرنسية ، وهي لا تزال تكون أفضل تمهيد للصغار - والكبار ، للتاريخ الاغريقي والروماني ، ولجميع عشاق الشخصيات التاريخية ، تقدم بهجة قوية اليوم ، كما كانت تفعل منذ ألف وثمانمائة عام خلت .

(١) عن أوغسطين ، راجع ما يلي فصل ٩ و ٢٢ وعن بويثيس فصل ١٠ و ٨ وفصل ١١ و ٨ .

(٢) عن فلسفة الدين عند فلوطرخوس ، راجع ما يلي فصل ٩ و ٧ و ١٠ وفصل ١١ و ٨ .

« خاتمة »

٢٥ - كون التغيير من جمهورية الى امبراطورية أحد عوارض التغيير الأكثر تدرجاً وأبعد غوراً ، الذى كان يطرأ على فكر وحياة العالم الاغريقي الرومانى . لقد نهضت المدينة الهلينية وازدهرت وهى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بدولة - المدينة وسبب الغاؤها بحكم استبدادى عالمى ، ثورة فى نظرة الناس العقلية والروحية .

ومنذ ذلك الحين فصلت المثل العليا للحياة ، عن النشاط السياسى والتبمس الناس العزاء والعون ، اما فى التفكير الفلسفى واما فى دين خارق الطبيعة . ولقد رأينا عندما كنا نتحدث عن العالم الهلنى فى عهد خلفاء الاسكندر كيف أن المدرستين الفلسفتين اللتين كان لكليهما السيادة ، الرواقية والأبيقورية ادعتا أنهما تسدان هذا المطلب لروح الفرد ، بمعزل عن حياة الدولة العامة . وفى الدين ، برهنت جهود أوغسطس المحافظة ، لاعادة العبادات القومية العتيقة على عدم جذورها . ولم تستطع التغلب على المعتقدات الغربية الجدد التى ذاعت فى هذا العصر من العالم الشرقى الى روما . لقد وجدت ديانات ازيس وكوبيلا Cybele ومثرا Mithra أتباعاً كثيرين ، فى المدينة الامبراطورية وفى أرجاء الأقاليم ، بين أولئك الذين لم تكن لديهم قدرة أو ميل لمتابعة مسالك الميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة) الصارمة . تلك المسالك التى لم تيسر الا للحكيم وللقوى وهم قلة . وقد تحول آخرون ، وهم فى حاجة مماثلة للرضى الروحى صوب جهات أخرى وعلى الأخص صوب الشرق . وكان الشرق بدوره يتحول صوبهم . وسنتحدث فى الفصل التالى عن طبيعة ونتائج هذا الاتصال ، وقد دل كحافز خالق وكثير لرد الفعل ، على السواء . على أنه أعظم أزمة فى تاريخ البشر ، أهمية .

٢٦ - وجنبا الى جنب مع هذا المطلب للرضى الروحى من جانب الفرد ، تلحظ وعياً يطرز اذديادا بشعور انسانى عام ينتظم البشر . ولقد رأينا الافصح عنه ، فى تصور الشارعين لقانون الطبيعة وفى انعكاس العالمية الرواقية داخل مجال القانون ، وفى أساليب حب البشرية العام التى استنتها عناية الأباطرة العظام الأبوية فى القرن الثانى : طريان وهديان والانسان الانطونيان ، وأكثر من هذا روعة هو وجود هذا الاحساس بأخوة عامة فى قصيدة الملحمة التى وضعها فرجل . لقد تحدثنا عن الانيد كانبيل اثر تذكارى يبقى على الزمن لعظمة الامبراطورية الرومانية وهذه هى الفكرة التى عبر عنها تيسون فى أبياته عن فرجل :

والآن لم تعد ساحتك بعد تعج بالأصوات

وهوت كل قبة أرجوانية لقيصر

ولو أن محيطك يتلاطم بنغم

أيقاعى أبدا لروما الامبراطورية .

ولقد عبر شعراء لاتينيون آخرون ، ولو في شعر أقل روعة ، عن احساسهم بعظمة روما الامبراطورية . ولكن توجد خصيصة أخرى في شعر فرجل ليس لها نظير في الأدب السابق . انه يتطلع الى الحياة في صعة من العطف واحساس مرهف عام عميق ، وهذا ما يناقض مناقضة عجيبية الكبرياء العقلية والثقافة الشاملة اللتين كان يتميز بهما أدب وفلسفة سابقيه . ان فرجل في تعميم شعوره هو رسول عهد جديد في تاريخ البشر الروحي . وقد كانت الاجيال اللاحقة التي نشأت على العقيدة المسيحية تبرزه من بين كتاب ما قبل المسيحية ، على أنه روح بالطبيعة مسيحية *anima naturaliter Christiana* أي دون عسّون من وحي . ودون شك ، كانت أرجوزة الرعاة *Eclogue* الرابعة الشهيرة ، التي تنبأ فيها الشاعر بعودة العصر الذهبي بلغة توحى بطريقة تلفت النظر ، بنبؤات أشياء عن مسيا ، الواعز بهذا التبجيل نحو فرجل ، لروح القرون الوسطى الباكرة غير الناقدة ، (١) ودون شك كذلك كان الشاعر الامبراطوري يسهم في أعينهم ، في القداسة الخاصة التي كانت ترتبط بأنظمة الامبراطورية الرومانية . ولكن الشعور كان ينبغ من شيء أعمق من هذه الدوافع الأكثر وعياً . ان فرجل وحده من بين شعراء ما قبل المسيحية كانت تؤثر فيه « موسيقى الانسانية ، الحزينة الساكنة » ، في سعة من الرفض الانساني تعلن مقدما عن رسالة المسيحية الديمقراطية . وفي الكتاب السادس من الأنييد يطالع أبو روما في العالم السفلي ، الموتى يحتشدون على الشطوط بالقرب من « برك ققوتس *Cocytus* العميقة وغدير استوجيا *Stygia* » . « هنا اكتظ الجميع واندفعوا منهزمين الى الشاطئ أمهات ورجال وأبطال جسورون ، موتى انقطعتم أسبابهم بالحياة وغلمان وبنات لم يتزوجن وأطفال وضعوا وهم صفار على النعش امام أعين والديهم ، جموع حفل كأوراق تهوى متساقطة في الغابات في أول بواكير صقيع الحريف أو الطيور تهبط أسرابها صوب الأرض من الخليج العميق عندما يقتلعهم قر السنة من فوق البحار ، ويسوقهم الى أراض تغمرها الضحوة . ولقد وقفوا يتوسلون ليتاح لهم أول عبور ، وبسطوا أيديا منفعة الى الشاطئ الآخر ، (٢) . ويمكننا أن نقتفى رغبة فرجل في الحياة فيما يلي القبر ، وهي أكثر دنوا من روح الرجاء المسيحي عن أي قول نطق به الفلاسفة الاغريق . انه لم يكن مجرد اخلاص جمالي لشاعر نحو شاعر ، او مجرد صدى تقليد شعبي ذلك الذي حدا بدانتى لأن يلتمس هداية فرجل عبر الجحيم والمظهر ، الى عتبة الفردوس المسيحي .

(١) راجع ما سبق صفحة ٦٦ تذكرة ١ . كان الكتاب السادس من الأنييد *Aeneid* السبب في أن يعتبر فرجل أيضا ثقة فيما يتعلق بعالم ما وراء القبر .

(١) *Aen.* ٦ : ٣٠٥ - ١٤ (ترجمة مكمل)

٢٧ - والعصور الوسطى وهي فوية في نزعة الاعتقاد بالحق الموحى به ، جسرت على أن تفسر تاريخ الامبراطورية الرومانية في ضوء الحطة الإلهية حكم ينتظم العالم . ولقد راوا في عمل يوليوس واوعسطس كما في قصة الشعب العبرى المختار *praeparatio evangelica* .

ومن الجهة الأخرى فان المؤرخين المحدثين قد رضوا بقصر بحثهم وحكمهم على نتائجها الفعلية على سعادة البشرية ومدنيتها . واذا ما سألنا بهذه الروح ماذا كان يعنى توطيد المذهب الامبراطورى للعالم الرومانى ، فيجب ألا يكون اعتمادنا فيما نصل اليه من نتائج على المؤلفات التاريخية الأدبية التى تعبر عن عداوة أصحاب المثل العليا الجمهورية ، الطبيعية أكثر من اعتمادنا على الأدلة عن نتائج النظام على الملايين الصامتة الذين كان صالحهم الشأن الأول لدى الحكومة الامبراطورية . انه فى تنظيم الضرائب تنظيما عادلا ، وفى تطبيق القانون دون محاباة ، وفى تأسيس المدن والأعمال العامة ، وفى نهوض التجارة دون عائق ، وفى توسيع حقوق المواطنين والحكومة الذاتية المحلية مما أفسح المجال ، لأول مرة لآمال عراض فى الرقى لجميع الأحرار ، وفوق كل شيء فى الدفاع الفعال عن الحدود والاحتفاظ بسلام عالمى ، أن طبيعة المذهب الامبراطورى الحقنة تتكشف . ان المؤرخين العظميين اللذين « عنينا بشرح روما للعالم الحديث » يظهران اتفاقا فى حكمهما ، يسترعى الببال . وقد لخص جيون وهو يكتب فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر نظريته الشاملة على دولة العالم الرومانى فى القرن الثانى بعد الميلاد فى هذه الألفاظ التى يلم بها الناس تمام الامام . « لو أن امرء طلب اليه أن يحدد حقبة فى تاريخ العالم ، كان الجنس البشرى فى خلالها فى أعظم حالة من السعادة والرخاء فانه دون تردد كان ليذكر تلك التى وقعت بين موت دميطيان الى اعتلاء كومودس Commodus^(١) العرش . وكان يحكم رقعة الامبراطورية الرومانية الفسيحة سلطة مطلقة تسير على هدى الفضيلة والحكمة . وكانت تكبح جماح الجيوش يد رفيقة قوية لأربعة أباطرة متعاقبين ، استرعت خصالهم وسلطتهم احترامما يجيء عفوا . وقد حافظ على شكول الإدارة المدنية محافظة دقيقة ، ناروا وطريان وهديبان والأنطونيون الذين كانوا يبتهجون برأى صورة الحسرية ويسرون بأن يعتبروا أنفسهم خدام القوانين المستولين » (٢) .

وقد صنف مؤلف جيون أصلا من سجلات أدبية . ومنذ أن وضع مصنفة ، كسف تقدم البحث التاريخى عن مقدار عظيم متباين من الكتابات (٣)

(١) ٩٦ - ١٨٠ ميلادية

(٢) « التدهور والسقوط » . فصل ٣

(٣) وقد استخدم جيون أيضا السجلات التى جمعتها « أكاديمية

النقوش الفرنسية "Académie des Inscriptions" .

المعاصرة . وبعد قرن من نشر «التدهور والسقوط Decline and Fall جمع ثيودور ممسن Theodor Mommsen احصاءا شاملا لهذه المواد الجدد فى كتابه عن الأقاليم الرومانية فى عهد الامبراطورية . وحكمه ، ولو أنه أكثر حذرا فى تعبيره ، يحمل نفس المعنى الذى انطوى عليه حكم جيون .

« وحتى الآن ، توجد أقاليم متنوعة فى الشرق ، كما فى الغرب ، تبلغ الحقبه الامبراطورية بالنسبة لها الذروة فى الحكم الصالح ، وهو متواضع فى ذاته ، ولكن مع هذا لم يتح الوصول اليه من قبل أو من بعد . ولو أن ملاكا من لدن الرب ، كان ليقيم الميزان بما اذا كانت الممتلكات التى كان يحكمها ساورس انطونينس Severus Antoninus كانت تحكم فى ذكاء أعظم وانسانية أعظم فى ذلك الوقت ، أو فى زمننا الحاضر وعما اذا كانت المدنية والرخاء القومى على وجه عام قد تقدمتا منذ ذلك الحين أو تأخرتا ، فانه من المشكوك فيه جدا أن يجىء القرار فى صالح الحاضر » (١) .

الى أى مدى يصدق هذا الحكم ؟ يجب أن تواجه المسألة اذا كنا لنقيس قدر عمل روما فى التاريخ أو القوات الجدد التى اقتحمت سيادتها وامستولت على ميراثها . ويجب ألا ندع بصرنا يعمييه عظم قوتها واستتطالة زمنها ، أو ننسى أن حكم التاريخ يصدر دائما على نوع العمل الجليل أكثر مما يكون على كنه ، وانا اذا وجهنا عقولنا الى هذا ، فانه يشق علينا أن نقبل أقوال جيون وممسن دون تحفظ . ان حكمهما صادق ، اذا كنا نعنى بالسبعادة الراحة المادية واذا اعتبرنا الصالح الاقتصادى واقامة النظام الاجتماعى معايرنا للمدنية . انه من السهل أن نفهم كيف أنه بعد قرون من الصراع العام والألم الخاص ، كان مجيء سلام عالمى تحت حوى القياصرة يظهر لشعراء روما فى عهد أوغسطس كأنه فجر عصر ذهبي (٢) . ان الدولة الرومانية أدرت المثل الأعلى للحكومة ابوية فى درجة لا يقدم التاريخ مثيلا لها الا حكم بريطانيا الهند ومصر (٣) حتى الأزمن الحديثه . واذا كانت الحكومة الابوية هى منتهى ما تصل اليه المدنية ، فان سقوط تلك الامبراطورية فى القرون التى تعاقبت كان أكثر الحوادث مجلبة للحزن فى حوليات البشر . لقد كان الشعراء يحملون بأن روما ستبقى أبد الدهر وحتى حقيقة التدهور والسقوط القاسية ، لم تجد نفعا فى تبديد الحدة . ومع هذا ففي ساعة قيامها كان يوجد داخل الامبراطورية ذلك الذى كان ينبىء بانحلالها . ما كان يمكن

(١) أقاليم الامبراطورية الرومانية - تمهيد

(٢) مثل Aen. : ١ ، ٢٩٥ و ٦ ، ٧٩١ - ٢

(٣) هذا رأى المؤلف نورده وان كنا كمصريين لا نقره فيما ذهب اليه

من مثالية حكم الانجليز لبلادنا (المترجم) .

لحكومة استبدادية بيروقراطية ، مع كل ما فيها من أمانة واستنارة أن تشير-
استجابة حية من الشعوب المحكومة التي كانت تحصد منافعها . ان روح
الانسان تصبو ليس الى الراحة ولكن الى الحرية وليس للاستقرار الاقتصادي
أو الادارة العادلة ولكن الى الحق في أن تجدد السبيل الى خلاصها ملاقية
في ذلك ما لا نهاية له من نصب ورزايا . ورغبتها في كل العصور ليس
في السعادة ولكن في الحياة . وفي تكوين الحكومة الرومانية الهائل ، كان
الناس يدركون فقط الحمل الساحق وانتظروا في جمود أخرس ، ساعة
انقاذهم ، لقد كانوا دمي في يد القدر المتعالى الذى لا يتسامح ، الذى كان يجثم
على حظوظ العالم (١) . وكانت روما عاجزة مع كل ما لها من جلال قوة ،
على أن تعيد الانتعاش للشعوب التي دانت لحكمها . لم تقدم لهم أية « دعوة » ،
في استطاعتها أن تحرك قلوب الناس للقيام بجهد من جانبهم ، فيه أمل
صالح لتحقيق مظفر كالذى تقدمه المسيحية (أو الشيعية) الى العالم
الحديث (٢) . ان ينابيع الحياة كانت في مكان آخر ، في جحافل التيوتون
الجامعة التي كانت الآن تعمل في الحدود ضربا وفي العقيدة الجديدة التي كان
مولدها في عهد رياسة أوغسطس بين شعب محتقر من الشرق و قدر لها قبل
مضى كبير زمن أن تهز بنيان المدنية الاغريقية من أساسها هزا .

تم الجزء الأول

(١) وازن قول نابوليون « ان السياسة هي القدر » . عن امستحالة
عاطفة ولاء فعالة ، نحو الامبراطورية راجع ريفس : « أوربا العصور الوسطى »
الصفحتين ١٩ و ٢٠ .

(٢) راجع بيفان في « العصر الهليني » (الصفحات ٩٨ وما يليها) ،
عن عدم وجود « دعاوى » في عصره وكيف أن المسيحية قدمت « دعوة » .

تصويب			الصفحة
الصواب	السطر		
	hand	٢٦	١٠٠
	بيخو	١ - هامش (١)	٣٥
Nineveh		١ - هامش (٣)	٤٢
	وأخضع	٣١	٤٨
	sont	١٣	٥١
	لعبقرية	٢٨	٥٧
	موادا	٢٩	٥٧
	حتى ، بعد ككاثرة	٢١	٧٠
	باتحاد	٢٢	١٤٣
	حقيقتها	٩	١٧١
	هذا السطر يجيء بعد الذى يليه	٥ - هامش (٢)	١٧٦
Hellenistic		٤ - هامش (٢)	٢١٨
	هذين العليين	١٨	٢٣٣
	ونفس	١٧	٢٤٧
	الأسر.	٧	٢٥١
	٢ - قيام الجمهورية	١٢	٢٥٢
Digest		٤ - هامش (١)	٢٨٠
gentium		٣ - هامش (٢)	٢٨٢
	تكييف	١٣	٢٨٣
	الأرب	٤	٢٨٩
	الا	٨	٢٩٤
	كنفسى	٩ - هامش (١)	٢٩٦
	طريان	٢٢	٣١٣
	ابرية	٢ - هامش (١)	٣١٥
	موادا	٥ - هامش (١)	٣٢٠
	الآداب	٤	٣٢٧

موضوعات الجزء الاول

٩	المقدمة
١٣	تذكرة

الفصل الاول

مقدمة

خلف تراث المدنية القديمة ثلاثة شعوب ، العبريون والاعريق والرومان عالم البحر المتوسط كمجال لنشاطهم فى التجارة والمدنية الاسرات السامية والهندية - اورية . اضافة كل من هذه الشعوب الثلاثة الهامة لمدنية العالم . تاريخها سجل تغير مستمر وتعديل تراثها فى عملية وصوله للعالم الحديث ، النسقية . تبرير المنهج الذى اتخذ فى هذا الكتاب ١٥

الفصل الثانى

مدنيات الشرق الاولى

٣٠	١ - تمهيد : منهاج الفصل
	٢ - مصر : انتظام المدنية المصرية . اعادة كشف السجلات المصرية .
	عصور التاريخ المصرى (ما قبل الاسرات ، الدولة القديمة ، الدولة الوسطى ، الامبراطورية الحديثة ، نهضة العهد الصاوى) الى الفتح الفارسى .
٣٠	الخصيصة العامة للثقافة المصرية
	٣ - بابل واشور . سهل كلديا . اول أسرة بابلية وقوانين حمورابى الامبراطورية الاشورية . نهضة بابل الى الفتح الفارسى . الخصيصة العامة للثقافة البابلية
٣٨	٤ - الحيثيون والساميون الغربيون : الشعوب السامية بين بلاد ما بين النهرين والبحر المتوسط . الحيثيون . الفينيقيون . العبرانيون فى كنعان
٤٥	٥ - كريت . اعادة كشف الثقافة الايجية الاولى . العصور المتعاقبة والخصيصة العامة للمدنية المانوية فى كريت . دولة ليديا والفتح الفارسى لآسيا الصغرى
٤٩	٦ - امبراطورية فارس : الارومة الايرانية وخصيصة مدنيتهما ، الفتوحات الفارسية ونظام الحكومة . تدهور وسقوط الامبراطورية الفارسية
٥٣	٧ - الخاتمة . اهمية المدنيات المذكورة آنفا لتاريخ العالم
٥٧	حداول تاريخية
٥٩	

الفصل الثالث

ديانة العبريين

	١ - تقديم - ايضاح المسألة ، دين العبريين فى أزمنة ما قبل النبوة
٦٥	مظاهر ذلك الدين الدائمة خلال التاريخ

- ٢ - نبوة ما قبل السبي . قيام النبوة عند العبريين ، عاموس والتهديد الاشوري . الانبياء وطبيعة رسالتهم ، فحواها الخلقى والدينى ، اشعياء والتهديد الاشورى . اصلاحات يشوع ومدونه قوانين التشبية ، ارميا والفتح البابلى ٧١
- ٣ - السبي وما بعده : نتائج السبي على حياة العبريين الروحية كما توضحها نبوءة حزقيال ، العودة فى عهد عزرا ومدونة القوانين الكهنوتية ، الدين الشخصى فى المجتمع المعاد . موضوع الألم والعدالة الالهية ، الرجاء فى الملكوت فى ا زمن السبي وما بعد السبي ، قيام الايمان فى بعث ٨٣
- ٤ - الخاتمة : قوة وضعف الدين العبرى ، اليهودية والمسيحية ١٠١
تذكرة اضافية : : عن التاريخ العبرى بعد السبي ١٠٥

الفصل الرابع

قيام الهلينة

- ١ - مقدمة : الغزوات الشمالية وأصول الشعب الاغريقى ١١٠
- ٢ - دولة - المدينة الهلينية : دولة المدينة والوحدة الهلينية . أهمية دولة - المدينة (١) فى تاريخ المدينة (ب) فى الحياة الاغريقية (ج) فى النظرية الاغريقية عن الحياة ، الفردية ، والتشيع الحزبى ... ١١١
- ٣ - توسع اليونان : المغامرات البحرية فى اليونان الباكورة ، عصر الاستعمار ونتاجه على الحياة العامة ١٢٠
- ٤ - بواكير أدب الشعر : قصائد هومر ، الشعر الغنائى وشعر الملحمة ، شعر الامثال وتطور الآراء الخلقية - السفسوسونية والهبرس ... ١٢٣
- ٥ - مولد الفلسفة : خلق مبتكر للعبقرية الاغريقية ، الخصائص العامة للفكر الايونى الباكر ، تطور الفلسفة فى الشرق والغرب **هيرقليطس** والفيشاغوريون وفارمنيدس وأصحاب المذهب النرى ، مسألة الفوسس فى الطبيعة وفى السلوك ، العلم والدين ، النهضة الدينية فى القرن السادس وأثرها على الفلسفة ١٣٣
- ٦ - الخاتمة : المنطق الملازم للعبقرية الاغريقية ١٤٥

الفصل الخامس

عظمة أثينا

- ١ - دولة أثينا : أثينا كمركز للثقافة الهلينية ، تطور الدولة الاثينية فى القرن السادس - المقابلة بين أثينا واصبارطة ، الحروب الفارسية ومغزاهما لليونان وأثينا ، حرب التحرير والامبراطورية الاثينية ، الحياة العامة فى أثينا فى عهد بركليس ، الحرب البلوبونيسية وسقوط الامبراطورية الاثينية ١٤٩
- ٢ - الفن والادب فى أثينا القرن الخامس ، فن العمارة والنحت ، البارثنون . خصيصة الفاجعة الاتيكية وتمثيلها . ارتباطها بالدين والأخلاق كما توضحه تراجيديات اسخولس وهفوكلس وبوريبيدس ،

١٥٦	هيرودوت وثقوديدس
٣	السفسطائيون وسقراط ، امتنارة القرن الخامس ،
١٧٤	الفلسفة ومنهج ، محاكمته وموته
١٨٦	٤ - أفلاطون : كتابات أفلاطون وتصوره للفلسفة ، مسائلنا المعرفة
١٩٩	الموجود يجب عليهما في حدود الفروق بين عالمي الفكر والحس ، ومبدأ الصور - صورة الخير في فلسفة أفلاطون ، مبدأ أنلاطون عن النفس
٢٠٢	وحياة العقل ، تصوره للمدينة الكاملة ، الاكاديمية الأفلاطونية وعمنها، النفوذ الدائم لفلسفة أفلاطون
٢٠٢	تذكرة اضافية : عن مركز النساء
٢٠٢	عن الرق

الفصل السادس

الثقافة الاغريقية - المقلونية

٢٠٧	١ - الاسكندر ، نهوض مقدونيا ، مشروع حملة صليبية اغريقية ضد فارس ، فتح الاسكندر للامبراطورية الفارسية ، مرامي الاسكندر وسياسته ، هليتيته ، امراطوريته في عهد خلفائه الاغريق - المقدونيين
٢١٨	٢ - الثقافة الهلنستية : المظاهر العامة للعصر الهلنستي : الأدب والعلوم - الاسكندرية وغيرها من مراكز النقانة - الفن الهلنستي
٢٣٤	٣ - عصر ارستطاليس : مركز ارستطاليس في تاريخ الفكر الاغريقي مدى وخصيصة كتاباته ، مجمل عن (ا) مبدؤه عن الوجود (ب) مبدؤه عن الخير الأعظم للانسان ، منطق ارستطاليس وتاريخه - نفوذ على العصور اللاحقة
٢٣٤	٤ - الرواقيون والابيقوريون : الفكر الخلقى الهليني كمعبر عن الفكر السياسي والاجتماعي الذي اعتراه تغير ، الرواقيّة كاستجيب لظلم الفرد ، المثل الأعلى الأبيقوري
٢٣٤	٥ - الخاتمة : أهمية العصر ٧٥٠ - ٣٠٠ ق.م. في تاريخ العالم

الفصل السابع

الجمهورية الرومانية

٢٥٢	١ - أسس الدولة الرومانية : بداءات روما ، خصيصة السلالة الرومانية ، الأسرة الرومانية ، الأنظمة السياسية من العهد الروماني
٢٥٢	٢ - قيام الجمهورية ، نظام الجمهورية وتاريخها المبكر. الألواح الاثني عشر وقيام القانون العام ، صلاحية الأنظمة الرومانية العسقية - المقابلة بينها وبين أنظمة انجلترا
٢٦٢	٣ - توسع روما :

- (١) فنيج ايمانيا ، سياسة روما في الحرب ، خصيصة الحكومة
 الرومانية في ايطاليا ٢٦٣
- (ب) الحروب مع فرطاجنة ٢٦٧
- (ج) فتح الشرف ، بدءات اميراطورية اقليمية ٢٦٨
- ٥ - روما في العرون الثاني
- (١) روما والهلينية ، نتائج الحروب العظيمة الاقتصادية والاجتماعية ، الأثر الهليني على الادب الروماني الباكر ،
 الهلينية والحياة الرومانية والفكر الروماني ٢٧١
- (ب) الدولة الرومانية في القرن الثاني ، سيادة مجلس الشيوخ ،
 مذهب الحكومة الاقليمية ، تطور القانون والمراسيم
 البريتورية ، قانون الأمم ٢٧٦
- ٦ - الخاتمة : علامات النورة القادمة ٢٨٣

الفصل الثامن

الامبراطورية الرومانية

- ١ - أنظمة الامبراطورية :
- (١) سقوط الجمهورية ، مغزاه التاريخي ، وجوه الأزمة ،
 المتعاقبة (١) الاعادة التي قام بها سلا (ب) عصرشيشرون
 وقيصر ٢٨٧
- (ب) يوليوس قيصر ، سيادته وعمله ، حماية الحدود والمسألة
 الشرقية ، مقتل قيصر ٢٩٣
- (ج) أوغسطس ، نظرية وسلطات الزعامة ، سياسة أوغسطس
 فيما يتعلق بايطاليا والأقاليم ، الأخلاق والدين ، الحدود
 ٢ - الامبراطورية في القرون الثلاثة الأوائل ، مظاهر العصر العمامة ،
 الامبراطور هديران ، نمو الحكومة البيروقراطية ، الحياة الحضرية في
 عهد الامبراطورية ، مسألة الدفاع عن الحدود ، أمثلة للحياة الاقليمية
 والحكومة في الغرب (١) اسبانيا (ب) الغال «ج» بريطانيا... .. ٣٠١
- ٣ - القانون والآدب ٣١٩
- (١) تطور القانون والقضاء - المرصوم الدائم ، الدستور
 الامبراطوري ، الشارعون العظام ، أمثلة عن الروح الجديدة
 في القانون الروماني
- (ب) الآدب في عصر شيشرون ، العصر الأوغسطي ، أوفيد
 وسيتقا ، العصر الفضي ، خاتمة الآدب اللاتيني ، الآدب
 الاغريقي في عهد الامبراطورية الباكرة ٣٢٣
- ٤ - الخاتمة : التغيرات في الحياة والفكر أثناء هذه القرون ، فرجيل
 كرسول العهد الجديد ، الحكومة الامبراطورية والصالح الانساني ٣٣٣

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٨٨٦٥

I.S.B.N 977 - 01 - 6168 - 3



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود
ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه... هكذا تواصل مكتبة الأسرة
عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل -
للشاب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع
نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم
يخطو ويكبر ويتعاضم ومازالت أحلام بكتاب لكل مواطن ومكتبة
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن
مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفضن المبدع
والحضارة المتجددة.

موزان مبارك



٣٠٠ قرش

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩